الان مورهيد



تعريب

دكتور ابراهيم عباس ابو الريش

الطبعة الاولى

١٩٦٩

الناشر

دار الثقافة - بيروت

مكتبة النهضة السودانية - الخرطوم

النيل الازرق

الطبعة الاولى

١٩٦٩

ألان مورهيد



تعريب
دكتور ابراهيم عباس أبو الريش



الناشر
دار الثقافة بيروت
مكتبة النهضة السودانية - الخرطوم

الإهداء

إلى سدني بيرنستين

ملحوظـــة

ان هذا الكتاب مع زميله «**النيل الابيض**» الذي سبق نشره ، يشكلان دراسة متكاملة لتاريخ نهر النيل في القرن التاسع عشر . وقد حرصت على ان يتمكن القارىء من قراءة كل من الكتابين مستقلا عـن الآخر ، رغم انهما متممان لبعضهما البعض . فكتاب النيل الابيض يعالج الاحداث ما بـين سنتي ١٨٥٦ و ١٩٠٠ أما هنا فقـد رجعت نصف قرن الى الوراء ، وابتدأت من سنة ١٧٩٨ وكرّست جهدي على الاحداث التي طرأت على النيـل الازرق ــ وعلى النهـر الرئيسي ــ الذي ينحدر مـن الهضبة الاثيوبية ، مجتازا السودان ومصر ، في طريقه الى البحر .

المؤلف

مقدمة المترجم

يسعدني ان اتقدم القارىء العربي بهذا التعريب لكتاب «النيل الازرق» لمؤلفه المستر «الان مورهيد» . وأملي ان يجد فيه من المتعة والفائدة ما وجدته انا شخصيا من قراءة الاصل الانجليزي ، فهذا الاصل عمل ادبي رائع ومنهل ثقافي ممتع ومجموعة من الحقائق التاريخية التي لا غنى عنها لاي رجل مثقف في الشرق العربي ، والتي صيغت في قالب قصصي بلغ حد الابداع والروعة . وهو ـ كما يقول مؤلفه جزء مكمل لكتابه الاول «النيل الابيض» ، ورغم انه قد ظهر قبل هذا الاخير ، الا انه في الواقع يعالج احداثا تسبق الاحداث التي يعالجها توأمه «النيل الابيض» بفترة زمنية تمتد الى ما يقرب من القرن . فمحاولة استكشاف النيل الابيض واكتشاف منابعه لم يبدأ فيها الا منذ قرن مضى ، بينما نجد ان محاولة استكشاف النيل الازرق قد بدات منذ اكثر من قرنين . الا انه عندما بدىء في استكشاف النيل الازرق ، لم يكن التكوين النهري النيل معروفا ـ ولا حتى على وجه التقريب ـ فالمحاولة قد بدات على اساس استكشاف النيل ومنابعه ، ولم يعرف ان هناك نهرا يقال له النيل الابيض الا بعد ان تم استكشاف النيل الازرق أو كاد . وبينما نجد أن "جيمز بروس» قد وصل الى منابع النيل الازرق وتتبع مجراه (على الاقل ما بين سنار والحلفايا) في سنة ١٧٧٠ ، نرى ان محاولة استكشاف النيل الابيض لم يبدأ فيها الا بعد الغزو التركي للسودان بما يقرب من الاربعين سنة . ولذلك فانه من الانسب للقارىء ان يقرأ كتاب النيل الازرق قبل توامه « النيل الابيض » الذي رأى النور قبله ، وهذا هو ما دفعني لترجمته اولا .

وكتاب النيل الازرق هذا ، له اهمية خاصة فيما يتعلق بالجزء الشمالي لوادي النيل ـ مصر والسودان وإثيوبيا ـ فهو يشكل دراسة مستفيضة لهذه الاقطار الثلاثة منذ ان اتجهت اليها انظار الاستعمار الغربي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، والى ما بعد منتصف

القرن التاسع عشر . وهو يتنقل بالقارىء مـــن شمال انجلترا ، حيث ولد جيمز بروس «اول من يهتم هذا الكتاب بمتابعة رحلته لاكتشاف منابع النيل الازرق» الى لندن فجنوب فرنسا ثم ننفذ الى تونس لنتابع رحلتنا الطويلة مع بروس عبر شمال افريقيا الى مصر ، ثم عبر البحر الاحمر الى مصوع فالحبشة لنستكشف بحيرة تانا ومنبع ابّاي الصغير ، ثم ننفذ الى السودان عن طريق المتمة لنلتقي بالنيل الازرق عند مدينة سنار عاصمة «السلطنة الزرقا» ، ونسير معه الى ان يلتقي بالنيل الابيض، ثم نتابع النيل المشترك الى بربر ، حيث نفارقه ونواصل رحلتنا عبر صحراء العتمور لنلتقي به مرة اخرى عند مدينة اسوان ونتتبع مجراه حتى القاهرة فالاسكندرية . ثم نعود مع بروس الى فرنسا فايطاليـــا فانجلترا ، وبعد فترة عدة سنوات نرافق بونابارت في غزوه لمصر واحتلاله لها ، ثم نعود الى السودان مع جيش اسماعيل ونرافقه في حملته الطويلة على النيل ما بين أسوان والحدود الحبشية . وفي هذه الاثناء نعيش مـــع المآسي والمذابح التي حدثت في مصر اولا على عهد نابليون وعلى عهد محمد علي ، ثم تلك التي حدثت بالسودان على عهد اسماعيل وصهره محمد بك الدفتردار . وبعد ان نقضي فترة ممتعة مع بيكر وهو يتنقل بين روافد النيل الازرق ، نعود لنشهد فترة اخرى من المآسي على يد البريطانيين عند غزوهم للحبشة تحت قيادة «اللورد نابير» .

والبراعة الادبية التي انتهجها المؤلف في عرضه لما عاصر استكشاف النيل الازرق من احداث تاريخية صاخبة ، تشعرك بانك تعيش فعلا في تلك الاحداث وما لابسها من مغامرات ومع تلك الشخصيات وما صادفوه من مخاطر وما اصابوه من توفيق أو ما اصابهم من فشل ، كما تشعرك بانك تشاركهم حروبهم ونضالهم ، مكرهم ودهاءهم ، عظمتهم وجاههم ، تطلعهم ورجاءهم وضعتهم او استعلاءهم . وهو لا يسرد الاحداث التاريخية في تسلسل ممل ممجوج ، بل يتنقل بك مع كل مستكشف أو غاز أو سائح، مع هواة الصيد وهواة الآثار ورجال العلم والمعرفـــة ، مع رجال وهبـــوا انفسهم للعلم وتقصي الحقائق وآخرون أحاطت بهـــم الريب والشبهات ـ يتنقل بك مرحلة فمرحلة لتعيش مع سكان وادي النيل في تلك العصور، مستجليا عاداتهم وانطباعاتهم ، طرق معيشتهم وناموس معامـــلاتهم ، مستوضحا مشاكلهم ونزواتهم ، متعهم ومنغصاتهم ، جهلهـــم وتطلعاتهم ومآخذهم وحسناتهم . وهو لا يترك شاردة أو واردة الا وذكرها في دقة وتفصيل ـ كالطقس والغذاء والكساء ، القرى والمنازل ، صرامة العيش

وقسوة الطبيعة ، تدينهم وتبذلهم ، طرق القوافل وسلع التجارة ـ لا يترك الصحارى والغابات ، والشجر وانواع النبات ، والطيور والوحوش واناس كالوحوش ـ كلها يذكرها في مزج جميل ممتع لا يمله القارىء ولا تمجه النفس .

وهو يعالج الاوضاع التي كانت سائدة في وادي النيل ، والاحداث التي سبقت ذلك الجيشان الهائل الذي اجتاح ربوعه منذ اواخر القرن الثامن عشر الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ـ عندما غزت مصر جيوش نابليون ، ثم عندما غزت السودان قوات محمد علي ، ثم عندما غزا البريطانيون الاراضي الحبشية منذ قرن مضى . ونحن في هذا الكتاب نسير مع تلك الجيوش خطوة فخطوة ، منذ ان بدأ التفكير في الغزو ومنذ ان بدأ التخطيط له ، متتبعين الدوافع التي ادت الى هذه الغزوات الثلاثة والعوامل التي تضافرت لابرازها ، ثم الانجازات العلمية والتطورات الثقافية والتغيرات الاجتماعية التي اعقبتها، والاهداف السياسية والمطامع الاستعمارية التي حققتها . وهو ايضا يعطي القارىء فكرة متكاملة عن الكيفية التي كان يخطط بها الغرب لاستعمار الشرق ، وكيف كانوا يمهدون لذلك بارسال اعينهم لدراسة جغرافية هذه الاقطار ودراسة احوالها الاقتصادية والاجتماعية وقوتها الدفاعية ـ يرسلونهم تحت شعار العلم والاستكشاف احيانا وتحت ستار التبشير احيانا اخرى . او يرسلونهم كسواح مغامرين او كهواة صيد للوحوش الضارية ، وآخرون كانوا يأتون متنكرين في زي حجاج من الهند او تجار من السند حتى لا تفضحهم لكنتهم أو تنم عنهم عجمتهم .

* * *

ولتعريبي لهذا الكتاب قصة طريفة ارى لزاما علي ان ارويها خصوصا وانه قد سبق وترجم للعربية . والغريب انني رغم المكتبة التي نملكها والتي يباع فيها جميع انواع الكتب العربية ـ رغم ذلك فلم اعلم بهذه الترجمة الاخرى الا بعد ان كدت افرغ من تعريبي له . فقد بدأت هذا العمل في مايو سنة ١٩٦٧ وقبل ان ابدأ فيه سألت العديد من دور الكتب ان لو سبق ونقل هذا الكتاب الى العربية وكانت الاجابة دائما بالنفي . وبعد ان اطمأنت نفسي الى انه لم يسبقني احد الى ترجمته ، توكلت على الله وبدأت في عملي . وبحلول اكتوبر من نفس السنة كنت قد بدأت في ترجمة الفصل الاخير منه . وهنا فقط علمت ان الكتاب قد سبق

وترجم للعربية ، وجاءت معرفتي هذه عن طريق الصدفة المحضة ، وذلك عندما لاحظ الاستاذ هنري رياض المحامي (والمترجم المعروف) انني أحمل معي في عربتي عددا من الكراسات والكتب والمعاجم وسألني قائلا : «ما هذا يا دكتور ؟ هل انت مقدم على مشروع ترجمة كتاب في الطب ؟» فأجبته بانني فعلا شرعت في ترجمة كتاب ولكنه ليس في الطب ، وانني كدت ان أفرغ منه ، ثم قدمت له الاصل الانجليزي . وكم كانت صدمتي عنيفة عندما اخبرني ان هذا الكتاب قد سبق وترجم للعربية . وعندما قلت له بانني سألت عدة مكتبات عن ذلك وانها جميعها اجابتني بالنفي ، اجابني بانه في الواقع لم يصل الا لمكتبة واحدة فقط وان توزيعه كان محدودا وضعيفا جداً . ثم ذهبنا سويا لمكتبه حيث قدم لي الكتاب المترجم مع اخيه البكر « النيل الابيض » وطلب مني أن أحملهما معي واطلع عليهما . غير انني لاحظت انهما كانا لا يزالان على جدتهما ولا يدل مظهرهما على ان احداً قد قراهما . فاعتذرت قائلا أنه من المستحيل أن آخذهما قبل ان يقراهما هو ، وانني سأتحصل عليهما من المكتبة التي احضرتهما . فقال لي انه حاول ان يقرأ «النيل الازرق» ولكنه وجد ان الاسلوب لا يشجع كثيرا على القراءة ولذلك فهو غير ميال لمواصلة قراءتهما وخصوصا النيل الازرق . وتحت اصراره الشديد حملتهما معي وخرجت منه اجرجر اذيال الخيبة وعدم التوفيق . ثم توقفت عن المضي في الترجمة لفترة من الزمن.

غير اني عندما اطلعت على بعض اجزاء هذا الكتاب المترجم ، لم اجد فيه من السلاسة والمتعة ما وجدته في الاصل الانجليزي ، وتهيأ لي ان ترجمتي تفوقه كثيرا — والجعران ، كما يقول المثل ، في نظر امه جوهرة — وبعد تردد استمر الى اكثر من الشهر ، وبعد ان لمست من بعض من قرأوا الاصل الانجليزي والترجمة العربية التي ظهرت ، انهم لا يعتقدون ان هذه الترجمة تتناسب مع الاصل الانجليزي ومع سلاسته وروعة اسلوبه — وتحت تشجيع وضغط بعض الاخوان ، عاودت الترجمة مرة اخرى .

* * *

وقد حرصت في تعريبي لهذا الكتاب ان انقل عبارات المؤلف في قالب يتمشى مع روح اللغة العربية وجرس اللغة العربية دون ان اخل بالمعنى الذي رمى اليه الكاتب . والمجال الوحيد الذي تصرفت فيه بتوسع هو عندما اتيت لتعريب أبيات من الشعر الانجليزي الى شعر عربي فالقافية

كانت تضطرني لزيادة بعض الكلمات او حذف البعض الآخر ولكنـي كنت دائما حريصا على ان ابرز التعابير والالفاظ الهامة في هذه الابيات .

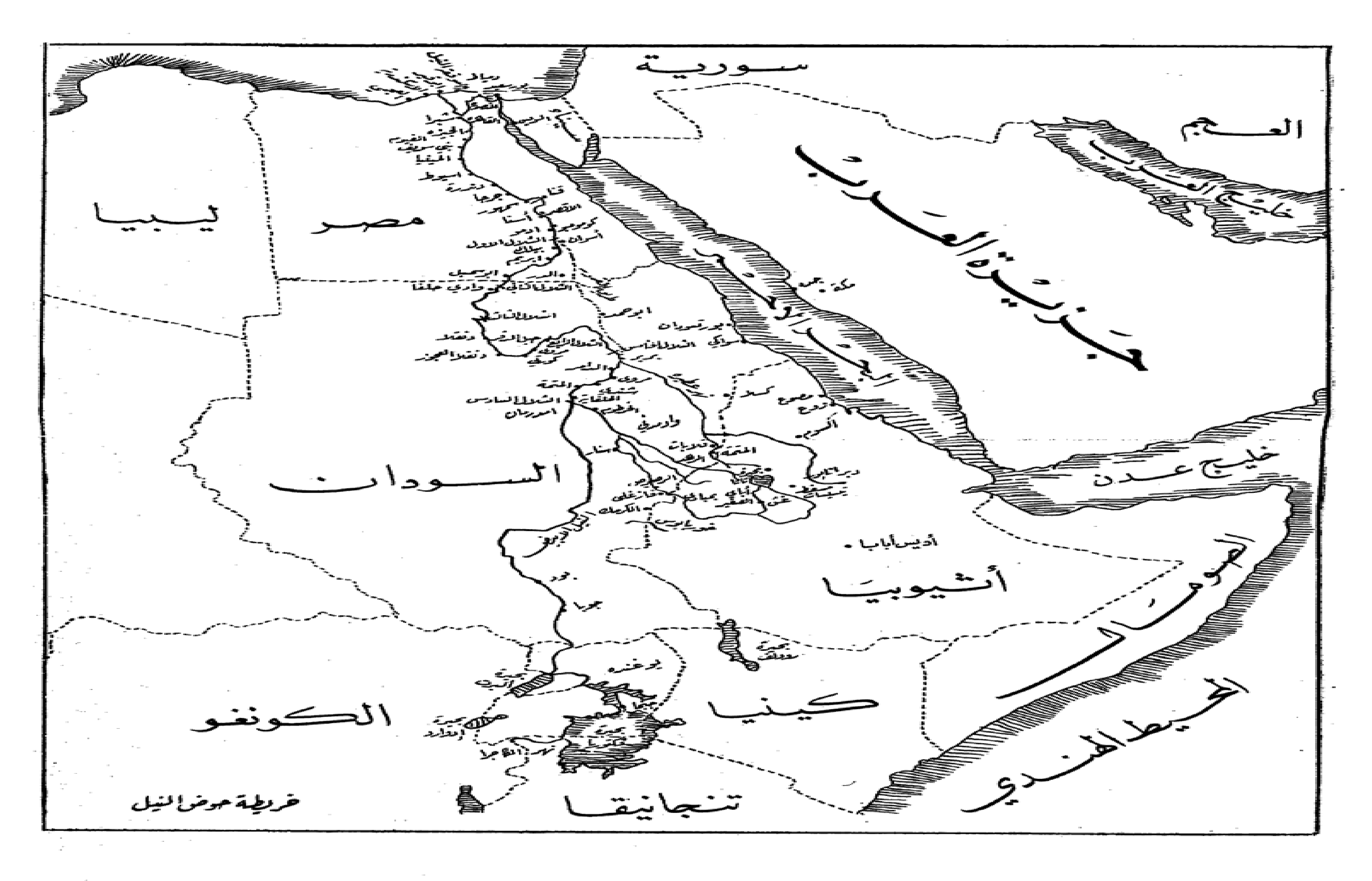
وعلى أي حال ها هو الكتاب المعرب بين يدي القارىء العربي مؤملا ان يجد منه شيئا من القبول فان في ذلك وحده جزاء وفاقا لما بذلته من جهد ووقت . وان لم يجد القبول الكافي فعزائي ان هذه هي اول محاولة لي في التعريب .

وقبل ان انهي هذه الكلمة اود ان اتقدم بالشكر والتقدير لجميع من ساعدوني وشجعوني على ابراز هذا العمل . واخص بالشكر الصديق الحميم الاخ الدكتور مكي الشيخ للمجهود الجبار الذي بذله والعنايـة والاهتمام اللـذين ابداهما في تصحيح المسودة الاولى لهـذا التعريب وللملاحظات القيمة التي ابداها عن كثير من العبارات . كما اخص بالشكر الاستاذ الكبير السيد نصر الحاج علي لما بذله من وقت في قراءة المسودة قبل الاخيرة وللتوجيهات الكريمة والانتقادات الدقيقة التي تكرم علي بها ولتشجيعه المقدر للاسراع في طبع ونشر هذا العمل . كما اخص بالشكر الاستاذ الكبير السيد هنري رياض ، لما بذله من وقت في قراءة المسودة لبعض البروفات ببيروت . ولا انس ان اخص بالشكر الاديب الكبير المتقاعد الاخ ميخائيل بخيت لتزويدي ببعض المعلومات عن أثيوبيا وبالنطـق الصحيح لاسماء بعض الشخصيات والمعالم الاثيوبية . واخيرا وليس آخرا اتقدم بشكري لابننا وصهرنا السيد محمد احمد رحمه لمساعدتـه في طبع جزء كبير من المسودة النهائية على الآلة الكاتبة .

المترجم

الباب الأول

استطلاع



خريطة حوض النيل

الفصل الاول

النيل الأزرق

يتدفق النيل الازرق من بحيرة تانا الواقعة في الهضاب الشمالية من اثيوبيا . وينساب في هدوء تام دون ان يعترض مجراه شلال يثيره ، ودون ان يكون له في هذه المرحلة من مسيره تيار واضح يوحي بأن هذا الماء المنساب في دعة وسكون ، سيقدر له ان يقوم برحلة طويلة هامة الى البحر الابيض المتوسط ، يقطع خلالها نحوا من ٢٧٥٠ ميلا . ومن السهل ألاّ يتنبه الزائر لمخرجه الذي يقع في خليج بالطرف الجنوبي للبحيرة، لان الضفة هنا تنشطر في تدرج لا يلفت النظر الى جزر خفيضة تحفها حجارة بركانية سوداء ، وتكسوها أدغال كثيفة يجري بينها الماء هادئا في خضرة داكنة . ولا تقع العين على اي قرى في هذه البقعة ، بل لا تقع على اي اثر للمدينة الا حفنة صغيرة من صائدي الاسماك وهم يجدفون أرماثهم [1] المصنوعة من البردى ، كانهم نوتيه في احدى البرك . وما عدا ذلك فالهدوء شامل كامل ، الا ان العين قد تقع على بعض القردة وهي تتنقل في خفة ورشاقة بين الصخور ، ولن يفوت الزائر ان يرى طائر العريش بلونه الجامع بين السواد والبياض وهو يرفرف على ما لا يزيد عن العشرة اقدام فوق سطح الماء قبل ان ينقض على سمكة تطفو قرب سطحه . ويقال ان الأصَل الضخم يكثر في هذه المنطقة ، وقد يبلغ طول الواحدة منها اكثر من عشرين ذراعا ، ويزدان جلدها الناعم الملمس

(١) أرماث ومفرده رَمَث وهو ما نسميه « الطوف » .

بمجموعة من الالوان لا يخلو منها الاسود . واذا ساعدك الحظ فقد ترى احداها سابحة في الماء تبحث عن متربص مناسب تتصيد منه فريستها ، الا انها عادة ما تتواجد على فروع الاشجار السفلى مختبئة في مأمن بين اوراقها ، الى ان تتاح لها الفرصة المناسبة لتنقض على قرد او وعل صغير اتى ليستقي من ماء النهر في وداعة واطمئنان .

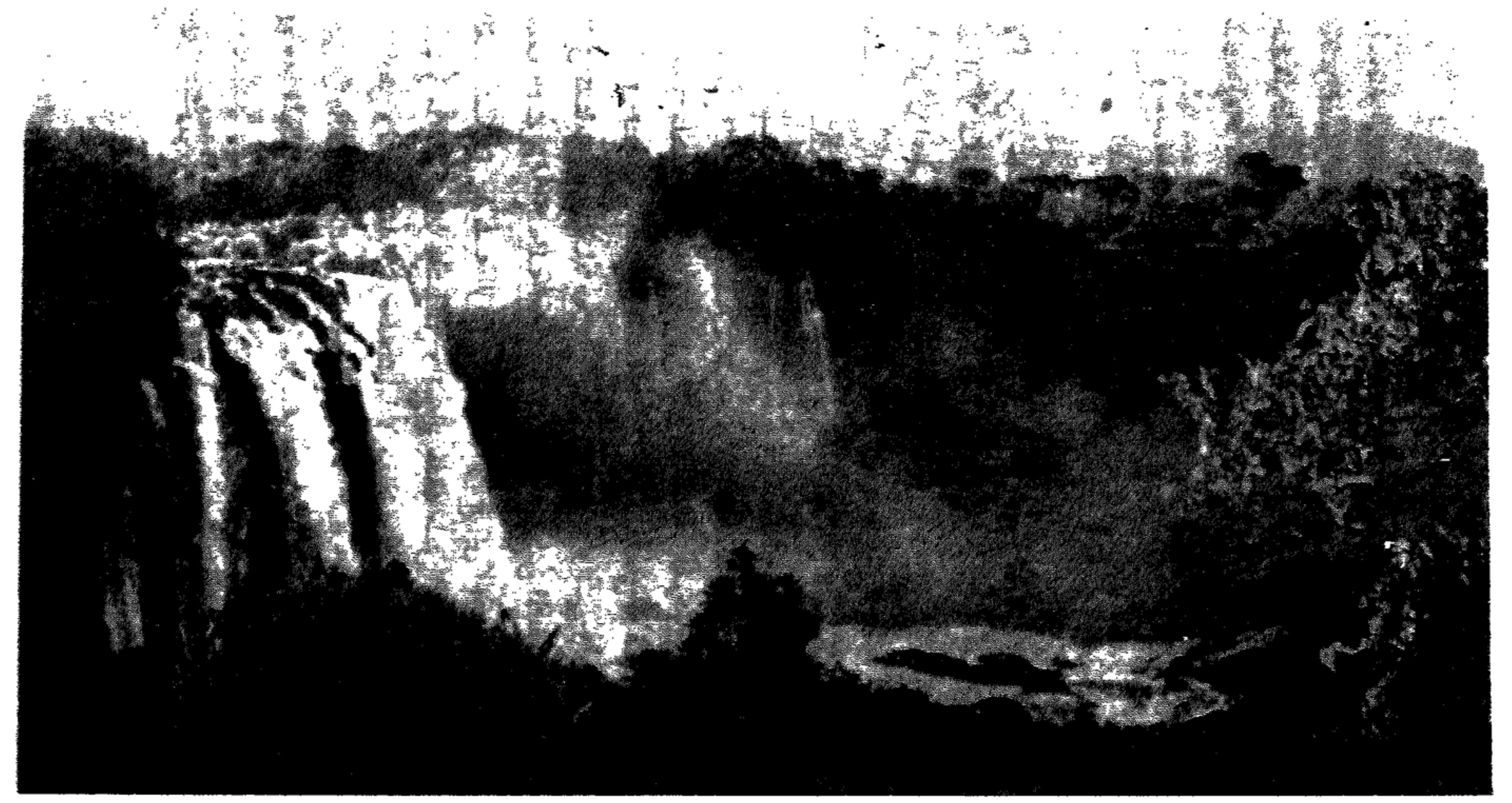
نحن هنا على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق سطح البحر ، واشعة الشمس الاستوائية شديدة الحرارة شديدة الوهج ، غير انه في منتصف اليوم يهب نسيم عليل على البحيرة يستمر الى قبيل الغروب . وفي برهة وجيزة تختفي الشمس خلف طيف من الالوان الزاهية ، ثم يتغير الطقس فجأة الى برودة قد لا تكون محتملة للنائم في العراء . وهكذا هذا النهر مليء بالمفاجآت والمتناقضات ، فعند منبعه تشعر بالوحدة المزعجة وبالعزلة التامة عن العالم وعن البشرية، كأنما بينك وبينها آماد شاسعة، ولكن تأكد دائما ان احد السكان لا بد ان يكون مختبئاً بين الاشجار يراقب كل حركة من حركاتك ، اذ ان مدينة « باهاردار » تقبع خلف احد الجبال القريبة الواقعة الى جنوب البحيرة . كما انك ستجد على بعد ما لا يزيد عن النصف ساعة عبر البحيرة بعض الاديرة القبطية التي ظلت قائمة منذ العصور الوسطى . وهناك في هذه الاديرة يسكن بعض القسس الألي لا ينقطعون عن اداء طقوسهم وعباداتهم آناء الليل واطراف النهار . ففي كل صبح وعند كل مساء يسيرون في خطى وئيدة رتيبة حول كنائسهم المعروشة بالقش ، يحمل كل منهم الصليب في احدى يديه وفي يده الاخرى المبخرة التقليدية، ينبعث منها الدخان كثيفا ليذهب الرجس وتحل البركة ويعم الخير . وعلى جدران هذه المعابد التي قد تساقط طلاؤها بفعل الرطوبة والتفتت ، سوف ترى صورة المسيح يحف به حواريوه وقد رُسموا جميعا في زي رجال من البيض ، وحولهم قديسات شبه عاريات من البيض أيضا ، لأن السواد لا يرمز به الا للشياطين .

وفي هذه المناطق حيث يتقلب الطقس بسرعة مدهشة ، فتكـــون الحرارة شديدة في لحظة ما ، ثم تنقلب الى برودة قارصة في اللحظـــة التالية ، وحيـــث تقرع اجراس الكنائس عالية في متاهات خاوية ـ في هذه المناطق المتناقضة ، سرعان ما يروض الانسان نفسه علـــى الفوضى المطلقة والمتناقضات العجيبة، فلا عجب اذن اذا سمعنا بمن يقول ان بحيرة تانا ليست هي المنبع الحقيقي للنيـــل الازرق ، فهناك من يحاولون ان يثبتوا ـ بل مـــن يعتقدون عقيدة راسخة ـ ان النيـــل الازرق ينبـــع من مستنقعات يقال لها « قش أبّاي » تبعد سبعين ميلا جنوبي بحـــيرة تانا . وان نهر اباي يسير في هذه المستنقعات متعرجـــا منحـــدرا بـــين الهضاب ، الى ان يصب في الركن الجنوبي الغربي من البحـــيرة ، وان مياهه تخترق البحيرة الى ان تنفذ من مخرجها ، قرب مـــدينة باهاردار السالفة الذكر . ولذلك فان كل الخرائط القديمة تظهر مجـــــرى النهر مخترقا البحيرة ، كما ان كل الخرط الحديثة نسبيا تظهر « قش أبّاي » هذا كالمنبع الحقيقي له .

ولا شك ان هذا الزعم يدعو الى شيء من الحيرة . فتانا بحـــيرة بالغة العظم ، تربو مساحتها عن الالف ميل مربـــع ، ويبلـــغ حوضها خمســة امثال هذه المساحة ، ونهر أباي ليس الا واحدا من عدة روافد تصب في البحيرة. حقيقة انه اكبرها ، ولكن ليس هناك تيار واضح لمجراه عبر البحيرة الا لاشهر قليلة في فصل الامطار . وفيما عدا ذلك فان مياهه تختفي تماما في مخزون البحيرة البالغ العظم (وهناك موقف مماثل لهذا عند منابع النيل الابيض في يوغندا . فنهر « الكاجيرا » الذي يصب في بحيرة فكتوريـــا من الغرب له تيار واضح عبر البحيرة حتى مخرج النيل عند « جنجـــة » ، ورغم ذلك فليس هنـــاك من يقول بأن الكاجيرا هو المنبع الحقيقي للنيـــل الابيض ، فالمنبع المعترف به هو عند جنجة او بعبارة اصح هو بحيرة فكتوريا نفسها) .

وعلى اي حال فان هذا الجدل لا يقدم كثير او يؤخر . والافضل للزائر عندما يصل الى منابع النيل الازرق (المسمى هنا اباي الكبير) ان يترك ذلك الجزء المسمى « اباي الصغير » وراء ظهره ، ويبتدىء رحلته من مخرج النيل عند مدينة باهاردار . وبعد مخرجه ببضعة اميال ، تعترضه عقبة كبرى عندما يبتديء الماء في جيشان زاخر ، وهو ينهمر بين الصخور والمنحدرات التي تصعب الملاحة فيها ، وتبلغ غاية الخطورة . ولذا فالافضل ان يلتجيء للبغال ، ويتابع مجرى النهر بالقرب من ضفتيه ما سمحت له بذلك الادغال الكثيفة التي تكسوها . وسيؤخذ المسافر هنا بما في الطبيعة من بهجة وروعة ، فهي خليط من مناظر افريقيا الاستوائية وافريقيا الجبلية ، والاشجار خليط من السنط والطلح والبلوط والبانيان والكافور وعرائس النيل ، ومن النخيل والجميز والتبلدي . والتبلدي هنا ليس ذلك الشجر الاملس الجزع ، الخفيف الورق ، المصوح الفروع ، المعروف في بقاع السودان القاحلة . ولكنه عند منبع النيل عبارة عن شجر ضخم له ورق عريض وكثيف وظليل . وهذه المنطقة بعيدة عن مرتع التماسيح ، ولكنها منطقة تكثر فيها الطيور ، فعقاب السك يهبط من رؤوس الاشجار مع اول شعاع الصباح ، والرهو الناصع البياض باجنحته المزدانة بالسواد . والزرزور الذي قد يشبه اي شيء الا الزرزور المعروف لدينا . فهو هنا في زرقة لامعة جذابة . وابو منجل بمنقاره الذي يشبه المنجل . والبجع والرمّاح والهدهد وطائر الشقراق والحداء كلها تتواجد بكثرة ملحوظة . اما الطائر المعروف بابي قرن فيبلغ حجمه في هذه المناطق حجم نعامة صغيرة ، الا انه اخف منها حركة حين يرفرف في الهواء ويكشف عن جناحين ضخمين تزدان اطرافهما باللون الابيض .

والضفة الشرقية عبارة عن سلسلة من التلال الوعرة ، اما الضفة الغربية فسهل منبسط تكسوه تربة سوداء تصلح لزراعة القطن ،



مساقط تيسيسات

ويمتـــد الى مسافات شاسعة ، وتحفه جبال غريبة في منظرها وتكوينها ، تكسو قممها قناطير مقنطرة من الصوان ترتفع الى عنان السماء كأنهـــا نبت مارد مـــن الصبار الداكـــن . وهي أصلا قذائف لبراكين قد سكنت منـــذ آماد بعيـــدة .

وبعد نحـــو العشريـــن ميلا من هذا المكان يشعر الزائر أن أمامه شيـــئا من الدوي ، وشيئا فشيئا تتحول زمجرة المياه الى هدير ، ثـــم يرى طبقة من الضباب المنخفضة تتدلى فوق الوادي . وهنا يكمن الهدف الاكبر من رحلتنا هذه ، الا وهو شلالات « تيسيسات » . ومن المدهش حقا ان لا تكون هذه الشلالات معروفة الا للقليلين جدا ، فهي من ناحية ما تكوّن اعظم مشهد على النيلين ــ الأزرق والأبيض ــ ليس ذلـــك فحسب ، بل انه لا يوجد في كل افريقيا ما يمكن مقارنته بهـــا ، ســـوى شلالات فكتوريـــا على نهر الزمبيري . والواقع ان الشبه كبير جدا بين مساقط تيسيسات ومساقط فكتوريا ، ففي كلا الحالين يلاحظ الهدوء التام على النهـــر وهو ينساب عبر جزر صغيرة تكسوها ادغال كثيفـــة وصخور ملساء ، ثم فجأة يغوص النهر في منحدر عمودي ، وهو يرعد ويزبد في تساقطه . واذا نظر المشاهد من اعلا فسيتجلى له غـــور سحيق ضيق تتسابق فيه الميـــاه بسرعة فائقة وهي تتلوى وتنثني وأخيرا تختفي خلف الشثور [1] الجبلية المحيطة به . ثم ان الرشاش المتطايـــر من هذا الغور يشكـــل ما يشبه الرذاذ ، فتحمله الرياح الى الهضاب المجـــاورة ليكسو ما عليها مـــن حشائش واشجار بطبقة مـــن الندى ، ويدفعهـــا لتتراقص وتتمايل تمايلا موقعا منتظما لا ينقطع ، كتمايل الاعشاب المائية التي نراها في قاع البحار والمحيطات . واذا استقر الزائر لخمس دقائق في هذا المكان فسرعان ما تبتل ملابسه حتى ينفذ الماء الى الجســـد .

---

(١) شثور ومفردها شِثر وهو حرف الجبل .

والزائر لأول مرة يعتريه شيء من الرعب والرهبة الا انها سرعان ما تتلاشى عندما يرى اسرابا من الطيور السوداء ، باجنحتها ، المحدودبة المشربة بالحمرة ، وهي تخترق الرذاذ وتحط على الصخور الملساء عند شفة الهاوية التي ينحدر فيها الماء ، ثم ، في غير اكتراث ، تطير مرة اخرى مخترقة حلقة من قوس قزح تكاد تكون مستديرة ، تهتز في ذبذبة بالغة السرعة وتتلاصف في بهرج براق يبهر الابصار كأنه ألعوبة نارية تدور حول مركزها في سرعة بالغة ورتابة عجيبة .

وشلالات تيسيسات هذه هي نهاية ما يعرفه النيل الازرق من هدوء وسكينة ، فمن هنا يبتديء النهر في اندفاعه الجبار عبر الهضبة الاثيوبية لمسيرة أربعمائة ميلا ، يخط اثناءها انحناءة كبرى متجها نحو الجنوب أولا ، ثم الى الغرب وأخيرا شمالا الى أن ينهمر من بين الجبال الى سهول السودان الحارة . وكلما تقدم في سيره بين الجبال ، كلما عمق غوره ، حتى اذا ما بلغ قلب أثيوبيا اصبح عمق هذا الغور نحو الميل ، وبلغ اتساعه نحو الخمسة عشر ميلا . ومع ذلك وحتى في زمن التحاريق يستمر في فورانه وهديره وتمزيقه للصخور حتى ليستحيل لأي قارب أن يستقر فوق سطحه لحظة واحدة . ولهذا السبب لم يستطع أحد حتى الآن من القيام برحلة على قارب من بحيرة تانا حتى حدود السودان ، بل لم يستطع أي انسان أن يسير راكبا أو راجلا ، متتبعا مجراه السحيق الانحدار .

غير انه من الممكن ان يصل الشخص الى النهر عند الاماكن التي تصب فيها روافده ، وهي تفد بالعشرات في أي مرحلة من مراحل الطريق . وبعض هذه الروافد ، كالباشيلو الذي يأتي من هضاب « مجدلا » في الشرق ، و « كالقودر » و « الديدسا » اللذين يأتيان من الجنوب ، هي عبارة عن انهر كبيرة في حد ذاتها . الا ان البعض الآخر لا يتعدى ان يكون مجاري جبلية تجري فيها المياه شتاء فقط ، ثم

تصبح أخاديد صخرية تزيد في وعورة الطريق المؤدي للغور . واذا مـا وصلنا الى النهر عن طريق أحد هذه الروافد فلا بد لنا مـن العـودة بنفس طريقنـا ، ثم نستمر بعيدا عن مجرى النيل الى أن نجد رافـدا آخر تتابعه الى النهر الرئيسي مرة اخرى ، وهكذا . ومن المستحيل ان يتابع الانسان ضفة النيل في هذه الهضاب لأي مسافة تذكر . ومعنـى ذلك أن النيل الأزرق في أثيوبيا لا يمكن رؤيته الا مـن الجو ، ولكن من الممكن ان يستدل على مجراه ـ كما ذكر الكولونيل تشيزمان [1] ـ بالضباب الذي يطفو على ارتفاع نحو الألف قدم على طول خط سيره ، متعرجا تماما كتعرج النهر . غير ان هذا الضباب لا يرى الا في الصباح الباكـر فقط .

وفي الاماكـن التي ينفـرج فيها الوادي ، تقوم بعض الدساكـر الصغيرة في عزلة كاملة عن بقية العالم ، وفيما عدا ذلك لا يعيش احد من البشر على هذا الشاطىء الصخري البالغ العمق . والاثيوبيون ، رغم تعودهم على وهج الشمس المضيئة في هضابهم ، يتجنبون الاقتـراب مـن هذا الوادي خوفا مـن وطأة الحرارة المشبعة بالرطوبة ، ومـن مرض الملاريا الفتاك . بل ان الكثيرين منهم ينظرون الى النهر نظـرة هلع وتطير تبلغ درجة الخرافة . وحتى الحيوانات البرية لا توجد بكثرة على ضفاف هذا الغور ، وبالاختصار فقد ترك النهر في هذه الاصقاع لفرس البحر وللتماسيح لتسبح وتمـرح في حريـة واطمئنان . ولـذا فانا لا نجد أثرا للقرى الا عندما نقترب مـن حدود السودان التـي تبعـد نحـو ٤٧٠ ميلا من بحيرة تانا ، وتنخفض نحو ٤٥٠٠ قدما عـن مستوى البحيرة . وعند ظهور هذه القرى سرعان ما تتبـين الاختـلاف الكبير بين سكانها وسكان الهضاب الاثيوبية . ففي تلك الهضاب تعيش

---

(١) سنسمع عنه الكثير في الفصل الاخير . (المترجم)

قبائل الامهرا والقالا ذوو القوام النحيف المشوق ، وذوو السحنة المتدرجة من السمرة للسواد الداكن ، والتقاطيع الوسيمة الخلابة . فهم يختلفون كل الاختلاف عن بقية الاجناس الافريقية ، ويتحدثون في شيء من الزهو والعجرفة ، التي قد تعزي الى طبيعتهم الجبلية والى تقاليدهم الدينية ، التي ترجع الى اكثر من الف سنة . كما انهم يتفوقون ذكاء على قبائل شرق وأواسط افريقيا المحيطة بقلعتهم الصخرية المنيعة . والمسيحية في هذه البلاد ليست مستوردة عن طريق المبشرين الغربيين ، ولكنها ديانة اصيلة نابعة من نفس شرقهم الاوسط . ولولا هذه الحقيقة ، ولولا سحنتهم الداكنة وعباءاتهم البيضاء الفضفاضة ، لما امكن التمييز بينهم وبين اليهود ، وفعلا يدعي ملوكهم الانتساب الى شعب الله المختار .

وبعد ان يهبط الزائر من تلك الهضاب الى حدود السودان ، تتلاشى المسيحية ، وتحل محلها قرى الوثنيين . والاهالي هنا يقيمون مساكنهم من القصب والقش في اشكال مخروطة ، والطقس في هذه المنطقة حار شديد الوطأة صعب الاحتمال ، يدعو الى الخمول والكآبة ، واليوم طويل وبطيء وممل . وكل هذه العوامل مما قتل الطموح في هؤلاء القوم وشل فيهم التفكير منذ القدم . اما النيل فبعد ان كان مصدر خطر ورعب وهو ينحدر في قوة وجبروت ، ممزقا الصخور ، ناخرا الجبال الى مغاور سحيقة مخيفة ـ فهو هنا يتحول فجأة الى مصدر طمأنينة ونعمة وموئل رزق ، وعسد للحياة ، فليس للقاطنين في هذه الارجاء من نعمة اعز وأكبر من مياهه المتدفقة . وفي هذه البقاع البدائية من العالم يتحتم على كل انثى ان تحمل جرتها يوميا لتأتي بالماء الى القرية في رتابة وجلد . ولما لم تكن في حاجة للملابس تقيها القر فانها تستعيض عن ذلك بتجميل جسدها بالوشم والكي والفصادة . وعند بعض القبائل تلجأ العذارى لدهن اجسادهن بمخلوط من

الشحم والمغر الاحمر . والغذاء الوحيد الذي يعتمد عليه القرويون هو الذرة ، الا أنه كثيرا ما يخرج الرجال الى الأحراش مسلحين بالحراب ، وبعد كد وجهد وجلد قد يعود الواحد منهم ومعه وعل او غزال . او قد يذهبون بشباكهم الى النهر وبعد صبر ومشقة قد لا يصيد الواحد منهم أكثر من سمكة . ومن نعم النهر أيضا أنهم يرسّبون من رماله شيئا من التبر الذي تجرفه المياه من الجبال الاثيوبية . وهنالك تجارة محلية رائجة في قط الزباد الذي تستخرج من غدده مادة شبيهة بالعنبر تستعمل في تركيز العطور . اما اذا حصل واصطادوا فيلا او فرسا من أفراس البحر ، فان ذلك يعتبر من المناسبات الهامة التي يحتفلون بها كما يحتفلون بزواج او مولود ، فتخرج القرية باكملها في جلبة وضوضاء ، ويتسابق الرجال نحو الفريسة ويغوصون في جوفها ، كل يقطع بمديته او خنجره حتى لا يبقون على شيء غير الجلد والعظام .

هذا ولم يكن من المعقول ان تترك مثل هذه القبائل المتأخرة لتعيش حياتها الخاملة دون ان يطمع فيها من هم اكثر ذكاء واوفر طموحا واشد نشاطا ، ولذا فان الاثيوبيين منذ فجر التاريخ كانوا ينقضون عليهم من هضابهم ، ويصطادونهم اصطياد الانعام ويقودونهم كرقيق . ثم اتى العرب وشقوا طريقهم من البحر الاحمر وسرعان ما زادوا من ويلاتهم ودمارهم . الا ان العرب لم يعودوا كالاثيوبيين بل استقروا في البلاد واستوطنوها ، ونحن الآن نجدهم في كل مكان بعد ان تتخطى الهضبة الاثيوبية .

نحن الآن لم نبلغ مشارف الصحراء ، والنهر لا يزال يتدفق في سرعة وجلبة فوق الصخور البركانية السوداء ، ثم يلتقي في طريقه ببعض الشلالات ، وتحفه من الجانبين الأدغال والآجام . ورغم أن الجبال تنخفض في تدرج منتظم نحو السهول الشاسعة ، الا ان معالم الحدود هنا واضحة كل الوضوح ، وكل من زار هذه الاماكن يستطيع

ان يتعرف عــن كثب على تاريخ هذا النهر ، فهنا نقطة الالتقاء بين عرب الصحراء وسكان الجبال الاثيوبيــة ، وبيــن الاسلام والمسيحية ، بينما يقف المجوسيون من السكان الاصليين كفاصل دون اصطدام الفريقين . ومــن العسير لأي منهمــا ان يعبر هذه الحدود بسلام وامان ، فاذا ما تخطى العرب اثيوبيــا نفقت جمــالهم بمجرد وصولها الى هذه الجبال ، وسرعان ما يفقدون شجاعتهم مــن وطأة البرد الذي لم يتعـــودوه . وبالمثل ، اذا ما نزل الاثيوبيون الى هذه السهول فان بغالهم تتهاوى من شدة الحر ، وسرعان ما يعودون فارين الى جبــالهم من قلة المــاء . انه صراع بين نمطين مختلفين من الحياة ، لا يمكن لأحدهما ان يتغلب على الآخــر .

وحتى العقائد الدينية على ما يظهر ، لم تستطع ان تقف كجسر بين النقيضين ، فالمسيحيــة تصاب بالخيبة والفشل بمجرد ان تقترب مــن الصحراء ، كما ان الاسلام لم ينم او يزدهر فوق الجبال . ليس هذا فقط، بل حتى التجارة لم تزدهر الى درجة تذكر بيــن هذيــن القطريـــن ــ اثيوبيــا والسودان ــ فطرق القوافل لم تتعد السهول ابدا ، بينمــا كانت اثيوبيــا دائما تنظر للبحر الاحمر كالمنفذ الوحيـــد لتجارتهــا الخارجية . فالنيــل اذن هو الرباط الوحيد بين هذين العالمين المتناقضين.

ان قرية « بومبادي » تمثل الحد الفاصل بين اثيوبيــا والسودان ، والحقيقة انها تسمى قرية تجاوزا ، فهي لا تتعدى بضع قطاطي مبعثرة بين الاحراج على ضفة النيل ، ولا تشعر الزائر بصعوبة الحياة في سهول السودان . ولكنه بعد ان يسير مسافة مع انحدار النيل ويصل الـــى فازوغلي حيث توجد بعض مناجم الذهب ، ثم الروصيرص حيث يمر النيل الازرق بآخر شلالاته ، هنا فقط تكشف سهول السودان عــن قناعها ، ويتضح للزائر ما يعانيه السكان مــن مشقة وعناء . وكـــل ما تبقى الآن مــن جبال اثيوبيــا لا يتعدى بعض الكتل الضخمة من

الحجارة الصماء مبعثرة هنا وهناك كأنما تقف حارسا لتلك السهول الجرداء .

ونحن هنا نسير مع مجرى النهر في مملكة سنار القديمة ، التي امتدت حدودها في يوم من الايام عبر النيل الابيض ، حتى بلغت سهول كردفان غربا ، وامتدت شمالا الى ما يقارب من حدود مصر الحالية ، وشرقا حتى ساحل البحر الاحمر . وهذه المناطق هي قلب السودان المسلم ، وكلما تقدم النيل فيها ، كلما زاد سعة ودفئا . وهي لا تعرف غير فصلين اثنين في السنة ، فصل الخريف ، وفصل الجفاف . وبمجرد ظهور بشائر الامطار تتفتق جميع الاشجار وتشتعل خضرة وازدهارا ، بعد ان كانت حطاما يابسا اجردا . اما فيما وراء سنار شمالا ، فحتى الشجيرات الصغيرة تكاد تختفي بتاتا ، فالصحراء هنا تسيطر على المنطقة الى بضعة امتار من شاطىء النيل ، والارض لا تنتج شيئا الا اذا غمرت بالري الآلي عن طريق القنوات . وهذا هو ما حدث فعلا ، فقد احيلت مساحات شاسعة الى مزارع للقطن تمتد عبر الافق البعيد . وللنيل الازرق رافدان يصبان في ضفته الشرقية ، وهما الدلدر والرهد . وكلاهما تياران شديدان في فصل الخريف ، يشقان طريقهما الى سهول السودان من الجبال المحيطة ببحيرة تانا . ومن هنا يصبح النيل الازرق نهرا ضخما يتدفق في عنف وقوة الى ان يلتقي بالنيل الابيض عند مدينة الخرطوم .

والنيل الابيض اطول بكثير من النيل الازرق ، وعند التقائه بالأخير يكون قد قطع في مسيرته من بحيرة فكتوريا بأواسط افريقيا نحو الفي ميل . وهو مأهول بالسكان في كلا الضفتين ، ما عدا منطقة السدود الشاسعة التي تقع في الجزء الجنوبي من السودان . غير ان انحدار النيل الابيض عبر كل هذه المسافة لا يتعدى الالفي قدم (بينما يبلغ انحدار النيل الأزرق حوالي خمسة آلاف قدم) ولذا فان

النيــل الابيض تبدو عليه سمات الهدوء والسكينة ، والزوارق والبواخر تمخر مياهه المتسعة في امن وسلام .

وهو بلا جدال النهر الأب في هدوئه ووقاره . غير ان القـــوة الفعليــة للنهريــن ، عندما يتحدان في الخرطوم ويتخلى كل منهما عن شخصيته ، تأتي أولا وقبل كل شيء مـــن النيل الازرق ، فهو يسهم بستة اسباع كمية المياه المتدفقة في النيل المختلط . والنيل الازرق ينهمر في فيضان طاغ لمدة ستة اشهر من كــل سنة . فاذا مــا جاء شهر يونيو بلغ فيضانه مـــن القوة درجة يعيق معها مجرى النيل الابيض عند مدينة الخرطوم ، فلا يسع هذا الاخير الا ان يتوقف ويتراجع ، بينما يشق ابنه الاصغـر الصاخب طريقه في قوة وحيوية ، حاملا معه ملايين الاطنان من الطين والحصى الى مصر . واخيرا ، عندما يحل شهر يناير يكون قد بلغ منه الاجهاد غايته فتهدأ ثورته ويخبو اندفاعـــه ، وهنــا يأخــذ النيــــل الابيض في اثبات وجوده مرة اخرى . وعندئذ يتدفق النهران في هدوء وسكينة جنبا الى جنب . ويمكــن للرائي عند ملتقاهمـــــا بالخرطوم ان يميز بينهمـــا في وضوح ، فهناك خط ظاهـــر واضح على سطح الماء يمتــــد لعدة اميــال يميز بين ماء النهرين . والنيل الابيض ليس ابيضا بمعنى الكلمة ، بل ان لونه رمادي فاتح ، كما ان النيل الازرق ليس ازرقا بالفعل الا للحظات بسيطة عند الفجر وبعد الغروب، ولونه الحقيقي هو البني المائل للخضرة .

وعلى النيل (المختلط) ان يقطع مسافة ١٧٥٠ ميلا بعد الخرطوم قبل ان يصل الى البحـــر الابيض المتوسط . وفي كل هذه المسافــــة لا يلتقي الا برافد واحد ، الا وهو نهر العطبره الذي هو هبة اخرى مــــن هبات هضبة بحيرة تانا . وقبل ملتقاه بنهـــر العطبره بقليل يدخل النيل في منطقة الجفاف المطلق حيث لا تهطــل الامطار الا نادرا جدا ،

وحيث لا خضرة الا على ضفاف مياهه الداكنة المنسابة في تمهل وتؤدة، وسط صحراء شاسعة لا تتغير مناظرها ابدا الا على هامش ضيق جدا على طول ضفتيه . وهنـا حيـث تآمرت الطبيعة في جميع صورها ــ من حرارة قائظة الى زوابع رملية جامحة والى عزلة وقحط وجفـاف ــ فاحالت الحياة الى جحيم وشقاء ، وهنا وفي هذه الارض الجـرداء بالذات نلتقي باول اثر مـن آثار الحضارات القديمة التي تدحـض كل قول بأن افريقيا قارة بدائية . ولكن هل كانت تلـك الحضارات افريقية فعلا ؟ انه تجاوز في غير موضعـه ان نجيب بنعم . واول دلالـة على تلك الحضارات نجدها على بعد مائة وثمانين ميلا شمال الخرطوم ، عنـد مروى القديمة التي تقع بالقرب من شندي ، فهنا يوجد نحـو المائتين مـن الاهرامات المتداعية وسط ارض جرداء قاحلة ، ومن هنا ايضا تبتدىء سلسلة مـن الشلالات الخفيضة في انحدارها الطويلة في مداها ، كما تبتدىء القلاع والمعابد الاثرية في الظهور . ويزداد عدد هذه القـلاع والمعابد كلما انحدر النيـل نحو الحدود المصرية ، حيث ندخل منطقة النوبة التي هي بمثابة نوع مـن التخوم ، او بعبارة اصح هي ارض محايدة كانت تمر بها الجيوش الغازية منذ القدم بحثا عن الرقيق والذهب والعاج . وكل غاز مـن الغزاة كان يقيم دولة جديدة ، ويخلد انتصاراته بتشييد نصب جديدة ومعابد فريدة ، ولكنه لا يكاد يستقـر الا ويدحره غاز آخر ويخرجه مهزوما مـن مملكته ليقيم دولة اخرى مكانها . فقد اختلف على هذه الرقعـة من الارض العديـد من الغزاة ، كالمصريين والفرس واليونان والرومان ، وحتى النوبيين انفسهم قد كانـت لهم أسرهم المالكـة . والغريب ان معظمهم كان يعبـد الشمس التي هي عدوهم اللدود في هذه الاصقاع ، ولم يعبدوا النيل الذي هو أملهم الوحيد في الحياة .

ومما هو جدير بالملاحظة ان هذه المناطق المقفرة في وقتنا الحاضر،

والتي شهدت كثيرا من المواقع المريرة والحروب العنيفة والتي كانت موضع اهتمام الملوك والاباطرة ــ مما هو جدير بالملاحظة ان نجدها قد هجرت تماما . وما تبقى فيها من حياة وعمران انما يتمركز الآن في قرى النوبيين المبعثرة على ضفتي النيل التي تذكرنا بافريقيا البدائية بمنازلها المزينة بالألوان الزاهية ــ أكثر مما تذكرنا بمصر القديمة . كما تتمركز الحياة فيها ايضا على طرق القوافل التي تتعرج من واحة لأخرى عبر الصحراء ، وعلى قوافل الحجيج التي تشق هذه القفار سنة بعد أخرى متجهة نحو مكة في صدق واصرار ، طلبا للطهر والمغفرة ، غير عابئة بما تلقاه من عناء ومشقة من جراء حرارة الصحراء المحرقة .

وعندما نصل الى اسوان التي كانت في يوم من الايام مركزا هاما للقوافل ، والتي كانت في عهد الرومان آخر معقل للامبراطورية في تخومها الجنوبية ، نجد ان النيل وواديه قد طرأ عليهما تغيير كبير. فبعد ان كان واديه في البضع مئات من الاميال الاخيرة عبارة عن خليط من الصخر الصلد والرمال المغفرة ، يصبح الآن ، وبعد أن نمر على آخر شلالاته بالقرب من جزيرة بيلك ، حقولا ومروجا خضراء ، ومزارع يانعة للقمح وقصب السكر ، تدب فيها الحياة وتعج بالحركة المتواصلة . فالابل والحمير تتقاطر غدوا ورواحا على ضفتيه بين اشجار النخيل والأثل . وقد لا تمر لحظة دون ان تقع انظارنا على قرية من القرى العديدة . اما النهر فيموج بالزوارق والمراكب وهي تتهادى على سطحه ، ترفرف على سارياتها اعلام صغيرة مختلفة الالوان يستدل بها على اتجاه الريح . وحتى الرياح التي كانت مصدر ذعر وخطر في مناطق النيل العليا تركن هنا للهدوء والرقة . فهنا تبتدىء مصر الحالمة الريانة ، وهنا ينتهي تغول النيل وتهوره ، فحتى الطيور تبدو في مظهر وادع أليف ، لا يشذ عن هذا المظهر اي

نــوع من انواعهــا ، سواء كان ذلك ابو قردان [1] وهــو يبحث عن غذائه بين الأحراش ، أو اليمام الذي يكثر على رؤوس الدور ، أو مالك الحزين وهو منتصب في المستنقعات وعلى ضفاف النيل كأنه تحفة فنية رائعة خطت على نمــط الفنون اليابانية . وحتى تلك الضربات الفتاكة ، التي عادة ما تصدر مــن مناقير هذه الطيور المائية ، وحتى تلــك التقلصات العنيفة التي ترمي بها رؤوسها الى الوراء عنــدما تزدرد صيدها من الاسماك ـ كل هذه التشنجات القاسية تنتظم هنــا في حركات منسابة موقعة ، لا توحي ابدا بأي معنى مــن معاني الفتك او القتل ـ تماما كتلك الرسومات المنحوتة على جدران المعابد والتي تمثل احد الفراعنــة رافعا هراوته بيده فوق رأس عدوه الجاثم المتذلل تحت قدميــه ، فهي لا تتعدى ان تكون لوحة فنية لا توحي بانه على وشك ان يهوي عليــه بضربة قاضية .

ومــن المناظر الفريدة ، منظر الجواميس وهي مسرعة نحو النيل بعد ان اطلقت مــن سواقيها عند الغروب ، لتغوص في الوحل حتى اعناقها ، ثم تعبر عــن ارتياحها للخلاص بزفراتها المتكررة . اما فــرس البحر فلا وجود له في هذا الجزء مــن النهر . ومن هذا المكان تبتدىء المعابد في الظهور الواحد تلو الآخر ، فمعبد كوموبو يبدو شامخا عبر الافــق عند انحناءة مــن انحناءات النيــل ، ومعبد ادفو الذي لــم يشوهه الزمن ولا تقلبات الطبيعة يظهــر على الضفة الغربية للنيل ، ثم تتأتى على التوالي معابد الكرنك فالاقصر فدندرا فابيدوس . ويخيــم على الجو دفء وسكون كسكون الاموات ، سكون وثيق الصلــة بحياة غابرة ، كانت في يوم ما صاخبة ففنيت واندثرت ، غير انها خلدت تخليدا ابديا ، وبقيت معالمها على مر العصور والاجيال . ويجري بنــا

---

(١) ما نسميه في السودان بطير البقر .

الفلـك متهاديـا فـوق صفحة النيل ، ويمر اليوم تلو اليوم ونحن متجهون شمالا ؛ وتمر بنا نفس المناظر التي يشاهدها كل مسافر على النيل والتي كثيرا ما قرأنا عنها وسمعنا عنها ، وليس لنا الا ان نتعرف عليها واحدة تلو اخرى . فهذه هي الاهرامات وهذا هو ابو الهول وقد انطبعت صورها في المخيلة قبل ان تقع عليها العين .

وبوصولنـا القاهرة التي تبعد نحو المائة ميل عن البحر ، يأخذ النيـل في القاء حمولته مـن الطمى الذي اتى به من الهضبة الاثيوبية. وهنا يضطرب النيـل لما يقابله مـن سهل منبسط لم يعرفه من قبل ، ويضطرب لما ينتابه مـن بطء ودعة لم يعهدهما منذ ان بدأ رحلتـه الطويـلة الصاخبة ، فلا يسعه امام هذا الاضطراب وامام هذا التغيير المفاجيء الا ان ينقسم ويتشعب الى عدة مجاري في سهل الدلتا المخضر المنفرج كالمدرة . وشيئـا فشيئا وبمـرور الزمن ، وبما يلقيه النيـل في البحـر مـن طمى وطين ، نجد انه قد دفع بالارض وسيستمـر يدفع بها الى داخله ، ثم يتلاشى مجراه في مجمـوعة مـن الـبرك والمستنقعات . لقد عرف القدماء خمسة مصاب للنيل في البحر الابيض ، الا انه لم يبق منها الآن غير مصبين فقط ، احدهما عنـد رشيـد والثاني عند مدينة دمياط . ومع ذلك لا يزال النيل يضفي على ميـاه البحـر لونا داكنـا لعدة اميـال ؛ والبحر بدوره عند هياجه اثر الزوابع الشمـالية يقذف امواجا محسـرة الى الشاطيء المصري .

فهذه اذن هي نهاية الرحلة التي يقوم بها هذا النهر . هـذه هي نهاية سلسلة مـن الحلقات الخلاقة التي يحافظ بها هذا النيل عـلى الحيـاة في الصحراء ، ويحافظ عليـها عند منفرج الدلتا ، وذلك بما يجلبـه مـن خير ونعمة مـن قمـم الجبال الاثيوبية . فلولاه لما كان هناك اثر للحيـاة على ارض مصر ، ولا كانت هناك حياة على معظـم بقاع السودان . ورغم كل ذلك فان نفس هذا النيل قد يكون مصدر

نقسة وكوارث في زمن فيضانه ، فقد عرف ذلك عنه منذ القدم وقد يستمر كذلك للأزل . ولذا فانه مما يدعو للدهشة والعجب ان العالم الخارجي لم يبتديء يعرف شيئا يذكر عن هذا النيل الا منذ زمن قريب جدا . فحتى نهاية القرن الثامن عشر لم تقم حركة تجارية على مياه هذا النهر ، كما لم تقم اية طرق للمواصلات غير طرق القوافل المعروفة ، ثم انه لم تعرف اية قناطر او جسور جنوب القاهرة، فالحكومات المتعاقبة على هذا القطر لم تكن تنظر الى ابعد من حدود قطرها الضيق ـ ولكنه كان قطرا يضارع القارة الاوروبية في مساحته .

وكانت بحيرة تانا توضح على الخرائط الجغرافية في دقة لا بأس بها ابدا ، كما ان مجرى النيل الازرق حتى اواسط السودان كان معروفا لحد معقول ، اما النيل الابيض فقد كان لغزا مبهما واما القول بان للنيل منبعين منفصلين فلم يكن مقبولا لدى الكثيرين . ومعظم المعابد العظيمة في اسفل الوادي كانت مطمورة تحت الرمال ، والحياة على ضفاف النيل كانت تسير في رتابة مملة، يشوبها جهل مطبق بين قرى تافهة منتشرة على ضفتيه ، تتألف من قطاطى خربة متداعية من الآجر . ولأكثر من الف عام ظلت حضارة قدماء المصريين العظيمة مغمورة مهملة، كما ظلت كتابتهم مغلقة مبهمة . ولم تكن هناك بارقة أمل في مستقبل مشرق زاهر ، فالمماليك قد اوصدوا جميع ابواب مصر في وجه كل زائر او سائح ، وعزلوها تماما عن العالم كما عزلت التبت نفسها في وقتنا الحاضر. اما السودان فقد كان في حكم المجهول، واما اثيوبيا فقد كانت مرتعا للخرافات والاساطير وهي مغلّقه بين جبالها المنيعة .

ولم يتمكن الا قلة من ذوي العزم والصبر من النفاذ الى تلك الأصقاع النائية ، ففي اوائل القرن السابع عشر اخترق جماعة من القسس البرتغاليين سبيلهم الى اثيوبيا عن طريق المحيط الهندي وتمكنوا من

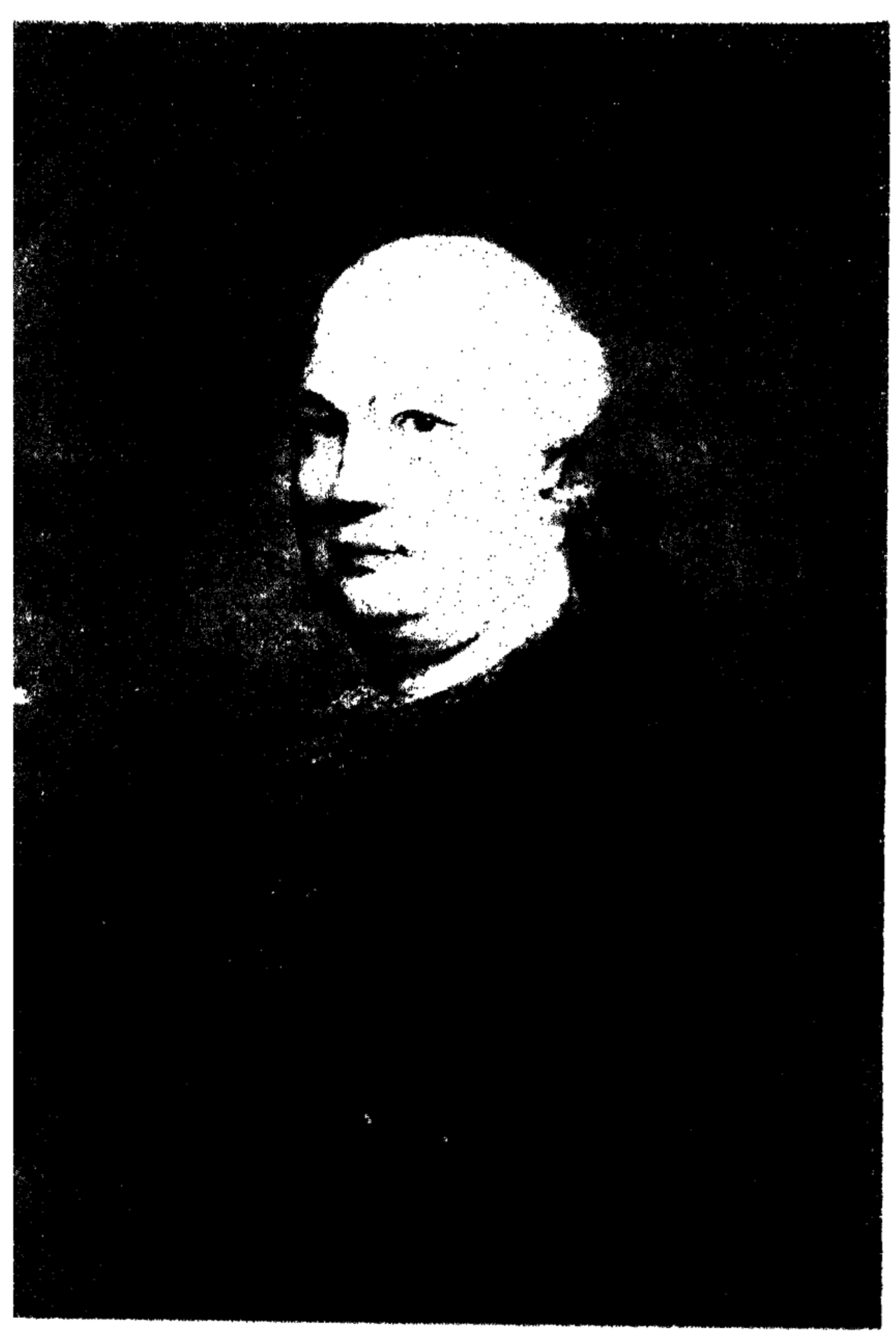
ادخال الملك وبلاطه في المذهب الكاثوليكي الروماني ، ولكن سرعان ما طردوا من البلاد . وبعد حوالي القرن من هذا التاريخ تمكن طبيب فرنسي يدعى « يعقوب شارلي بونسيه » من تتبع النيل حتى مدينة غندار ، وكان في صحبته قسيس يسوعي . وكان يعقوب هذا شخصية جبارة ، وصف بانه كثير الكلام كثير الشرب ، ومع ذلك تمكن من علاج الامبرطور من مرض عصبي . وفي السنين القليلة التالية اقتفى مزيد من القساوسة ـ بعضهم يسوعيون وبعضهم فرنسسكيون ـ ولكن سرعان ما خارت عزائمهم فمات منهم من مات وعاد الباقون ادراجهم .

وفي سنة ١٧٣٧ قام قبطان دانيماركي يقال له « فردريك لويس نوردن » وقسيس انجليزي يدعى « رتشارد بوكوك » Pococke ـ قام كل منهما منفردا برحلة على النيل مبتدئا من القاهرة واستمر الى ما وراء معبد ابي سمبل . وقد تمكن نوردن من ان يستخلص مجموعة رائعة من الرسومات والنحوت وبعض الآثار الفرعونية ـ وكانت هذه اول محاولة لرسم آثار النيل ـ ولكن لم يتمكن اي من السائحين من ان يقوم باكثر من القاء بعض الضوء على مغامراتهما الشخصية في هذه المجاهل . وقد وفق ناشر النسخة الانجليزية لكتاب نوردن في وصف الكتاب وصفا رائعا عندما قال في مقدمته « يوضح هذا الكتاب للعيان ما يمكن ان يجتذب نظر السائح ، من أطلال وآثار ومباني فخمة ومن شلالات وصحارى ، وأوكار للوحوش ومآوي لأناس كالوحوش . وبالاختصار فكل ما يؤثر على المخيلة قد عرض عرضا رائعا يشعر القارىء أنه يعيش مع المؤلف في رحلته هذه ، يشاركه جميع مباهجها ومغامراتها دون أن يتكبد عناء السفر أو يحشم نفسه مشاقها ومخاطرها» . وبعبارة اخرى فقد كان العالم اذ ذاك ينظر الى النيل كما ننظر نحن الآن الى غابات أعالي نهر الأمزون لا كموطن تجري فيه الحياة مجراها الطبيعي .

ثم أتى بعد ذلك آخرون ، جابوا لمدة من الزمن ربوع هذا الوادي الذي لم يكن واضح المعالم ، ولم يكن قد وضعت له اي خرائط يستدل بها عليه ، واخيرا عادوا لاوروبا بسلام . وبعد حوالى سنة ١٧٧٠ خيم عليه الصمت مرة اخرى ، ولم يستطع اي انسان ان يعرف ما كان يجري فيه مـن احداث . وحتى المماليك الذين كانـوا غريبين في اطوارهم لم يهتمـوا بنشر ما يمكـن ان يلقي ضوءا على هذا النهر .

ومن البديهي ان لا يستمر مثل هذا الصمت وهذه العزلة الى الابد، فما هي الا فترة وجيزة حتى اتجهت انظار اوروبا في تحد وتحرش نحو افريقيـا ، وما هي الا بضع سنين اخرى من العزلة والغموض حتى غزت الجيوش الاجنبية كلا من مصر واثيوبيا والسودان . وفي فترة الصمت هذه جاءت الاخبار من حيث لم يتوقعها احد ، ومن اشد هذه الاقطار مناعة واكثرها عزلة ــ جاءت من قلب اثيوبيا معلنة ان « جيمز بروس » قد تمكن من الوصول الى قلب منابع النيل الازرق ، وانه قد تتبع مجرى النهر من بحيرة تانا حتى البحر الابيض المتوسط . وقد كان عمله هذا مقدمة لما اعقبه من جيشان .

* * *



James Bruce جيمز بروس

الفصل الثاني

دون كيشوت* عند منابع النيل

السلامة ! وأين هذه السلامة ؟ فاني
أجد نفسي مضطراً لأن أُقاتل يومياً
من أجل أن أعيش .

الراس ميخائيل

ان نظرة سريعة عابرة لحياة بروس تكشف لنا عن الفجوة العميقة العريضة التي تفصل بيننا وبين تلك الطبقة المحظوظة الممتازة التي كانت تعيش بانجلترا في القرن الثامن عشر . انها طبقة تنتمي الى عالم قد ولى واندثر ، تماما كما اندثرت كل الشخصيات الخرافية التي نسمع عنها كالغول والعفريت وما شابهها . انه عالم كان يتميز بميزات خاصة ويتشبث بتقاليد خاصة ـ عالم يفتخر فيه الشخص بما ورثه عن

---

* Don Quizote رواية اسبانية ذات شهرة عالمية وضعها ميجول سرفاني . بطلها دون كيشوت الفارس المجنون الذي اكثر من قراءة روايات الفروسية حتى خيل له انه قد اصبح فارسا مغامرا فخرج يرافقه خادمه الامين « سانشو بانسا Sanchopansa » ، حامل سلاحه وصاحب الرأي السديد . والمقابلة التي حدثت بين الفارس وخادمه تثير كثيرا من مشاكل اسبانيا في ذلك الوقت بطريقة ساخرة وممتعة للغاية .

المترجم

اجداده من سلاح وعتاد ، ومن ضياع موقوفة ، وتربية علمية محترمة ، وباهتمامه وتمسكه بالاخلاق والتقاليد ، وبتقديس مسئوليته نحو من هم تحت رعايته ، كما يتميز بالتحيز الصارخ الاعمى . ومن ابرز صفات بروس انه كان يكره البابوية (او المذهب الكاثوليكي الروماني) كراهية بعض الناس للثعابين ، وانه كان من انصار الملكية الى ابعد الحدود رغم انه لم يكن يؤمن بما يدعيه الملوك من حقوق إلاهية مقدسة .

كما انه لم يكن يهتم ــ على عكس من اتى بعده من مستكشفين ــ لأن يصبغ اكتشافاته بأية صبغة اخلاقية ، مثل تجارة الرقيق او اسعاد السود بادخال المدنية لبلادهم او ما شابه ذلك من الادعاءات التي ظهرت فيما بعد ، كدعوة الاصلاح والتعليم ، بل كان ينظر للعالم كما هو . وبكل بساطة فهو لم يسافر ويغترب الا ليمتع نفسه بأحسن ما يمكنها الاستمتاع به ، والا ليشبع هوايته في حب الاستطلاع وحب المغامرة .

وكان بروس رجلا عملاقا حتى اذا قيس بزمانه وبيئته ، فكان طوله ستة اقدام واربع بوصات ، وكان ضخما حتى بالنسبة لهذا الطول ، وكان شعره احمر قاتما ، وصوته جهوريا ، وعرف بانه يجيد الفروسية والرماية بالاسلحة النارية . والظاهر انه حيثما ذهب كان يبدي اعجابه وثقته بنفسه وبتفوقه على الغير . ومما ساعده على ذلك طلاقة لسانه وتمكنه من اللغات ، فحتى اللغة العربية واللغة الامهرية لم تتحديا بلاغته . وكان هاويا متحمسا لبعض العلوم كالفلك مثلا ، اما اجتماعيا فقد كان مرتاح البال وفي سعة من عيشه . ويقال انه كان سريع الغضب دائم المبادرة بالشر (وقد وصف نفسه بانه صفراوي المزاج مرهف الشعور شديد الحساسية) . ورغم انه كان كالطفل في غروره وخيلائه وتباهيه ، الا انه كان ثاقب البصيرة قوي الخيال ، وليس هناك ادنى

شك في انه كان رجلا شجاعا شديد المراس لأبعد الحدود .

ومـن الغريب ان بروس رغم مميزاته ، ورغم مواهبه هذه ، لم يكـن محبوبا مـن معارفه لدرجة تذكر . والاغرب مـن ذلـك ان معاصريه كانوا قساة عليـه في غير هوادة ، ولا شك ان طبيعة بروس كانت تفقد عنصرا أساسيا هاما ــ وربمـا كان ما يفقـده هـو عنصر الانسانية ــ فعندما تحكي قصص مغامراته وما كابـده من مصاعب ، وما حالفه فيها مـن توفيق ، يشعـر الانسان شعورا قويا بان هـذا الرجل كان على درجة عظيمة مـن الاعتداد بالنفس والاستقلال الذاتي ، ويشعر ايضا بانه من ذلـك النـوع الذي ينفـّر عنه الناس بما يبديه مـن غرور وتعالي .

ولد بروس في سنة ١٧٣٠ باحدى ضيـاع عائلته بمقاطعة كنـيرد Kinnard باسكتلنده . وقد توفيت والدته بعد ثلاث سنوات مـن مولده ، فتزوج والده مرة اخرى وانجب مـن زوجته الثانية ثلاث بنات وستة اولاد . ولذا فقد كان بروس ، منذ البداية ، في شيء مـن العزلة عـن بقية العائلة ، وذلك لانه كان الابـن البكر مـن زوجة مختلفة ، ولانه كان الوريث الشرعي لاملاك وامتيازات عائلته ، التي يرجع تاريخها كمـا يقال الى ملوك اسكتلنده الاقدميـن . وكان نحيفا في طفولته ، وسرعان ما طال اكثر مما تحتمل بنيته . ومع ذلك فعندما بلغ السادسة مـن عمره ، ارسل الى لندن لتلقي العلم على ايدي معلمين خصوصيين ، والمسافة الى لندن كانت تقطع في سبعة ايام بالمركبات . وفي الثانيـة عشر مـن عمـره ، ارسل الى مدرسة « هارو Harrow » ، وكان يعتبر فيها مـن الطلبة النجباء . وقبل قرنين كان الطفل يتلقى تعليمه في سرعة واتقان اكثر مما هو الحال الآن . ولذلك فعندما بلغ السادسة عشر مـن عمـره اعيـد لاسكتلنده ليواصل تعليمه العالي بجامعة ادنبره . ولـو ترك بروس لاختياره الشخصي لاختار اللاهوت ، ولكن والده اصر على

ان يدرس القانون وكانت هذه غلطة مـن والده ، لأن بروس كـان يكره القانون لدرجة انه سرعان ما اعتلّت صحته ، واستمر لعدة سنين يتقلب بين العطالة والنقاهة في موطنه كنيرد . وأخيرا قرر أن يعود مرة اخرى للندن ليبحث عـن عمل مع شركة الهند الشرقية .

وفي لندن كان كيوبيد له بالمرصاد ، والفتاة التي احبها كانت بنتاً لأحد تجار الخمـور الأثريـاء . وبعد أن تزوج بها التحق بشركة أسرتها فنال بهذه الرابطة مـن الجاه والثراء ما هيأ له الاندماج في المجتمـع الانجليـزي الراقي . وبذلك تهيأت له كل الظروف لبناء مستقبل زاهر ، شبيـه بمستقبل معاصره القريب منه « جيمز بوزول » ، الذي قدر له في يوم مـن الايام ان يرث ضياع عائلته ، ويتبوأ مكانا مرموقا كاحد لوردات اسكتلنده ، وكل ذلك بفضل حبه في لندن . الا ان زوجـة بروس قـد توفيت بعـد تسعة اشهر مـن زواجه بها ، وهـي حبلى ، متأثرة بالسل الرئوي . وعلى المرء ان يتساءل عما اذا كان لاختفاء زوجات بروس الفجائي مـن حياته اي دخل في غظاظته وجفوته واكتفائه الذاتي، فالمأساة ستتكرر مرة اخرى ، بل اكثر من مرة .

وقد توفيت زوجته هذه في باريس وهما في طريقهمـا الى جنوب فرنسا . وأثار بروس منظرا بشعا عند وفاتها ، وذلك عندما رفض رفضا باتا كبروتستنتي ، ان تقام على جنازتها اي مراسيم من قس كاثوليكي روماني . وبعد عناء ومشقة تمكن مـن الحصول على مكان في اطراف المدينة ليدفنها فيه . وما كاد يتم دفنها عند منتصف الليل ، الا وامتطى صهوة جواده وسار به طوال الليل وسط عاصفة هوجاء ، الى ان وصل شاطىء القنال الانجليزي . وعند وصوله مدينة بولون انهـار بروس وخارت قواه ولم يتمكـن مـن متابعة رحلته لانجلترا الا بعد مضـي يوم او يومين .

وكان عمـره اذ ذاك اربعة وعشرين سنة . والظاهر ان هذه المأساة

قد كشفت لبروس عن حقيقة نفسه ، فمنذ ذلك الوقت لم يكن ليتردد ابدا في القيام بأي عمل يروق له . وفي الوقت الذي كان فيه « بوزول » يركـن الى حياة اجتماعية هادئة بلندن ، كان بروس يتلهف للاسفـار فاتجه بغريزته نحـو افريقيا ونحو الجنوب ، وحتى وفاة والده في سنة ١٧٥٨ لم تدفعه للعودة لوطنه .

وظلت حياة بروس لعدة سنين ، هي حياة الشاب الموهوب الذي وطد عزمه على القيام برحلة كبرى . فاتجه اولا للاسكوريال باسبانيـا حيث تعلم اللغة العربية كتابة ونطقا ، ثم قام برحلات عديدة على نهر الرايـن ، ودخل في مبارزة بمدينة بروكسول ، كمـا قام برسم عـدة لوحات لبعض الاطلال بايطاليا . واخيرا وجد له وزراء الملك جـورج الثالث وظيفة قنصل بين قراصنة البربر بالجزائر . ولكنها لم تكن وظيفة سهلة لأن « باي الجزائر » ــ المدعو علي باشا ــ كان رجـلا قاسيـا ينجرف مع نزواته الخاصة ، لا يتردد في القاء القبض على قناصل الدول الاجنبيـة وارسالهم الى غياهب السجـن ، ولا في القاء القبض علـى بحارة السفـن الاجنبيـة التي ترسو في بلاده واسترقاقهم . وكـان شديد الكراهية للقنصل الذي خلفه بروس ، حتى انه كتب عنه لرئيـس وزراء انجلترا انذاك ــ المستر وليم بت ــ ما معناه . « صديقي رفيع المقـام . ان قنصلكم بالجزائر رجل عنيد لا يختلف عن الحيوان » . وكان بروس على ارجح الظنون ، يعلم مدى مهمته ومبلغ خطورة موقفه، ولكنـه في ذلك الوقت كانت تختمـر بعقله خطط غير واضحة المعالـم للوصول الى منابع النيل ــ ذلك اللغز الذي ظل لمدة الفي سنة يتحـدى جميع الرحالة والمستكشفين ، كما كان وصمة على جبين علم الجغرافيا ــ وكانت الجزائر في نظـر بروس خطوة نحـو هذا الاتجاه . وفي سنة ١٧٦٢ وصل بروس للجزائر وهو في الثانيـة والثلاثين مـن عمـره ، وكان في حوزته آلتا تصوير لالتقاط صور الاطلال والآثار ، كما كان معه

عدد من آلات رصد الاجرام السماوية ليستعين بها في رحلته في القارة الافريقية . وعند وصوله الجزائر وجد الامور اسوأ بكثير مما قدر ، فقد كان الباي في ثورة عارمة لان الانجليز والفرنسيين كانوا قد استولوا على احدى سفنه ، وكان همه الوحيد الثأر والانتقام لهذا العمل العدائي . وفي الاشهر الاولى لاستلام مهام منصبه رأى القنصل الفرنسي يرسل الى المنفى مكبلا بالاغلال ، كما ان « فوربز Forbes » ـ مساعد بروس ـ قد هدد بعقوبة الف جلدة ، فاضطر ان يهرب ويختفي عن الانظار ، وبروس نفسه لم يكن ليتجرأ للخروج من قنصليته الا نادرا . وفي يوم من الايام ذهب لمقابلة الباي فصادف ان رأى احد رجال البلاط يقتل خنقا امام عينيه . وكان على بروس ان يتحمل هذا الوضع لسنتين كاملتين . قبل ان تعفيه حكومته عن مهام منصبه ، وتأذن له بمواصلة رحلته للشرق . وسافر من الجزائر متتبعا الساحل الشمالي لافريقيا ، مارا بمدن الشرق الادنى واطلالها الكثيرة . وكانت رحلته هذه اشبه ما تكون برحلات « بايرون » [1] الحافلة بالمخاطر ـ يلتقي احيانا بقطاع الطرق ، واحيانا ترتطم سفينته وينجو باعجوبة ، واحيانا اخرى يدخل في عراك وصراع بالايدي . وهكذا استمر الحال على طوال الطريق .

وعندما حلت سنة ١٧٦٨ كان صاحبنا بالقاهرة وبصحبته سكرتير ايطالي يدعى لوجي بالوجاني Liugi Balugani . وكان متخفيا في زي الدراويش . واخيرا ، في هذه المدينة تتكشف له خطته العظيمة في

---

١ ـ John Byron جد الشاعر الانجليزي المعروف ـ اللورد بايرون ـ كان ضابطا في البحرية الانجليزية وقام برحلة حول العالم مع انسون ANSON الا ان سفينته « وادجر Wadger » تحطمت فصادف كثيرا من المصاعب والمخاطر التي كانت موضوع عمله الادبي الذي قام به بعد عودته سالما لوطنه (١٧٢٣ ـ ١٧٨٦) ...
المترجم

وضوح ، فيصمم على القيام برحلة على النيل الى مجاهل اثيوبيا الشاسعة .

وهناك جوانب عديدة غير اعتيادية في هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي صمم عليها بروس . فقد كانت رحلة مغلفة في كثير من الغموض والابهام ، لا لأن البقاع التي زارها لم تكن معروفة لدى العالم فقط ، ولكن لأن عامل الزمن زادها غموضا على غموض . فرحلته هذه قد جاءت بعد سبعين سنة من زيارة « بونسيه » لاثيوبيا ، كما انه لم يقدر لأي شخص من اوروبا الوصول الى هذه الاماكن الا بعد مرور ثلاثين سنة اخرى بعد زيارة بروس هذه التي تمت في سنة ١٧٧١ . كما ان سكرتيره (لوجي بالوجاني) لقي حتفه بغندار ، ولذا فان بروس هو شاهد العيان الوحيد لما حل بهما (بروس وبالوجاني) في هذه الاماكن . ثم ان قصته لم تجد زميلا معاصرا ليؤيدها او يكذبها ، فهي كقصة ماركوبولو تماما ، لا تتعدى ان تكون قصة شخصية بحتة . والاشخاص الذين كتب عنهم في ثقة ومعرفة تامة ، لم يكونوا معروفين في اوروبا وفي العالم المتمدن ، اكثر من معرفتنا الآن بالفضاء الخارجي . وقد كتب مؤرخه « فرانسيس هيد » ان بروس بعد عودته من هذه الرحلة كان يتحدث عن قوم يلبسون الاخراس في شفاههم بدل آذانهم ، ويدهنوا اجسامهم بدم البقر لا بدهن الدب او المراهم العطرية ، وعن قوم يتزينون بامعاء الحيوانات واحشائها بدل ان يصنعوا منها اوتارا لآلاتهم الموسيقية ، ويلعقون دم الحيوانات وهي حية بدل ان يطهوا من لحومها طعاما شهيا ، كما كان يتحدث عن « الدعارة في ابشع صورها » ، فقط لانها كانت تختلف عما عرف الغرب من دعارة . وتحدث ايضا عن رجال يصطادون بعضهم البعض كاصطيادهم للوحوش ، وعن امهات لم يبلغن العاشرة من اعمارهن . كما ذكر انه رأى جموعا من البشر والحيوانات الضخمة وهي تفر هاربة في ذعر وهرج امام جيش من

الذباب الصغير . وبالاختصار فقد قال لهم الحق وكل الحق ـــ غير ان الحق الذي ذكره كان بالغ العظم ، بل كان أعظم وأقوى ممـــا يقبله العقـــل .

وكان هناك مأخذ آخر يقلل مـــن نجاح رحلة بروس ، وهو انه كان يؤمن ايمانا قاطعا بالنظرية الخاطئة التي تقول بان النيل الازرق هو النهـــر الرئيسي ، وان النيل الابيض ما هو الا رافد مـــن روافده . غير ان هذا لم يكـــن من الاهمية بمكان ، فكل رحلة في افريقيا في ذلك الوقت كانت تضيف جديدا لمعلوماتنا ، والنيل الازرق لم يكـــن اقـــل مـــن النيل الابيض في اهميته مـــن جميـــع الوجوه .

وبدأ بروس رحلته متقفيا آثار « بوكوك » و « نـــوردن » عـــلى النيل ، ولكنه عندما وصل اسوان وجد طريقه موصدا بسبب الحروب المحلية التي كانت قائمة ، فرأى ان يتجه الى البحر الاحمر ، ولذلك قفل راجعا الى بلدة « القص » التي تقع شمالي الاقصر ومنها سلك طريـــق الصحراء الى القصير . ثم عبر البحر الاحمر الى جـــدة ، حيث وجـــد قنصل بريطانيا الـــذي مد له يد المعونة لاتمام رحلته . وفي سبتمبر سنة ١٧٦٩ وصل الى مصوع التي كانت تحت قبضة عصابات مـــن القراصنة اشد فتكا ووحشية مـــن تلك التي خلفها وراءه بالجزائر . ولذلك لـــم يتسن له ان يتخلص مـــن مصوع الا بعد مضي شهريـــن من وصوله لها ، وفي نوفمبر مـــن نفس السنة كان في طريقه الى داخل البلاد .وحتى هذه اللحظة كان بروس يسير في طريق معروف ، طرقه آخرون من قبله ، اما بعد مصوع فقد كان يقف وجها لوجه امام المجهول .

وكانت حملته مكونة مـــن نحو العشرين رجلا بما فيهم لوجـــي بالوجاني ورجل من المغاربة يدعى ياسمين ، اوكلت اليه رئاسة الحملة . هذا بخلاف الحمالين الذيـــن كان اهم عمـــل لهم ان يحملوا مزولـــة

ضخمة وعددا من الآلات العلمية . وتحصلوا من مصوع على ستة حمير ، استعملوا بعضها للركوب وبعضها لحمل الزاد ، الا ان بروس كان دائما يفضل ان يسير راجلا . وفي ظرف ثلاثة اسابيع تمكنوا من اجتياز السهل الساحلي ، ثم اخذوا في الصعود عبر الدروب الجبلية الى ان وصلوا مدينة عدوة التي كانت تضم نحوا من ثلاثمائة منزلا ، وكانت احد المعاقل الحصينة للبلاد . وهنا وجد بروس تحذيرا ماديا لما يكمن امامه من مخاطر ، فقد رأى مئات من الضحايا البؤساء محبوسين في اقفاص من الحديد ، في انتظار ان يجمع ذووهم ما يكفي من المال ليفتدوهم به . ورغم ذلك فقد واصل طريقه لعاصمة البلاد القديمة « اكسوم » ، وفيها شاهد نحو اربعين مسلة ، واطلالا لمعبد ضخم . ثم استمر حتى وصل غندار ، قاعدة الحكومة في ذلك الوقت ، وفي هذه المرحلة من الطريق ، كان ان حدثت حادثة اللحم النيء المشهورة التي حكاها بعد عودته لانجلترا ، والتي كانت مصدرا للتندر بين الاوساط الراقية . فقد ذكر بروس انه رأى ثلاثة من الاثيوبيين يلقون بقرة الى الارض ويقطعون شريحتي لحم من فخذها ، ثم يشبكون الجلد فوق الجرح بابر من الشوك ، ثم يضعون شيئا من الطين فوق الجلد المخاط ، ثم يرفعون البقرة ويطردونها لترعى . وبعد ذلك جلس ثلاثتهم ليلتهموا اللحم الطازج دون ان يحاولوا طهوه .

وفي منتصف فبراير سنة ١٧٧٠ ، اي بعد مضي خمسة وتسعين يوما من مغادرتهم لمصوع ، وصلت القافلة الى غندار واستقر بروس في منزل بحي المسلمين . وكانت غندار هي العاصمة كما ذكرنا من قبل ، اما اديس ابابا فلم تكن قد ظهرت في الوجود بعد . وكان بالمدينة حوالى العشرة آلاف أسرة يسكنون في منازل من الآجر ، تعلوها سقوف من القش مخروطية الشكل . اما القصر الملكي فكان عبارة عن بناء مربع يحيط به سور عال ، وعلى جنباته عدد من الابراج ، وكان

يطل على منظــر طبيعي رائع يمتد حتى بحيرة تانا . وكان بالقصر قاعة استقبال فسيحة يبلغ طولها نحو المائة وعشريــن قدما ، غير ان البلاط الملكي كان يقضي معظم السنة بالخيام متتبعا الجيش في ترحاله الدائــم بين تعاريج الهضاب الاثيوبية دون ان يستقر في مكان واحد .

وكانت الاحوال في اثيوبيــا تسير في غرابة اشبه بالحلم المزعج ، وكمــا قال بروس في كتابه الذي وضعه عــن هذه الرحلة ـ ان مــا يجري من احداث لم يكن بينها اي انسجام او اي شيء من المنطق ـ فقد كان ذلك العصر هو عصر المآسي الكبرى التي اشتهرت بها القرون الوسطى ، عندما كانت القسوة تنصب اثر القسوة في غير رحمة او لين ، والذعــر يأتي فوق الذعــر في غير هوادة او مهادنة ، حتى لينصهر كل شيء في بوتقة مــن الوحشية العارمة وسفك الدماء البريئة دون تميز . ويصف لنا بروس كل ذلك في دقة ووضوح ، فجيوش زاحفة لتلتحـم بجيوش زاحفة في اتجاهها (وكلها جيوش قليلة العدد هزيلة العتاد) ، وحروب هنا وهناك ، والولائم الهمجية ، والغدر والخيانة والتأنــق الخطابي ـ ويذكرنا كل ذلك بالصينيين في مسرحياتهم التقليدية ، فــهم يتناولون مثل هذه المواقف المسرحية في مقدرة فائقة . فالقائد يتبختر في زهو وخيلاء فوق خشبة المسرح ملوحا بحسامه يمنة ويسرة ، ويمكننا ان نستدل على مبلغ خطره بعدد الاعلام الصغيرة المثبتة على قلنسوتــه . وبينما هو يتحدى عدوه يقف وزيره بجانبه في تجهم وانفعال . وفجــأة يخرج مــن المسرح في خطوات عسكرية موقعة على انغام الالحــان الموسيقيــة ، ليحل محله غريمه الذي عادة ما يكون اشد فظاعة مــن الاول في منظره ومظهره ـ يعلو شفتيه شاربان كثان حالكا السواد ، مما يزيد في غروره ورهبته ، واضعا يده على مقبض خنجره في تحــد وانفعال . ثم تأتي المعركة ، وهي اشبه ما تكون بالمناظرة ، تتخللهــا ايماءات منتظمــة وتلويح بالايدي موقع ، وعبارات رنانة ، لا تدل على

شيء ولا تحمل اي معنى او مغزى . ثم ترتفع الضجة ويعلو الصخب ، وهجوم هنا وهجوم هناك ، وتنتهي المسرحية بان يكون هذا الجانب منتصرا وذلك مدحورا . وتتكرر المسرحية مرة اخرى ــ وهكذا .

قد يكون في ذلك شيء من المتعة عندما تمثل هذه المواقف كمسرحيات خيالية ، ولكنها عندما تكون احداثا واقعية فان روح المسرحية ينعدم ، ويصبح الرعب بشعا يهد الروح والجوارح معا . ويحق لنا ان نتساءل عن الاسباب التي تدفع بالانسان ليكون في مثل هذه الوحشية ... ويشعر القارىء لكتاب بروس ان هؤلاء القوم قد كتبت عليهم الرغبة الملحة في الموت والسعي الدائم للفناء ، فكأنما ولدوا ليبغضوا بعضهم البعض ، وليفتكوا ببعضهم البعض . ولأن يتمسكوا ظاهريا بالمسيحية ثم يمارسون ضروبا من الحفاوات الفجة السافلة من عباداتهم وتقاليدهم ، مما يزيد الامور سوءا على سوء .

وعندما وصل بروس الى غندار ، كان الملك الشاب «تكلاهيمانوت» ووزيره الراس ميخائيل ــ الذي كان الحاكم الفعلي للبلاد ــ كانا في ذلك الوقت في احدى غاراتهما التأديبية ، ولذا فقد قدم فروض الولاء والطاعة للملكة الوالدة . والظاهر انها كانت على جانب كبير من الذكاء ، فعندما اخبرها بروس في أحد الايام بالغرض من زيارته للحبشة ، صاحت قائلة : « تعالوا وانظروا كيف ان الحياة تمدنا كل يوم ببرهان جديد على ما في الطبيعة البشرية من التواء وتناقض ! أتقول انك قطعت كل هذه المسافة من بيت المقدس ، مخترقا الدول التركية الخسيسة ، ومتحملا الاجواء المتقلبة ، لا لتفعل شيئا اكثر من ان ترى نهرا وينبوعا لن تتمكن من حمل أي جزء منهما معك مهما بلغت قيمتها المادية ؟ أأتيت لهذا الغرض ، بينما يوجد عندكم في بلادكم ما هو اكبر واحسن وانقى منهما الف مرة ؟! ... أنت تفعل ذلك بينما أنا ، ام الملوك التي جلست على عرش هذه البلاد اكثر من ثلاثين عاما ، ليست

لي الا امنية واحدة ارددها ليلا ونهارا ، الا وهي ان أحمل ، عندما انتهي من هذه الدنيا وما فيها ، الى حيث كنيسة القبر المقدس ، لاقضي ما تبقى لي من عمر استجدي الحسنات واعيش عليها آخر ايامي في هذه الدار . كما اتمنى ان ادفن اخيرا في الطريق العام على مرأى من باب الهيكل المقدس الذي ثوى به جثمان مخلصنا الاعظم في يوم من الايام .

اما ابنتها « اوزورو » التي هي في نفس الوقت زوجة الراس ميخائيل ، فقد كانت على جانب كبير من الجمال ، وقد اجتذبت عطف بروس بنوع خاص لان اعصابها كانت متأثرة بما يجري حولها من قسوة ووحشية ، حتى انها اصبحت شبه مختلة . ومن الغريب ان بروس لم يذكر عن تكلا هيمانوت ولا عن الراس ميخائيل قدر ما ذكره عن الملكة الوالدة وابنتها اوزورو . وعندما ذهب لمقابلة الملك ووزيره لاول مرة ، وجدهما منهمكين في فقأ اعين عدد من اسراهما . وبروس لا يحدثنا عن الملك شيئا يذكر ، بينما يبرز الراس ميخائيل كشخصية واضحة المعالم — فهو طاغية جبار ، ابيض الشعر ، في العقد الثامن من عمره — أشبه ما يكون في مظهره ببارونات القرون الوسطى — وعندما عاد الراس ميخائيل من غزوته دخل غندار في موكب حافل ، مرتديا عباءة من المخمل الاسود المحلى بالفضة ، وكان يسير في ركابه ساع يحمل صولجانا من الفضة . ثم دخل الجيش من خلفه . وكل جندي قدّر له ان يقتل رجلا من الاعداء ، كان يرفع خرقة حمراء على نصل رمحه ، تتدلى بجانبها خصيتا ضحيته .

وبعد يوم او يومين من وصول الراس ميخائيل ، تم استقباله الرسمي لبروس ، وكان جالسا على اريكة يحيط به اتباعه من الجانبين ، وشعره يتدلى في خصل مجعدة . ورأى بروس فيه رجلا ممشوق القوام، مهابا ، يبلغ طوله نحو الستة اقدام وله عينان تدلان على الذكاء الخارق.



اوزورو Ozoro

زعيم أثيوبي في عهد بروس

وقام بروس ، عندما دخل عليه ، بما تقتضيه تقاليدهم بتقبيل الارض بين قدميه ، اظهارا لخضوعه وتذلله ، فاستقبل استقبالا كريما . وبعد ان حذّر ميخائيل ضيفه من مغبة السماح لنفسه بالتجوال منفردا في ارجاء الدولة ، نصّبه قائدا على سرية من فرقة فرسان الملك .

ومما يدعو للدهشة ان يتمكن بروس من أن يعيش ويحظى بشيء من التكريم بين هؤلاء القوم القساة ، الذين تدعوهم غريزتهم اول ما تدعوهم لقتل اي غريب ونهب امتعته . ولكن بروس قد كانت له ميزة خاصة كرجل شاذ في اطواره ، كما كان يحمل معه محفظة ضخمة مليئة بالخطابات من سلاطين القسطنطينية ومكة ومن والي القاهرة . غير ان هذه الخطابات لم تكن لها قيمة تذكر في هذا الوسط المسيحي المتوحش. ويحدثنا بروس بان المحاربين الاثيوبيين قد اعجبوا جدا بقوته وبفعالية سلاحه الناري الحديث ، وخصوصا عندما كان يرمي حداء الجبال بسلاحه وهو راكض على صهوة جواده الاسود . وقد ساعدت خبرته الطبية على الترحيب به ، خصوصا لأن بعض الامراض الفتاكة كالجدري، كانت مستوطنة في هذه البلاد . ومما افاده كثيرا انه كان يتكلم العربية واحدى اللهجات المحلية ، واخيرا وليس آخرا ، ربما كان العامل الرئيسي في نجاته هو شخصيته وثقته المفرطة في نفسه . والمستكشفون في افريقيا نوعان ، النوع الاول هم عشاق الطرافة والمتنكرون الذين قد يرون في اتخاذهم للزي المحلي حماية ووقاية لهم ، فيدعون انهم تجار او حاملو رسائل او حجاج في طريقهم لمكة ، ويتنقلون من مكان لآخر على هذا الاساس . والنوع الآخر هم الواقعيون الذين يكشفون عن شخصياتهم في شجاعة، و يسكتون كل مقاومة بأن يشقوا طريقهم نحو غايتهم في ثبات وثقة .

ولم يكن بروس بالرجل الغبي في التأثير على الغير ، فهو يحدثنا بانه كان يلبس درعا من الزرد عليه عباءة ويتمنطق بحزام براق تبرز من

جيوبه المسدسات ، كأي زعيم من زعماء البلاد ، ولكنه في اغلب الاحيان كان ينتمي الى جماعة الواقعيين . وكان ذا خبرة طيبة بما يحاك في بلاط ملوك القرن الثامن عشر من دسائس ، وكان يعرف متى يدلي بالكلمة الطيبة التي تكسب العطف والاحترام . وقد ذكر في كتابه العبارة التالية : « الانسان هو الانسان اينما كان ومهما اختلف لونه ، والبلاط الملكي في لندن والبلاط الملكي في الحبشة لا يختلفان في اسسهما » .

وهكذا استطاع بروس ان يكسب ثقة هؤلاء القوم ، فبعد ان طهّر قصر الملكة الوالدة من الجدري ، وبعد ان غازل اوزورو وتملق الراس ميخائيل ، وجد انهم على اتم استعداد ليسمحوا له بالذهاب معهم في اول حملة قادمة لهم الى جنوب بحيرة تانا ، حيث تمرد زعيم يدعى « باسيل » وشق عصا الطاعة على العرش .

وهذه هي الجهة التي كان بروس يتوق للذهاب اليها بالذات ، الا انه قد أصيب بخيبة امل كبرى عندما استسلم باسيل قبل ان تصل الحملة الى نهر اباي الصغير ، الذي كان يعتقد انه المنبع الحقيقي للنيل ، ولكنه استطاع ان يصل الى النيل عند مخرجه من بحيرة تانا ، ومن هنا اتجه الى الجنوب الشرقي نحو مساقط تيسيسات التي وصفها بروس بانها « أعظم منظر وقعت عليه عيناي في حياتي الا أن هناك شيئا من المبالغة فيما ذكره الارساليون عن ارتفاعه عندما قدروه بستة عشر ذراعا ، اي ما يساوي خمسين قدما . ولا شك في انه من الصعوبة ان يتحصل الانسان على مقاس دقيق لارتفاع المسقط ، الا انني قد استخدمت بعض العصي والشواخص المختلفة الاطوال ، وبوضعها على ارتفاعات مختلفة فوق الصخور مبتدئا من حافة الماء ، تمكنت من الحصول على مقاس تقريبي . وفي استطاعتي ان اقول ان ارتفاع المسقط اقرب الى الاربعين قدما منه الى مقاس آخر . وقد زاد النهر في هذا الوقت زيادة كبيرة بفعل الامطار فكان يتدفق في غزارة كأنه صفحة واحدة من الماء

يزيد عرضها عن نصف الميل الانجليـزي ، ويتساقــط في قــوة ودوي يصمان الآذان ، خارت لهما قواي واصبت منهما بدوار . هذا ، وترتفع فوق المسقط من جميع الجهات طبقة كثيفة من الضباب تمتد على طول مجرى النهر ، موضحة مجراه رغم تعذّر رؤية الماء ــ انه منظر لا يمكن ان يمحوه الزمن من مخيلتي مهما طال بي الاجل ، حتى ولو تضاعــف عمري احقابا فوق احقاب ــ ثم انتابني شيء من السبات والذهـــول نسيت معهما اين انا ، كما نسيت كل شيء عن هذا الوجود عدا ذلــك المشهد . وبالاختصار فقد كان اروع وادهش ما في الوجود اطــلاقا رغم اكاذيب القسس الحقيرة المملوءة حقدا وتعصبا ، والتي حاولوا ان ينالوا بها من روعته » .

وهذه الفقرة واضحة الدلالة ، فاضحة لمعدن الرجــل وطبيعته . وهي بلا شك تزودنا بمفتاح قيم ، لا عن طبيعة بروس وحسب ، بل عن طريقة عرضه للرحلة فيما نشره عنها بالجزر البريطانية فيما بعد ، فهي لا تخلو من المآخذ . فهناك اولا عدم الدقة في العرض والتصوير مما يدعو الى الدهشة والعجب • ونحن لا نلومه كثيرا على تفخيم ما كان امامه ، فمعظم المستكشفين كانوا يرتكبون نفس الخطأ ، الا وهو التهويــل والمبالغة . والحقيقة ان شلالات تيسيسات رائعة فعلا، ما في ذلك شك ، ولكن لان يقال عنها انها « اروع وادهش ما في الوجــود اطــلاقا » ، فعبارة فيها الكثير من المبالغــة وفيها طعــم القصص لا امانة المؤرخ ، ورائحة الشعوذة لا دقة رجل العلم والمعرفة .

ثم عندما يأتي لذكر الحقائق يجعل الشلال اكثر اتساعا مما هــو عليه فعلا ، ويقلل من ارتفاعه الى ما دون الثلث . فارتفاع المسقط ليس اربعين قدما كما ذكر ، بل مائــة وخمسون . والاشــارة الى المبشرين بعبارة « اكاذيبهم الحقيرة المليئة حقدا وتعصبا » ممــا يدعو للاســف والرثــــاء .

اما عن القسس وما قاموا به من اعمال ، فقد كان هناك قسيسان برتغاليان قاما بزيارة اثيوبيا في اوائـــل القرن السابع عشر ، اي قبـــل بروس بحوالى مائة وخمسين سنة ، كـــان احدهما يدعـــى بدرو بيز Pedro Peas ، والثاني يدعى جيروم لـــوبو Jerome Lobo وكان بيز هو اميز الرجلين . فهو بعد ان قضى عدة سنين كأسير في بلاد العرب ، ذهب لاثيوبيا وتمكن في سنة ١٦٢١ من اقنـــاع الامبراطـــور « سوزينوس » باعتناق المذهب الكاثوليكي الروماني . وهناك اطلال لكنيسة رائعة في « قورقرة » الواقعة في الطرف الشمالي لبحيرة تانا ، تشهد لبيز بمقدرته في الفن المعماري وبمهارته كبناء . اما لوبو فقـــد اتى بعد بيز لاثيوبيا وترك نبذة عن رحلة قام بها لشلالات تيسيسات ، ذكر فيها انه تسلق الى حرف مـــن الصخر تحت مسقط المياه ، يقع بينها وبين حرف الجبل . ومن هذا المكان نظر خلال المياه المتساقطة ورأى قوس قزح في الفرجة التي بين الجبال . وقـــد سمـــح بروس لنفسه ان يسخر ويتشكك في هذا القول عندما ذكر : « ان القصـــة من اساسها كذب صارخ » وانه يستحيل لشخص ما ان يصل الى تلك البقعة التي تقع تحت ذلك الماء الفوّار المتصاعد الذي يدوي كأنـــه الرعـــد ، ثـــم اضاف : « ولنفرض ان صاحبنا الراهب قد تمكن من ان يحتل مكانـــه الخيالي تحت منحنى ذلك القوس الهائل من الماء ، فلا بد اذن ان يكون قد منح من رباطة الجأش ما لم يمنحه الشخص العادي ، الشيء الذي لا يمكن ان يكون من نصيب من يعيش حياة الرهبنة . ولا بد ان يكون له من الثبات ورباطة الجأش وقوة الجنان ، قدرا غير طبيعي حتى يتمكن من ان يتفلسف في علم المرئيات وهو في مكان كهذا يبدو منه كل شيء متحرك امام عينيه المضطربتين ، بينما يحكي صوت المـــاء المنهمر ، في قوته وفورانه ، افظع ما يكون الرعد قصفا وازيزا ، حتى ليخيل للرائي ان الصخر يهتز من اعماقه ، وانه سيمزق كل عصب من اعصابه ، ويجرده

من جسيع حواسه ولا تبقى منها غير حاسة السمع » .

وفي غمرة هذا التردي من المغالطات نسي بروس حقيقة واحدة ، وهي انه عندما زار هذا الشلال كان النهر في فيضانه ، اما لوبو فقد زاره في عيد الميلاد ، وفي هذا الوقت يكون النهر في اقل حالات انحساره. وفي الواقع ان الكولونيل تشيزمان ــ اعظم مخططي النيل الازرق في العصور الحديثة ــ تمكن فعلا من الجلوس تحت مسقط الماء في نفس البقعة التي جلس فيها الاب لوبو من قبل ، وذلك في مايو سنة ١٩٢٦ عندما كان تشيزمان يقوم ببعض الدراسات لطبيعة النهر . وفي طريقه هابطا من سطح الربوة امسك احد رجاله بذيل ثعبان ظنا منه انه فرع شجرة فقضى نحبه .

الا ان بروس كان شديد الغيرة والحساسية فيما يتعلق باكتشافاته (كغيرة المحب الولهان) ، كما ان كراهيته لليسوعيين كانت فريدة في نوعها . وهذا الهجوم على لوبو كان مقدمة لهجوم اشد واعنف سيجيء ذكره بعد قليل .

وعلى اي حال فقد فشل بروس من تحقيق غايته في الوصول الى منبع اباي الصغير وعاد مع الجيش الى غندار حيث المكايد والتمثيل بالاسرى وحيث التعذيب والتقتيل . ثم مرض بالحمى (التي لا شك في انها كانت الملاريا) واستمر مرضه لزمن ليس بالقليل . ولذلك لم يتمكن من القيام بمحاولة اخرى قبل اكتوبر من سنة ١٧٧٠ ، ولكنه في هذه المرة سافر في جماعة قليلة العدد ، تتكون من بالوجاني ورجل يوناني يدعى « استراتس » ومعهم بعض الحمالين لترحيل المزولة . وكانت البلاد تستمتع بفترة من الهدوء ، وبروس يتمتع برضاء الملك ورضاء الراس ميخائيل لدرجة انه عين حاكما على ولاية « قش » التي يتوسطها منبع أباي الصغير . غير ان ذلك لم يكن الا تعيينا صوريا ، لان بروس لم تكن لديه الامكانيات او الرغبة ليستوطن في هذه البلاد . ومع ذلك

فقد كان تعيينه هذا بمثابة جواز مكنه من القيام برحلته وهيأ له ان يكتسب اعجاب الزعماء الذين قابلهم في طريقه . وبدأ رحلته بأن طاف حول الجانب الغربي لبحيرة تانا ، ثم تتبع وادي اباي الى ان وصل جبال « قش » التي تبعد نحو سبعين ميلا جنوب البحيرة . وقطع آخر مرحلة من مسيرته في الرابع من نوفمبر ١٧٧٠ ، عَبْر منطقة تكثر فيها الشجيرات المزدهرة والطيور الاستوائية الزاهية الالوان ، وتشرف على مناظر جبلية شاسعة تبدو للعيان من مسافات بعيدة . ففي عصر ذلك اليوم وبعد ان بلغوا في رحلتهم هذه علو ٩،٥٠٠ قدم ، مروا بالقرب من كنيسة ريفية صغيرة ، وهنا اشار الدليل الى مستنقع صغير تتوسطه ربوة ، قائلا ان هذا هو منبع النيل .

وهنا يقول بروس « فما كان مني الا ان قذفت بحذائي وركضت هابطا الجبل نحو جزيرة صغيرة خضراء كانت تبعد نحو مائتي ياردة ، وكان سفح الجبل مكسوا من جميع جهاته بنبات غزير مزهر ، اخذت تنفسخ جذوره البصلية تحت قدمي ، مما كان السبب في سقوطي مرتين قبل ان اصل حافة المستنقع . ثم دخلت الجزيرة ذات الخميلة المخضرة التي تتوسطها كالمحراب ... وهنا وقفت يغمرني السرور وتهزني الغبطة ... » ولم يكن هنالك تيار ظاهر للماء ، ويبدو انه كان يرشح من عيون صغيرة حول المستنقع ثم يتجمع في بركة صغيرة ، صافيا عذبا باردا ، وفي هذه اللحظة كان في نظر بروس مقدسا ايضا . وهنا يقول بروس : « لان يتخيل القارىء حالتي النفسية ، اسهل بكثير من وصفي لها ، فلان اقف في تلك اللحظة عند ذلك المكان الذي اذهل كل العباقرة من اقدمين ومحدثين على السواء ، والذي اعيا كل ما قاموا به من محاولات ومن تقصي لما يقارب من الثلاثة آلاف سنة ــ لما يدل على انني انتصرت هنا ، في هذا المكان رغم انني لست الا فردا عاديا من البريطانيين ــ لقد انتصرت ذهنيا على الاقل ــ وانتصرت على جميع

الملوك وعلى كل ما يملكون من جيوش » .

ويخبرنا بروس بانه بعد ذلك مباشرة مني باتتكاس لم يكن في الحسبان ، فبعد ان انتصر وبعد ان حقق ما كان يبدو في حكم المستحيل، وبعد كل المشاق التي قاومها وجاهدها ، اذا به يجد ان الحافز الذي دفع به للقيام بهذه الرحلة قد تلاشى فجأة وعلى غير انتظار ، وها هو الآن يواجه الطريق الطويل للعودة لوطنه . وهنا يقول بروس : «فاذا باليأس يتسرب الى نفسي وينسف كل ما نسجته لها من اكاليل للمجد والانتصار، غير اني صممت على ان اصرفها عن هذا الاتجاه في الوقت الحاضر الى ان اتمكن ، في تفكير هادىء ، من مقاومة هذا الشعور ووقف تطوره . وفي هذه اللحظة لمحت استراتس وهو ينتظرني على جانب الجبل فناديته قائلا : « اي استراتس ! تعال يا خادمي المخلص وتمتع بالنصر مع سيدك « دون كيشوت » في جزيرة « باراتاريا » [1] هذه التي كان من حسن طالعنا ان وصلنا اليها ــ هيا شاركني هذا الانتصار الرائع ــ الذي تفوقت به على جميع ملوك الدنيا بما لديهم من جيوش جرارة ـ ـ انه انتصار على جميع فلاسفتهم وجميع ابطالهم » الا ان استراتس اجابني قائلا . « انني لا افقه كلمة واحدة مما تقول يا سيدي ، وانت تعرف جيدا انه لاحظ لي من العلم والمعرفة مهما كان قليلا . غير انني ارى انه من الخير لك ان تترك هذا الغدير » . وليؤكد بروس لاستراتس فرحته اخذ وعاء من قشر جوز الهند كان يستعمله ككوب للشرب وملأه من ماء الغدير ثم اجبر استراتس ليشرب نخب الملك جورج الثالث وقائمة طويلة من الامراء ، ثم كوبا آخر على نخب كاترين ملكة جميع الروس ــ وهذه العبارة الاخيرة

---

(١) هي جزيرة دون كيشوت الخيالية التي نصب عليها وزيره « سانكو بانزا » حاكما ، والتي اكتشف فيها هذا الاخير ، بطريقة ساخرة تثير الضحك ، كيف ان سلطة الملوك ما هي الا سلطة صورية ، وكيف انهم يخضعون لسلطة رعاياهم بدل ان يخضعوا رعاياهم لسلطتهم .

كانت اشارة الى اصل استراتس اليوناني لأن كاتريــن في ذلك الوقت كانت تهاجم الاتراك في بحر ايجه ـ وكان هناك نخــب آخــر ليشربه استراتس عندما صاح فيه بروس قائلا : « والآن يا صديقي هاك نخبا لشخص متواضع ولكنه مقدس لدي ـ هاك نخبــا لماريا . فسألــه استراتس عمــا اذا كان يقصد مريم العذراء ؟ فاجاب بروس قائــلا : « اعتقــد ان هذا هو ما قصدته » . وسنسمع عــن هذا الاسم فيما بعد عندما يعــود بروس لاوروبا .

وكان الموقف غريبا في حد ذاته ، يطغي عليه الوهم والخيال ، وهو اقرب الى موقف « لير »[1] والابله فوق « المرج الملعون » ، منه الى موقف كيشوت وسانكو بانزا . فلو كان بروس يبحث عــن منبع النيل فقد اخطأه التوفيق لأن هذا النهر (اباي الصغير) ليس بالنيل ، ولأن المنبع الحقيقي يقع عند بحيرة فكتوريا التي تبعد نحو الف ميل من هذا المكان . ليس ذلك فقط ، بل قد كان يبحث في المكان الخطأ عن النهر الخطأ ، لان تشيزمان كمهندس قد قرر ان التيار الخارج مــن بحــيرة تانا يجب ان يعتبر المنبع الحقيقي للنيــل الازرق .

وهناك وهم اخطر مــن هذا تردى فيه بروس ، وهو اعتقاده بانه اول اوروبي يصل الى هذه البقعة من الارض ، فقد كان مخطئا تمــاما في هذا الاعتقاد لان « بدروبيز » قد وصل الى هذا المكان في سنــة ١٦١٨ وكتب عــن تجاربه بكل وضوح . وكان ما كتبه بيز شبيها بمــا ذكره بروس ، فقد قال : « عندما كنت هنا في سنة ١٦١٨ مع الملــك وجيشــه ، صعدت الى اعلا المكان ، وراقبت كل شيء بدقة وتمعن . فرأيت اول ما رأيت ، نبعين مستديريــن يبلغ قطر كل منهما نحو الاربعة

---

(١) شخصية خرافية لاحدى مسرحيات شيكسبير ، البطل فيها ملكا من ملوك انجلترا ، كان ضحية لتصرفات بناته الشاذة .
المترجم

اشبار ، كما رأيت ــ والبهجة تغمرني ما لم يره «قورش» [1] ملك العجم، و«، لم يره قمبيز أو الاسكندر الأكبر ، ولا حتى يوليوس قيصر الذائع الصيت . أما المنبعان فليس لهما منفذ في السهل الذي على رأس الجبل بل يتدفقان عند سفحه ، ويبعد كل منهما عن الآخر بمقدار رمية حجر » . ويمضي الرجل في وصف المستنقع وما يحيط به بمنتهى الدقة والتفضيل . ولا يجدي بروس شيئا ان يدعي ان كل ما جاء به بيز من ابعاد لم يكن صحيحا ، وان ما كتبه كان مبنيا على السماع . فليس هنالك ادنى شك في ان بيز قد وصل الى هذه البقعة قبل بروس بحوالي ١٥٠ سنة . اما هجوم بروس عليه فقد كان هجوما حاقدا غير كريم ، مما يدعو للكثير من الاسف . ولا شك في ان بروس قد ساهم مساهمة عظيمة في بناء معلوماتنا عن النيل وعن الجزء الشمالي الشرقي من القارة الافريقية ، وانه كان من الرواد العظام ، ولم يكن في حاجة ليختلس اسلاب الغير او يسيء الى سمعتهم . وهو شخصيا ، سرعان ما عرف مبلغ المرارة التي تأتي من مثل هذا الجحود ، وذلك عندما واجه نفس الموقف فيما بعد .

ولا شك في ان هذا الجدل كان تافها من اساسه ــ فمن الذي كان يهتم باكتشاف نبع بعيد في اقاصي اثيوبيا ؟ ــ ومع ذلك فالحقيقة الثابتة هي ان جميع الملوك القدماء ــ من قورش الى قيصر ــ قد اضاعوا وقتهم سدى في هذا الموضوع . وهناك حقيقة ثانية ، وهي ان تاريخ هذا النهر لم يقم على الاستنتاج الهادىء واتخاذ القرارات الواعية الهادفة ، ولكنه قام على الغيرة والحسد ، وعلى المنازعات التافهة ، كتلك

(١) مؤسس الامبراطورية الفارسية سنة ٥٦٠ ــ ٥٢٩ قبل الميلاد . اما قمبيز فهو ابنه وخلفه وقد حكم ما بين سنة ٥٢٩ ــ ٥٢١ وقد قام بفتوحات كبيرة شملت مصر والسودان الا ان جيوشه دحرت اخيرا بالسودان . (المترجم)

التي ذكرناها من قبل. أنها قصة تتكشف اخيرا عن سفك الدماء. لقد ذكر «رتشار بيرتون» في مكان ما ، ناقلا مثلا قديما يقول ما معناه : «السلام هو حلم الحكماء ، اما الحروب فهي التي يقوم عليها تاريخ البشرية » .

* * *

الفصل الثالث

طريق العودة

مكث بروس اربعة ايام في « قش » ليستكمل ملاحظاته ثم عاد الى غندار . وعند وصوله وجد ان البلاد قد استسلمت الى حرب اهلية شعواء ، سدت عليه جميع طرق العودة لوطنه . فرأى ان يقوم بما قام به « قولليفر » بين الاقزام ، ويلقي بنفسه في اتون المعركة مساندا اصدقاءه ما وجد الى ذلك سبيلا . وقد اتاحت له هذه الفترة فرصة عظيمة ، تمكن خلالها من مراقبة الاثيوبيين ودراستهم عن كثب اكثر مما حققه اي اوروبي معاصر في دراستهم . كما انه قد بذل جهدا عظيما في دراسة تاريخهم ، والقائمة التي سجل فيها سلسلة ملوكهم تعتبر من الوثائق النادرة التي عثرنا عليها حتى الآن . وتمكن في هذه الفترة ايضا من جمع كثير من المخطوطات الاصيلة ومجموعة من النباتات واخرى من المعادن ، وتمكن ايضا من تسجيل التقلبات الجوية يوما بيوم ، ومن أمثلة ذلك قوله : « رذاذ شديد في المساء وليلا ـ المقاس ٣٤٢، بوصة» أو «كان المطر مستديما» وكانت مذكراته العامة بالغة الاهمية ومثيرة للاعجاب ، فهو يذكر مثلا كيف يخدر السمك في بحيرة تانا بمادة شبيهة بالجوز المقيء ، ويذكر ان بالبحيرة خمسا وثلاثين جزيرة مأهولة بالسكان ، ثم يستدرك قائلا : « اذا صدق الاحباش الذين عادة ما يكذبون في كل شيء ... فالرياء بين جميع طبقات الشعب طبيعي كالتنفس » الا ان بروس شخصيا كان يعتقد

ان بها احدى عشرة جزيرة فقط (اما الخريطة التي وضعها تشيزمان فتوضح ان بها اكثر من ثلاثين جزيرة معظمها لا يتعدى ان يكون مجموعة من الصخور) . ويقول بروس ان البحيرة ابرد مما يمكن للتماسيح ان تعيش فيها ، وانه رأى فرس البحر في اعداد كبيرة ، كما رأى الغزال والجاموس والخنزير البري والذئاب ، وهذه الاخيرة كانت من الخطورة بحيث انها تفترس الحمير في جنح الليل ، وحتى الانسان لا ينجو منها .

ثم قام بعدة زيارات للكنائس القبطية فلم يُعجب بالرسومات التقليدية التي يرسمها الاثيوبيون على جدرانها ، وقد قال عنها : « أنها ليست إلا تلطيخ بالالوان لا يرقى الى أسوأ ما يصوره رسّامونا من علامات تجارية » . ويتحدث ايضا عن نهمهم للحوم النيئة وشغفهم بالجعة الوطنية ، كما يتحدث عن الرعب المستولي على قلب كل اثيوبي خوفا من أن يؤخذ أسيرا في احدى المعارك وتجتز خصيتاه ، أو يشوه بجدع أنفه أو قطع أذنه أو بتر يديه أو رجليه ــ إذ أن هذا هو حصاد كل معركة من المعارك . واخيرا وجد بروس نفسه في دوامة من الخمول والاشمئزاز ، وهنا يقول : « وكنت لا اغادر داري الا نادرا ، ولم يكن لي هم الا الخلاص من هذه الديار الملعونة » . وفي هذه الفترة مات بالوجاني بالدوسنتاريا ودحر الراس ميخائيل في خزي وعار ، وتبعثرت جثث اتباعه على سهل جبل غندار لتلتقطها الذئاب الواحدة تلو الاخرى. وشاركت الطبيعة في هذه المجزرة فأبرقت السماء وأرعدت ، « وكان البرق يخر على الارض خرير الماء ، واظلمت السماء ، وخبا ضوء الشمس كما لو كانت في حالة كسوف » .

« وفي مثل هذه الايام المظلمة التي تستحيل معها الغزوات ، يحلو للاثيوبيين ان ينهمكوا في احتساء الخمر ويقيموا الولائم . فيجتمع المدعون في كوخ رحب ، ثم تساق بقرة أو ثور الى داخله ويشد وثاقه ،

وفي وحشية منقطعة النظير تقطع شرائح اللحم مـن جسمه وهو حي » .
ويمضي بروس قائلا « وان ما يصدر مـن الحيوان المسكين من خوار مزعج يعتبر بمثابة الاشارة لينتظم الجميـع حول الموائد » .

ويشترك النساء مـع الرجال في هذه الولائم ، كمـا يشتركن في التهتك الذي يتخللها ، وما هي الا فترة وجيزة الا وتكون النشوة قـد الهبت الشهوة . ويصف بروس هذا المشهد بقوله : « ثم تتأجج نيران الشهوة ، فيسمح بكل شيء في حرية تامة دون خجل او تأجيل . وليس هنـاك داع للاتفاق على موعد ، او الانسحاب مـن الحفل والانزواء عـن الانظار لاشباع شهواتهم . وبما أن المكان ليست به غرف أخرى غير تلك التي أقيم فيـها الحفل ، فلتذبح الفضيلة فيهـا علـى شرف باخوس [1] وفينوس ، وعلى مشهد مـن الجميع . فينزل المحبان الـى الأرض ، وأقرب رجلين منهما يحجبانهما عن الانظار بطرفي عباءتيهما . وان كان لنا أن نحكم على ما يجري تحت العباءة من أحداث ، بمـا يصدر من تحتها من أصوات ، لاتضح لنا أنه من العار في عرفهم ، أن تشبع الشهوة في صمت كمـا تشبع المعدة . وبعد ان يستقرا في مكانيهما مرة اخرى ، يشرب الجميع نخبيهمـا ، ثم يحذو الآخرون حذوهما في أطراف متعددة مـن المائدة . ويمضي كل ذلك دون تعليق من أحد ، ودون استنكار ، حتى ولا كلمة واحدة تنم عـن السخرية او التهكم ولو بطريقـة غير مباشرة » .

واخيرا ، في ديسمبر سنة ١٧٧١ ، وبعد مضي سنة كاملة منـذ عودته مـن نهر أبّاي ، وأكثر من عامين منذ وصوله أثيوبيا ـ أخيرا تحصل على الاذن بمغادرة البلاد . فرأى ان لا يعرض نفسه مرة اخرى لقراصنـة البحر الاحمر القابعين بمصوع ، وفضل الطريق البـري

---

(١) اله الخمر عند الرومان .

الطويل الذي ينحدر للمتمه فصحارى السودان ، ثم يتتبع مجرى النيل للقاهرة ـــ وهو نفس الطريق الذي سلكه بونسيه ، ولكن بالاتجـــاه المعكوس ـــ ومعنى ذلك أنه لن يرى النيل مرة أخرى إلا عند مدينةسنار.

وعندما غادر اثيوبيا كان في رفقته ثلاثة من اليونانيين ، وكانت حملته منتظمة لدرجة تدعو الى الدهشة . وسار اربعتهم على ظهـــور الجياد بين حملتهم التي كانت تتكون مـــن بعض الحمّالين وعدد مـــن دواب الحمل . وحمل معه بالاضافة لمزولته كل ما جمعـــه مـــن تحف علميـــة وغير علمية ،وسلسلة مـــن الذهب الخالص اهداها له البلاط الامبراطوري . كما حمل معه كمية مـــن الاقمشة والبضائع الاخـــرى ليشتري بها صداقة زعمـــاء العشائر الذيـــن يمر بهم في طريقه . ورغم انه كان في الحادية والاربعين من عمـــره الا ان صحته لم تتأثر بما كان يعيش عليـــه مـــن لحم نيء وعسل . هذا وفي طريقه للمتمه توقف بعض الوقت ليصطاد الفيل ، غير ان الطقس الحار في تلك المناطق الجبليـــة الموبوءة بالملاريـــا كاد ان يقضي عليه عندما لازمته الحمى لاكثر مـــن شهريـــن . وقد مات عدد مـــن اتباعه بالعطش ، ثم في نهاية فصـــل الخريف ظهرت ذبابة التسي تسي الفتاكة بالحيوان ، والتي كانت تطرد كل شيء امامها في ذعـــر وهلع . كمـــا ان حمـــلته الصغيرة قد تعرضت لكثير مـــن المناوشات التي كان يشنها مشائخ القبائل المتحفذة للقتال ، وفي اكثر من مرة تعرض بروس للاغتيال . واخيرا عبـــرت القوة الصغيرة نهري الدندر والرهد ، ثم جاهدت حتى وصلت سنار في ابريل سنـــة ١٧٧٢ ، اي بعد اشهر اربعة من مغادرتها غندار .

اما سنار فلم تتغير منذ ايام بونسيه ولكنها كانت مزدهرة بعـــض الشيء . وعندما وصلها بروس كانت في اسوأ مواسمها ، فقد وصفها في عبارات تثير اليأس والقنوط ، فقال : « يستحيل على الدواب كالخيـــل والبغال ان تتناسل ، او حتى ان تعيش في هذه المدينة ، وفي منطقة تمتد

الى عدة اميال حولها . اما الدواجـن فلا وجود لها ، واما الكـلاب والقطط والضأن والماشية فلا تقع عليها العين إلا نادرا ، لأن تربيتها مـن الصعوبة بمكان . وكنت قد احضرت معي كلبا من كلاب الصيـد وبعض البغال مـن الحبشة ، إلا أنها لم تعش لأكثر من بضعة أسابيع بعـد وصولنا » . ويصف الطقس وصفا طريفا فيقول : « اسميه حارا عندمـا يتصبب العرق من الشخص وهو في سكون واستقرار وعندما يشتـد تصببه عند ابسط مجهود ، واقول انه حار جدا عندما يتصبب العـرق غزيرا رغم ان الشخص يكون جالسا لا يتحرك ولا يرتدي غير ملابس خفيفة ، واقول انه شديد الوطأة عندما يتصبب العرق بغزارة وهـو في حالة استرخاء تام ولا يرتدي اكثر من قميص واحد ويصحب ذلك آلام عند الحركة وارتعاش بالركبتين ، كما لو اصيب المرء بالحمى . اما عندما تخور القوى وتعتري المرء نوبـات من الغثيان ، وعندما يشعر بتصلب في الصدغين كأنما شد بوتر حول رأسه ــ عندما يخفت الصوت ويجف الجلد ويشعر الشخص بخفة في رأسه مع ازدياد في حجمه ــ عند ذلـك يكون الطقس قد بلغ اقصى درجات الحرارة ، وهنا على ما اعتقـد يكون الموت قد اصبح قاب قوسين أو ادنى [1] ... » والظاهر ان بروس قد قاسى مـن كل مراتب الحرارة التي ذكرها ، أثناء الأربعة أشهر التي قضاهـا بسنـار .

وفي سنار وجد بروس نفسه بين مسلمي الصحراء . وكان مـن الطبيعي ان يتوقع نوعا مـن الحياة اكثر جدية ممـا رآه في اثيوبيـا المسيحية ، غير ان مملكة سنار التي كانت مشرفة على نهايتها ، لم تكـن بالمثل الطيب للاسلام . فالملك اسماعيل ــ كالامبراطور تكلا هيمانوت ــ لم يكـن اكثر مـن العوبة في يد وزيره الشيـخ عدلان . وهو شـاب

(١) وصف رائع لامراض ضربة الشمس التي تسبق الغيبوبة .
المترجم

منحرف في نحـــو الرابع والثلاثين من عمره ، له سحنة اقرب الى العربية مـــن الزنجية . والظاهر انه كان ضعيف الارادة متبرما بالحيـــاة ، وقد سمح لبروس بمقابلته بينما كان يدلك له جسمه بكميات وافرة من دهن الفيل ، الذي يقال ان مـــن خصائصه ان يعطي الجسم قـــوة ونشاطا . وفي نفس الوقت الذي كان يجري له فيه عملية الدلك ، كان عدد مـــن نسائه يقبعـــن في مؤخرة الحجرة باجسامهن الضخمة واشكالهـــن التي تبعث التقزز والاشمئزاز في النفس . وعندما شعر اسمـــاعيل بانه قـــد فوجىء وهو في حالة من التبلد والاسترخاء ، لا تليـــق به كمك [1] . ابدى دهشته لان يخاطر بروس بحياته ويقلق راحته ويقوم برحلة غير مضمونة العواقب، رغم ان له وطنا يملك فيه دارا خاصة به .الا ان بروس قال له انه رجل من طراز الدراويش ، زهد الدنيا وملاذها ، وخرج من اهله ليكفر عن خطاياه . فسأله الملك : «وكم لك في هذا التجوال ؟ » .

بروس : « نحو عشرين سنة » .

الملك : « لقد كنت صغيرا جدا لترتكب كل هذه الخطايا ! ـــ لا بد انك قد بدأت مبكرا جدا ، ولا بد انها كانت مع النساء » .

وفي تواضع وأدب أجاب بروس بأن بعضها كان مـــن هذا النوع .

ثم ذهب لمقابلة الشيـــخ عدلان الذي كان يسكـــن خارج سنار ، في مكان اكثر ملاءمة للصحة . فوجد فيه رجلا يختلف كل الاختلاف عن الملك ـــ وجد قائدا حقيقيا من قواد الصحراء ، له نظرة ثاقبة وقريحـــة وقادة . وكان يرتدي ثيابا مـــن الحرير قرمزية اللون ، ويتمنطق بخنجر له مقبض مـــن الذهب الخالص ، وباصبعه خاتم مـــن الياقوت الازرق . وهو مـــن نواح عديدة يذكرنا بالمماليك في مصر ـــ فالعبيد المدربون على

---

(1) لفظة مك هو تحريف لكلمة ملك ، وهو لقب كان يطلق على حكام سنار وشندي وغيرهما من دويلات السودان القديم . اما حكام دارفور فكانوا ولا يزالون يلقبون بالسلاطين . المترجم

القتال ، والخيول المطعمة بالذهب والفضة ، وحاميته المشهورة المكونة من أربعمائة من الخيول العربية الأصيلة ، والتي كانت تعرف « بحرس سنار الاسود » ، الذي تمكن بواسطته من تدعيم حكمه . ومن المدهش انه لم يحقق اكثر مما حققه من نفوذ ، لان حاميته هذه كانت اكبر قوة ضاربة في مناطق النيل العليا ، وكانت دائما على اهبة الاستعداد وفي منتهى الفعالية .

ولاحظ بروس ان كل رجل من رجال الحرس كان يعلق درعا من الزرد بالقرب من جواده ، عليه جلد وعل قد دبغ دباغة جيدة لدرجة النعومة ، يقي به الدرع من الندى ليلا . وفوق كل درع تتدلى خوذة من النحاس ، وهي اروع قطعة في هذه التحفة الفنية . وبجانب كل ذلك علق سيف عريض في قراب من الجلد الاحمر ، وضع على رمانته قفازان من الجلد السميك . الا ان القفاز لم يكن مقسما الى مواضع للأصابع كما هو معروف، عن قفازاتنا ، بل كان شبيها بالقفازات التي نستعملها للوقاية من الشوك ، له جيب واحد تدس فيه جميع الاصابع سويا .

وبمثل هؤلاء الرجال تمكن عدلان من ان يسود عالمه الصغير على ضفاف النيل الازرق . غير ان المسلمين كانوا منقسمين الى قبائل متعادية ، اكثر مما كانت عليه الحال في الحبشة ، كما ان الانحلال الذي اصاب سنار كان بمثابة الورم الخبيث الذي اخذ ينتشر ويفتت في كيان الامة . وهذه الدويلة الصغيرة الشبيهة بدويلات القرون الوسطى ، كانت اقل مكان، على ضفاف النيل. استعدادا لمجابهة تلك الصدمة المدمرة التي اوشكت ان تحل بها في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فقد كان عدلان وفرسانه السود ــ كالمماليك في مصر ــ هدفا سهلا لنيران المدافع الحديثة .

لقد كره بروس سنار وهرب منها بمجرد ان تمكن من ذلك ،

ولكنه قبل ان يغادرها في سبتمبر سنة ١٧٧٢ ، كان قد جُـرِّد من جميع ما جلبه مـن الحبشة مـن بضائع ، وحتى السلسلة الذهبية كانت قـد سلبت منه ، ولم يتبق له منها غير ست حلقات ، كان عليه ان يقيم بها اوده الى ان يصل القاهرة التي تبعد عـن سنار بحوالي الفي ميل . وبعد اسبوع او اسبوعين مـن مغادرته سنار ـ على ظهور الابل هذه المرة ـ وصلت قافلته الحلفاية عند ملتقى النيلين . والحلفاية كانت بلدة صغيرة جميلة تشرح الصدر ، رغم ان جميع مبانيها كانت من الطين ، وكانت تقع بالقرب مـن النيل في موضع الخرطوم الحالي تقريبا ، ولكنها تبعد مـن النيل قليـلا . وقد لاحظ بروس ان سكانها كانوا يأكلون القطط والتماسيح وفرس البحر . اما النيـل الابيض فلم يذكر بروس كلمـة واحدة عنه ، ويمكننا ان نتصوره مشيحا بوجهه بعيدا عنـه ، غير مهتم بامره ، فكم كان مؤلما ان يسمح لنفسه ـ بعد كل هذه المخاطر الـتي قابلها وكل هذه المشاق التي كابدها لكـل هذه السنين ـ كم كان مؤلما له ان يسمح لنفسه بالتفكير في انه مـن المحتمل ان يكون هناك توأم آخر لنهره ـ النيل الازرق ـ الذي ينبع من اثيوبيا ، وان يكون لهـذا التوأم الآخر منبع آخر في مكان آخر . واذ سمح بروس لنفسه بالقول بان النيل الابيض اكبر مـن النيل الازرق ، فقد رفض ان يطلق عليـه لفظ النيل اطلاقا ، بل كان يشير اليه « بالابيض » وهو الاسم الـذي يطلقه عليه الاهالي ، ونحـن لا يسعنا الا ان نرثي لموقفه هذا .

وعند وصوله الحلفاية كان التعب قد بلـغ مـن بروس اقصاه ، وزاد مـن تعبه وآلامه ما اصابه مـن مرض . فقـد اصيب بـدودة « الفرنديت » [1] المستوطنة على ضفاف النيل ، وهو مرض تسببـه

---

(١) دودة الفرنديت ـ هو الإسم الذي يطلق في السودان على هذا المرض المستوطن في معظم مديرياته . وهو مرض ينقله طفيلي يعيش في مياه الابار والبرك . اما الاسم العلمي له فهو «دودة غينيا» Guinia Worm
المترجم

دودة طفيلية تنهش اللحم نهشا . ورغم ذلك فقد واصل بروس رحلتـــــه ووصل شندي في الرابع مـــن اكتوبر .

وهنا وجد نفسه على اتصال بالعالم الخارجي ، فشنـــدي كانـــت مركزا هاما تسير منه القوافل بانتظام للقاهرة ، الا انها كانت قد تدهورت ، لم يبق بها آكثر من خمسة وعشرين منـــزلا ، الا أن سوقها قـــد ظل منتعشا ، وكانت البضائع به أجـــود وارخص مما هي عليـــه في سنار . وادرك بروس انه قد وصل الى بلدة قديمة على النيل ، فلأول مرة منذ ان كان باكسوم قبل ثلاث سنوات يأتي على شيء من آثار المعابد الخربة. فقد رأى خارج شندي اكداسا من قواعد الركايز ، وقطعا مبعثرة مـــن المسلات ، عليها كتابة هيروغليفية . الا ان الطريق الذي سلكه لم يكن مارا بمنطقة الاهرامات ، ورغم انها لم تكن بعيدة عنه الا انه لم ينتبه اليها . وقد جاء في مذكراته ما معناه : « لا يسع المـــرء الا ان يجـــازف بالقول بان لا بد ان تكون هذه هي مروي القـــديمة » ولا شـــك ان تخمينه قد آصاب كبد الحقيقة .

ومن الغريب انه لم يذكر شيئا عن قلعة شندي ، ولكنه في ظرف الاسبوعين اللذين قضاهما هنا ، تمكن من تقديم فروض الولاء والطاعة للملكة المنطقة التي كانت تسكن خارج المدينة بنحو نصف الميل ، وكانوا يطلقون عليها لقب « ستتنا » .

وعندما استقبلته اول مرة كانت تجلس من وراء حجاب ، ولكنه في المقابلة الثانية تمكن من اقناعها بالخروج من خلف الحجاب ، فاذا بها امرأة في نحو الاربعين من عمرها ، طويلة القامة ، لها شفتان ورديتان واجمل ما رآه في حياته من عينين وأسنان . وكانت ترتدي جلبابا قرمزي اللون . ويزين رأسها تاج رائع مـــن الذهب ، بينما يتدلى شعرهـــا في جدائل الى ما تحت خصرها ، فبدت له كأنها صورة مجسدة للملكـــــة

«كنداكة» المذكورة في الاساطير ، والتي حكمت مروي في عهد الفراعنة ودانت لها كل المناطق الواقعة على ضفتي النيل ، ما بين مروي والحدود المصرية وحيّاها بروس بأن قبل يدها، إلا أنها أجفلت متراجعة وصاحت في تعجب قائلة : ان شيئا من هذا لم يحدث مـن قبل ـ وامتقع لونهـا وضاعف من امتقاعه ما كان في الافق من بهرج غريب وضاء . ويقـول بروس أن هذا البهرج قد استمر طيلة شهر اكتوبر من تلك السنة ، وقد جاء فيما كتبه : « كان كوكب الزهرة يبدو وضاء شديد الوهج طيلة اليوم دون ان يخبو ضياؤه لحظة واحدة ، فكأنما كان يتحدى الشمس في أشد حالاتها توهجا » . وهذا القول لا يقبله العقل كثـيرا رغم ان كوكب الزهرة كان قد اقترب كثيرا من الارض في تلك السنة [١] .

وفي نهاية اكتوبر تحرك بروس مرة اخرى ، ثم عبر نهر العطبرة ـ وهو آخر روافد النيل ـ وقد وصفه بأنه كان عميقا جدا ويبلغ نحو ربع الميل في اتساعه . وفي بربر استقر بعض الوقت ليأخذ قسطا مـن الراحة وليبتاع مزيدا من الجمال ، قبل ان يقتحم ذلك الطريق المرعب من طرق القوافل ، الذي يخترق الصحراء مباشرة الى اسوان ، ويمتد الى اربعمائة ميل ـ الا انه كان اقصر من الطريق الآخر الذي يتابع النيل في انحنائه العظيم نحو الغرب ـ .

ثم زار شاطىء النيل للمرة الاخيرة ، وهنا يقـول : « واخـذت استحم لنصف ساعة في شغف وسرور ، وبهذا ودعت رفيقي القديم وكلي شك في ان نلتقي مرة اخرى » . وفي الحادي عشر من نوفمبر سنـة ١٧٧٢ كان بروس وثمانية آخرون قـد وضعوا انفسهم تحت رحمـة الصحراء وقد ذكر بعض الرحالة المتأخرين ان بروس قد بالغ كثيرا فيما

---

(١) لقد ارسل الكابتن « كوك » الشهير في تلك السنـة لمراقبة هـذا الكوكب بجزر تاهيتي في المحيط الهادي .

حاشية المؤلف

لاقاه من اهوال بهذا الطريق ، وخصوصا فيما اسماه « بالسموم » — ذلك الهبوب العاصف الذي يرفع الرمل في عمد عالية تخترق عنان السماء كأنها أعين نضاخة من الماء . ثم يقول : « وكان التأثير المباشر علينا هو الصمت الرهيب ، ثم القنوط وعدم الاكتراث بالحياة » . الا أنه من الانصاف ان تتذكر ان الرجل قد كان منذ أمد قريب في مناطق جبلية باردة ، ومن المحتمل ان يكون قد صادف موجة من الحر غير اعتيادية ، ومما يحملنا على هذا الظن ان بروس يقول انه كنتيجة لما قاسوه ، ان اصيب احد رجاله بمس من الجنون ، مما اضطرهم لتركه تحت رحمة الصحراء . ثم نفقت جماله فكان لا بد له من ترك مزولته وكل ما امكنه الاستغناء عنه من امتعة ، على قارعة الطريق . واخيرا اصيب بالعرج لما ظهر بقدميه من تقرح وتقيح . اضف الى كل ذلك أنهم كانوا في مناوشات مستمرة مع الاعراب الذين تعودوا السلب والنهب عند اماكن الري . وفي الثامن والعشرين من نوفمبر رأوا بعض الطيور النهرية — وكالملاحين الذين يستنتجون قرب اليابسة بما يرونه من اخشاب طافية على سطح الماء — فقد استبشروا بقربهم من النيل . وفي اليوم التالي كانوا يجرون اذيالهم في انهاك واعياء نحو مشارف مدينة اسوان، بعد ان قضوا ثمانية عشر يوما في رحلتهم هذه . ويمكننا القول بان بروس قد عاد الآن الى احضان العالم المتمدن ، فقد كانت مصر لا تزال تحت قبضة المماليك ، وكان هو لا يزال محتفظا بالفرمان الذي تحصل عليه من والي القاهرة . وفي اسوان وجد كل حفاوة من حاكمها الذي ساعده على استعادة ما خلفه بالطريق من متاع . وفي الحادي عشر من ديسمبر اقلع في مركب الى القاهرة فوصلها بعد شهر وهو في حالة سيئة من الاعياء والألم مما أصاب قدميه ، وكان وهو في هذه الحالة وفي اسماله البالية لا يختلف كثيرا عن اي شحاذ . ومكث شهرين بالقاهرة ليستعيد صحته ويستجمع قواه ، وعندما ابحر الى اوروبا لم يكن قد

تبقى من آلامه غير « الفرنديت » التي عندما كانوا يحاولون استخراجها من ركبته ، انفصمت وانكمشت الى داخل ساقه مرة اخرى ... وبعد ثلاثة اسابيع وصل الى ميناء مارسيليا .

مضت الآن عشر سنوات كاملة منذ ان غادر بروس اوروبا ، وفي هذه الفترة تغيرت اخلاقه من الشذوذ الصارخ الى اللامعقولية المذهلة . والشيء الذي كنا نتوقعه هو ان يسرع الى وطنه بمجرد ان وطأت قدماه الاراضي الاوروبية — ان يسرع الى لندن اولا ليلتقي باصدقائه ويطلعهم على أخباره ، ثم الى اسكتلندة ليستقر بها ويرتب ما جمعه من تحف ، ويدون مذكراته عن اسفاره ومغامراته — هذا اذا جرت الامور مجراها الطبيعي — الا ان شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد امضى شهرا في مارسيليا يعالج ساقه ، وهنا تعرّف على عالم الطبيعات المشهور « بوفون Buffon » واكتسب صداقته ، ثم سافرا سويا الى باريس حيث وجد حفاوة بالغة استمرت لمدة شهرين حظى اثناءهما بمقابلة لويس السادس عشر . وبعد المقابلة الملكية أرسل مجموعة من بذور النباتات الاثيوبية النادرة الى حدائق القصر الملكي .

وبعد ذلك عرّج جنوبا الى ايطاليا ، مدعيا انه يريد ان يجرّب الحمامات الطبيعية بمدينة «بورّتّا» في علاج ركبته التي كان يدعي انها لا تزال تؤلمه . اما السبب الحقيقي فهو انه قد اكتشف — مثل كثيرين من الجند العائدين من الحرب — ان حبيبته قد هجرته ولحقت برجل آخر — تلك هي ماريا التي شرب على نخبها عند منبع أباي الصغير . وهي اسكتلندية الجنسية ، وكان بروس قد خطبها قبل ان يبدأ اسفاره . والظاهر انه كان يعتقد جادا ، انها ستنتظره حتى يعود ، دون ان يرسل لها أية خطابات او اخبار من اي نوع كان ! ولكم ؟! لمدة اثني عشرة سنة . ولكنها لم تنتظر ، فهي الآن زوجة لرجل من ارستقراط الايطاليين — المركيز فيليبو داكورامبوني — وكانت في ذلك الوقت تعيش مع

زوجها في روما . وما ان وصل بروس الى منزلها الا وانفجر في الزوج المشدوه بطريقة كان من المحتمل ان تؤدي الى اسوأ النتائج ، لولا انها كانت في شذوذها اقرب الى المزاح (بالطريقة الفرنساوية) . ويجب علينا ان لا ننسى طول بروس الفاره — ستة اقدام واربع بوصات — وما كان عليه من هزال كنتيجة مرضه الطويل ، وما احدثه الطقس في بشرته من سمرة وخشونه . كما يجب ان لا ننسى انه كان في غاية الانفعال . فطلب من الزوج احد امرين ، الاعتذار او المبارزة . فما كان من الايطالي — وهو في تلك الحيرة — الا ان حرر خطابا قال فيه : انه حتى تلك اللحظة لم يسمع اطلاقا باسم بروس ، وانه يسرع بتقديم اعتذاره اذا ما حصل ان كان قد اخطأ في حقه بأي حال من الاحوال . وكان في ذلك الترضية الكافية لبروس ، فقفل راجعا من حيث أتى . ثم مكث في روما حتى نهاية فصل الشتاء ، وكان اثناء اقامته يتردد على البابا كلمنت الرابع عشر ، وفي نفس الوقت يتلقى العلاج لساقه .

وفي ربيع سنة ١٧٧٤ توجه نحو الشمال مرة اخرى ولكنه اخذ يتسكع ولم يعبر القنال الانجليزي الى لندن الا في شهر يونيو . وسارت الامور سيرا موفقا في البداية ، فقد تقبل الملك جورج الثالث لوحاته بعطف ورضى — كانت في الواقع لوحات رسمها بالوجاني لاطلال الشرق الأوسط ومدنه — ولم يكن ذلك على اي حال يعني كثيرا ، لأن جلالته كان ، في هذا العهد الذي عاش فيه بيرك وجبون وجونسون ووالبول [1] ، يتلقى العديد من الكتب واللوحات الفنية من نوع او

---

(١) أ — ادموند بيرك Burk خطيب وكاتب وفيلسوف ولد في دجلن ١٧٢٩ — ١٨٩٧ .
ب — ادورد جبون Gibbon مؤرخ انجليزي عاش ما بين ١٧٣٧ — ١٧٩٤ اهم اعماله هو كتابه المسمى « تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » .

آخر ، ولم يكن جلالته بالخبير الذي يقدّر هذه الاشياء حق قدرها . الا ان الجمعيات العلمية وصالونات لندن الراقية كانت على اتم استعداد لتستمع من بروس الى ما في جعبته . وسرعان ما اتضح لبروس انهم لم يكونوا يستمعون اليه ، احتراما له وتقديرا لمجهوداته ، بل انما كانوا يستمعون اليه كنوع من التسلية — ذلك النوع من التسلية التي يجدها الانسان في رواة القصص المذهله ، كالبارون منشوسن [1] ... فماذا كان يهم اللندنيون في كل هذه القصص العجيبة ، كقطع اللحم من الابقار الحية . وكم كان مضحكا هذا الرجل الطيب لان يتحدث عن اباطرته ومشايخه المتوحشين ، وعن الزوجات اليافعات ورقيقه السود ، وكم كان مضحكا كذلك ان يتحدث عن أفراس البحر [2] .

ولم تعرف لندن في جميع عصورها ما عرفته في هذه الايام من المتندرين والساخرين الذين تناولوا هذا الموضوع والّفوا فيه النوادر المضحكة . وقد وضع شاعر زمانه الساخر المعروف « بيتر بندار » «Peter Pindar» بيتين في هذا الموضوع فقال ما معناه :

←

ج — جونسون (صامويل) مؤلف القواميس الانجليزية — كان صحفي وشاعر وكاتب روائي (١٧٠٩ — ١٧٨٤) .

د — والبول (هوريس) كاتب روائي مشهور (١٧١٧ — ١٧٩٧) .

المترجم

(١) البارون مونشوسن «Munchausen» ضابط الماني كان من فرقة السواري « بهانوفر » اشتهر بالمبالغة في قصصه عن مغامراته وانجازاته . وقد جمع هذه القصص بما فيها من مبالغات شخص يدعى راسب ونشرها في كتاب سنة ١٧٨٥ تحت عنوان « مونشوسن ١٧٢٠ — ١٧٩٧ » .

(٢) الظاهر ان بروس وضع الترجمة الحرفية لفرس البحر بعد ان عرف ان كلمة بحر تطلق على النهر ايضا في مصر والسودان فجاءت ترجمته لفرس البحر «River Horse» دون ان يضع مقابلها الانجليزي «Hippopotomus» أو يشرح معناها وذلك ليوهم مستمعيه بان للنهر خيول في هذه الاماكن . ومن هنا كان سبب التندر .

المترجم

تعساً لحظ لم يقدني زائراً تلك البقاع
لارى الاعجاب والاعجاز من قوم جياع [1]

يأكلون العجل حيّاً وهو يسعى ، كالضباع
نصفه في بطنهم والنصف يرعى في الضياع

ان ما ذكره بروس قد كان اروع بكثير من ان يقبله العقل ، فاتضح ان عالم « برستر جون » [2] «Prester John» هو في الواقع عالم المشعوذ بروس .

وقد انتهى مصير الرحالة الكبير عندما تعرض له دكتور جونسون بهجومه العنيف . وكان جونسون اذ ذاك متقدما في السن ، الا انه كان شديد الاهتمام باثيوبيا وبكل ما ينشر أو يقال عنها . فقبل اربعين سنة كان قد نقل إلى الانجليزية كتاب الأب لوبو المسمى «رحلة إلى الحبشة» وكانت ترجمته هذه هي اول اعماله الادبية . وجاء في مقدمته للكتاب ، هذه الفقرة الرائعة التي تعتبر مثالا لانموذجه الأدبي : « يظهر من اسلوبه القصصي المتزن البعيد عن الاغراض والمؤثرات ، ان الاب لوبو قد وصف كل شيء كما رآه ، ونقل الطبيعة من واقع الحياة ، واعتمد على حواسه لا على مخيلته . فلم تعترضه افاعي خرافية ذهبت ببصره ، وما رآه من تماسيح كانت تلتهم فريستها دون ان تذرف عليها الدموع ، وما صادفه من شلالات كانت تتساقط منها المياه دون ان تصم آذان من جاورها من السكان ... وسيكتشف القارىء من هذا الكتاب (ما

---

(1) البيتان الانجليزيان هما :
Nor Have I been where men (wat a loss alas)
Kill half a cow and turn the rest to grass.

(2) «Prester John» ملك من ملوك العصور الوسطى قيل انه كان يحكم في اواسط آسيا ، اشتهر بالورع المتناهي والابهة المتناهية ـ قتله جنكيز خان سنة ١٢١٢ ميلادية .

يكشفه دائما الباحث الثابر المتحرر) إن الطبيعة البشرية ، حيثما كانت هي خليط من الرذيلة والفضيلة ، ونزاع بين العاطفة والعقل » .

ولذلك فان جونسون الذي كان يحمل هذه الفكرة عن الأب « لوبو » لم يرحب بما رماه به بروس من كذب . بل على النقيض ، قد وجد في بروس رجلا لا يمكن الاعتماد على أقواله ، رجلا يحكّم خياله اكثر مما يحكّم جوارحه ، بل إنه أبعد ما يكون عن الاتزان . وقد ذكر احد مؤرخي جونسون انه سمعه يقول عن بروس « عندما تحدثت اول مرة الى ذلك الرحّالة الذي جاب بلاد الحبشة ، كنت أميل الى الاعتقاد بأنه قد زار فعلا تلك البلاد ، إلا أني غيرت رأيي فيه فيما بعد .

ويشتمّ الانسان رائحة السخرية في عبارة الكاتبة « فاني بيرني » «Funny Burney» التي صادف ان التقت ببروس في نفس هذا الوقت ، اذ قالت عنه « ان المستر بروس بجسمه الضخم وقوامه الفارع وحاجبيه المتقطبين لجدير بان يبعث الرعب في كل من يراه ، وهو اطول رجل يمكنك ان تراه « لله » (اي دون مقابل) » .

لقد اهين بروس (١) وشعر بالمرارة والالم ، وكتب مؤرخه عنه في هذا المقام يقول : « وما ان شعر بروس ان الرأي العام الانجليزي يقف ضده الا وقرر في مرارة والم ان يتراجع الى ضيعته ... وكانت نفسه

---

(١) يبدو لي ان ما وجده بروس من اهانة وتحقير بلندن يرجع اولا واخيرا لانه سمح لنفسه بان يقابل الملك لويس السادس عشر بفرنسا قبل الملك جورج ، ولانه ادلى بمعلوماته للمحافل العلمية بباريس قبل ان يدلي بها لبني وطنه بلندن . ولا شك ان هذا الاستهزاء الذي وجده بلندن كان ردا لتلك الحفاوة التي لقيها بباريس . وسنقرأ بعد قليل ان الفرنسيين قد اهتموا جدا بما ادلى به من معلومات واستفادوا منها فيما بعد في حملتهم على مصر ، فلو كان الرجل فعلا تافها لما اهتم الفرنسيون باقواله ولكانوا احق من البريطانيين في ان يسخروا به .

المترجم

أكبر من ان تتقبل ابتسامة من احد تكفيرا لذلك التحيز البربري وتلك الاهانة المجحفة » .

الا انه قد قوبل في ادنبرة مقابلة افضل ، وكذلك في مسقط رأسه ، وفي ضيعته الخاصة بمقاطعة كنرد ، التي كانت في حاجة لرعايته رغم ما ظهر فيها من مناجم قيمة للفحم . هذا — وفي ظرف سنتين من وصوله تزوج من « ماري دنداس » حفيدة « الايرل لودرديل » . وقد كانت فتاة جميلة ، ولدت في نفس السنة التي توفيت فيها زوجته الاولى ، ومعنى ذلك انها كانت تصغر زوجها باربعة وعشرين عاما ، ومع ذلك فقد انجبا عددا من الاطفال . وبهذا أصبح بروس ، الرجل الثري ، صاحب المنزل الفخم (الذي اعاد بناءه) أصبح رجلا في منتهى السعادة، يغمر معارفه بفيض من كرمه واريحيته . وكان يملأ اوقات فراغه باعادة تنظيم تحفه وباشباع هوايته في علم الفلك ، فقد اقام لذلك مرصدا على رأس منزله ، وكثيرا ما كان يُرى في زي الاثيوبيين وعلى رأسه عمامة ، وهو يرصد نفس الكواكب التي كانت تطل عليه قبل زمن عندما كان في جبال الحبشة . واستمر نشاطه في ممارسة ركوب الخيل ، الا ان جسمه كان قد تضخم لدرجة أن مركبته كانت تميل على جنبها عند دخوله فيها . وبالاختصار فقد اصبح بروس سيدا مرموقا بمعنى الكلمة، الا انه كان لا يزال على شذوذه ، وهو يتقدم في وقار نحو الكبر .

ومع هذا فقد كانت آثار الاساءة البالغة التي لحقت به لا تزال تتأجج في نفسه ، فعزف عن نشر اي شيء عن مغامراته ، واكتفى بأن أخذ يرتب مذكراته ويترجم بعض المستندات الاثيوبية . الا انه رفض رفضا باتا ان يعهد بأي جزء منها للنشر . وكان من المتوقع ان تستمر الامور على هذه الوتيرة لو لم تحدث مأساة اخرى ، كانت تنتظره . ففي سنة ١٧٨٨ توفيت زوجته الشابة ، وكان عمره اذ ذاك ثمانية وخمسين سنة ، وكان لهذه الصدمة تأثير بالغ في نفسه . وكمحاولة

لاخراجه من عزلته وشرود ذهنه ، اصر عليه اصدقاؤه بان يصدر كتابا عن اسفاره . وأخيرا لان تحت ضغطهم واستجاب لرغبتهم . وفضلا عن ذلك فان النقاد كانوا قد شفوا غليلهم منه قبل أربع عشر سنة ، وليس من المحتمل كثيرا ان يجددوا هجومهم عليه كما ان الكتاب سيكون الحكم الفصل بالنسبة له .

لم يكن بروس الرحالة الوحيد الذي وجد في الكتابة عمل ممل في حد ذاته ، وانها قد تكون أشق على النفس والجسم من اكثر الاسفار مشقة وارهاقا . وأخيرا بدأ مهمته بجهد شديد وبطء متناهي ، بعد ان وجد له كاتبا يدعى المستر ب.هـ. لاتروب ، كان يعمل للكنيسة الموراوية في بلدته « فتر لين » «Fetter Lane» . وفي مايو سنة ١٧٨٨ توجه بروس الى لندن ليبدأ عمله الطويل المضني ، وكان قد استأجر لهذا الغرض مكاتبا في شارع بكنجهام .

وقد ترك لنا « لاتروب » تقريرا عن المدة التي قضاها في خدمة الرحالة العظيم ، قال فيه انه عندما ذهب لمقابلة بروس « طلب مني ان ابتدىء العمل مباشرة . وكان يملي علي افكاره تاركا لي مطلق الحرية لاصوغها في العبارات التي تروق لي ، وهذه مهمة تحتاج الى اكبر قدر من اليقظة والتركيز ، كما كانت تحتاج الى سرعة في الكتابة . ولم يكن له هو من عمل سوى ان يزحمني بافكاره وهو جالس على كرسيه المريح . وكان قليل الاحتمال لحد بعيد ، لا يطيق ألاّ اتمشى في كتابتي مع املائه ... وواظبت على هذا الحال ، فكنت احضر له يوميا قبل الثامنة صباحا ، وكثيرا ما كنت استمر الى ما بعد التاسعة مساء دون ان يتخلل هذه المدة اية فترة للاستجمام ، الا اذا كان مضطرا لمقابلة صديق، او اذا ما أخذته سنة من النوم اثناء الاملاء ، او في فترة العشاء . اما وجبة الافطار وتناول الشاي فلم يكونا من الاسباب التي يتوقف من اجلها العمل . واني اعتقد انني طيلة المدة التي كنت أعمل فيها معه ، لم

اتخلف عن العمل لاكثر من اربعة او خمسة ايام ، هي المدة الوحيدة التي لم أقم فيها بأي عمل ، قل او كثر » .

ويقول لاتروب انه بالاضافة الى ذلك ، فقد قام بتحرير تسعة مجلدات من مخطوطاته ، ثم يضيف . « وقد كانت هذه مهمة مرهقة ومسلة ... وفي اكثر من مرة ، كان من سوء الحظ ان اضطررت لاغضابه بمحاولتي تصحيح بعض الاخطاء النحوية » .

وفي يونيو سنة ١٧٨٩ ، اي بعد سنة من بداية العمل ، كانا قد أنهيا مهمتهما . وهنا يقول لاتروب : « فقال لي انه محرج جدا في الطريقة التي يكافأني بها على المجهود والمثابرة ، وعلى المساعدة التي قدمتها له ، لانه يريد ان يعاملني كصديق ، لا كأجير . فاجبته بانني اشعر بنفس الحرج ، وخصوصا لانني فعلا قصدت أن أخدمه كصديق لا ككاتب أجير . ثم قال انه سيكون مقيما بالمدينة وسيحتاج لمساعدتي في نوفمبر القادم ، وانه يفضل ان يرجىء موضوع المكافأة حتى ذلك الوقت . فوافقته على ذلك » .

وبعد ذلك استمر لاتروب يقدم لبروس ما يحتاج اليه من معلومات ومن كتب ، ولكنه لم يتلق منه اشارة عن المكافأة . واخيرا قرر لاتروب أن بروس لم يعد يعامله كصديق ، وأنه يجب ان يطالبه بما يستحقه من مال . « فكتبت له ، بصفتي كاتبه ، خطابا في منتهى ما اعرف من رقة وأدب مذكرا له بموضوع مكافأتي » . الا ان بروس لم يجب على هذا الخطاب ، فكتب لاتروب مرة اخرى ، واخيرا وبعد مضي شهرين آخرين وصله الخطاب التالي :

« المستر لاتروب ،

« سيدي العزيز ،

« لقد وصلني كتابك . والحقيقة انني لم اكن اتصور انك ستضع

نفسك موضع الأجير . وانا لا اعرف على وجه التحديد لماذا يكون هذا الاجر ، لان خدماتك لم تكن لها فائدة بالنسبة لي ... أما عن الكتـــاب وقراءتك له فلم آخذ في الاعتبار ان ذلك سيكلفني ماديا . وقد اتضح لي ان الكتاب كما رأيته انت ، كان دون المستوى المطلوب مما اضطرني ان أغيره كلية وأعيد كتابته بطريقـــة احسن ، ولذلـــك فان قراءتـــك لمخطوطاتي لم توفر علي ساعة واحدة من الزمن . وعلى اي حال فان لي حسابا مع ألزلي (عميل بروس) ... فارجو ان تستلم منه مبلغ خمسة جنيهات نيابة عني فسأسددها له مع باقي ما يطلبني له . هذا وأرجو ان يتمكن من ارسال مطالبته بكل ما له علي من دين . وانا لا أعرف على وجه التحديد اذا ما كان علي دين آخر بلندن »[1] .

وسأظل خادمك المطيع

جيمز بروس

ويعطينا هذا الخطاب فكرة عن الطريقة التي كان بروس يعامل بها «بالوجاني»، الفنان الايطالي الذي مات باثيوبيا، اذ انبروس لم يذكر قط لا في كتابه ولا في اي موضع آخر ، ان بالوجاني كان قد وصل معه الى نهر أباي الصغير ، بل لا يكاد يذكر عنه شيئا اطلاقا . زد على ذلك انه عندما عاد الى لندن قدم لوحات بالوجاني للملك جورج الثالث باعتبار انها من عمله هو . وبالاختصار قد كان بروس يعيش في عالمه الخاص ، لا يحب الا نفسه ولا يتحمل ان يكون له شريك او منافس .

وعندما ظهر الكتاب في سنة ١٧٩٠ ، اي بعـــد عودة بروس مـــن اثيوبيا بسبعة عشر عاما ، كان عمـــلا انيقا يقـــع في خمسة مجلدا مـــن الحجم الكبير ، نشره تحت عنوان : « اسفار لاكتشاف منابع النيـــل في

(١) الخطاب الانجليزي فيه كثير من الركاكة ، مما يدل على ضعف لغـــة بروس في الكتابة ويؤيد ما قاله لاروب .   المترجـــم

السنين ١٧٦٨ ـــ ١٧٦٩ ـــ ١٧٧٠ ـــ ١٧٧١ ـــ ١٧٧٢ ـــ ١٧٧٣ لجيمز بروس من مواطني كنارد ـ عضو الجمعية الملكية » . وكان الاهـداء للملك جورج الثالث . وقد أعلن بروس في مقدمته بأنه لن يتكرم بالرد على « أي مغالطات ساخرة أو اعتراضات تافهة » قد يبديها النقّاد « فما كتبته هو ما كتبته » .

ويقول مؤرخه « وقد كان اعداؤه ينتظرون كتابــه هذا على أحر من الجمر ، وأقلامهم مشهرة في ايديهم كأنهم شايلوك، قد شحذوا مديّهم في انتظار فريستهم . وما كاد الكتاب ينشر الا وجـرد بروس من اعز الاشياء الى نفسه — من شرفه ومن سمعته . ولم تكن هناك جدوى من أن يقف امام العاصفة التي اجتاحته ، أو ان يجاهد عكس التيار الجارف الذي غمره — فالعالم كله قد انكر كتابه » .

وللمرة الثانية ارتفعت الاصوات مستنكرة قصة اللحم النيء الذي يقطع من الماشية دون ذبحها وتعـرّض الكتاب الى تحقـير ملـيء بالسخرية والحقد ، كما مزقت نسخ كثـيرة منه . وتعـرّض الكاتب « والبول » لنقده فقال انه وجد الخمسة مجلدات « مملة في قراءتهـا وباهظة في تكاليفها » واتضح أن عالم الأدب بلنـدن كان علـى أتم استعداد ليذهب الى أبعد الحدود ، حتى يجعل من بروس اضحوكـة العالم. وفي هذا الوقت ظهرت طبعة جديدة لكتاب البارون «مونشوسن» صُدّرت بالعبارة التالية : « رحلات وحملات ومغامرات فريدة للبارون مونيخوسن الذي عادة ما ينطق مونشوسن — كما يحكيها على زجاجة من الخمر وحوله اصدقاؤه ... او رذيلة الكذب الصارخ » . وكـان الاهداء الى جيمز بروس .

اما بروس فقد تقلص داخل قوقعته باسكتلندة وهو يتميز غيظـا وغضبا . ورغم أنه كان يقوم بزيارات قصيرة للندن مـن حين لآخر ، الا أنه كان يقضي معظم وقته بين أسرته في كنارد ، يقيـم الولائـم

لاصدقائه وجيرانه . وعندما اندلعت الثورة الفرنسية ووصلته اخبارها واخبار راعيه القديم لويس السادس عشر ، ازدادت مرارته وحنقه على العالم ، واخذت تنتابه ثورات من الهياج الجامح . فاذا ما صادف مثلا ان كان في وليمة في الريف ، وخرج احد المدعوين عن حدود اللياقة ، وقال انه يستحيل على الاثيوبيين ان يأكلوا اللحم دون ان يطهوه ، ما كان من بروس الا ان يخرج فورا للسطبخ ، ثم يعود وفي يده قطعة من اللحم النيء عليها شيء من التوابل والملح ، على الطريقة الأثيوبية ، فيقدمها الى ذلك الشخص قائلا : « اما آن تأكل هذه يا سيدي واما تبارزني » . وعندما يلتهم الضيف المسكين قطعة اللحم ، يقول بروس : « والآن يا سيدي لن تقول مرة أخرى أن هذا الشيء مستحيل » .

والفصل الأخير في قصة بروس كان مأساة مفجعة . فقد كان يحتفل بعدد كبير من الضيوف في كينارد ، وعند نهاية الحفل خرج لتوديع احد ضيوفه ، ثم قفل صاعدا درج منزله الكبير ، وكان مسرعا نحو نسيف آخر هم بالخروج ، فهوت قدمه وسقط من أعلا الدرج على ام رأسه . ولم يعش بعد الحادث لاكثر من ساعتين ، لم يعد اثناءها لوعيه ــ وكان قد بلغ الرابعة والستين من عمره .

***

لا تزال هنالك صعوبة في تقييم مكانة بروس بين الرحالة الذين جابوا القارة الافريقية ، فقد ظل الكثيرون ، لزمن طويل بعد موته ــ لما لا يقل عن الاربعين سنة ــ ظلوا يعتقدون ان كتابه لا يتعدى ان يكون رواية خيالية من بنات افكاره ، وفي نفس الوقت استمر النقاد يهاجمونه دون هوادة . ومع ذلك فقد وجد الكتاب رواجا عظيما منذ ظهوره اول مرة . وفي المائة وخمسين سنة الاخيرة ، اعيد طبعه عدة مرات وقرىء في جميع انحاء المعمورة . وفي المكتبات التي

تناجر في الكتب النادرة ، توجـد حتى الآن نسخ مـن الطبعة الاولى التي احرقت بعض مجلداتها في يوم من الايام بمدينة « دبلن » باعتبارها مـن الاوراق التافهة . وهذه النسخ تعتبر في وقتنا الحاضر من الكتب القيمة . ولا شك ان الكتاب يشوبه الكثير من مواطن الضعف وعـدم الدقـة ، فالكاتب رجل مغرور عديم الاحتمال ، يميـل الى التنميـق والمبالغة دون حدود ، وليس مـن المعقول ان تكون تلـك العبارات الطنانة والخطب الرنانة التي وضعها بكل ثقة في افـواه شخصياتـه الاجلاف ـ ليس مـن المعقول ان تكون قد قيلت بنفس الطريقة التي وضعها بها . الا ان كل ذلك لا يفسر لماذا لم يستطع معاصروه ان يجدوا في كتابه مجهودا له اصالته واهميته ، وانه لم يجانب الصدق في الحقائق الهامة ـ مع انه كان له قصب السبـق فيما وصلنـا مـن معلومات جغرافيـة عن اثيوبيـا . لقد اتى الكابتـن « كوك » ، الـذي عاصر بروس ، بمعلومات مـن جنوب المحيط الهادي ، لا تقل غرابة عما اتى به بروس ، ومع ذلك فلم يتشكك احد في اقوالـه . ونحـن في الوقت الحاضر قد نبدي بعض التحفظات لما يأتي به اول رواد القمـر مـن معلومات ، ولكـن ليس مـن المعقول ان نسخر منهم او نبدي نحوهم شيـئا من الاحتقار . اذن فلا بد ان معاصري بروس لـم يصدقوه الا لانهم ارادوا ان لا يصدقوه ، لانهـم لم يرتاحـوا لطريقتـه في عرض مغامراته . وعندما هاجموا ما اتى به مـن حقائق فانمـا كانوا يهاجمون فيه ما جافاه من كياسة مع اقرانه [1] ، وما كـان يبديه مـن تفاخـر وتعال وتحد وكبرياء . وبالاختصار فانما كانوا يهاجمون « نفختـه »

---

(١) وكان من الواجب ان يقول ايضا ، ولما جافاه من كياسة بمقابـلة لويس السادس عشر قبل جورج الثالث وباعطاء معلوماته للمحافل الفرنسيـة قبـل المحافل الانكليزيـة .

المترجم

وغروره . ومـــن الجائز ان الطبقة الممتازة بمنتديات لندن وصالوناتها لم تكن لها الرغبة في ان تتذكر بما يجـري في العالم الخارجـي من وحشية ومنغصات ، مثلهم كمثل لويس السادس عشر الذي كان يكره ان يذكر بالغوغاء وما يقاسونه من تعاسة . فقد كان لهؤلاء القوم المتعـة الكافيـــة في ندواتهم الخاصة الحالمة ، اما الدخلاء والمتطفلون من امثال بروس فكانوا هدفا طبيعيا لسخريتهم الممزوجة بالسفسطه والمداهنة .

الا ان مكانة بروس كانت اكثر تعقيدا من كل هذا . حقيقة انه قد رُمي بالكذب فيما جاء بهغير أنهلم يهمل، لأنه قد بعث الحياة في أسطورة من الاساطير ، وحرك خيال الآخريــن نحوها ، ولانه في الوقت الـــذي كانت فيـــه السيـــاسة الاوروبيـــة والمطامع الاوروبية تتجه نحو العالم الخارجي ، اذا به يحول اهتمام الاوروبيين نحو النيل . وفي هذا الوقت كان قد ولد جيـــل جديد مـــن المستكشفين والرجال العاملين ، ممن قدر لهم ان يكونوا اكثر دقة في المجال العلمي مـــن الاجيال السابقة . ولم يمض زمـــن طويل حتى اكتشف مـــن هم اكثر دقة وجدية مـــن غيرهم ـــ مثل براون وبيركهاردت ـــ ان بروس كان اكثر الرواد امانة يمكـــن الاعتمـــاد عليها ، وانه لم يكـــن مهرجا كمـــا كان يعتقـــد . وشيـــئـــا فشيـــئا اخترقوا حجب الحشو والزخرفة اللفظيـــة التي كانت تملأ كتابه الى ان وصلوا الى لب القصة التي رواها . وقد تحقق لهم انها كانت على درجـــة مدهشة من الصحة .

ثم ان الآثار التي احدثها كتاب بروس بفرنسا كانت اهم من تلـــك التي احدثها بانجلترا . فالفرنسيون لم يتشككوا في مجهود بروس وفيما حققه مـــن معلومات ، بل اخذوه مأخذ الجد واضافوا ما اتى به الى ما في سجلاتهم مـــن معلومات عـــن افريقيا ، والى ما حققه بعض رجالهم كالعالم الجغرافي « دانفيل Danville » الذي كان قد نشر خريطـــة لحوض النيل ، وكانت اعظم بكثير مـــن كل ما نشر عنه في ذلك الوقت.

وهكذا نرى ان الاهتمام بافريقيـا والاتجاه نحوها قد توفرت جميـع حوافزه بفرنسا ، في اواخـر القرن الثامن عشر ، وذلك مـن الناحيتين الجغرافيـة والسياسيـة . الا ان هذه الحوافز كانت تفتقر الى شخصية فذة توفـر لها ما ينقصها مـن توجيه وقوة . وفي نفس الوقت كان قد حان للسبات الذي خيم على مصر ان ينجلى ، وللجيشان الهائل في وادي النيـل ان يندلع .

* * *

الباب الثاني

الفرنسيون في مصر

الفصل الرابع

بونابارت يتحفز

« ان ما حققته حتى الآن ليس شيئاً ذا بال ، فلا أزال في بداية الطريق الذي يجب أن أقطعه ... ثم انني لم أعد أطيق تلقي الأوامر ، فقد تذوقت طعم السلطة ولا يمكنني أن أتخلى عنها »

من حديث لبونابارت مع ميودي ميلينو سنة ١٨٩٨

لقد وصف تيير (Thiers) مؤرخ بونابارت الذي كان معجبا به ــ وصف الحملة الفرنسية على مصر بالعبارة التالية : « لم يسجل التاريخ محاولة اكثر تهورا منها ، فهي اكثر تهورا من محاولة موسكو ». ولكن هل كانت هي فعلا كذلك ؟ صحيح ان الجيوش الفرنسية في سنة ١٧٩٨ كانت منتصرة على طول الطريق . فالهولنديون كانوا حلفاء للفرنسيين ، ودويلات اوروبا الوسطى كانت محصورة حول نهر الراين، واسبانيا كانت منهارة ، وبدحره للنمسا لم ينتصر بونابارت على الاجزاء الشمالية والوسطى من ايطاليا فقط ، بل نصب نفسه ايضا راعيا للبابوية ، واصبحت المشكلة الحقيقية امامه هي مسألة ايجاد ميادين

قتال لجيش الثورة الذي كان يفيض ثقة ويتدفق حماسا لمزيد من الانتصارات .

صحيح ان انجلترا كانت لا تزال مشتركة في المعركة ولكن ماذا كان في استطاعتها ان تفعل ؟ ومن الجائز ان الاسطول البريطاني كان قويا ، ولكن قد كانت معنوياته منهارة بسبب ما حدث فيه اخيرا من تمرد في مرتين متتاليتين ، كما أنها كانت قد سحبت اسطولها من البحر الابيض المتوسط منذ زمن مكتفية بما ضربته من حصار على «قادس» ، وذلك لانها كانت مضطرة لان تحتفظ باحسن سفنها بالقرب من مياهها الاقليمية لما كان يتهددها هي نفسها من غزو . فلم يكن من المستبعد ان يقوم الجيش الفرنسي بمحاولة للنزول على سواحلها ، سواء كان ذلك في ايرلنده او في الساحل الجنوبي بالقرب من ميناء «فولكستون» . وقد كان الفرنسيون فعلا نشطين في وضع خطة لمحاولة من هذا القبيل .

وموضوع غزو مصر لم يكن بالشيء الذي قرر على عجل ، كما انه لم يكن مجرد ذريعة للاستمرار في الحرب. فقد كان بونابارت يستعد له منذ زمن طويل، ولهذا السبب قام بدراسة وافية لاحوال الشرق الاوسط[1]. فتبينت له اسباب كثيرة ، جعلته يعتقد ان الامبراطورية العثمانية اضعف بكثير من ان تستطيع حماية ولايتها النائية في مصر ، وان المماليك ليسوا الا عصابة عسكرية منهوكة القوى ، لا تزال في مستوى القرون

---

(١) في سنة ١٧٩٧ نقل الفرنسيون مكتبة ميلانو الشهيرة الى بلادهم كجزء من غنائمهم ، وعندما وصلت الكتب الى باريس اتضح ان كل مجلد له علاقة بالشرق تقريبا ، كان يحمل في هوامشه تعليقات بخط بونابارت نفسه .

حاشية المؤلف

ميناء الاسكندرية في سنة ١٧٩٨

الوسطى تأخرا في اساليبها الحربية . فكيف اذن يأمل خيالتهم في الصمود امام اساليب المشاة الحديثة والمدفعية المتطورة ، كما ان فولنيه Volney صديق بونابارت ، كان قد قام برحلات واسعة في ممتلكات السلطان العثماني ، وامد بونابارت بكل كبيرة وصغيرة مما يحتاج اليه من معلومات . وقد كتب فولنيه في هذا الصدد : « ان قوات المماليك ليست الا مجموعة من الغوغاء تقاتل على طريقة المبارزة ، كما ان حروبهم ليست الا ضربا من القرصنة » .

اما ميناء الاسكندرية الذي كان من المحتمل ان تنزل به القوات الفرنسية فلم تكن به اية تحصينات ، وكما قال فولنيه : « لا يرى الانسان بها اية تحصينات من اي نوع ، وحتى منارة الاسكندرية بآبراجها الشاهقة لم تكن في مستوى الحصون المعروفة ، ولا يمكن ان يعد بها الانسان اكثر من اربعة مدافع صالحة للاستعمال ، لا يعرف شخص واحد كيف يصوبها . اما الحامية الرئيسية التي كانت مكونة من خمسمائة انكشاري فقد خفضت الى نصف هذا العدد ، وافرادها ليسوا الا عمالا عاديين ، لا يكادون يعرفون كيف يشعلون غليونا » .

هذا ــ وبمجرد ان تسقط مصر ، فلن تكون هنالك صعوبة في حكمها . وقد كتب بونابارت فيما بعد : « ليس في العالم قطر واحد كمصر تستطيع ان تسيطر على رعاياه سيطرة تامة عن طريق النيل . ومع الادارة الرشيدة يمكن للنيل ان يسيطر على الصحراء ، اما تحت الادارة الفاشلة فان الصحراء هي التي تطغي على النيل » .

ثم يجب ان تتذكر ان بونابارت لم يكن من شمال فرنسا ولكنه من جزيرة كورسيكا ، فهو اذن ليس غريبا على البحر الابيض ، وكان يثق الى حد كبير في إلمامه بالطرق الملتوية التي يمارسها المسلمون ، بل الشرقيون عامة ، في شئونهم السياسية . وفي نفس الوقت كان يعلم ان

المماليك مكروهون في مصر ، وان الشعب المصري ينظر اليهم نظرة الطغاة المستبدين الذين تنصلوا عن ولائهم للقسطنطينية . فلماذا لا يذهب للسلطان ويعرض عليه ان يسترد له ولايته المفقودة ؟ بل لماذا لا يقوم الفرنسيون بغزو مصر ويدعون انهم لا يكنئون اي عداء للاسلام أو مصر ؟ وانما جاءوا ليحرروها من استبداد المماليك ، وفي نفس الوقت يسددون طعنة نجلاء لبريطانيا . فهذه بلا شك هي احسن طريقة للرد على احتلالها لرأس الرجاء الصالح ، الذي فتحت به لنفسها طريقا جديدا آمنا للشرق الاقصى . حسنا اذن ، فليحتل الفرنسيون مصر ، فمن هذه القاعدة سيهددون البريطانيين في الهند ، ومن المحتمل ان يتمكنوا من احتلال الهند نفسها . واذا ما شقت قناة في برزخ السويس فسيكون للفرنسيين منفذ للبحر الاحمر ، وتفتح امامهم جميع ابواب الشرق ، ولن تتمكن جميع السفن البريطانية من ايقافهم عند حد مهما جاهدت حول رأس الرجاء الصالح . ومن مصر ايضا سوف تتمكن القوات الفرنسية من ان تضرب شمالا في قلب الامبراطورية العثمانية . واذا تعذر اجبار السلطان على الخضوع ، او اذا لم يمكن ارهابه وتخويفه فلن يكون مفر من غزو بلاده واخضاعه قهرا . وفي الواقع انه من الممكن الاستفادة من مصر لتلعب دورا جديدا في العالم كقلعة خارجية تهدد الشرق والغرب على السواء . وبمجرد ان تصبح ولاية مضمونة لفرنسا ، يكون قد اتى الوقت للانقضاض على انجلترا نفسها . ولنفرض ان شيئا من هذا لم يحدث ، ولنفرض ايضا ان الفرنسيين لم ينجحوا في اكثر من احتلال مصر ليس الا ، أليس في ذلك وحده سلعة رابحة لمساومة انجلترا على السلم .

لقد اختمرت جميع هذه الاحتمالات بذهن بونابارت منذ اوائل سنة ١٧٩٧ ، وناقشها جميعها مع ديسيه الذي بدأ ينظر اليه كواحد من اقدر قوات الثورة ، كما الح بالفكرة على تالليران بباريس .

وعندما امضى معهادة الصلح مع النمسا وايطاليا ، كان حريصا على ان يستولي على اسطول البندقية . ليس ذلك فحسب بل كان حريصا على ان يستولي على جزر الأيونيان عند مدخل بحر الأدرياتيك . وفي نفس هذا الوقت كان الادميرال « بروويه Brueys » بجزيرة كورفو مع وحدات من الاسطول الفرنسي . فلم يبق اذن غير احتلال مالطة ليصبح البحر الابيض المتوسط عبارة عن بحيرة فرنسية . هذا ـ وعندما كان نابليون بايطاليا ارسل اثنين من عملائه ليتجسسا احوال هذه الجزيرة ، وعادا اليه باخبار سارة علم منها ان « فرقة فرسان القديس يوحنا » لن تستطيع ان تدافع عن الجزيرة . فذلك الحماس الذي كان قد دفع بهم الى الحروب الصليبية بالقدس قد خبا وتلاشى منذ زمن بعيد ، وانه بعد ان استقر بهم المقام في مالطا كملجأ اخير ، غشيتهم سنة من الخمول العقيم الذي عادة ما يصيب اي حامية لا يكون لها هدف معين . اما الوحدة الفرنسية من فرقة الفرسان المذكورة فلن تبدي اية مقاومة .

اذن فباحتلال مالطة وكورفو ومن بعدهما مصر سيكون الطريق معبدا امام الجيش الفرنسي . والخطة بعد ذلك تكاد تعلن عن نفسها بجلاء على الخريطة ، فها هو ذا الغار والفخار يتراءيان للعيان من خلال ذلك . وهاهو بونابارت يحلم بالفتوحات والانتصارات في الشرق صاحب العظمة الخرافية ، فلن تكون هذه الفتوحات اقل من فتوحات الاسكندر الاكبر . ورغم ذلك فقد احتفظ بونابارت بهدوئه واتزانه وواقعيته ، ولا يستطيع المراقب المدقق الا ان يقول ان تصرفاته الظاهرية في هذا الوقت كانت تدل على انه بعيد كل البعد من ان يكون منجرفا مع حماسه . ولم يلجأ (كما فعل هتلر) الى الخطب الحماسية المثيرة . لقد كان بونابارت قائدا شابا من طراز جديد ، قائدا عظيم الثقة في نفسه ، يعرف كيف يملي ارادته في وضوح على من بيدهم السلطة في

باريس ، وهــو محتفظ بهدوئــه . لقد غزا ايطاليا لا حباً في الغــزو والانتصار بل استعدادا الى وثبة اخرى .

وفي هذا الوقت كان يعلم جيدا أنه اصبح معبودا للجماهير ، وهو لا يزال في الثامنة والعشرين مــن عمره . وكل يوم يمر به في باريس كان يؤكد له هذه الحقيقة ، فالشارع الذي اشترى فيه منزله الصغير قـــد اعيدت تسميته واطلق عليه « شارع النصر » ، وما كان ليبرز منه في أي لحظة الا وتتكدس الجماهير حوله في جمــوع زاخرة ، وما كان ليدخل مسرحا الا ويقف النظارة ليستقبلوه بعاصفة مــن الهتاف والتصفيق . ومع ذلك فلم يكــن هنالك من هو اقل وهما وغرورا مــن بونابارت ، فعندما اشار سكرتيره « بوريين » ، في يوم مــن الايــام ، الــى حب الشعب له ، اجابه بونابارت قائلا : « بخ بخ ! ان هذه الجموع ستأتي بنفس هذا الحماس لتنظر الي ، اذا ما قدر لي ان اساق في يوم من الايام الى المقصلة » . ولا شك في ان هذا كان قولا صحيحا ، كما كان صحيحا ايضا انه لن يستمر كبطل شعبي الا اذا عزز سمعته بانتصارات جديدة . واهم ما يجب علينـــا ان نعرفه في هذه المرحلة ، هو ان بونابارت كــان يرى كل ذلك بوضوح ـ بنفس الوضوح الذي كان يدرك به ان رجال الحكومة الادارية كانوا يخافونه ، وبالتالي يكرهونه ويتمنون الخلاص منــه . وكان هو من جانبه يحتقر هؤلاء الاداريين ، وقد سأل «موا» يوما قائلا : « هل تعتقد انني حققت ما حققت مــن انتصارات بايطاليـــا لارفع مــن شأن هذه الحفنـــة مــن المحامين وغيرهم ممــن يشكلون هذه الحكومة الادراية ، من امثال كارنو وبارا ؟ يا لها مــن فكرة ! » ولكنه كان مقتنعا أيضا أن الوقت الذي يجب أن يضرب فيه ضربته لم يحــن بعــد .

ولذلك فقد تظاهر بالموافقة على خطة الحكومة ، وقبل اقتراحها بان يقود حملــة على انجلترا . وامعانا في التظاهر ، قام بطواف على موانىء

القنال ، وأرسل السرايا لاستطلاع الساحل الانجليزي ما بين « راي » و«فولكستون» ، ثم طلب ان تصنع مدافع على نمط المدافع الانجليزية يمكن تموينها بالذخيرة التي يغنمها الجيش الفرنسي عند نزوله في ساحل العدو .

ولا يمكن للانسان ان يقول ان بونابارت كان يعارض مبدأ غزو انجلترا غزوا مباشرا ، الا انه من الواضح ان الفكرة لم تكن تستهويه كثيرا ، ولا شك انه لم يستأ كثيرا عندما كتب له « بروويه » من البحر الابيض يقول ان سفنه لم تكن على اهبة الاستعداد لتلحق بباقي الاسطول في برست . ومما كان له اهميته ومغزاه ، ان الفرنسيين رغم كراهيتهم الشديدة لانجلترا ، ورغم ما كان يتأجج في قلوبهم نحوها من مرارة ، لم يستجيبوا لنداء الحكومة للقرض القومي الذي كان ضروريا لتمويل الحملة ، والذي قدر له ثمانون مليونا من الفرنكات — فقد فشل نداؤها فشلا ذريعا . وهنا حانت الفرصة التي يجب ان يحوّل فيها بونابارت اتجاه الحكومة ، في شيء من الدهاء والحكمة ، من القنال الانجليزي ويعود بهم مرة اخرى الى البحر الابيض المتوسط ، فأعلن عن خطته قائلا : « لأن نذهب الى مصر ونقيم فيها مستعمرة نثبّت فيها اقدامنا ، سوف لا يحتاج الى اكثر من بضعة اشهر . وبمجرد أن أبعث الذعر في انجلترا وأجعلها ترتعد فرقا على سلامة الهند ، سأعود الى باريس لانزل بها الضربة القاضية . وليس امامنا ما نخشاه اثناء ذلك، فالنمسا لا يمكنها أن تتحرك ، وانجلترا ستكون مشغولة في الاستعداد لمقاومة الغزو ، وتركيا سترحب بطرد المماليك » . وفي مناسبة اخرى ذكر بانه اذا ابحر في مايو ، ففي رأيه انه سيعود في اكتوبر ، ولكنه لم يكن متأكدا من ذلك بأي حال من الاحوال . وقد قيل انه عندما سألته جوزفين ، بعد زمن من ذلك ، عن الوقت الذي يظن انه سيعود فيه ، اجابها بقوله : « قد اعود بعد ستة اشهر او بعد ستة سنين او قد

لا اعود ابدا » . الا ان هذه الاجابة قد لا تكون ناتجة الا عـن الحسرة والاسى الذي انتابه لحظة فراقها . ومع ذلك فقد كانت عـين بونابارت متعلقة بفرنسا دائما وابدا ، في هـذا الوقت وفيمـا بعد . اما رجـال الحكومة فلم يكـن عامل الزمن يهمهم في قليل او كثير ـ طال ام قصر ـ وكل همهم كان منحصرا في الخلاص منه ، وكيف يمكنهم الوصول الى ذلك ، ولذا فما كاد يحل شهر مارس الا ونراهـم قد تحولـوا لتنفيـذ الخطـة المصرية .

ويجدر بـنا ان نقف هنـا قليـلا لنمعـن النـظر في الظروف والملابسات التي مكنت هذا الرجل الشاب مـن مثل هذا المركز القيادي الفذ . فاذا سلمنـا جدلا بأنه كان معجزة مـن المعجزات منذ ولادته ، وإذا سلمنـا أيضا بأن الثـورة الفرنسية قد وفرت لـه من الفرص ما لم يكـن ممكنا في عهد لويس السادس عشر ـ اذا سلمنا بكل ذلـك فلا تزال هنالك حقيقة قائمة ، وهي انه قبل اربع سنـوات فقط لـم يكـن لاسمه اي ذكر في العالم ، بل كان في ذلك الوقت مقبوضا عليه في باريس بتهمة الخيانة العظمى . كما انه في وقت ما كان يفكر في عرض خدماته على سلطان تركيـا كضابط في المدفعية . الا ان مساندته لبارا Barras في انقلاب اكتوبـر سنة ١٧٩٥ قد لفتت اليه الانظار ،وكان ذلك في عهد ملتهب ثائر ، الشباب فيه كل شيء ، والشهرة يمكـن ان تبنى في يوم وليلة . ولكنه في ذلك الوقت كان لا يزال شخصية غريبـة على صالونات باريس ـ شعر طويل اشعث يتدلى الى منكبيه ، وسحنة شاحبة ، وعينان زرقاوان كئيبان ، ثم مظهر ينم عـن الارهاق والقلق الحزيـن ، وقامة قصيرة نحيـلة عليها ملابس مترهلة ، ليس فيها شيء مـن الاناقة ، وسيف يتدلى على جنبـه في غير عنايـة او جاذبيـة . صحيح ان هـذه المظاهر الخارجيـة ربمـا كانت عديمة الاهمية في الاوساط المستنيرة ، لولا انه زيادة على ذلك كان كثير الصمت قليـل

الكلام . وعندما يتكلم كانت تشوب لهجته لكنة كورسيكية ثقيلة على السمع . وبالاختصار فقد كان مثالا صادقا للشاب الموهوب الذي يعرف تماما ميزاته المتفوقة ولكنه لا يعرف كيف يستغلها او يظهرها .

ثم ظهرت جوزفين في مسرح حياته ، وهي الغـادة الحسنـاء ذات الماضي العطر الريان عندما كانت في جزر المارتينيك ، وهـي صاحبـة المغامرات الغرامية التي مارستها تحت ظل المقصلة . والظاهـر انهـا اصيبت بشيء مـن الدهشة ، بل مـن الخوف ، عندما اتجه بونابارت نحوها بجميع عواطفه وشغفه . ومهما كان شعورها نحو هذا الضابط الشاب الأناني الغامض ، إلا انه لم يكن شعورا بالحب العنيف الأهوج . وقد كان مـن الطبيعي ان تتردد كثيرا دون ان تعده بشـيء ، لولا ان « بارا » ، العشيق السابق الذي كان لا يزال يشملها برعايته دون ان تكون له رغبة فيها ــ لولا ان بارا هذا اكد لها ان بونابارت سيقلـد القيادة في ايطاليـا . عند ذلك رأت ان الموضوع برمته جدير بالاعتبار ، وخصوصا اذا لم يكـن هنالك احتمال في ان تصحب زوجها في هـذه الحمـلة . وعند زواجهمـا في مارس سنة ١٧٩٦ عزفت نغمة برجوازية نشاز ، فالظاهر ان عمـر جوزفين (التي كانت تكبره بست سنـوات) كان له وزنه في الترجيح بضميرهما الاجتماعي ،فاضطر بونابارت ان يزيد مـن عمـره ١٨ شهرا بينمـا خفضت هي عمرها باربع سنوات ، الشيء الذي لم يكـن شبيها ببونابارت . غير ان بونابارت المفتون بجوزفين شيء ، وبونابارت في حقيقته شيء آخر .

وفي سنة ١٧٩٨ ، أي بعد سنتين حافلتـين قضاهما بايطاليا ، لـم يعد بونابارت ابـن الثامنة والعشريـن بالعبقرية المجهولة ،فقد بـدت عليه سيماء السلطة رغم انه كان في نفس الصرامة القديمة . وقد كـان يبث نفوذه في غير جهد او مشقة ، اكثر مـن مشقة التنفس الاعتيادي ــ اذا كان في ذلك مشقة ــ ومن المدهش ان نراه وقد اكتسب ولاء بعـض



Kléber كليبر



Desaix ديسيه

الشخصيـات الفذة كالارستقراطي القديم مينو Menow والفنان دينـو Denon والعالم الرياضي مونج Monge وغيرهم من الرجال ، كبيرتي، ودافو ، ولان ، وجينو ، ومورا ، الذين كـان اسمهـم يبعث الرعب في جميع ارجاء اوروبا . ولم يكن يكرهه مـن معاصريه غير كليبر ، اما تالليران فقد كان متحفظا معه بطريقته الكنسية اللطيفة ، ولكن كـلا الرجلين لم يكـن في مقدورهما ان يعارضاه . وقد سمح تالليران لنفسه بالتعليق علـى بونابارت بالعبارة التالية : « شخصية جذابة ــ عينان ساحرتان ــ سحنة شاحبة وشيء مـن الاجهاد » .

اما ديسيـه فمن المفهوم ، ومن الجائز ان يشعر بشيء من الغيرة من صنوه الذي لفت اليه جميع الانظار . فقد كان يكبر بونابارت بسنة واحدة ، ولم يكن اقـل نجاحا منه ، إذ أنه قفز الى قيادة جيش الراين وهو لا يزال في الثامنة والعشرين من عمره ، وكان نموذجا مثاليا لما يجب ان يكون عليه قائد الثورة ــ كان متفانيـا في جنديته ، مثالا للشجاعة والحزم في اتخاذ قراراته ــ يعيش في الميدان مع رجاله ولا يميل الـى التكلف او التظاهر في أي ناحية من نواحيه الرسمية او الخصوصية . ويقال أنه عندما يحتدم الوطيس كانت قامته القصـيرة تزداد طـولا ، وصوته يمتليء قوة آمرة مطلقة ، ولهذا السبب كان جنده يتعلقون به ويتبعونه اينما ذهب . غير ان ديسيه لم يفكر في ان يكون له كيانه في العالم ، وبمرور الزمن اعترف بتفوق بونابارت عليه ووضع نفسه تحت خدمته ، فاعلن عندئذ قائلا : « انني مقتنع بأن بونابارت سيحقق مجدا لا حدود له ، ومن المستحيل الا ّ ينعكس هذا المجد على معاونيه . انه رجل متعالي — رجل غامض — لا يرحم أبدا ، وهو لا يترك عـدوه حتى إذا اضطر لأن يلاحقه حتى آخر الارض » . فليس من الغريب إذن ان يعجب القائد الاعلى الجديد بديسيه الى أبعد الحدود .

وأدعى من هذا للدهشة واجدر بالاعتبار ، ما كان لبونابارت من

تأثير على مجمع فرنسا العلمي . لقد قيل ان النجاح يعدي ، وأن ذوي الفكر في كل عصر يفتنون بالرجال العاملين من ذوي المعرفة ، الا ان بونابارت قد فتن هذا المجمع واثاره ، كما لو كان فرقة من طلبة المدرسة الحربية ، على وشك ان تتبعه للميدان . فطلبوا منه ان يقبل عضوية مجمعهم ، وأطربهم اعتداله في قراءة بياناته ، كما ادهشتهم غزارة علمه وغرر بهم اهتمامه بعلمهم . وفي لحظة واحدة نجد ان رجالا من ذوي العلم والقلم ، رجالا مثل مونج وبيرتوللي ممن يكبرونه سنا بمراحل عديدة — نراهم يشعرون بالشباب يدب الى نفوسهم ، فلا يفكرون في شيء اكثر متعة من الذهاب مع الجيش الغازي الى مصر . اما القائد الصغير فلم يسعه الا ان يرحب بهم في ركابه ، ولم يكن أحب اليه من ان يراهم جميعا من مهندسين وعلماء في طبقات الارض ، الى علماء في الرياضيات وكيمائيين وعلماء في الاحياء والفلك والجغرافيا والمعادن والآثار ، الى متخصصين في الدراسات العربية وشعراء وفنانين ضمن هيئة اركان حربه . وفي النهاية ، ودون ان يعلموا مصيرهم اذا بهؤلاء الرجال البحاثين من ذوي المعرفة ، يكوّنون فرقة اخرى من الطلبة الحربيين ، ليسيروا في ركاب قيصر الصغير الى ساحة الوغى .

وفي نفس الوقت كان التخطيط للحملة يسير قدما في منتهى الدقة والحذر . وكانت الحملة منذ بدايتها حملة خاصة الى حد بعيد ، فبمجرد ان تحصّل بونابارت على اعتماداته المالية من الادارة — وكان قد خصص لها مبلغ تسعة ملايين فرنك — اصبح ينفق المال كما شاء ، دون ان يقدم بيانات بذلك . ولم تعد وزارة المالية هي مركز ادارة العمليات الحربية ، بل كانت تجري هذه المهمة في ذلك البيت الصغير الذي يقع في شارع النصر . ليس ذلك فقط ، بل قد رفض بونابارت طلبا للحكومة بان يكون مع الحملة مندوبون سياسيون لمراقبة

تحركاته . ويظهر ان التخطيط العام بحذافيره كان من عمله هو شخصيا ، وقد قدر انه سيحتاج الى قوة محاربة تتكون من ثلاثين الف رجل من المشاة ، وثلاثة آلاف من السواري ـ تعززها مائة مدفع ـ على ان تكون هذه القوة اساسا ، من اولئك الرجال الذين قادهم الى النصر في ايطاليا . وطلب ايضا يكون قواد الفرق واللواءات ممن رقاهم او عينهم هو شخصيا ، وهم : ديسيه ـ كليبر ـ بيرتي ـ مورا ـ ممون ـ لان ـ دافوا ـ وجونو ـ وألحق « يوجين دي بوهارني » ابن جوزفين ـ بالقوة كياور خاص لبونابارت . وجميع هؤلاء الرجال كانوا تقريبا في عمر بونابارت ، كما ان معظمهم كان قد اصيب بجراح اثناء العمليات الحربية ، ولذلك فقد تبعوه بروح الجندية التي لا تتوفر الا في صغار الرجال الذين خاطروا بحياتهم في يوم من الايام ، ثم نجوا من الموت ليستمتعوا بنشوة السلطان . ولا شك في ان الفضل في نجاح الحملة يعزى الى هذا الاختيار اكثر مما يعزى إلى أي عامل آخر .

ثم اتت بعد ذلك عملية تجميع السفن التي قدروا حاجتهم منا بثلاث عشرة سفينة مقاتلة وما يتبعها من زوارق ، ومائتي سفينة من حاملات الجنود . ووقع الاختيار على طولون لتكون المرفأ الرئيسي للابحار ، على ان تنضم للقوة الرئيسية وحدات من مارسيليا وجنوة وكورسيكا وسفيتا فكسيا ، ويكون الهدف الاول للحملة جزيرة مالطا . وبعد ان تخضع الجزيرة وتؤمن يبحر الاسطول كمجموعة واحدة للاسكندرية .

ويقال ان بونابارت كان يخاف البحر ولا يفهمه ابدا ، ومع ذلك فليس في تاريخ حياته ما هو أدهش من السرعة التي سارت بها هذه العملية البرمائية الجريئة المعقدة ، التي اعدت ، رغم ضخامتها ، في ظرف بضعة اشهر ، واديرت من باريس في صيف سنة ١٧٩٨ .

فمن « شارع النصر » كانت تتدفق الاوامر في تيار متواصل ، ويجري تنفيذها في سرعة مدهشة لا يحلم بها اي قائد في عهدنا الحاضر ، مع ما لديه من وسائل السرعة كالطائرات والبرق والهاتف وغيرهما ، مما لم يكن معروفا في عهد بونابارت . وكانت العملية كلها عبارة عن مؤامرة في اوسع نطاق ، ولذلك لم يترك مجال لشاردة او واردة الا واتخذت لها الحيطة اللازمة . فقد ارسل مونج ــ مثلا ــ للحصول على بعض الخرائط ومعدات للطباعة ، باللغتين العربية واليونانية ، وطلب من تالليران أن يضع مشروع معاهدة لكسب القسطنطينية ، يعطى بموجبه سلطان تركيا جزر « الايونيون » كما يعطى جزية سنوية من فرنسا مقابل موافقته على غزو مصر . ثم وضعت خطة للدعاية (فقيل عن مالطا انها كانت تتحرش بالجمهورية ، وانها آوت الهاربين ، وقيل عن مصر ان المماليك كانوا يسيئون معاملة المواطنين الفرنسيين . وهكذا ادعت فرنسا ان لها حقا مشروعا في شن حرب عليها) ثم جمعت مكتبة ضخمة للاستفادة منها كمرجع للحملة (فالقرآن الكريم وكتب الفيدا [1] الهندية وضعت في مكان واحد تحت قسم السياسيات) ، كما ان جنديا فرنسيا كان قد عمل في الهند ضد الانكليز ، قد عين في المخابرات العسكرية . ثم قاموا بدراسة وافية للنيل ــ فيضانه ومواعيد ارتفاعه وانخفاضه ــ وقر قرارهم على ان تصل الحملة الى مصر قبل بداية الفيضان الذي يكون عادة في اغسطس . واضيف للحملة بعض خبراء المناجم ، كما اضيف اليها قسم للخدمات الطبية . واخيرا ارسل خطاب للاميرال « بروويه » يطلب منه ارسال غرفة نوم لسفينة « تصلح لقائد اعلا ينتظر ان يصاب بدوار البحر طيلة الرحلة » .

وهكذا يهب نسيم منعش من الامل ، فيثير الحماس ويلهب

---

(١) الفيدا : هي كتب الهندوس المقدسة ، وعددها اربعة .
المترجم

الشعور ، الا ان هذا الحماس لم يكـن شاملا بين الصفوف . والمغامرة لم تـرق لجميـع رجال الجيش والاسطول ، الذيـن اخذوا يتجمعون في طولون ، والذيـن لم تخل صفوفهم مـن المتذمرين ، الا ان احدا لم يجرأ أن يناقش الخطة ، ولم يكن لأحد أن يتشكك في القائد الأعلى ، فاسم بونابارت قد اصبح ضمانا لكل نجاح . وهذا في حد ذاته شـيء يسترعي الانتباه ، وخصوصا لان البحارة والجنود لم تكـن لديهم ابة فكـرة الى ايـن هم مسيرون ، او الى اي مدى سيغيبـون ، وكلمـا اخبروا به هو انهم ذاهبون ليسددوا ضربة لبريطانيا ــ وقد وضع اليهم هذا الخبـر بطريقة غامضة ــ ومعنى ذلك ، دون شك ، ان الكثيرين منـهم لـن يعودوا الى اهليهم مرة اخرى .

ومـن الصعوبة ان نفهم ، حتى هذه اللحظة ، كيف امكن التكتم على اتجاه هذه الحمـلة حتى نهاية مراحلها . فالخطة كانت معروفـة للكثيريـن بباريس ، والرسل كانوا يتنقلون باستمرار بيـن ارجـاء فرنسا وايطاليا ، والفرق العسكرية كانت في حركة دائبة ، والسفن تتجمع في الموانيء تحت سمع وبصر الجميع . اما الانكليز فقد كانوا يعلمون في شيء مـن اليقين ان هناك حملة تحت التحضير ، ومع ذلك فالحقيقة لا تزال قائمة انه حتى بعد ابحار الاسطول بزمن ، كانوا يعتقدون انهـا اما ان تكون متجهة لاحتلال نابولي ، او ان بونابارت سيعرج نحـو الغرب عبر مضيق جبل طارق ، ثم يتجه نحو انجلترا او ايرلنده .

ومـن حقنا ان نعجب ايضا كيف استطاع « برוויه » ان يبحـر في ثقة . بمثل هذه القوة الضخمة المكونة مـن بضع مئات مـن سفن النقل الصغيرة ، في الوقت الذي كان يعلم فيـه جيدا ان الاسطـول الانجليـزي قد يظهـر في البحر الابيض في اي لحظة . وفعلا كانت قد وصلت بعض الأخبار ، في أوائل مايو ، بأن قطعا مـن السفن الحربية الانجليزية قد شوهدت وهي تطوف حول كورسيكا وقرب طولون .غير

ان اتساع البحر الابيض الشاسع كان في صالح الفرنسيين لحد بعيد ، كما يجب ان لا ننس ان العصر كان لا يزال عصر السفن الشراعية ، وان الرحلة من طولون للاسكندرية كانت تستغرق شهرا كاملا . ولذلك فحتى حملة كبيرة كهذه كان لها كل الحق في ان تضمن اخفاء تحركاتها في هذا الامتداد الشاسع من الماء . كما انه لا يمكن الافتراض بان الفرنسيين في سنة ١٧٩٨ كانوا يعترفون بتفوق الاسطول البريطاني عليهم . فالاميرال « نلسون » لم يكن قد خاض معاركه الحاسمة بعد ، ولا ننس ان البحر الابيض كان معروفا للفرنسيين حق المعرفة . ومن الجائز انهم لم يكونوا ليرحبوا بصدام ، وهم في ذلك الموقف ـ تعوقهم القافلة ـ ومع ذلك فلا يمكن القول بأن قواد الاسطول كانوا يتخوفون من القتال ، بل لعلهم كانوا يتشوقون لخوض معركة مع الاسطول البريطاني ، ولكن تحت ظروف اكثر ملاءمة . وقبل كل شيء فهذا هو الغرض الذي اعدت من اجله سفن القتال الثلاث عشرة والزوارق الحربية الاربعة عشر .

واخذت ثقتهم تزداد ازديادا مضطردا مع اقتراب موعد الابحار ، ومع ازدياد حجم قوتهم الذي كان مطمئنا في حد ذاته ، اذ بلغ اربعين ألف رجل بما فيهم البحارة . وكما يحدث دائما في مثل هذه الاحوال ، فقد شد من عزيمتهم ـ جندا وبحارة على السواء ـ انهم قد ارتبطوا بمغامرة لا رجوع عنها .

وفي اللحظة الاخيرة ظهرت عقبة في مفاوضات الصلح مع النمسا ، وبدا في الافق شبح تجدد المعارك في اوروبا نفسها ، واستمر التوتر لمدة اسبوع او اسبوعين . الا انه بحلول الرابع من مايو سنة ١٧٩٨ كانت السحب قد انقشعت ، واستطاع بونابارت ان يفلت خلسة من باريس ، فغادرها مع جوزفين في اول مركبة من مركبتين غادرتا العاصمة في ذلك اليوم . وسارت المركبة الثانية خلف مركبتهما ، تحمل العفش

والياوران . ومضت العربتان في الطريق الذي يمر باوكسير ، شالون ، ليون فالنس ، افينون . ووصلوا طولون في زمن مناسب لم يتجاوز الخمسة ايام .

وكانت الميناء في دوامة ، تعج بحركة النزول الى السفن ، والجند في كل مكان ــ المشاة في طراميقهم السوداء التي ترتفع حتى الركبتين ، وسراويلهم الضيقة البيضاء وعباءاتهم القرمزية اللون ، وقد وضعوا شارات الثورة على قبعاتهم ــ والضباط في زيهم التقليدي الانيق ــ القبعات العالية والاسبليط المذهب ــ واحتل بونابارت مع جوزفين ، جناحا في لوكاندة « دي لاتتندان » ، ومن هناك اصدر بيانه التقليدي لقواته ، فاعلن لهم انهم « يشكلون جناحا من جيش انجلترا » وان كل رجل منهم سيمنح ستة افدنة من الارض عندما تنهي الحملة مهمتها بنجاح .

وبحلول الثاني عشر من مايو تمت عملية انزال الجنود الى السفن ، الا ان عاصفة قد هبت في ذلك اليوم فاضطرت بروويه للتريث حتى الثامن عشر ، واخيرا ، بعد ان هدأت العاصفة ، امر السفن بالابحار . والظاهر ان بونابارت ، حتى آخر لحظة ، كان يأمل أن تذهب جوزفين في رفقته ، ولكن قد كانت لها اعذارها القوية (اعذار لا تتعلق بمحبيها) فصحتها لم تكن على ما يرام ، ثم انها اذا ارادت ان يكون لها طفل من نابليون ، فلا بد لها من ان تتبع نصيحة الاطباء وتذهب للاستشفاء بمياه « بلومبيير » المعدنية ، واخيرا عليها ان ترعى شئون منزلها واسرتها بباريس . وقد ذكرت ايضا انه سيكون في امكانها اللحاق به بعد شهر او شهرين ... واخيرا اذعن بونابارت ، وافترقا على الرصيف . وفي التاسع عشر من مايو كان بونابارت على ظهر سفينة القيادة « الشرق » ، وهي من بوارج القتال المزودة بمائة وعشرين مدفعا . وبعد ان ركب معه « بيرتييه » وهيئة مكتبه الخاص

انطلقت « الشرق » لتلحق ببقية الاسطول في عرض البحر .

انه لمن المستحيل ان تتصور ، في عهدنا الحاضر ، مشهد اسطول حربي يتكون من سفن شراعية ، وما يحدثه من صخب واثارة وهو خارج في إحدى عملياته الحربية . فقد جرت العادة ، خلال الحربين العالميتين الاخيرتين ، ان تحدث مثل هذه العمليات في جنح الليل وتحت ستار الظلام ، كما تعودنا على منظر المدمرات ومنظر الغواصات الغامض الذي يبعث الشؤم في النفوس ، وعلى منظر سلاح الجو وهو ينذر بالسوء فوق الرؤوس . اما في تلك العهود فقد كان المشهد يختلف كل الاختلاف ، فالاشرعة منتفخة في كل مكان ، والاعلام ترفرف على ساريات جميع السفن ، والفرق العازفة ، والجند في ابهى حللهم ، يقفون على اسطحها . مضافا الى ذلك حركة انسياب البحر الطبيعية من تحتها وتلاطم الامواج على جنباتها ــ كان كل ذلك يشكل مشهدا فريدا يجعل من اليوم الذي يبحر فيه مثل هذا الاسطول ، يوما رائعا لا يمكن ان ينسى . وفي نفس هذه السنة كان قد ظهر في انجلترا ديوان « الملاح الوقور » ، فبدا للعيان عمليا ما جاء في ذلك الديوان من وصف للزبد الابيض المتطاير ، والاخاديد المنطلقة خلف السفن ، وشعر الكثيرون ممن بتلك السفن ، بما شعر به بطل « كولريدج » من انهم سيكونون فعلا اول من يقتحمون ارضا جديدة مجهولة وراء الافق. وهكذا سارت القافلة ، تتقدمها الطرّادات فبوارج القتال ثم تأتي سفن النقل الصغيرة باعدادها الضخمة على بعد عدة اميال من المؤخرة ، وهي تتمايل كالأراجيح فوق سطح الماء بزرقته الزاهية . وقبل ان يقلع الاسطول بقليل ، تلقى بروويه تقريرا بان نحو ثلاثين قطعة من الاسطول البريطاني قد شوهدت خارج مياه ماجوركا متجهة نحو الشمال الشرقي ، غير ان البحر في هذا اليوم كان خاليا . وعليه فقد ابحر الاسطول دون ان يعترضه عارض ، متجها نحو جنوة فاجاكسيو

ليلتقط بعض التعزيزات ، ثم اتجه شرقا نحو الساحل الايطالي ، وتوقف بالقرب من « سيفينافسكيا » . وهنا وصلتهم رسالة من الشاطىء بان « ديسيه » Desaix قد ابحر قبل يوم او يومين الى مالطا ، بعد ان فرغ من تجميع قواته . وعليه فقد واصلوا سيرهم ، وفي التاسع من يونيو وصلوا مالطة ووجدوا ان « ديسيه » قد دخل فعلا في مفاوضات مع « فرسان القديس يوحنا » [1] .

ويقول المؤرخ المصري شفيق غربال في شيء من الايجاز : « ان يوما من المناوشات ، اعقبه يوم آخر من المفاوضات كانا كافيين لسقوط مالطة » . والظاهر ان المشكلة قد انتهت فعلا بهذه السهولة ، لأن الحامية كانت في حالة من الاعياء والخوف والانهيار ، مما لاقته من دسائس مواطنيها ــ تلك الدسائس التي دبرها وخططها بونابارت منذ اكثر من عام ــ ولذلك فقد انهارت منذ اول هجوم .

واقام بونابارت في قصر « السيد الاعظم » لمدة ستة ايام ، تمكن خلالها من القضاء على حكم « الفرنسان » الى الابد ، وقام في نفس الوقت بتشكيل حكومته الخاصة ، على نمط الجمهورية الفرنسية .

---

(1) Knights of St. John فرقة دينية من فرسان القرون الوسطى ، انشأت سنة ١٠٤٨ من المتطوعين من بعض دول اوروبا ، وكان الغرض منها حماية الحجاج المسيحيين لبيت المقدس ، وفي سنة ١١١٠ اخذت طابعا رسميا واقيمت لها كنيسة ومستشفى لمرضى الحجاج المسيحيين . وكانت فرقة « الفرسان » هذه تتكون من ثلاثة أجزاء : ١ ــ حملة السلاح وهم نبلاء الدول الاوروبية ، ثم ٢ ــ القسس ، للقيام بالمراسيم الدينية و ٣ ــ فرقة التمريض للعناية بالمرضى من الحجاج المسيحيين . وعندما سقطت القدس تراجعوا الى جزيرة قبرص ثم فتحوا « رودس » واطلقوا على انفسهم « فرسان رودس » ، ثم طردوا من رودس واستقروا بمالطة . وبعد ان سقطت مالطة في يد نابوليون تفرق شملهم ، الا انه في سنة ١٨٣٠ تكونت فرقة رسمية بانجلترا بهذا الإسم ، الا ان مهمتها كانت مكرسة على الاسعافات الاولية .

المترجم

ولم يبق على شيء بالجزيرة ، فالمؤن والاموال والسلاح ، قـــد نقلت جميعها للاسطول . ثم وضع يده على كل ما بالميناء مـن سفن وزوارق ، حتى اصغرها حجما . ثم وضع دستورا جديدا للجزيرة واقام عليـــها مندوبا ساميـا من الفرنسيين ، وترك معـه أربعة آلاف جندي لتثبيت سلطته . واصدر امرا بابطال التعليـم الكهنوتي في جميـع المدارس ، وامر ان يكون التعليـم باللغة الفرنسيـة ، كمـا ارسل نخبة مـــن الصبيـان المالطيين ، تتكون مـن ستين طالبا لتلقي العلم في باريس على حساب الحكومة الفرنسيـة ، وذلك بعد ان ألبسوا زيا يتكون مـن سراويل زرقاء وقبعات حمراء . ثم اصدر قانونا بابطال الرق ـ وكانت هذه لفتة بارعة منه ، لان معظم ما يمتلكه الفرنسان مـن رقيق كانوا مسلمين جلبوا مـن ساحل بمباي . وكان بونابارت يـرمي مـن وراء ذلك الى التودد لسلطان تركيا بارسالهم له بالقسطنطينية . والآن وقد رفرف العلم المثلث الالوان على سارية قصر « السيد الاعظم » وعلت شارة الثورة هامة كل شخص في مالطه ، واصبحت الجزيرة جزءا مـن فرنسا ـ الآن وقد تم كل ذلك ، اسرع بونابارت بارسال هذه الانبـاء العظيمة للادارة بباريس ، ومعها خطاب الى تاليران يستعجله فيه بانهاء مفاوضاته مع القسطنطينية .

وفي التاسع عشر من يونيو كان القائد الاعلى على اهبة الاستعداد للابحار مرة أخرى ، ولما يظهر اثر للبريطانيين حتى الآن . وعليه فقـد ابحـر الاسطول الفرنسي ، بعد ان تضخم عدده الى اكثر من ثلاثمائة سفينة ـ واتجه شرقا في جو هادىء رائع ، تساعده رياح تهب مـــن الشمال الغربي .

ولا يزال امامهم اثني عشر يوما ليقضوها على ظهر السفـن ، الا ان الرحلة قد كانت ممتعـة فيما يبدو ، فلم يصب احـد بدوار البحر بما في ذلك نابوليون ، الذي قضى هذه الايام بسفينتـه « الشرق » ،



ميدان الازبكية عندما يغمر بالماء

يملي اوامره ومذكراته على « بوربين » . وكثيرا ما كان يقرأ في الكتب التي ضمتها مكتبة الحمـلة ـ وكان بها ٢٨٧ مجلدا ـ وكان احيانـا يشترك في مشاهدة ما يبتكره البحارة مـن وسائل للتسليـة . ومـن ضمـن المواضيع الشيقـة التي كانوا يمثلونها ويتندرون بها ، رواية تدور حول جارية شركسيـة حسنـاء وشاب مـن ابطال الثورة ورجل شهواني بديـن يمثل دور الباشا النذل . وللمحافظة على نشاط الجند ولياقتهم البدنية كانوا يأمرونهم بتسلق صواري السفـن ، والقيـام بتماريـن المدفعيـة ، وكثيرا ما كانت تطلق ابواق الانذار لتدريبهم على الاستعداد لظهور السفـن البريطانية ، الا انها لم تظهر ابدا . وسارت الحمـلة بيـن ذلك الهدوء الشامل ، الذي عرف به البحر الابيض في هذا الفصل مـن السنة (الصيف) ، بعيـدة كل البعد عـن العالم . أما المثقفون وذوو الرأي ممن اشتركوا في هذه الحملة ، أولئك العلماء الفطاحل الذين كانوا يلقبون « بدائرة المعارف الحية » ، والبالغ عددهم نحو المائة وخمسين رجلا ، فقد كانوا موزعين على عدة سفن . ويمكننا ان نتصورهم وهم يذرعون سطح السفـن في نقاش حاد ، وسط ذلـك الجو العسكري العجيب ، الا ان بعضهم ، على الاقل ، كان امامه عمـل جاهز ليقوم به ، ففي هذا الوقت كان بونابارت قد اعد اول بيان للشعب المصري ، وكان لا بد مـن ترجمته الى العربية ثم طبعه .

وبناء على ما قاله غربال ، فان النص الفرنسي الذي أعده بونابارت كان اقرب الى اسلوب القرآن وروحه مـن الترجمة التي نقل اليها . وعلى أي حال فقد كان بيانه هذا نوعا مـن الخداع والنفاق الذي يلفت النظـر ، وهو نفس النفـاق والخـداع اللذين تعودنـا سماعهما في اساليب الدعاية التي انتهجها القرن الحاضر ـ هو ذلك الاسلوب الذي يقول « انني اقرب الى التقوى منك » .

فقد اعلن بونابارت انه اتى كصديق وحليف لسلطان القسطنطينية ،

وان العلمين [١] التركي والفرنسي سيرفرفان جنبا إلى جنب في كل مدينة وقرية بمجرد ان يتم طرد المماليك المغتصبين ، من البلاد . وقد جاء في منشوره هذا ما معناه : « ان بكوات المماليك الذين يحكمون مصر قد ظلوا لفترة طويلة يسيئون الى الرعايا الفرنسيين ويثقلون على التجار منهم بالمضايقات ، وها قد دنت ساعة القصاص منهم . لقد ظلت هذه الطغمة من العبيد الذين جلبوا من القوقاز وجورجيا تتسلط وتتجبر لمدة من الزمن على أطيب بقعة في العالم ، دون رادع او وازع ، ولكن الله العلي القدير امر بزوال ملكهم . يا شعب مصر ! سيقال لكم انني اتيت لمحاربة دينكم ، فلا تصدقوهم وقولوا لهم ما اقوله لكم الآن ، من انني أتيت لأسترد حقوقكم ، ولاعاقب من اذلوكم ، وانني اجلّ الله اكثر مما يجلّه المماليك وأجلّ نبيه والقرآن الكريم .

« إن جميع الخلق سواسية عند بارئهم ، وانما يتميز بعضهم عن بعض بالعقل والموهبة والفضيلة . فأي حكمة وأي موهبة تميز بها المماليك ، ليستبيحوا لانفسهم الاستمتاع بكل ما هو جميل وكل ما هو طيب في هذه الحياة ؟ فهل هناك صنيعة مثمرة لا يمتلكها المماليك ؟ وهل هناك جارية حسناء او جواد اصيل او قصر منيف لا يمتلكه المماليك ؟ فاذا كانت مصر هي صنيعتهم الخاصة التي وهبها الله لهم ، فليبرزوا حجة هذا التمليك .

« ولكن الله عدل والله رحيم بالعباد ، وها قد آن الأوان ليحكم المصريون انفسهم بانفسهم . ها قد آن الاوان ليحكمكم اعقلكم

---

(١) يذكرنا هذا بالعلمين المصري والبريطاني اللذين كانا يرفرفان في جميع انحاء السودان ابان ما كان يسمى « بالحكم الثنائي » دون أن تتعدى شراكة المصريين المزعومة رفرفة ذلك العلم وما قاموا به من جهد مشكور في نواحي التعليم .

المترجم

واعلمكم واكثركم فضلا وتقوى ، ليوفر للشعب السعادة والرخاء . لقد كانت في مصر مدن عظيمة وقنوات ضخمة وتجارة مزدهرة، فاين هي الآن؟ وكيف خربها المماليك ؟ قولوا لقومكم اننا نحن اصدقاء المسلمين الصادقين في اسلامهم ، اننا نحن الذين حطمنا البابوية لأنها نادت باشعال حرب على المسلمين. ألم نكن نحن الذين حطمنا عصابة «الفرسان» بمالطة لان جنونهم هيأ لهم ان القدرة الالهية هي التي سخرتهم لحرب المسلمين. ألسنا نحن اصدقاء السلطان (نصره الله) وأعداء اعدائه ؟ثم ألم يكن المماليك هم الذين شقوا عصى الطاعة على عظمة السلطان ورفضوا ان يعترفوا بسلطانه عليهم او يطيعوا له امرا ؟ بل لم يطيعوا الا اهواءهم واغراضهم الخاصة .

« طوبى ثلاثا لمن كانوا معنا ، فسيعلون مقاما ويزدهرون مالا . وطوبى ايضا لمن وقفوا على الحياد ، فلا بد ان تسنح لهم الفرصة ليعرفونا عن كثب ، ولا بد ان ينحازوا الينا في النهاية . ولكن الويل ثلاثا ، لمن يقفون الى جانب المماليك ويحاربون ضدنا ، فلن يكون لهم أمل في المستقبل ، وسينتهون » .

وكان في هذه السفسطة شيء تافه من الصحة على الاقل ، وكان بونابارت يعتقد انه سيكسب بمثل هذا الكلام سلطان تركيا . الا ان الحقيقة التي لا مراء فيها ان معظم رجال جيش الثورة كانوا لا دينيين ، وعلى اي حال لم يكن يعنيهم كثيرا ام قليلا لا البابا ولا تعاليم الاسلام ، بل كان لهم مذهبهم الخاص بالحياة . هذا ـ وعندما ارتدى بونابارت زي المسلمين وهو بالقاهرة ، وعندما حاول ان يقيم حكومة ذاتية تتألف من الائمة والاعيان ، فانما كان يخادع نفسه ويوهمها بان المصريين سيعتبرونه واحدا منهم عندما يرونه في ذلك الزي ... وعموميا فقد كان هذا هو الاتجاه الذي خططه لنفسه في تلك اللحظة الحاسمة ـ لحظة انزال الجنود الى الشاطىء . فقد اوضح لرجاله في قوة

واصرار هذا الاتجاه الذي رسمه ، فشدد عليهم بان لا يعتدوا على حرمة المساجد ولا يزعجوا الأئمة ولا يخربوا ولا يتعرضوا للنساء او يعتدوا عليهن ، واضاف بان من يفعل شيئا من هذا يعتبر نذلا. ولم يكتف بذلك، بل أمر ضباطه بان يلتزم الجميع بالمحافظة الدقيقة على النظام ، وخصوصا فيما يتعلق بمعاملة الجنود للاهالي . هذا ــ ولا بد ان الكثيرين قد اخذوا يتساءلون عندما اقتربوا من الساحل المصري عما سينالونه من جزاء في هذه الاصقاع النائية من « وطن الخيرات » ، فصاح فيهم احد البحارة ممن عرفوا بسرعة البديهة ــ وكان في سفينة دينو ــ صاح وهو يشير الى الساحل المنبسط المقفر قائلا : « انظروا ! ها هي الستة افدنة التي وعدتم بها » .

نحن الآن في اول يوليو ــ وحتى هذه اللحظة كان الحظ حليف بونابارت بدرجة لم تكن في الحسبان ، ففي الستة اسابيع الماضية كان « نلسن » يبحث عنه في طول البحر الابيض المتوسط وعرضه دون جدوى . وكانت في امرته اربع عشرة سفينة وصل بها الاسكندرية قبل يومين من وصول بونابارت ، ولما لم يجد اثرا للاسطول الفرنسي اقلع مرة اخرى . وكان اقلاعه في نفس اللحظة التي كانت مقدمة السفن الفرنسية تقترب فيها من الساحل المصري . وكانت خطة بونابارت ان يدخل ميناء الاسكندرية مباشرة ويأخذ المدينة على غرة ، الا انه قد علم بان الحامية المصرية قد وصلها تحذير بقدومه ، فكان لا بد من النزول في السهل المكشوف الواقع غرب المدينة . وكانت هذه نكسة لها خطورتها ، فقد هبت عاصفة في نفس هذه اللحظة واندفع البحر في امواج كالجبال ، لتتكسر على الشاطىء .

وقد ترك لنا دينو مذكرات وافية عن مجرى الاحداث في هذا الوقت ، فذكر ان الاوامر قد صدرت قبل يومين لسفينتهم « جونو Juno » بان تسبق الاسطول للاسكندرية لتتصل بالقنصل الفرنسي

« براسيفتش Bracovitch » . فوصلت السفينة قرب الاسكندرية في التاسع والعشرين من يونيو ، ونقل اليها القنصل الفرنسي في قارب صغير ؛ وفي اليوم التالي قدّم لبونابارت وهو في سفينته الشرق . فأدلى بمعلومات مربكة للغاية ، علم منها بونابارت ان البريطانيين كانوا هنا ، وقد يعودون مرة اخرى في اي لحظة ـ وفي نفس الوقت كانت العاصفة هوجاء ، وسفن النقل مختلطة مع الاسطول في شيء من الفوضى يهدد بهزيمة نكراء اذا ما قدر للعدو ان يظهر ـ فطلب بونابارت اعادة التفاصيل التي سمعها ، وبعد صمت استمر لعدة دقائق اصدر اوامره بالنزول الى الشاطىء ، واتخذت الاجراءات التي تكفل وصول القافلة الى اقرب نقطة من البحر دون ان يكون هناك احتمال لجنوحها الى الشاطىء اذا ما هبت الريح قوية . فانتظمت السفن الحربية في دائرة خارجية لحماية سفن النقل ، ثم طويت الاشرعة وانزلت المراسي ، الا أن البحر استمر في هياجه وانقضى اليوم بأكمله دون أن يتمكنوا من انزال اول فرقهم الى الشاطىء .

واستمر دينو يقول : « وكانت القوارب تتلقف الجند ، واحدا بعد الآخر ، حسبما اتفق ، وعندما تمتلىء القوارب بالجند ، كان يخيل للرائي ان الامواج قد تبتلعها في أي لحظة ، وخصوصا عندما يتخابط بعضها ببعض وهي تحت رحمة الريح . وعندما تنجو من كل ذلك وتقترب من الشاطىء لم تكن لديها وسيلة تضمن بها ملامسة الشاطىء دون ان تتكفىء على الصخر . واستمرت الامور على هذا المنوال طيلة الليل » .

اما بونابارت فقد نزل الى الشاطىء قبيل منتصف الليل بقليل، ونام بين رجاله على الرمال . وعندما استيقظ قبيل الفجر ، بادر بتولي قيادة الاربعة آلاف جندي الذين تمكنوا من الوصول الى الشاطىء بعد جهد ومشقة . واول ما قابلهم كانت قلعة صغيرة للبدو فهاجموها

واستولوا عليها ، ثم بدت لهم اسوار الاسكندرية ومآذنها من وراء الافق ، وهم لا يزالون على بعد اربعة اميال منها • فقسم بونابارت قوته الى ثلاثة طوابير ، اتجه احدها الى عمود بمباي [1] ، واتجه الثاني نحو القرافة ، والثالث الى بوابة رشيد ، وكان بونابارت يسير في المقدمة وهو راجل .

---

(1) Pomey's Pillar ويسمى في مصر « عمود السواري » ـ يقال انه اقيم أصلا تخليدا للامبراطور الروماني « ديوكليشيان » في سنة ٢٩٦ ميلادية . الا انه حصل التباس بين قبره وبين قبر بمباي فيما بعد ، ومن هنا جاءت التسمية الخاطئة . اما بمباي هذا فهو القائد الروماني المعروف ببمباي العظيم الذي عاش ما بين سنة ١٠٦ وسنة ٤٨ قبل الميلاد ، والذي اغتيل بالاسكندرية اثناء نزوله بها هاربا بعد اندحاره في حرب فارسالس .

المترجم

الفصل الخامس

ليل مصر الطويل

« اذا حاول شخص أن يعطيك فكرة سخيفة عن « الحضارة » في مصر فلك أن تضحك ملأ شدقيك. فحقيقة الحياة في مصر هي بالضبط كما صورها أصدق الكتب جميعاً – ألا وهو كتاب ألف ليلة وليلة » .

ليدي دف جوردون
من كتابها المسمى رسائل من مصر

لم تكن مصر من البلاد المنيعة التي يسهل الدفاع عنها . حقيقة إن الصحراء الغربية تشكل حاجزا منيعا لم يحاول أحد اختراقه ، إلا ان ساحل الدلتا المنخفض ، من السهولة بحيث يمكن النزول في اي بقعة فيه . كما أن بالاسكندرية مرفأ ممتازا ، وبمجرد الاستيلاء عليها وعلى مصب نهر رشيد فلن يجد الغازي أمامه اية عوائق طبيعية كالجبال وما شاكلها . اما الماء والغذاء فمتوفران على طول الطريق تقريبا، حتى القاهرة التي تبعد عن الساحل بما يزيد قليلا عن المائة ميل نحو الجنوب . وهناك طريقان آخران استغلا بنجاح منذ القدم – أحدهما طريق النيل المتصل بأواسط افريقيا ، والثاني يأتي من الشرق

عبر برزخ السويس ــ غير انهمــا لا يمكــن ان يفيدا اي غاز آت مــن الغــرب .

وكانت الدلتا بمثابة غنيمة عظيمة لأي غازي ، فهي جنة اصطناعية لا ينزل فيها المطــر الا نادرا ، ومع ذلك فماؤها عذب ووفير ، وحصادها متعدد وكثير ، تنتج ما لا يقل عــن محصولين او ثلاثة في كــل عام ، ويمدها فيضان النيل السنوي بطبقة غنية مــن الطمى يبلغ عمقه بضــع بوصات . وبمجهود مناسب تنبت فيها نعم الدنيــا في وفــرة وكثــرة ، كالأرز وقصب السكر والبن والتبغ والقطن والكتان والعدس والتمــر والزهور والكروم ــ كلها تنبت غزيرة يانعة ، فخصبها لا حدود لــه طالما كان الماء موزعا توزيعا مناسبا بواسطة القنوات ، على تلك التربــة المستوية . كمــا ان الصقيع والعواصف مــن الندرة بحيث يمكــن ان نعتبرها في حكم العدم ، والاوبئة والهوام تنتهي مع حلول فصل الصيف نتيجة لطقس الصحراء الجاف المبيد للمكروبات والهوام ... وبالاختصار فليس فيها مــن المعايب سوى بعض الزوابع الرملية النادرة ، وسوى طقس حار رطب في زمن الفيضان يبعث الكسل والخمول ، ومع ذلــك فهو ليس شديد الوطأة . اما شتاؤها فمعتدل الى ما يقرب مــن درجة الكمــال .

وعندما نزل بونابارت بمصر كان عدد سكانها لا يزيد عن المليونين ونصف المليون ، اي حوالى ثلث ما قدر له في زمن الفراعنة ، ولا يكــاد يزيد عــن عشر تعداد السكان في الوقت الحاضر . والسكان خليط من الاجناس ، ففي مصر العليــا يتشبث النوبيون بمزارعهم الضيقــة على ضفاف النيــل ، وبالواحات الخصبة ــ وكانت المهمة الوحيدة التــي يقوم بها حكام الاقاليــم الذيــن يرسلون مــن القاهرة هي جمــع الضرائب ، وكانوا يمارسون في ادارتهم نوعا مــن الصرامة والحزم ــ وما عدا ذلك فالحيــاة في مصر العليــا كانت تسير في جهل وعزلة تامين .

ثم هنالك البدو الذيـــن يجوبون الصحارى المتداخلة ، والذين كانت لهم قوانينهم وشرائعهم الخاصة بهم . اما تعدادهم فلم يكن يتجاوز بضـــع عشرات من الألوف في تلك الصحارى الشاسعة التي تشكل اربعة عشر جزءا من خمسة عشر جزءا من مساحة مصر. اما الجزء الاكبر من السكان والبالغ عددهم نحو المليونين وسبعمائة الف نسمة ، فقد كانوا محصورين بين فرعي الدلتا ، وهؤلاء هم السكان الاصليون ـ ما عـدا المماليـك الذين سيأتي ذكرهم بعد قليل ـ الذيــن يفلحون الارض ويشكلــون الطبقة العاملة في المدن . وكان عدد الاقباط في الدلتا يبلغ نحوا من مائة وخمسين ألف نسمة ـ ولفظة اقباط تطلق على المصريين الذين يعبــدون المسيح (هكذا) ، وهم يقومون بنفس الدور الذي يلعبه البارسيس [1] في الهند ، كمرابين وتجار وموظفي حكومة . واخيرا كان هناك التجار الاجانب البالغ عددهم حوالى المائتي ألف تاجر ، وهؤلاء كانـــوا لا يعيشون الا في المدن الكبيرة واغلبهم من الاتراك ، يأتي بعدهم اليونان فالارمن فاليهود فالسوريون ، وحفنة مـــن التجار الفرنسيين ، وهؤلاء الغي عليهم القبض بمجرد وصول الاخبار بنزول بونابارت .

والمدينتان الوحيدتان اللتان كان لهمـا شيء مـــن الاهمية همـا القاهرة والاسكندرية . اما الاسكندرية فقد انحطت في ذلك الوقت الى الحضيض ، لما صادفها مـــن حظ تعس ، ولم يبق من مجدها وعظمتها شيء يذكــر . فقصورها العظيمة التي بلغت في يوم مـــن الايام الاربعة آلاف عدا ، ومسارحها ومعابدها وتحفها ، التي كانت تضعها في المرتبة

---

(١) البارسيس «Parsees» هم اصلا من الفرس من اتباع زرادتش ، وقد نزحوا الى الهند عندما دخل الاسلام بلاد الفرس . وهم وثنيون من عبدة الشمس ، ويكونون الآن طبقة غنية جدا بالهند ، اغلبـــهم في بمباي يعملون في التجارة والربا . ويقال أن عددهم لا يزيد عـــن التسعين الـف نسمة .

المتـرجـم

الثانية بعد روما في جميع ارجاء الامبراطورية الرومانية ــ كل ذلك قد زال واندثر ولم يبق له من اثر . صحيح ان مسلة بومباي لا تزال قائمة ، وان سور المدينة لا يزال شامخا الى علو اربعين قدما في بعض الاماكن ، اما ما عدا ذلك فقد اندثر واستحال ركاما ورمادا . كما ان القناة التي شقت قديما من النيل الى الاسكندرية قد غمرها الغرين واصبحت اثرا بعد عين . اما السكان فقد هبط تعدادهم ــ نتيجة للاوبئة المتعاقبة ــ الى عشرة آلاف نسمة فقط . ويقول الرحالة الانجليزي « بروان » الذي زار المدينة في سنة ١٧٩٢ ما معناه : «اكداس من الاوساخ في كل مكان ، كلما نزل عليها وابل من المطر ــ دع عنك ما يخرجه الاهالي بالحفر والنبش ــ كشف عن قطع من الرخام النفيس ، واحيانا عن قطع من العملات الاثرية او اجزاء من التماثيل المنحوتة » . ويقول دينو الذي وصل بعد سقوطها مباشرة ، انه وجد الابواب موصدة والطرقات مهجورة الا من عدد قليل من النسوة اللائي كن يتجولن بين الخرائب في اسمال بالية كأنهن الاشباح ، وكان السكون شاملا لا يزعجه غير نعيق الحداء ، وحتى عمود بومباي الذي كان يبدو رائعا من بعد ، لم يكن في نفس الروعة عندما رآه عن كثب .

اما القاهرة فقد كانت مدينة مزدهرة ، تأتي بعد القسطنطينية مباشرة بين مدن الشرق الادنى ، وكان يسكنها نحو ٢٥٠ الف نسمة . وقد تأسست القاهرة قبل الف عام ، واثناء هذه المدة قد اعيد بناؤها عدة مرات . والمدينة الحالية (التي تسمى مصر احيانا والقاهرة العظمى احيانا اخرى) قد شيدت على انقاض قلعة رومانية قديمة ، تبتعد قليلا عن النيل تحت جبل المقطم ، ويحيط بها سور عال تشرف عليه قلعة ضخمة .

وللقاهرة جاذبية عذبة وسحر فتان عندما تبدو عبر الافق البعيد ، فالقباب والمآذن ــ التي تبلغ الثلاثمائة عدا ــ ترتفع شامخة فوق سحب

الدخان المنبعث مـن نيران المطابخ والأفران . واشجار النخيل الباسقة والحقول اليانعة ، تمتد على ضفاف النيل فتضفي عليه منظرا وادعا حالما، اقرب الى وداعة الريف ورقته . والقلعة ، هي في الواقع حصـن رائع داكـن شيده صلاح الديـن ، وهي آية في الفـن المعماري المعقـد البناء ، وآية في التصميم . وعلى الجانب الآخر للنيل تتراءى الاهرامات قابعة وسط الصحراء المترامية الاطراف ، رهيبة مهيبة . الا ان كل هذه الروعة وتلك الرقة وذلك السحر الفتان ــ كل ذلك يذوب ويتلاشـى باقترابنـا من مصادرها . واذا استثنينا تلك الميادين الفسيحة المكشوفة التي تتخلل القاهرة ــ كميدان الازبكية الذي يغمـر بالماء في زمـن الفيضان فتزدحم فيه القوارب ــ إذا استثنينا ذلك لأصبحت القاهـرة اشبه شيء بزريبة للمواشي ، تتكون من طرقات ضيقة غير معبدة ، تحف بها منازل غريبة المنظـر مـن الطراز التركي العتيق ، تغطي رقعة مـن الارض تبلغ مساحتها نحـو ثلاثة اميال مربعة . والقاذورات المنتشرة في كل مكان تهيء مأوى ممتازا ترتاده الكلاب الجائعة والقطط الضالة . هذا ــ وفي الاحيـاء الفقيرة التي تكثر فيها المنازل القذرة المتداعية ، يصعب على الانسان ان يميـز بيـن الاطلال القديمة ومنازل الجيـل الحديث . وقد صاح « دينو » في يأس وقنوط : « ليس بها شارع واحد جميل او مبنى واحد انيق ... انهم يبنون اقل ما يستطيعون ، ثـم لا يرممون شيئـا مما يبنون » .

وهناك الجوامع التي تعج بالحجاج الذين يحتلون افنيتها الخارجية ، فهي ابعد ما تكون عـن الصحة والنظافة . والاسواق المعروشة بالخيش والحصير ، شديدة الحرارة ، كريهة الرائحة . ويتحدث بروان ايضا عن ما بها مـن غبار ملوث .

وما مـن احد تستهويه الحياة الشرقية ، يمكنه ان يقاوم جاذبية هذه المدينة التي تبدأ يومها قبل طلوع الفجر ، عندما يستيقظ سكانها

على أصوات الآذان يناديهم بأن حي على الصلاة ، حي على الفلاح ـ الله اكبر ـ الله اكبر ـ الخ ... والمؤذنون يختارون عادة من بين العمي ، حتى لا يطلعون على ما يجري فيما تحتهم من المنازل . وبعد ساعة من الآذان ، في تلك اللحظة المنعشة من الصباح المصري الجميل ، تسكب المدينة حياتها وحيويتها في الطرقات والأسواق والمقاهي ، فيرى العابر في كل ركن من أركان المدينة ، مشهدا من أوجه الحياة المصرية المتعددة ـ فمن زفة عرس الى جنازة محمولة على الاعناق ، الى تمثيلية مرتجلة يقوم بها الجوالة في تبخطر على قارعة الطريق . او قد يرى تاجرا ثريا يخب على ظهر حماره وعبده يهرول امامه ليفسح له الطريق ، او قافلة من الجمال تخترق طريقها بين زحمة المارة ، وقد اشرأبت اعناقها في أنفة وثقة ... وهناك تيار لا ينقطع من الباعة المتجولين وهم يصيحون بسلعهم ، ليسمعوا من بالشرفات العالية . ثم هناك السقاؤون وهم يحملون على اكتافهم سعون الماء ـ كل ذلك يجري والهرج والمرج والصياح والضوضاء ترتفع الى عنان السماء ، فمن « ظهرك يا بنت » و « حاسب يا افندي » الى « يا مفرج الكرب » و «عشاي عليك يا رب» ، وهذه العبارة الاخيرة يرددها الشحاذون الذين لا حصر لهم والذين عادة ما يصرفون بعبارة « الله يحنن عليك » .

اما الصناع فيزاولون حرفهم في مصانعهم تحت نظر زبائنهم . وتكاد تكون كل حرفة من الحرف منتظمة في شارع خاص بها ، فهناك شارع للصاغة والجوهرجية ، وآخر لصانعي الجلود وسباكي النحاس ، وشوارع اخرى للفخارين وغزالي الحرير وصانعي الاسلحة والصباغين والعطارين . وبالاختصار فكل ما يحتاج اليه الانسان او تتوق له الحواس ، لا بد ان يكون له مكان يشبع المرء منه رغبته ـ لقد كانت القاهرة مدينة صاخبة ، الا انها ايضا زاخرة بالحياة .

وما ان يرخي الليل سدوله ويسود الظلام (اذ لم تكن هناك اضاءة

بالطرقات) الا وتسكن الجلبة ويعم الهدوء . وبعد اذان العشاء بقليل توصد أبواب المدينة ــ كما تغلق الأبواب الداخلية التي تقوم عند نهاية كثير من الشوارع الرئيسية ــ « وقد يمر الانسان على طول المدينة وعرضها » كما يقول « لين » : « دون ان يقابل اكثر من حفنة من الناس ، ما عدا العسس والخفراء الذين يقفون عند ابواب الطرق الجانبية وأبواب الاحياء المختلفة . وإذا ما اقترب شخص من الديدبان او الخفير صاح فيه بالتركية « من انت » فيجيبه هذا بالعربية « مواطن » فينادي الخفير مرة اخرى قائلا « وحد الله » او « وحده » وعلى العابر عند ذلك ان يردد الشهادة » [1] .

والنيل هو عصب الحياة في مصر ، فهو الذي ينتج كل درهم من الغذاء ، وهو مصدر المياه التي تغذي الآبار في جميع اطراف المدينة ، وهو المنفذ الرئيسي للعالم الخارجي . وعند ارتفاع النيل في كل سنة ، كان يقام احتفال كبير يعتبر من اكبر الاحتفالات في مصر ، وذلك بمناسبة فتح ابواب القنوات . ويبلغ عرض النيل عند مدخل القاهرة نحو نصف الميل ، وتتوسطه جزيرتان ــ بولاق والروضة ــ كانت تزرع فيهما الغلال ويقيم فيها الاغنياء حدائق للمتعة . اما العاصمة القديمة، ممفس ، التي كانت تقع جنوب القاهرة الحالية ، فقد عفا عليها الدهر واصبحت اثرا بعد عين . وفي صحراء الجيزة يربض ابو الهول ، مجدوع الانف ، غائصا الى عنقه في الرمال .

وكانت للقاهرة ميزة أخرى ، أعطتها أهمية خاصة جعلت المسافر

---

(١) كان هذا النظام متبعا في الخرطوم الى ما قبيل العشرينيات الا ان المنادات كانت تجري بالعربية وكان المتعارف ان يجيب عابر الطريق بعبارة (امين) فاذا سأل الخفير قائلا « امين مين » كان على عابر الطريق ان يذكر اسمه والجهة التي يقصدها .

المترجم

ينظـر اليـها لا كالقاهرة فحسب ، بل كالقاهرة الكبرى . وذلك انها كانت ملتقى لطرق القوافل المتعددة التي تربط شمـال افريقيـا بالشرق الادنى ، إذ لم يكـن يحلم أحد في تلك الايـام بالسفر منفـردا في الصحراء ، فمثل هذه المغامرة لا تقل خطورة عـن التفكير في عبـور المحيـط على زورق صغير في وقتنا الحاضر . وكان على المسافـر ان ينتظـر حتى تتجمـع القافلة في القاهرة ، ثم يتقدم للشيـخ المسئول للسمـاح له بمرافقتهمـا ، وقد يطول به الانتظار لعدة اشهر قبل ان تستعد القافلة . ثم يحدد موعد لسفرها واخيرا تبدأ المسـيرة الكبرى نحو الصحراء في موكب طويل مـن الجمـال والبغال والحمير ومـن الـراجلـين .

اما القوافل الداخلة للمدينة فكانت تقف اولا عند اهرامات الجيزة، ثم ترسل اخطارا بوصولها ليحدد لها المكان التي تعبر فيه النيل ، والمكان التي تنيخ فيـه اخيرا . وكانت هذه القوافل تقطع مسافات شاسعة بالغة المشقة ، فاحد هذه الطرق ــ ونحـن نسميها طرقا مـن قبيل التجاوز لانه لم تكـن هنـاك دروب ظاهرة على رمال الصحراء ، وكل ما نعنيه هو خط سير معروف يقود من بئر او واحة الى البئر او الواحة التـي تليها ــ فأحد هذه الطرق كان يتجه الى الشمال الشرقي نحو دمشق ، حيث يستطيع المسافـر ان يلتحق بقافلة اخرى الى حلب او بغداد . ثم هناك طريق آخر للبحر الاحمـر فمكة ، وثالث يتابع النيـل الى سنار بالسودان ، ورابع الى دارفور ، ثم طريق خامس الى فيزان وغـرب افريقيـا . وكل رحلة مـن هذه ، كانت عبارة عـن مغامرة عظيمة يتقيد فيها التجار بالمواسم ــ كأنهم الطيور القواطع ــ وتحف بها المخاطر في كل مرحلة مـن مراحلها ، فمن حروب اهلية ، الى مناوشات من البدو ، الى قحط وسيـول واوبئة . وليس بالمهم للتاجر المحنك ان يقضي سنة او سنتـين في الرحلة الواحدة ، فهو عادة يصطحب معه زوجاته واطفاله

ورقيقه ، وبهذه الطريقة لا يهمه ان يكون في سفـر متواصل الى هذه الجهة او تلك ، حيثما توفر الرواج والربح . واخيرا يصبح له التجوال غاية في حد ذاته ، لا يطيق الكثيرون منهم حياة بدونه . ولم يكن احـد يعرف طول هذه الطرق المتداخلة المتشابكة ، او مداها مـن الزمن الذي تستغرقه ، فقد يسافر الشخص مـن القاهرة الى تمبكتو على الجانب الغربي مـن افريقيـا ، كما ان البضائع الهندية والصينية كانت متوفرة في اسواق القاهـرة .

وكان التجار يتقايضون السلع اكثر مما يتعاملون بالنقود ، فمـن القاهرة كانت تصدر الحبوب والأرز والقنب والقطـن ، وألف صنـف وصنف أخرى مما يتوفر في الأسواق . وهذه السلع كانت تزداد قيمتها مع كل ميـل ترحل اليه ، واخيرا تقايض بسلع اخرى في مدن الشـرق الأدنى المختلفـة ، وفي القرى البدائية بقلب افريقيـا النائية . وكانت التجارة مـع السودان رائجة بنوع خاص فمنه كان يجلب الرقيـق والذهب والعاج وريش النعام والخرتيت والصمغ العربي والأبنـوس والبن (وهذا يأتي للسودان مـن الحبشة) والتوابل ـ مـن موانىء البحـر الاحمر ـ . كما كان يجلب النفط من الخليج العربي بكميـات بسيطة وكان يستعمـل في التداوي ، اما بشربه او بدلكه على الجسد . وهكذا كان هناك تبادل مستمـر بالقاهـرة ـ مد وجزر لوجوه غريبة وسلع غريبة ، وحركة دائبة لقوافل داخلة واخرى خارجة .

تصدر لدينـا في وقتنـا الحاضر آلاف الكتب السيـاحيـة ، وسيل مـن المجلات المصورة كمـا لدينا دور للصور المتحركة ، وكـل هذه وسائل اعلاميـة تعطي صورة واضحة عن الشرق (وعن جميـع انحاء العالم) . اما في سنة ١٧٩٨ فقد كان كل شيء في مصر غير معروف لدى اوروبا ، وكان السواح يندهشون لما يرونه ، وما لم يفهموه كانـوا ينصرفون عنه كشيء خرافي او متأخر. فمما كانوا يسخرون منه تلك العادة

التي كان يمارسها المصريون عند وفاة احد من افراد العائلة ، من اخلاء للمنزل من الاثاث وقلبه رأسا على عقب . كما كانوا يسخرون من اعتقاد المصريين بأنهم يستطيعون ابعاد الافاعي عن منازلهم بالمزمار . هذا والموسيقى المصرية كانت نشاذا مؤذيا لآذان الاوروبيين ، وصلاتهم لم تكن اكثر من تمرغ في التراب . ولان يجلس الشيخ الساعات الطويلة ، خالفا ساقه على الأخرى ، لم يكن في نظرهم إلا دليلا على التبلد والجمود .

الا ان المصريين لم يكونوا منحطين للدرجة التي يروق للغربيين ان يتصوروهم بها ــ لم يكونوا منحطين في الماضي ولا هم منحطين اليوم . صحيح ان الفرنسيين في ذلك الوقت كانوا يبدون دهشتهم من اشياء كثيرة في مصر ــ وقد أبدى الانجليز نفس الدهشة فيما بعد ــ فكانوا يندهشون لتهتك الراقصات في الاماكن العامة بالقاهرة ، ولانتشار بيوت الدعارة وما وصلت اليه تجارة الرقيق من خسة . كما كانوا يعجبون من هؤلاء الشرقيين ، وما جلبوا عليه من استسلام وعدم تدبير مشوبين بالغرور ، وما فطروا عليه من خمول يدعو الى اليأس . الا ان الواقع لم يكن كذلك ، فهناك قوانين وتقاليد دقيقة وسط هذه الفوضى الظاهرية . فمعظم نساء مصر لسن فتيات راقصات ، بل هن زوجات وربات بيوت محترمات ، يبدين من الحشمة ما يفوق نساء الغرب بمراحل عديدة . حقيقة ان الطلاق سهل وميسور ، الا ان العلاقة الزوجية شيء عفيف ومقدس ، والروابط العائلية في منتهى القوة . والسكر في مصر شيء نادر جدا ، والادمان واللواط لم يكونا من الرذائل المنتشرة ، اما الرقيق فقد كان عزيزا وغاليا في القاهرة لتساء معاملته . واما المشايخ فقد كانوا ابعد شيء عن الخمول والكسل ، فهؤلاء هم رجال الدين والشريعة الذين يتمتعون بقدر كبير من الاجلال والاحترام . والقرآن الذي يفسرونه قد وضع أدق القيود على

حياة كل رجل ، ومع ذلك فان هذه القيود تتبع برضاء تام . وقد ذكر لين Lane ان الكبائر في مصر سبعة ، رتبها كما يلي : عقوق الوالدين ــ القتل ــ الفرار من الجهاد ــ الربى ــ قذف المحصنات بالزنا ــ عبادة الاوثان وتبديد مال اليتامى .

ومن السخف ان تقول ان المصريين كانوا مثالا للفضيلة اذا ما قورنوا ، مثلا ، بالجيش الفاتح ــ فقد كانوا يكذبون ويسرقون ، ووصل بهم الجهل مرتبة الخرافة ، ولعلهم كانوا جبناء ايضا ، وكانوا يميلون الى الكسل ما وجدوا الى ذلك سبيلا . ومع ذلك فقد كان في حياتهم من الوقار ما لا يمكن انكاره ، وفي صفاتهم من الصبر ورباطة الجأش ما لم يعرف به الفرنسيون ابدا . كما كانوا على جانب كبير من الرشاقة وعلى جانب اكبر من الجمال . ويقول « لين » في وصف نسائهم ما يلي : « تظهر ملامح الأنوثة في قوامهن في السنة التاسعة أو العاشرة من اعمارهن ، وتكتمل شيئا فشيئا حتى اذا بلغن الخامسة عشر او السادسة عشر ، كان في منتهى الروعة والكمال . وللنساء ــ كما للرجال ــ وجوه بيضاوية رقيقة ، الا انها عند النساء تميل للاتساع عرضا ، وعيونهن عادة ــ الا في النادر القليل ــ دعجاء المنظر ، لوزية التكوين ، تزينها اهداب طويلة رائعة ، ولها جاذبية وحلاوة نادرة ــ ولا يمكن للانسان ان يتصور عيونا اكثر جاذبية ورقة ــ ومما يزيدها سحرا على سحر ذلك الحجاب الذي يخفي من خلفه الوجه (مهما بلغ من الرقة والجمال) وتلك المادة السوداء التي توضع على اطراف الأجفان المسماة بالكحل . والتزين بالكحل عادة تمارسها جميع نساء الطبقتين ، العليا والمتوسطة ، كما تمارسها الكثيرات من نساء الطبقة الفقيرة . اما العادة الاخرى التي يمارسنها بوشم الحواجب والشفاه والأذقان ، فليس فيها شيء من الجاذبية .

وما يبديه النساء الوقورات من حشمة بالغة (اذ لا يخرجن من

بيوتهن الا وهــن متمنطقات في ثياب سوداء تكسوهن من الرأس الى القــدم) يتناقض مــع تبرج الراقصــات واستهتارهن في الافــراح والحفــلات العامة ، فقد افزع رقصهــن واستهتارهــن « دينو » كما أزعج معظم مــن أتى بعده مــن السواح . وهو يصف رقصاتهن بانها : « تبدأ شهوانية وسرعان ما تصــير داعرة ، ليس فيها عرض فنــي ، ولا تتعدى ان تكون حركات متهتكة ، تستثير الشهوة وتهيج النعرة . ومما يزيــد الانسان تقززا مــن ذلك التهتك الذي لا تقف فيه الراقصات عند حد ويملؤه اشمئزازا ، تلــك الضحكات السمجــة التي تصدر من العازفات عند نهاية كل عرض ــ فهي أشد وقاحة مما يصدر من أحــط متسكعات الطرقات في أوروبا ــ فيفسدون بها على النظارة نشوتهم .

ويميز « لين » بين الفرق الفنية [1] التي تتكون مــن عازفــات ومغنيات ، والتي يسمح لها باحيــاء الحفــلات في البيوت المحترمة ، وبين الغازيات أو الراقصات الساقطات . وهو يقول عن الأخــيرات : « وعندما يعرضــن رقصاتهــن امام نفر مــن الرجال في حفل خاص ، لا يرتديــن غير « الشنتيان » (وهو سروال طويل فضفاض) وقميص شبه شفاف مــن الشاش الملون ، مفتوح الى نصفه مــن الامام . وامعانا في اطفاء كل اثر للحشمة والحيــاء ، يبالغ الرجال في اعطائهــن كميــات سخيــة مــن الخمر ، ويلي ذلك ما يعف القلم عــن وصفه » ثم يضيف بطريقة غير متوقعة : « وعلى العمــوم فاني اعتقــد انهــن ارق نساء مصر قاطبة .. والنســاء يستمتعن بهذه الاستعراضات كمــا يستمــع الرجال تماما » .

---

(١) وتسمى بفرق العوالم .

والموضوع من اساسه قائم على مشكلة منع اختلاط الجنسين ، وعلى ان المصريين ، قديما وحديثا ، لا يرون غضاضة في اثارة الغريزة الجنسيــة بالاستعراضات الراقصة . ولا شك في ان هنالك مآخـذ كثيرة جدا ، يمكــن ان تقال عن الفرنسيــين بالمثــل ــ فالحادهــم واعترافهم بالزنى وميلهم للتعدي والبغي ، كلها صفات حقيرة وخسيسة كمــا يراها هؤلاء القوم المحافظون ــ ولكن رغم هذا التفسخ الخلقي الخارجــي ، ورغم ما هناك مــن مادية وانهماك في الملذات ، نابع عن ضعف الطبيعــة البشريــة ، فان المصريين مــن اكثر شعوب العالــم محافظة ــ كأشد ما يمكن لشعب مغلوب على امره ان يكون محافظا ــ امــا عقليا فقد كانوا يعيشون في نوع مــن الخمول القتال ، جرّدهم مــن كل ارادة يمكنهم ان يغيروا بها انفسهم . ومــن المؤكد ان لكل هذا سببا مهمــا نابعا مــن طبيعة البلاد الاساسية ، فالطقس الجاف والرمال القاحلة ، مــن العوامل القوية التــي تؤدي الى تحنيط العقول وتبلــد المشاعر ، ولا تترك مجالا للانطلاق الذهني والتطور الفكري . كما ان خلو القطــر من المتباينات الكبــيرة ، كالجبال والوديــان ، والعواصف والأعاصير والزلازل والفيضانات ، ثــم رتابة النيــــل في ارتفاعه وانخفاضه ــ كلها عوامل غرست في نفوسهم الاعتقاد بأن كــل تغيير عبث ، وكل تطور محال . ومن الطبيعي أن يلائمهم الاســــلام بشرائعه المحدودة كل الملاءمة ، فلم يتشككوا فيه ، بل لم يحاولوا في يوم مــن الايام ، ان يثوروا على حكامهم المماليــك .

وفي هذا الجو المغلف ، وهذا الطقس الخانق الحرارة ، حيــث القوم منهمكــون الى اقصى الحدود في شئونهم الخاصة ، لم يع الناس معنى لما ينادي به الفرنسيــون مــن مبادىء ثورتهم وحديثهم عـــن الحريــة والاخاء والمساواة ، ولم ينظروا اليها الا كنوع من الهرطقة ليس الا ــ وهذه الحقيقة لم يعرفها بونابارت الا فيما بعد . اما ائمة

المصريين ومشائخهم فقد كانت تتنازع افكارهم مسائل اخرى عديدة ، ولذلك لم يصدقوا بونابارت لحظة واحدة فيما ادعاه من أنه أتى لانقاذهم من المماليك ، وكانوا يدركون تماما انه لا يريد غير السلطة لنفسه ، فقدروا انه من العبث مقاومته . فليدخل القاهرة اذن كفاتح منتصر ، ليدخلها كبديل للمماليك او كطاغية آخر (كافر هذه المرة) يضيفونه الى بقية الطغاة ، او لا يضيفونه سواء بسواء ، ولكنه لن يحلم بأي حال من الأحوال ، بتأييد المصريين أو تعضيدهم . وكان من طبيعتهم أن يقاوموا كل حكومة مقاومة سلبية مخادعة ، بأن يراوغوا جامعي الضرائب ويضعوا امامهم العراقيل ، وبأن يضللوا القضاة ويتهربوا من الخدمة العسكرية . وقد كان لهم من وراء منازلهم المغلقة الابواب ، وداخل جوامعهم المتعددة مفاهيمهم الخاصة عن الحرية والاخاء والمساواة التي يمارسونها دون ان يكون لذلك صلة بحكامهم .

والمماليك انفسهم لم يكونوا اقل تحفظا من رعاياهم . اما حكمهم فقد كان في الواقع حكم عصابة فوضوية شبيه بحكم الانكشارية [1] الاتراك بالقسطنطينية ، او بحكم المانشوسية في الصين خلال القرن الثامن عشر ، ولا يمكن ان يتصور الانسان مجموعة من الرجال اعجب من هؤلاء المماليك .

ولفظة مملوك تعني الذكر من الرقيق ، الا أنها كانت تطلق

---

(1) كلمة تركية معناها الجنود الجدد . ففي القرن الرابع عشر انشأ العثمانيون جيشا من نوع فريد ، يتكون من جنود من اصل مسيحي ، اذ كان الاتراك كلما تغلبوا على شعب مسيحي فرضوا عليه جزية من الصبيان فيحملونهم على الاسلام ثم يدخلونهم مدارس خاصة يتدربون فيها على الفروسية والجندية ليتقووا بهم في فتوحاتهم . وبمرور الزمن قويت شوكة الانكشارية على الدولة وبلغ نفوذهم اقصاه في اوائل القرن الثامن عشر مما حمل السلطان محمود الثاني على ابادتهم في سنة ١٨٢٦ .

المترجم

بنوع خاص على الرقيق الابيض . غير ان مماليك مصر كانوا ارقاء بيضا من نوع خاص ، إذ كانوا يشترون كأطفال من العوائل الفقيرة بجورجيا والقوقاز ، ويرسلون لمصر حيث ينشأون تنشئة خاصة تحت رعاية اسيادهم (الذين هم انفسهم قد ابتيعوا من قبل كرقيق وهم اطفالا) ليحكموا بهم البلاد ويسيطروا عليها سيطرة طبقية . وحرفة المماليك الوحيدة هي الحرب وشن الغارات ، ولذلك فقد كانوا يدربون منذ نعومة اظفارهم على الفروسية وشئون القتال . وكانوا يذهبون في ذلك الى حدود بعيدة ليحتفظوا بعنصريتهم سليمة غير مشوبة بغريب او دخيل . ولذلك نجد ان الغريزة الطبيعية لانجاب النسل لم تكن مطبقة بينهم ، فقد كانوا يلقنون شبابهم ان الزواج وانجاب النسل عاملان فتاكان بمهنتهم (ومما لا شك فيه انهم لو تزوجوا بالمصريات لفقدوا عنصريتهم وتلاشوا في الشعب المصري) . ومن المعروف ان المماليك لم ينجبوا بناتا الا نادرا جدا ، وكل جيل جديد كان يفضل ان يشتري فتيات صغيرات من مسيحيات جنوب روسيا ويدخلوهن الاسلام ، ثم يتبنوهن ويجعلون منهن وريثاتهم الشرعيات . ولا ننس ان هتلر كانت لديه فكرة من هذا النوع عندما اقترح ان تقام مناطق توالد في جنوب المانيا ، لخلق جيل قوي كامل من الرجال والنساء . والمماليك لم ينجبوا كثيرا بوجه عام ، لأنهم لم يكونوا يعمرون طويلا ، كما ان ادمانهم على اللواط كان عاملا آخر في قلة ذريتهم . وبمرور السنين تزايد عدد المماليك بمصر زيادة عظيمة ، فعندما زارها براون في سنة ١٧٩٢ علم ان نحو ستة عشر الف مملوكا قد استجلبوا في ظرف الأحد عشر سنة الماضية . وفي سنة ١٧٩٨ بلغ تعدادهم نحو المائة الف رجل ، بما في ذلك اتباعهم ــ ومعظم هذا العدد كان يعيش في القاهرة . وهؤلاء الرجال الذين كانوا يعتبرون انفسهم فوق مستوى البشر ، قد حرصوا فعلا على ان يظهروا بمظهر

يوحي بأنهم فوق مستوى البشر ، وان يتصرفوا تصرف الرجال المثاليين . فالكثيرون منهم كانوا طويلي القامة ، وسيمي الطلعة لدرجة تلفت الانظار ، وفي نفس الوقت كان لباسهم يدعو الى الدهشة والعجب . فقد كانوا يلبسون زيا يتكون من طاقية خضراء حولها عمامة صفراء ، ودرع من الزرد عليه عباءة طويلة مثبتة عند الخاصرة بشال مطرز ، ثم سراويل فضفاضة حمراء وقفاز من الجلد يكسو اليدين ، وحذاء احمر محدودب عند مقدمته . اما جهاز الحرب للرجل منهم فعبارة عن طبنجتين اثنتين وصولجان وسيف طويل مقوس وحزمة من النشاب وغدارة انجليزية . ولكل هذه الاسلحة مقابض ونصال مرصعة بالفضة والنحاس في نماذج واشكال غاية الروعة والجمال ، وخصوصا اذا كانت موشاة بالأحجار الكريمة ، كما كان يحدث في كثير من الأحوال . وكانوا يمتطون جيادهم ، مع كل هذا السلاح الذي ينوءون بحمله ، على سروج مصنوعة من الخشب والحديد ـ فالركاب الواحد من النحاس قد يزن ١٣ رطلا ـ ولم يكن شيئا ذا بال بالنسبة للرجل منهم ان يدفع مئات الجنيهات ثمنا لحصان واحد ، فقد كانت خيلهم من احسن الجياد العربية . هذا ـ وكانوا يهاجمون في غير مبالاة ، ويقاتلون بضراوة اصبحت مضرب المثل في الشرق ، وقد قال عنهم احد الكتاب : « انهم يمرقون كالبرق وينقضون كالصاعقة » . واذا ما فقدوا خيلهم في المعركة ناءوا بحملهم من السلاح ، وتركوا مهمة انقاذ الموقف لمشاتهم من البدو .

ويصف « لين » المماليك بقوله : « انهم عصابة من المغامرين الخارجين على القانون ـ عبيد في اصلهم ، جزّارون باختيارهم ، شرسون في طباعهم ، سفاكو دماء ، غدارون في اغلب الاحيان ـ ولهؤلاء « العبيد الملوك » ذوق مرهف للفنون واتقان نادر في اخراجها ، مما يصعب مجاراته في الدول الغربية » . وهذه حقيقة يمكن رؤيتها

حتى اليوم في جامع ابـن طولون بالقاهرة ، فهو اول جامع مـن نوعه يشيـد في العالم ، ولربما كان اجمل مبنى في افريقيـا باسرها ، وهذا الجامع مـن صنع احد المماليك مـن التتر . كما ان مقبرة بكـوات المماليـك التي تقع في انعراء خارج اسوار القاهرة ، هي بلا شـك ، بقبابها الضخمة واعمدتها الباسقة ، مفخرة من مفاخرهم الفذة . ولـم تستطـع حتى اوساخ القاهرة وحتى القاذورات المتناثرة مـن ركام المنازل التـي تحيط بها ، كما لـم تستطع زمر الاطفـال القذريـن الذيـن كثيرا ما يترددون على مدينة الاموات هذه ، في اسمالهـم البالية ـ لم يستطع كل ذلك ولا كل هؤلاء ان يطمسوا تلك المعالـم التي تنـم على ان المماليك كانت لهم بصيرة ارتفعت كثيرا عـن درك ما كانوا فيـه مـن حياة بربرية ونزعة مادية .

اما المنازل التي كانوا يسكنونها داخل سور المدينة ، فلها منظـر خارجي يبعث خيبة الامل ، ويوحي بانها بعيدة عـن متطلبات الصحة ، وانها مجلبة للمرض والكساح • فهي عبارة عـن مباني من الحـجر والخشب ، لها شرفات بارزة الى حد بعيـد ، تكاد تتلاقى على جانبي الطرقات الضيقـة ، فتحجب عنها ضوء الشمس . الا انها في الداخـل كانت شيـئا مختلفا كل الاختلاف . والاغنياء منهم كانوا يعيشون في ترف وبزخ ، فمن نافورات تتراقص في فناء المنزل يتجمـع ماؤها في احواض من المرمر الابيض او الاسود ، الى حوائط مزدانة بالقيشاني الفاخر وزخارف من الشيش المتشابك ، ومن حصر من السجاد العجمي مفروشة بارض الغرف والدهاليز ، الى زرابي مـن الحرير والدمقس مثبوتة على ذلك السجاد الفاخر . اما الغرف فلـم يكن بينها ما هو معد خصيصا للنوم ، ولا يستثنى من ذلك جناح الحريم الذي عادة ما يكون في الطابق الاعلى ـ وكانت العادة المتبعة هي أن تطوى فرش النوم اثناء النهار وتوضع في خزانات خاصة معدة لهذا الغرض ، فاذا ما اتى الليل

فرشت في اي مكان مناسب ـ اما في الصيف فغالبا ما يكون النوم على رؤوس المنازل . وكان الاتجاه العام هو ان تمنع حرارة الشمس من التسرب الى داخل المنازل ، لان المماليك كانوا يقضون اوقات فراغهم داخل هذه الغرف اللطيفة الباردة ، والمظلمة في نفس الوقت ، يجلسون فيها مع اصدقائهم لتناول وجباتهم الاعتيادية (وهي ثلاث وجبات ـ الاولى قبل الفجر والثانية في العاشرة صباحا والثالثة في الخامسة بعد الظهر) او ليتجاذبوا الحديث على اقداح القهوة والشربات ، او ليدخنوا النارجيلة من مباسمهم الفاخرة المطعّمة بالعاج والاحجار الكريمة . واحيانا يجتمعون لمشاهدة بعض الاستعراضات الموسيقية الراقصة . وكان خاصتهم يحتفظون بمراكب خاصة (تسمى دهبيات) للنزهة بها على النيل . اما في ضياعهم التي كانوا يترددون عليها من وقت لآخر ، فكانوا يقيمون في أكشاك من الخشب (تسمى الجواسق) محاطة بحدائق غناء من اشجار الجميز والياسمين والبرتقال . ومن فضول القول ان نذكر ان حشمهم وخدمهم من الرقيق كانوا في اعداد كبيرة ، فالرجل منهم كان يحتفظ باحد هؤلاء الرقيق لحراسة الباب الرئيسي ، وبثان لجلب الماء ، وثالث ليركض امام سيده ويخلي له الطريق المزدحم من المارة ، ثم عدد آخر ليقوم بمهام المنزل اليومية . وكل ما زادت سلطة الرجل منهم ، كل ما زاد عدد ما يمتلكه من الحشم والخدم ، فلم يكن غريبا على من حاز على لقب البكوية منهم ، ان يمتلك مئات عديدة من الشراكسة كرقيق ـ كلهم فرسان مسلحون ـ وكان لكل واحد من هؤلاء العبيد ، خادم او اثنان من المصريين ليقوموا بخدمته .

ويقول غربال عن المماليك . « انهم قوم مجردون من الروابط العائلية ، ليس لهم اقارب وليس لهم ابناء او بنات ، كما ليس لهم اصل ينتمون اليه ، ولذلك لم تكن للسلطة عندهم من غاية غير الحصول

على النساء والمجوهرات ، وغير اقتناء الخيل والخدم والحشم . ومع ذلك فقد كانوا بعيدين عن التأنق والاسراف في مأكلهم ، ولم تعرف الخمور طريقها الى مجالسهم ،كما كانوا حريصين على صيام شهر رمضان».

وكان المماليك يعتمدون في ثروتهم على الضرائب الجمركية ، فكانوا يفرضون مبالغ خيالية على البضائع التي تحملها القوافل التجارية من السفن التي ترتاد البحر الاحمر وترحلها للبحر الأبيض المتوسط . فالتوابل الهندية التي تبلغ قيمتها عشرة آلاف جنيه مثلا ، كان يدفع عنها نحو الثمانية او التسعة آلاف جنيه لمرورها عبر مصر (وهذا هو احد الاسباب التي دفعت البريطانيين ليحوّلوا تجارتهم الى طريق رأس الرجاء الصالح) . ونفس النسبة كانت تجبى من القوافل الضاربة عبر الصحراء غربا . ومن هذا الدخل ومما يمارسونه من سلب ونهب واستغلال للشعب لا هوادة فيه ، كانوا يعيشون في ترف وبذخ ما بعدهما ترف أو بذخ .

وهم عادة يصلون الى السلطة والحكم بحد السيف ، والا فبالرشوة والغدر ـ وهذا الاتجاه الاخير هو القوة الفعلية التي مكنتهم من البقاء . فرغم العداوات الدموية فيما بينهم ، ورغم الدسائس التي يحيكونها لبعضهم البعض ، ورغم انحطاط مثلهم العليا التي جعلت من الكيد والخيانة ضربا من ضروب الفضيلة ـ رغم ذلك كله فقد استطاعوا ان يمدوا من اجل حكمهم الى ما فوق الخمسمائة سنة ، عندما وصل بونابارت الى مصر . فقد استكان المصريون الى هؤلاء السفاحين جيلا بعد جيل ، وقنعوا بما هم فيه من ذل وهوان في سبيل ان يجدوا من العيش الكفاف ، بينما كان سادتهم سادرين في غيهم وفي غزواتهم وحروبهم الداخلية . وبالاختصار فقد سيطر المماليك على مصر بنفس الطريقة التي سيطر بها الفراعنة عليها في قديم الازمان .



مـراد بـك

وكان المماليك ــ نظريا ــ خاضعين للقسطنطينية ، كما كان عليهم ان يدفعوا جزية سنوية للسلطان وان يتقبلوا الوالي الذي ينتدبه . اما الواقع فقد كان بخلاف ذلك ، فالجزية لم تدفع منذ عدة سنين ، والوالي في ذلك الوقت ــ أبو بكير باشا ــ لم يكن أكثر من ألعوبة في يد بكوات المماليك الذين يشكلون الحكومة ، وكان عددهم ثلاثة وعشرين شخصا . زد على ذلك فقد قام نوع من التحالف بين اثنين من هؤلاء البكوات في السنين الاخيرة ، وهما مراد وابراهيم ، كان نتيجته ان اصبحت السلطة الفعلية في يديهما . وفي سنة ١٧٩٨ كان ابراهيم بك ــ وهو رجل طويل القامة نحيف الجسم ، اقنى الانف ، خسيسا في طبعه ومكارا بغريزته ــ قد بلغ الستين من عمره ، وكنتيجة لتقدمه في السن فقد اخذت سطوة مراد تتفوق على سلطته. ومراد هذا هو الرجل الذي يهمنا امره من الآن فصاعدا ، ويحدثنا براون بانه كان رجلا اميا، لا يقرأ ولا يكتب . اما الصورة التي نحتت له في ذلك الوقت والتي تبرزه كرجل وقور ، ممتلىء الجسم ، تحف بوجهه هالة كبيرة من الشعر في قالب لحيه ، وتظهره وهو جالس يدخن غليونه في ديوانه ــ فهي ابعد ما تكون عن حقيقة طبيعته الجبارة . وكان مراد في ذلك الوقت ، في نهاية العقد الخامس من عمره ، وكانت حياته سلسلة من النضال من اجل السلطة . فعندما كان في قمة مجده ــ كما كان يبدو ــ قبل ثمان سنوات ، نزلت قوة تركية بالاراضي المصرية وطردته الى مصر العليا ، ولكنه سرعان ما عاد ، واعيد مرة اخرى الى مركزه السابق في الدولة . ومما ساعده على البقاء في السلطة ، انه كان متزوجا من بنت علي بك ، كبير المماليك في العهد السابق ، وهي امرأة تكبره سنا (فقد كانت في الخمسين من عمرها) وتدعى فاطمة . وكانت فاطمة هذه على قدر كبير من الثراء والذكاء والنفوذ ــ كلها مؤهلات

قيمة لرجل بطبعه طموح ومتهور ، ولمغامر صلب العود دائب الحركة وافر النشاط ، حتى اذا قيس بالمماليك انفسهم . وكان لمراد بك اسطول صغير من القوارب النيلية وحديقة للنزهة بالجيزة تقع بالقرب من الاهرامات ، كما كان له حرسه الخاص المكون من اربعين رجلا . وكان المسلم به ان مرادا هو العقل المفكر الذي يقود المماليك الى الحرب اذا ما تأزمت الامور ولم يكن من ذلك بد . وفي هذا الوقت (اي عند نزول بونابارت في مصر) لم يشك الا القليل جدا من اتباعه ، في ان النصر سيكون حليفه .

وكان مراد يشعر بانه قوي جدا ، ويعتز بفرسانه البالغ عددهم عشرة آلاف فارس ، وبمشاته الذين يبلغون الثلاثين الف رجل عدا . بل كان يعتقد انه اكثر من ان يكون صنوا لبونابارت او لاي غاز من الفرنج ، مهما بلغ عدد جيشه . وقد روى احد الاتراك انه عندما وصلت مراد اخبار نزول القوات الفرنسية بالاسكندرية ، « اتقدت عيناه لهبا ، وتأججت احشاؤه نارا » فاستدعى قنصل البندقية (كارلو روزيني) واخذ يجس نبضه فيما يختص بالفرنسيين . وحاول روزيني عبثا ان يفهم مرادا من هو بونابارت ، وان يشرح له قوة الاسلحة الحديثة ، فما كان من مراد الا ان ابدى سخريته من هؤلاء الفرنسيين الذين لقبهم « بالحمارة » ، قائلا انه لا يود ايذاءهم ، وكل ما هنالك انه سيرسل لهم هدية ويطردهم الى خارج البلاد . ثم اردف قائلا انه من المضحك ان يعتقدوا انه من المحتمل ان يخضعوا مصر .

ولم يكن مراد بالرجل الوحيد المتأثر بمثل هذه الاوهام ، فمنذ عدة قرون اي منذ قيام الحروب الصليبية ، اصبحت العقيدة الراسخة في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية ان المسيحيين الغربيين قوم هزيلون كجنود ، تعوزهم القيادة الرشيدة المحنكة . وقد لخص

البروفسور توينبي «Toynbee» الموقف بوضوح عندما قال : « ان مرارة الموقف تكمن وراء حقيقة واحدة ، وهي ان الفرنسيين قد نزلوا قبل ذلك كغزاة في الاراضي المصرية ، وذلك في القرن الثاني عشر ، ثم نزلوا مرة اخرى في القرن الثالث عشر ، وكانوا اذ ذاك دون مستوى الشرقيين في الحضارة العامة بما في ذلك شئون الحرب والقتال . فالفارس الفرنسي في القرون الوسطى كان اقل خبرة واقل مهارة من فارس المماليك ، ولذلك فعندما حاولوا ان يدخلوا مع المماليك في معارك فاصلة ، هزموا شر هزيمة ، وتخلوا عن هذه المحاولة كلية باعتبارها عمل رهين بالفشل . واستمر المماليك على حالهم لخمسة قرون ونصف دون ان يغيروا من نظامهم شيئا (ما عدا نبذهم للقوس واستبداله بالبندقية الانجليزية) . وقد افترضوا بداهة ان يكون الفرنسيون مثلهم ، لم يغيروا في اساليبهم الحربية الا قليلا . ولذلك فعندما سمعوا ان نابوليون قد بلغ به التهور ان يجرأ على النزول بالاسكندرية ، عقدوا العزم على ان يذيقوه من نفس الكأس التي اذاقوا بها « القديس لويس » [1] مرارة الهزيمة . وبكل بساطة شدوا رحالهم وخفوا سراعا ليسحقوا جيشه الصغير تحت حوافر خيلهم .

وهكذا نجد ان كل العناصر المهمة لحدوث مأساة كبرى قد اكتملت ـ مأساة لصدام مرير بين جيوش غارقة في الجهالة ـ فمصر التي انقطعت عن مجرى الحضارة القائمة على شواطيء البحر الابيض المتوسط لاكثر من الف سنة ، ومصر التي تلقفتها الحضارة الاسلامية

---

(1) هو الملك لويس التاسع ـ ملك فرنسا ـ الذي غزا مصر في سنة ١٢٤٩ بجيش عتاده ٢٨٠٠ فارس وخمسة آلاف من الرماة ، احتل بهم مدينة دمياط . ولكنه سرعان ما هزم وحمل اسيرا للمنصورة ، ثم اعيد الى فرنسا بعد ان دفعت عنه الفدية .

(حاشية المؤلف)

البطيئة [1] التقدم ، والتي تدور وتدور حول نفسها دون ان تتقـــدم خطوة واحدة الى الامام ، ودون ان تكون مستعدة لتقبل افكـــار جديدة ــ مصر وهي في تلك الحالة ، لم تكـــن مستعدة اطـلاقا لتلقي الصدمة التي اوشك ان ينزلها بها الغزو الفرنسي ، فلم يكن لديها من الوسائل ما يمكنها ان تعرف، به سلفا ان هذا الغزو لم يكن له مثيل في الماضي ، وما يمكنها ان تقدر به ان هذا الغزو يعني نهاية العصـــور الوسطى في الشرق الادنى ، او كمـــا قال غربال انه يعني « نهاية ليـــل مصر الطويل » .

هذا ــ والفرنسيـــون ايضا كانت لهم اوهامهم بالمثل • فهم مـــن جانبهم لم تكـــن لهم خبرة او معرفة بالحروب في الصحراء ، ولم يكن امامهم امل في الحفاظ على فتوحاتهم دون ان تكون لهم السيطرةالتامة على البحـــر ، كمـــا لم يكـــن لهم امل في إن يبسطوا سلطانهم على بلد يعادي كل ما يدافعون عنه مـــن مبادىء . وبمجرد ان انتهت اول الملاحم المرعبة ، كان جل همهم ان يأخذ كل طرف من طرفي النـــزاع د.سا مـــن الطرف الآخر ، وأن يقـــوم جسر من نوع ما بـــين الشرق والغرب ، وعند ذلك سيكون الفرنسيـــون على استعداد تام للرحيل عـــن البلاد .

ومـــن المحتمـــل ان ابراهيم ــ اكبر الرجلين سنـــا وارجحهما عقـــلا ــ قد كانت تساوره فكرة مـــن هذا القبيل ، فقد قيل انه كان

---

(١) هكذا يحلو لهم دائما ان يرموا الاسلام بالبطء والجمود متناســين ما كان له مـــن مجد وسؤدد في يوم مـــن الايام ، وانه ادار عجلة التاريخ بسرعـــة وقوة لم تسبقه اليها حضارة او دين ، متجاهلين العوامل التي تضافرت على تفتيت قوى الإسلام وايقاف تقـــدم الحضارة الاسلامية ــ وكلها عوامل بعيدة عن روح الاسلام ــ « الا كبرت كلمة تخرج مـــن افواههم ان يقولون الا كذبا » .

المتـــرجـــم

مترددا وانه ابدى بعض الاعتراض عندما نودي بالمقاومة في مجلـس الحرب الذي عقده المماليك بالقاهرة . الا ان اغلبية الآراء كانت ضده . وهكذا استدعي الجيش وركب مراد على رأس اربعـــة آلاف فارس واتجه نحو الشمـــال .

* * *

الفصل السادس

الزحف نحو القاهرة

« هنـاك موهبة تكشف للقائـد من نظرة واحدة ، جميع الاحتمالات التي تهيئوها أية رقعة من الأرض ... يمكننا أن نسميها النظرة العسكرية ، وهي هبة فطرية يتمتع بها القواد العظام . »

من مذكرات بونابارت

لقد تم الاستيلاء على الاسكندرية بسهولة منقطعة النظير . فدفاع المدينة لم يصمد الا لبضع ساعات ، كان المدافعون اثناءها يحاربون من فوق أسوار المدينة ، وكان فولينه «Volney» محقا بعض الشيء في قوله : « ان المدافعين هنا لم يكونوا سوى حامية منعزلة ، تتكون من الأعراب ومن مرتزقة الاتراك ، أكثر مما كانت تتكون من المماليك » . ولم تكن لهؤلاء الرغبة الصادقة في المقاومة بمدافع قد عفا عليها الزمن ، ومن اجل قضية خاسرة . وقـد أصيب « كليبر » بشظية في وجهـه ، الا أن الفرنسيين لم يفقدوا في كل المعركة أكثر من مائتي رجل بين قتيل وجريح. وبعد مفاوضات قصيرة ، أقام بونابارت رئاسة قواته في قلب المدينة ، وهنا حضر الشيخ كريّم ومعه قـواد الحامية فقدمـوا فروض الولاء والطاعة . فأكد لهم بونابارت، أنه لن تكون هناك اجراءات انتقامية من

أي نوع ، ولـن تجبى اية ضرائب ، كمـا لن يتدخل احد في شؤون المواطنين ، لأن المصريين في الواقع قد حرروا ولم يقهروا . وفي الثالث من يوليو قـام بونابارت بطواف سريع حول المدينـة وأمر باصلاح الحصون ، ثم استقرت حامية فرنسية تحت قيادة « مينو » ، في ثكنات حول أسوار المدينة . وسرعان مـا دخلت الناقلات الى الميناء لتفرغ حمولتها من المؤن والعتاد وما تبقى بها من الجند . أما السفن الكبيرة فقد بقيت خارج الميناء لأنها لم تكن متأكدة من عمق الماء عند مدخلها . وأثناء ذلك كانت المطابع قد أنزلت من « الشرق» وابتدأت فعلا في طبع البيان الذي أعده بونابارت باللغة العربية ــ وكان هذا أول بيان مطبوع عرف في مصر .

وهكذا سقطت الاسكندرية كما سقطت مالطة من قبل ، والاثنان بضربة واحدة . وأهم من ذلك ان الجيش الفرنسي قد نزل بكامل قوته ــ البالغ عددها ثلاثون الف رجل ــ ومعظم عتاده الى الساحل المصري دون ان يصاب بسوء ، ولا شك انها كانت بداية رائعة . اما الخطوات التالية فقد كانت واضحة أمام بونابارت ، وهي أنه يجب ان يزحف بسرعة نحو الداخل ، قبل أن يتمكن المماليك من معرفة ما يقوم به ، وان يستولي على مصب فرع رشيد ، ثم يتقدم بأقصى سرعة ممكنة نحو القاهرة عن طريق النيل .

فاعد طابورين ، أحدهما تحت قيادة ديسيه ليزحف نحو النيـل مباشرة ، ويعبره عند موضع يقال له « الرحمانية » ، يبعد أربعين ميلا من البحر . والطابور الآخر تحت قيـادة دوجوا «Dugua» وكان عليه ان يتقدم ــ مصحوبا بإسطول صغير من المراكب المحملة بالارز والقمح ــ متتبعا الشاطيء حتى يصل مدينة رشيد . وبمجرد أن يقتحم مصب النيل كان علـى المراكب ان تواصل سيرهـا على النيل لتلتقي بديسيه عند الرحمانية ، ثم يتقدم الجيشان نحو القاهرة التي تقع على بعد نحو المائة

ميل جنوبا . وقبل أن يتمكن الجنود من رؤية الاسكندرية ، وقبل ان تتعود أقدامهم على البر ، أمروا بالتقدم نحو الصحراء .

وكان على ديسيه وطابوره الأكبر أن يقطعوا خمسين ميلا قبل ان يصلوا النيل ، فكشفت لهم الخمسون ميلا هذه بطريقة قاسية لم تدر بخلدهم ــ ما لم يكشفه لهم شيء من قبل ــ عن طبيعة الحملة التي تورطوا فيها . فالحقول الخضراء كانت في ذلك الوقت بعيدة عن الاسكندرية ، والقناة التي كانت تربط بين المدينة والنيل قد دفنتها الرمال منذ زمن بعيد ، ولذلك فقد كان الطريق (وهو نفس الطريق الذي يمتد عليه الخط الحديدي حاليا) قفرا خاليا من الماء والغذاء . وكان الوقت منتصف الصيف ، والحر شديد مذهل ــ ومع ذلك فقد كانوا يسيرون بملابسهم الصوفية الخشنة وسراويلهم الطويلة واحذيتهم الثقيلة ، ويحملون بنادقهم على أكتافهم وأمتعتهم فوق ظهورهم . وهكذا كانوا يزحفون في صفوف طويلة ، فوق رمال كثيفة وبين حجارة وعرة ، يثيرون النقع فوق رؤوسهم كلما تقدموا — لا ظل يؤويهم ولا ماء يرويهم ولا طعام يتقوتونه . وكل ما كانوا يحملونه من الزاد هو مؤونة من البسكويت تكفي لاربعة ايام ، والبسكويت ليس بالطعام المثالي لصد غائلة العطش . وكلما وصلوا الى بئر من الآبار — وكانت قليلة العدد شحيحة الماء ــ وزّع عليهم الماء بتقتير شديد كأنه أعز خمر في الوجود . وعند نهاية اليوم الاول اخذ الجند يتداعون لما أصاب أرجلهم من تقرح وأعينهم من التهاب واجسادهم من اجهاد . ولكنهم لا يستطيعون ان يتخلفوا ، فقبائل البدو كانت لهم بالمرصاد ، تزعجهم في المقدمة وتناوشهم في المؤخرة ، فلا يمكن لمجهد ان يستريح على الرمل لعشر دقائق دون أن يعزلوه عن بقية الطابور وينقضوا عليه . وقد تعرض ديسيه نفسه للسطو عندما كان على بعد خمسين خطوة من الطابور ، وقيل أن ضابطا لقي حتفه وهو على بعد مائة خطوة من المقدمة « كنتيجة

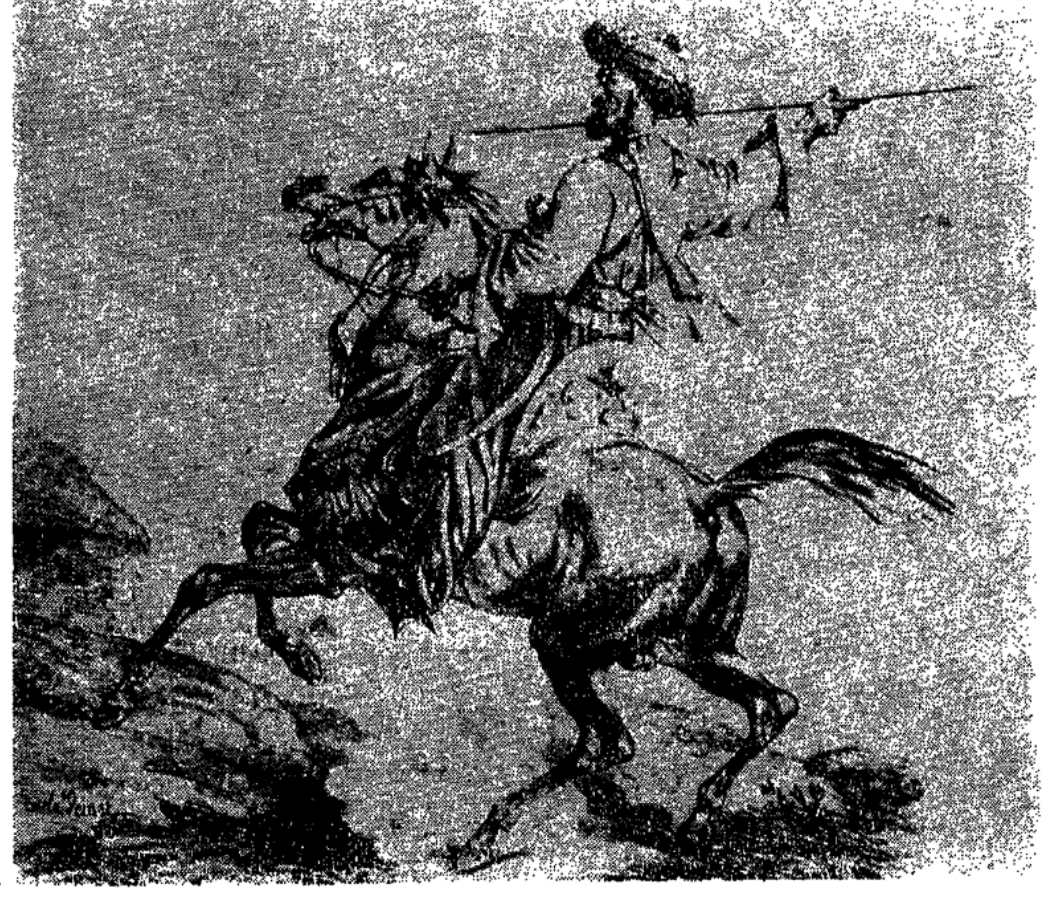
لشرود ذهنه وعدم انتباهه لتحذير صدر له بان يكون في زمرة الآخرين».

وجدّ الطابور في سيره وهو في دوامة من التعب والاجهاد ، الا ان كل قرية يمرون بها كانوا يجدونها خاوية من السكان ، خالية من كل طعام ، غير بعض مزارع البطيخ التي يصادفونها من حين لآخر فيتهافتون عليها كالذئاب ، وما عدا ذلك فلم يجدوا أي شيء يؤكل طيلة مسيرتهم هذه . وفي التاسع من يوليو — أي بعد مسيرة جادة لثلاثة أيام متتالية ، وصلوا الرحمانية ، وما كادت أعينهم تقع على النيل الا وألقوا بأنفسهم فيه دون ان يخلعوا ملابسهم العسكرية .

وبينما كانت الوحدات في هرج ومرج ، وهي لا تفكر في شيء أكثر من أن تنال قسطا من الراحة اذا بمراد يظهر فجأة . فقد جد السير على رأس فرسانه من القاهرة يتبعهم أسطول من الفلائك على النيل . ولا شك أن عيونه كانت ترقب الفرنسيين بدقــة أثناء تقدمهم وتبعث له بأخبار تحركاتهم اولاً بأول . وها هو الآن على أهبة الاستعداد للقتال ، وقد سار بمحاذاة النيل ومعه نحو الثمانمائة راكب من خيرة فرسانه . ثم وقف لحظة يتفرس الطابور الفرنسي ، وكانت لحظة من اشد اللحظات مرارة ، ان لم تكن أشدها حرجا في مثل هذه الحملات عامة ، وخصوصا في حملة غريبة في نوعها كهذه . انها لحظة اللقاء الأول ، عندما يكون الجانبان غارقين في الظنون والشكوك ، الظنون بالعدو الغريب الذي يقف أمامهم الآن ، والشكوك الداخلية التي لا مناص منها والتي يشعر بها كل جندي يواجه المجهول — تلك هي الشكوك في مقدرته الذاتية وشجاعته الشخصية .

ولا بد ان يكون الفرنسيون قد سمعوا الكثير عن شجاعة المماليك ووحشية المماليك خلال هذا الاسبوع الذي قضوه في مصر حتى الآن . فقد راجت اشاعة بين صفوفهم بأن مرادا يقود جيوشه للمعركة وهو على ظهر بعير ابيض كاللبن ، وان جهاز حربه يتلألأ ببريق الذهب والحجارة





فارسان من المماليك

الكريمة وأنه لا يترك ملجأ لعدوه أبدا ، ولذلك فقد كان رجال ديسيه يتوقعون شيئا هائلا مرعبا .

والمماليك من جانبهم لم يكونوا مستعدين لهذا اللقاء الأول — الذي هو لقاء الاختبار وسبر الغور — فهؤلاء الفرنسيون ليسوا كغيرهم من الجنود الذين رأوهم من قبل — وقد كانوا يعتبرونهم عبيدا لبونابارت — فقد لاحظوا من النظرة العابرة ، ان زيهم كان سيئا ، واستنتجوا ان يكون عتادهم في نفس المستوى من السوء ، ولكنهم حتى الآن لم يتحققوا من ذلك . لقد كان الموقف مبهما ، لا يدري احد على وجه التحقيق ما سيتمخض عنه هذا اللقاء ، ومع ذلك أخذ كلا الجانبين يستعد بالطريقة التي درب عليها . فأعد ديسيه مدفعيته في مواضعها ، ورتب مشاته في مربعات ، جاعلا الصفوف الامامية باركة في وضعها وسنان بنادقهم موجهة للامام ، والصفوف التي تليها مستعدة لاطلاق النار من فوق أكتافهم — ثم بدأ المماليك الهجوم .

وانتهى كل شيء في بضع دقائق، فبمجرد ان اطلقت المدفعية نيرانها، تراجع المماليك ، واداروا اعنة جيادهم نحو الفضاء ، بعيدا عن مرمى القذائف . اما من تمكن منهم من الاقتراب من التشكيلات الفرنسية فقد قوبلوا بنار حامية من الرماة ، وسرعان ما ولوا الادبار تاركين وراءهم نحو الاربعين من القتلى والجرحى ، بينما لم يصب أكثر من اثني عشر رجلا من الفرنسيين. وعندما وصل بونابارت ببعض الامدادات لجبهة القتال ، وجد ان ليست هناك ضرورة للمساعدة . وبعد أن وضع الحراسة اللازمة امر القوات بالتوقف لمدة ٤٦ ساعة للاستجمام . ومضى يومان دون أن يظهر أثر للمماليك كأنما قد ابتلعتهم الصحراء .

واثناء كل ذلك كان « دوجوا » قد شق طريقه مخترقا مصب النيل ، بعد ان مرت عليه لحظات عصيبة وهو يدفع قواربه الحربية بالأيدي فوق الرمال — فقد هبت عليهم عاصفة ، وكان النيل منخفضا

فجنحت في الرمال — ومع ذلك فقد استسلمت رشيد دون مقاومة . وكان بالقلعة التي تسيطر على مصب النيل مدفع من عيار ٣٨ بوصة لم يستعمل منذ زمن طويل . والغرض الوحيد من وجوده ، كما قال دينو ، هو «ان يسهل المخاض على الحوامل اللائي يتحظينه عن عقيدة وايمان». ووجد الفرنسيون في رشيد « أجمل وأنضر بقعة » فهي بستان رائع من النخيل والجميز والموز ، قد تعانقت اشجارها فوق اسوار منهارة وأخرى متداعية . الا أن دوجوا لم يتريث لحظة واحدة ، بل جد مسرعا في سيره جاعلا مشاته بالضفة الغربية ، يجارون السفن في اسراعها وابطائها . وظل كذلك الى ان انضم الى قوات ديسيه بالرحمانية ، وهكذا نُفِّذت الخطة في دقة تامة .

نحن الآن في الثاني عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ ، وبونابارت متحمس لمواصلة الزحف ، الا ان طلائعه جاءت في اليوم التالي بان المماليك يستعدون للقائه بقوة أعظم من ذي قبل عند قرية « شبراخيث » التي تبعد بضعة أميال جنوب الرحمانية . فقد جمع عندها مراد ما بين الثلاثة والأربعة آلاف فارس ليقفوا سدا دون وصول الفرنسيين لهذه القرية ، بينما أعد على النيل نحو التسع او العشرة من المراكب الحربية الكبيرة استعدادا لمعركة مع الاسطول الفرنسي .

اما الفرنسيون فلم يكونوا مستعدين للقاء المماليك في هذه اللحظة بالذات ، فالجنود لا زالوا مرهقين ، وخيالتهم الصالحون لخوض المعركة لا يتعدون المائتين ، الا ان نابليون قد قرر ، رغم كل ذلك ، ان يبدأ هجومه مباشرة . فأمر أسطوله الصغير ان يقلع جنوبا ليحمي الجناح الأيسر أثناء زحف المشاة على شبراخيث ـــ على أن تضرب القوتان معا وفي وقت واحد . غير انه لم يضع حسابا للرياح الشمالية القوية ، ولذلك فقد انجرف الاسطول وسبق الجيش بثلاثة أميال كاملة ، وفجأة وجد البحارة الفرنسيون انفسهم بين نيران حامية من الشاطيء ومن قوارب

العدو الحربية . فسارت الامــور في غير صالح الفرنسيين أول الامر ، وجرح القائد بيري «Perree» وأسرت أربعة من قواربهم منذ بداية المعركة . وعندما سمع بونابارت دوي المدافع وكانت قد تبودلت نحو ١،٥٠٠ طلقة من المدافع في هذا الوقت — استحث جنوده السير ، وما كادوا يسوون صفوفهم الا والمماليك ينقضون كالصاعقة . ومرة أخرى ركزوا هجومهم على نيران المدفعيــة ، محاولين فتح ثغرة في صفــوف الفرنسيين ، فحاولوا المقدمة أولا ، ثم حاولوا الجناحين ، وكانوا في هجومهم كمن اصابهم مس مــن الجنون ، لا يهابون شيئا ولا يبالون بشيء . ومن تمكنوا منهم من الوصول الــى صفوف المشاة ، أعملوا سيوفهم عدة مرات قبل أن يلاقوا حتفهم ، أما من كانوا في المؤخرة فقد فقدوا خيولهم أو شتت شملهم قبل ان يوقعوا أية ضربة . وأعادوا الكرة مرة واخرى وثالثة ، الا أن النتيجة كانت واحدة . وعند الظهيرة الباكرة تراجع المماليك في ذهول وفوضى بعد ان فقدوا ثلاثمائة من رجالهم ، وسرعان ما تسابق الجند نحو القتلى يسلبون متاعهم . أما الاصابات بجيش بونابارت فقد بلغت نحو السبعين بين قتيل وجريح . وسرعان ما جاءت الاخبار السارة أيضا عن معركة النيل ، فقد استرد الفرنسيون قواربهم التي فقدوها أول المعركة ، ثــم حدث انفجار بقارب المماليك القيادي ، فكان هذا بمثابة ايذان بالتقهقر العام بين صفوف الاعداء .

لم يذكر الكتّاب المعاصرون الاّ القليل جدا عن هاتين المعركتــين القصيرتين اللتين دارتا في مضارب النيل السفلى ، بل ركز المؤرخون جل اهتمامهم على المعركة العظمى الــتي سيأتي ذكرها بعد قليل . غير ان النتيجة في الواقع ، كانت قد تقررت هنا في الثالث عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ . وحتى هذه اللحظة لم تتعد الخطط التي وضعها بونابارت ، أن تكون مجرد تخمين موفق مــن قائــد موهوب . فالحروب عادة تبدأ بالرجوع الى الكتب والمراجع ، غير أنه في هذه الحالة لم تكن هناك

كتب يمكن الرجوع اليها . فمنذ الحروب الصليبية ، لم يقم جيش أوروبي بغزو الأراضي المصرية ، ولم يكن هناك من يستطيع أن يحكم حكما قاطعا بتأثير وفعالية الهجمات التي يشنها المماليك ، ولا من يعلم ما يدبرونه من خطط او ما يفاجئون به عدوهم من أفانين وخدع . أما الآن ، وفي لحظة قصيرة فقد سدت ثغرة في التاريخ ، واتضح بجلاء ان المماليك قد اتقنوا فنون الفروسية لدرجة بعيدة ، وأنهم من الشجاعة بمكان لا يمكن تصوره ، كما أن أساليبهم في الحرب كانت من التأخر بدرجة لا يمكن تصورها أيضا . وكان من سوء طالعهم ان يلتقوا في اول ملاحمهم مع الغرب ، باعظم جندي عرف في زمانه . ولكن ، حتى اذا لم يكن بونابارت موجودا ، لما عجز الفرنسيون عن تدمير جيش في مثل البدائية التي كان فيها المماليك . فقد كان الفرنسيون يتفوقون عن غيرهم في شؤون الحرب من جميع اوجهها — في السلاح والعتاد وفي التدريب والتنظيم — لدرجة أنهم كانوا يظهرون كطبقة فوق مستوى البشر . أما المماليك فكانوا ينظرون الى الحرب كمسألة شجاعة شخصية ، وكانت هجماتهم شيء فريد في ذاته ، فهي خليط بين شهامة الفروسية وضراوة الانقضاض . وديدنهم اما النصر واما الموت . كما أن كل شيء عندهم كان يتوقف على السرعة ، وعلى التلاحم العنيف الصاخب ، ثم الافلات لاعادة الكرة . ولكن هذا الجيش الفرنسي الذي لا يرحم ابدا ، يعمل كالآلة ولا يتبع شيئا من نظم الحرب المعروفة . انه يضرب من بعد ، ولا يتحرك ابدا — وجنوده لا يعملون كأفراد ، بل كجزء من الحصن البشري الذي يقيمونه في ميدان المعركة — لقد قلبوا رأسا على عقب ما كان معروفا في القرون الوسطى ، من أن الفرسان دائما يتفوقون على المشاة . لقد اتضح للمماليك الآن ان الحرب شيء آخر ، يختلف كل الاختلاف عن المناوشات الدموية الطائشة — انها خطة مقدّرة مدروسة ، ترمي للابادة الجماعية ، وتقوم بها اساسا نيران

البنادق الحامية وقذائف المدفعية الفتاكة . اما الانقضاض ، وأما الهجوم السريع الخاطف ، فشيء ثانوي جدا ، وهو ليس كل الحرب .

والواقع ان مرادا لم يعترف بالهزيمة حتى الآن — فقواته لا تزال متحفزة للقتال خارج مشارف القاهرة — الا ان الفرنسيين هم الذين أصبحوا فـوق مرتبة البشر في مصر ، بينما أصبح المماليك يقاتلونهم بدافع الكرامة العمياء وبدافع اليأس والكراهية ، أما النصر فلم يكـن لهم أمل فيه .

وبعد واقعة شبراخيث مباشرة ، تقهقر مراد الى القاهرة التي تبعد ثمانين ميلا نحو الجنوب . وكان هذا هو أحسن ما فعله ، لأنه بذلك أطال من خط مواصلات بونابارت مع الاسكندرية ، وتركه ليواجه طبيعة البلاد القاسية ، التي تشكل عائقا أصعب بكثير من أي مضايقات يمكن ان يقوم بها المماليك . فالحرارة كانت تزداد شدة كل ما ازدادوا توغلا في البلاد ، ومشاكل اطعام الجند كانت تزداد يوما بعد يوم . فرغم انهم كانوا دائما يعسكرون بين حقول القمح ، الا" أن الوسائل لطحنه لم تكن متيسرة . وفي الوقت الذي كانوا يتوقون فيه للخبز والخمر لم يجدوا أمامهم غير البطيخ والعدس ، وكان في ذلـك غداء خطر على صحتهم، سرعان ما عرضهم للتأثر بالدوسنتاريا . والدوسنتاريا مع الامعاء الخاوية من اشد الحالات التي تسبب الضعف والهزال ، وهذا هو مـا قرره الواقع مـع كل جيش اجنبي قام لغزو مصر . ليس ذلك فقط ، بل حتى السباحة في النيل كانت من الخطورة بمكان . ومع ان موسم الرمد — الذي هو من الامراض المستوطنة في الدلتا — لم يكن قد حان بعد ، الا ان الجنود أخذوا يتأثرون بالتهابات مؤلمة في العيون ، كانت تتطور فيما بعد الى حالات مـن العمى المؤقت . وهناك قائمة مـن الامراض الأخرى كانت تنتظرهم كالبهارسيا والطاعون ، كلها امراض لا يعرف عنها الأطباء الفرنسيون الا القليل جدا .

ثم أخذ البدو يزعجون الطابور ازعاجا لا هوادة فيـه ، وكان ظهورهم مفاجأة غير متوقعة . فهم في الواقع يشكلون قوة ثالثة من نوع ما ، في مصر ، ولم يكن لهم هدف موحد مع المماليك ، بل هـي طبيعة حياتهم في الصحراء ، تدفعهم لمهاجمة كل مسافر غير مسلح يقع في طريقهم. وكانت الغزوات والحروب الداخلية اشارة لهم ليحملوا السلاح ويهاجموا كلا الطرفين ، ويسلبوا كـلا الطرفين دون تميز . حقيقة انهم لم يحدثوا ضررا يذكر ، ولكنهم كالحشرة التي تهبط على الفيل ، يمكنهم ان يقضوا من مضاجع الفرنسيين — ومن المستحيل أن يصل معهم احد الى صلح او تسويـة .

وكتب دينو في هذا الموقف فقال « ان أعراب البادية قوم هزيلو العدة ، عديمو المقاومة ، ليس لهم مـن استحكامات غير كثبان الرمال المتنقلة ، سكنهم العراء وملجؤهم الصحراء ، فمن ذا الذي يستطيع ان يدحرهم او يحاصرهم ... والبدوي هو الصياد البدائي في طبعه ، تقوم أخلاقه على الكسل والتحلل من القيود ... وهو في حركة دائمة ، يتحمل في صبر عجيب حصار العوز واستبداد الفاقة ... فليس اذن لدينا مـا نقدمه له كبديل لما يسلبنا اياه » . ويستمر دينو على هذا النمط ، ثـم يقول انه مع كل ذلك قد كانت لهم مواقف يعاملون فيها من يقع تحت قبضتهم من الفرنسيين بمنتهى الرقة واللطف ، ولكن بعد ان يجردوهم من كل مـا يمتلكون — فالقسوة والكسل ثم الشهامة !! — لقد كان من الصعب للجيش الغازي أن يعرف أين هو او كيف يتصرف في هذا العالم الغريب الذي لا يلين ولا يرحم — هذا العالم الذي يختلف اختلافا تاما عما كانوا يمنون به انفسهم ، عندما تركوا فرنسا لأول مرة ـ لا طعام يؤكـل ولا خمر يشرب ولا نساء تسبى ولا ما يسلب او ينهب ! ... لا شيء مطلقا غير هذا الزحف المستمر وهذه الشمس المحرقة .

وبينما كان ديسيه يتحرك في مركبة نحو المقدمة ، سمع لغطا يدور

عن حركة عصيان بين الصفوف ، وكانت اصوات الضباط أعلى من اصوات الانفار في الجأر بالشكوى . فقد اعلنوا أنهم لم يأتوا هنا ليموتوا كالسائمة من العوز ، فهم جياع وهم مرهقون وهم مرضى ، ولا يمكنهم ان يستمروا على هذا الحال . وكان بعض التذمر موجها لذوي الفكر — اولئك العلماء النابهين الذين كانوا يرعون كالحمير ، هنا وهناك بين الحجارة والأطلال — فهم الذين أغروا بونابارت بالقيام بهذه المغامرة الحمقاء . غير أن هذا التذمر لم تمتد جذوره بعيدا ، فهناك « مونج » و « بيرتوللي » اللذان كان لهما موقف رائع وهما على ظهر احدى القوارب في واقعة شبراخيت ، كما كان هناك آخرون اكثر من الجنود تقشفا وحرمانا . وعند نهاية الاسبوع الثالث من يوليو ، أي بعد عشرة أيام من بداية الزحف ، كان كل فرد في الحملة — ضباط وعساكر على السواء — يبحث له عن كبش فداء لتذمره . وقد بلغت الجرأة بأحد الجنود ان حاول التهكم على بونابارت نفسه ، فخاطبه قائلا : « ألا تريد يا سيدي القائد ان تذهب بنا الى الهند ايضا ؟ » فاجابه بونابارت ببرود : « لن أحاول شيئا من هذا بامثالك من الرجال » .

ولربما كان السبب الوحيد الذي دفعهم لمواصلة الزحف هو واقعهم الأكيد بان لا مفر لهم من ذلك ، فقد فقدوا في هذا الوقت كل اتصال بالساحل ، وبالاسطول الفرنسي ، الذي هو أملهم الوحيد في العودة الى بلادهم . إلا ان زحفهم هذا قد اصبح نوعا من التقهقر في حد ذاته ، ولكنه كان أخف مرارة وأقل كمًّا من العودة من موسكو — تلك العودة التي كانت في ذلك الوقت ، لا تزال في عالم الغيب ، وعلى مدى اثني عشر عاما ، بين خفايا المستقبل ... ولكنه كان نوعا من التقهقر على أي حال .

ولو عرف الفرنسيون ما كان يجري في القاهرة في هذا الوقت ، لكانوا أكثر غبطة واعظم سرورا . فالمدينة قد عمها الهلع لما وصلها من

اخبار هزيمة مراد في شبراخيت . لقد خرج منها مـــراد وكله ثقـــة في فرسانه وقواربه الحربية ، واذا به يعود بعد بضعة ايام مدحورا مكروبا. وهذا الجيش الجديد القاسي — هذا الجيش الفرنسي العجيب — ها هو ذا يجد في اثره ويقترب نحو المدينة يوما بعد يوم .

واول رد فعل حصل ، هو ما يحدث عادة بين المدنيين في مثل هذه الاحوال ، من هرج ومرج وذعر واضطراب ، وتسابـــق نحو اســـواق المؤن والمأكولات ، وإخفاء الذهب والمجوهرات وغيرها من المدخـــرات الثمينة ثم الاستعداد الى الهروب والنجاة . فارتفعت أسعار الـــدواب والجمال ارتفاعا فجائيا باهظا ، فكانت تباع الاسلحة والعتاد باربـــاح خيالية ، وانعدم البارود والرصاص من الاســـواق ، واغلقت المتـــاجر ابوابها الواحد تلو الآخر ، وامتنع الناس عن التجوال بعد المغيب كلية. وكما هي العادة في كل محنة كهذه — يسيطر الخوف فيهـــا على رجال العقد والحل وتطفو الطبقات السفلى المنحطـــة الى السطح ــ كما هي العادة في مثل هذه الاحوال ، فقد اخذ اللصوص يسطون على المنـــازل التي هجرها أهلوها ، وأخذ الأوباش يعتدون علـــى منـــازل التجـــــار الاوروبيين وعلى الكنائس القبطيـــة واليونانيـــة بحثا عـــن الجواهـــر والسلاح . وسرعان ما عمّت الفوضى وأصبح مـــن الخطورة أن يظهر الرجل بمفرده في أي طريق مهجور .

واستطاع المماليك ان يوقفوا هذه الفظائع عند حدها ، فصدرت الأوامر بأن يعلق كل صاحب منزل فانوسا على شرفة داره ، وبذلـــك أمكن اضاءة الطرقات ليلا حيث يشتد نشاط اللصوص . وكل من حاول الهرب كان يلقى عليه القبض عند ابواب المدينة ويرسل للسجن فورا . ثم عقد ابراهيم بك مجلسا حربيا ، وأرسل الى سلطـــان القسطنطينيـــة طالبا النجدة — وكانت هـــذه لفتة بائسة لأن الفرنسيين كان متوقعـــا وصولهم قبل ان يتحرك السلطان ، ولكنها على أي حال كانت محاولـــة

اشاعت شيئا من الطمأنينة — ثم قامت الاستعـدادات على قدم وساق لتحصين القاهرة واعدادها للدفاع ، فثبّتت المدافع فـوق الاسـوار ، وأغرقت المراكب في النيل عند بولاق لسد هذا الطريـق أمام الاسطول الفرنسي ، ونصبت الخيام والسرادقات على ضفة النيل الغربية عنـد امبابة ، وأمر جميع الرجال الذيـن في سن التجنيد ان يتجمعوا بها .

وقد هدّأت هذه الاستعدادات من روع السكان ، الا ان الغالبية منهم رأت ان توكل امرها الى الله ، فاقيمت الصلوات في الجوامـع ، وأنزلت الراية النبوية [1] من القلعـة وحملت في مركب كبير تتقدمـه الطبول والمزامير وفرق الموسيقـى ، وتوجهت بها الى جزيـرة بولاق ، حيث كانوا يتوقعون ظهور العدو . ولكن لم يكن احد يعرف على وجه التحقيق ما دبره الفرنسيون ، وهل سيأتون من الشرق ام من الغرب أم من النيل نفسه ، ففي كل يوم كانت الاشاعات تمـلأ الاسواق ، وحتى عودة مراد الى القاهرة لم تزد في معلوماتهم شيئا لأنه (مراد) بعد واقعة شبراخيت قطع اتصاله كلية ببونابارت . واخيراً قر قرارهم عـلى خطـة كانت غاية في الرعونة والغباء ، تتلخص في أن يبقى ابراهيم بالضفـة الشرقية ليحمي القاهرة بينما تتخذ قواتهم الرئيسية مواقع مختارة بالضفة الغربية تحت قيادة مراد . وهكذا جنبوا بونابارت — الذي كان يواصل زحفه بالضفة الغربية — الاخطار والمشاق التي كان لا بـد له من ان يلاقيها عند عبور قواته للنيل قبل ان تشتبك في معركة مع المماليك .

فصدرت الاوامر للقوات المصريـة بالتحرك الى امبابة ، واسرع

---

(1) لم يعرف عن وجود راية نبوية ، لا في مصر ولا في غير مصر . وكل ما في الامر ان السيد عمر مكرم افندي « نقيب الاشراف » صعـد الى القلعة « كما يقول الجبرتي » وانزل منها بيرقا كبيرا ، اسمتـه العامة البيرق النبوي .

المترجـم

التجار وبائعو المأكولات باقامة مظلاتهم وخيامهم بين وحدات القوات المحاربة ، ونقلت المدافع من القوارب الحربية ووضعت حول المعسكر ، ثم اخذوا في حفر الخنادق في عجلة ودون اتقان . وبحلول اليوم العشرين من يوليو كان قد تجمع بالمعسكر ما يقرب من الستين الف رجل ، ومن كل هذا العدد لم تكن هناك قوة متماسكة غير خيالة المماليك البالغ عددهم نحو العشرة آلاف . أما البقية فقد كانوا من المشاة والأتباع ، والكثيرون منهم لا يحملون غير الرماح والسيوف . هذا ــ ولم يبق في القاهرة غير النساء والاطفال والعجزة والمسنين ــ وجميعهم مختبئون داخل منازلهم .

وبينما كانت هذه الأيام العصيبة تمضي في القاهرة ، كان بونابارت يجد السير الحثيث نحو الجنوب « والجيش ... » كما جاء في مذكراته « ... يسوده الصمت والكآبة والحزن » . ومع ذلك كان يستحثهم بالتقدم للأمام ، فاذا ما جاء المساء جلس بين جموعهم ليلتهم نصيبه من العدس . ثم يجلس الجنود حول نيرانهم يتجاذبون أطراف الحديث لساعات طويلة ، ويدللون على ان الادارة بباريس لم ترم الا للخلاص منهم ــ والا فلماذا كل هذا الزحف الذي لا معنى له . ولكنهم ــ على أي حال ــ لم يخوضوا معركة حتى الآن ، بل لم يظهر اي اثر للعدو منذ واقعة شبراخيت ، وها هي فصيلة تعبر الى الضفة الشرقية لتقصي اخبار المماليك ، فتجدها خالية تماما كالضفة الغربية .

وفي التاسع عشر من يوليو وصلت القوات الفرنسية الى قرية « ام دينار » التي تقع بالقرب من مخرج فرع دمياط من النيل ، وهكذا اصبحوا على بعد ما لا يزيد عن العشرين ميلا من القاهرة . وهنا بادر كل من يحمل منظارا للتجسس باخراجه ووجهه نحو شبح الاهرامات البعيدة . واخيرا علم بونابارت من جواسيسه ان جيش

المماليـك ينتظره بالضفـة الغربيـة خارج القاهرة ، فأمر الجنـد بان يستريحوا ليوم كامل . وقبل فجر اليوم العشرين من يوليو بـدأوا في زحف سريع جادّ لمدة ١٢ ساعة ، ثم توقفوا في المساء على بعـد ميل او ميلين من امبابه ، وقضوا ليلتهم في استرخاء تام . وفي الواحدة مـن صباح الحادي والعشرين كان الجيش في حركة دائبة ، وعند طلوع الفجر ابصر الفرنسيـون المماليـك لاول مرة منذ شبراخيث فتقدم بونابارت على صهوة جواده وتفرس المواقع مـن خلال منظاره ، ورأى جموعـا كبيرة على بعد مـن تحصينات العدو الاماميـة ، فقدر مشاتهم بنحـو العشريـن الفا ، يعززهم نحو عشرين مدفعا وضعت في تحصينات هزيلة مرتجلة . واهم ما لفت نظـر بونابارت في هذه المدافع ، انها من النوع الذي يستعمـل في القوارب النهريـة ، وانها ليست مزودة بعجلات او مثبتة في مركبات ، فهي اذن ثابتة لا تستطيع حراكا . ثم بدت له قـوة المماليـك الرئيسية مـن الخيالة تقف غرب المعسكر ، وهي منتظمـة على جانب الطريق المؤدي لاهرامات الجيزة ، فقدر عددهم بما بين الثلاثة والعشر آلاف فارس ــ ومضى الزمن فبلغت الساعة العاشرة واقتربـت الشمس مـن شدة وطأتهـا .

وهناك نواح عديدة شاذة في هذه المعركة التي سميت « واقعـة الاهرامات » . فالمكان الذي دارت فيه المعركة لم يكن قريبـا مـن الاهرامات بأي حال مـن الأحوال ، بل كان يبعد عنها بثمانية او تسعة اميال . وعلى نفس هذا الاسلوب ــ اسلوب القرينة المثيرة ــ فان معظم الناس يقرنون هذا اليوم بخطاب بونابارت الشهير الذي وجهه لجنوده ، نفس اولئك الجنود الذيـن كانوا ، في اغلب الظـن مشغولين لدرجـة لم تمكنهم مـن الاصغاء اليـه . اما المعركـة نفسها ، وما ترتب عليـها مـن آثار رهيبة ، ففيها كثير مـن المفاجآت الغريبة . وابـرز ما في الموقف مـن جميع أوجهـه ، هو أن بونابارت ــ وهو لا يزال شاباً

في التاسعة والعشرين من عمره ، وفي مثل تلك الظروف الشاذة ــ استطاع في لحظة واحدة ان يرى بثاقب فكره وفي يقين تام ، كيف يجب عليه ان يتصرف تصرفا لا خطأ فيه . ولم يحدث في التاريخ ان تم وضع خطة لمعركة ما ، بأكثر مما وضعت به الخطة لهذه المعركة ، من وضوح ودقة . فعندما رأى المدافع المثبتة في معسكر الاعداء ، قرر في لحظة واحدة ، ان يتركها معطلة الفعالية ، في الوقت الحاضر بان يبقى خارج مرماها ، ويقوم في نفس الوقت بمناوشة خيالة المماليك في العراء المكشوف . فاذا رأى مشاة العدو ان يهبوا لنجدة الخيالة بالخروج من استحكاماتهم ، كان هذا هو المطلوب ، لأنهم في هذه الحالة سيضطرون للقتال دون تعضيد مدفعيتهم . اما اذا قرر سلاح المشاة أن يبقى حيث هو ، فمن المرجح ان ينزل الهزيمة بخيالة المماليك معتمدا على مدافعه المتحركة ونيران تشكيلاته الكاسحة ، وبعد ذلك سيكون الوقت ملائما للالتفات لمعسكر المشاة . ثم رأى انه اذا وضع فرقة من قواته خلف معسكرهم ، فلن تتمكن فلول فرسان المماليك من اللحاق بمشاتهم ومساندتهم ، كما لن يكون للمشاة من طريق للتقهقر الا صوب النيل .

وليس امامنا من سبب واحد للتشكك فيما قاله بونابارت ، من ان هذه هي فعلا الخطة التي وضعها لادارة المعركة ، فهذا هو التنظيم الذي نفذه فعلا . ففي كل مراحل المعركة كان المماليك يتصرفون ، لا بناء على خطتهم هم (التي كانت في اغلب الظن مبنية على استدراج الفرنسيين لمهاجمة المعسكر ، بينما يقوم فرسانهم بالانقضاض على الجناحين) ، لم يتصرفوا بناء على خطتهم هم ، بل بناء على الخطة التي رسمها بونابارت .

وعليه فقد كلف ديسيه ان ينطلق للقاء المماليك عند الجناح الأيمن، وكانت هذه عملية طويلة استغرقت ثلاث ساعات قبل ان يتم تنظيمها.

فجهز ديسيه مشاته في مربعات تتخللها المدفعية ، وجعل فرقة المهمات في الوسط والطلائع في المقدمة . وعلى اي حال ، لم يتبين مراد ان فرسانه على وشك ان يقطع عليهم خط الرجعة من استحكامات المشاة ، الا في الساعة الثانية من بعد الظهر ، وكانت الشمس اذ ذاك في اشد توهجها ، والرياح تهب عنيفة من الشمال — وهنا أمر قواته بالهجوم .

واشترك في هذا الهجوم ما لا يقل عن الستة آلاف فارس ، وقد نكون محقين اذا قلنا ان هذا هو آخر هجوم كبير يشنه الخيالة على طريقة العصور الوسطى . وقد حاول الكتاب المعاصرون ان يصفوه بالكلمات ويصوّروه بالرسومات، الا أن وصفهم لم يكن مطابقا للحقيقة، فهم يعطون القارىء فكرة مربكة للمعركة — فمن بيارق تخفق على رؤوس الجياد ، والمماليك في عمائم ضخمة وعباءات زاهية فضفاضة ، يسيل كل منهم الى الامام وحسامه في يده اليمنى ، واتباعهم يهرولون تحت ركاباتهم — الى جمال محملة بالذخيرة والعتاد من خلفهم — ثم يختفي كل ذلك وسط سحب الدخان وجلبة الهجوم ووقع حوافر الخيل ووسط الصياح وقرع الطبول واصوات الابواق — ثم تتلاشى كل هذه الجلبة وسط قصف المدافع المتواصل . انه من النادر جدا ان يتمكن شاهد عيان واحد من رؤية معركة ما بالمعنى الصحيح ، وقليل من هؤلاء يستطيعون ان يتبينوا ما يجري والمعركة دائرة ، فكل جندي يكون معزولا في عالم تجاربه الضيق المهووس . ثم ان هذه المعركة بالذات كانت أشد صخبا وأسرع حركة وأعمق وحشية وأكثر تركيزا من معظم المعارك المعروفة — فقد كانت بحق وحقيق كارثة واحدة متصلة طيلة الزمن الذي استغرقته .

وبدأ الهجوم وديسيه لما يكد يصل الى مجموعة من اشجار النخيل المتناثرة . ولم يكد يوزع جنده على مواقعهم ، الا والمماليك ينقضون عليهم . ولكنه تريث حتى اصبحت مقدمة الخيالة على بعد

خمسين خطوة منهم ، ثم بدأ اطلاق النار . هذا ــ ويحدثنا دينو كيف ان المماليك كانوا يركبون حتى أفواه المدافع ، قبل أن يخروا صرعى او يغيروا مــن اتجاههم . أما اولئك الذيــن استداروا الــى مؤخــرة التشكيلات ، مؤملين ان يفتحوا ثغرة في جانبها فقد تلقفتهم نـــيران « رينيه » الذي كان يسير بفيلقه خلف ديسيه . وعندما رجعوا لاعادة الكرة ذعرت خيولهم وجنحت يمنة ثم يسرة من تشكيلة لاخرى .اما مراد فقد كان يتقدم اولى الكتائب التي بدأت الهجوم ، وهو في مركبتــه ، ولكنه فر هاربا بعد ان جرح جرحا طفيفا بخده . والظاهر انه قد تحقق من انه خسر المعركة ولما تكد تبدأ ، فجمع اشتات رجاله وتقهقر نحـــو الاهرامات ، وتتبعه ديسيه الى ان وصل خلف استحكامات المشاة .وهناك اتخذ له مواقع بالقرب مــن شاطىء النيل .

وفي نفس الوقت كان « دوقوا » يتقدم بفيلـــقه نحو معسكـــر المماليك ، وبونابارت في احدى تشكيــلاته . واثناء تقدمهم اجلـــوا هجوما قام به فرسان الاعداء ، وماكادوا يفـــرغون منه الا وانكشف الطريق امامهم ، ولما رأوه خاليا انقضوا على مدفعية المماليك التي لــم تشترك في القتال حتى الآن . وحتى في هذه اللحظة اليائسة لم تتمكن مــن القيام بمجهود يذكر ، ولم تطلق قذائفها غير مرة واحدة ، وقــبل ان تعبأ للمرة الثانية ، كان الفرنسيون فوق رؤوسهم . فاشتبكوا معــهم في معركة بالايدي بين الخنادق والمتاريس واكداس المهمــات ، وحاول مراد ان يأتي ، مــن الخلف لنصرة مشاته ولكنه وجد ديسيه معترضا طريقــه بقواته . وبهذا اصبح جيش المماليك وجميع مــن معه مـــن الآلاف المؤلفة مــن الاتباع محاطا احاطة تامة . « ومنذ هذه اللحظة » كما قال دينو « لم يعد ما يجري معركة حربية بل مجزرة بشرية » .

وبينما كان ابراهيــم يترقب الاحداث بالضفة الغربية على رأس جيشه الاحتياطي ، ومــن حوله جمــوع غفيرة مــن السكان ، اذا به

يروّع بالنار تشتعل في امبابة ، ثم يرى من خلال العاصفة التي اثارتها الرياح الشمالية ـ آلاف الاشباح ، من الفرسان والمشاة يتسابقون نحو النيل . ولم تكن هنالك قوارب معدة لنقلهم ، ولكنهم فيما يبدو ـ قد فضلوا الموت غرقا من أن يموتوا برصاص الفرنسيين ، فاخذوا يلقون بانفسهم في تياره الجارف في غير مبالاة ولم يشذ عن ذلك حتى الفرسان الذين كانوا يقفزون بخيلهم في عبابه . وسرعان ما جرفهم التيار في غير هوادة ... وكان في ذلك عامل ـ فيما بعد ـ لادخال الطمأنينة في قلوب البحرية الفرنسية ، الذين كانوا يجاهدون في اسطولهم بعيدا عن مواقع المعركة . فقد ظلوا يعملون بجهد طيلة يومهم ضد التيار ، مؤملين ان يشتركوا في القتال ، الا انهم كانوا على بعد عدة اميال عندما شن المماليك هجومهم الاول ، فسمعوا وهم على ذلك البعد ، قصف المدفعية الهادر ، ثم اخذ الهدير يتناقص ـ مما يدل على ان العدو في تقهقر ـ وعندما هدأت الريح علت ضجة المعركة اكثر فأكثر ، فبدا لهم أنها أخذت تقترب منهم ، وكادوا يجزمون بأن بونابارت هو المتقهقر . وبينما هم ينصتون في لهفة وفزع الى طلق النار المتزايد ، اذا بجثث الأعداء تظهر فجأة طافية على سطح الماء ، منجرفة نحوهم مع التيار ، مثنى وثلاث في بادىء الامر ، ثم بالعشرات ـ وكان منظر جثث المماليك في ملابسهم الزاهية اشبه شيء بالزهور الاستوائية البالغة الاحجام ـ هنا تأكد البحارة الفرنسيون انهم قد كسبوا المعركة ، وان مصيرها قد تقرر فيما لا يربو عن الساعة بكثير .

وفي ميدان المعركة وحول المعسكر بامبابة ، وجد الفرنسيون انهم وصلوا اخيرا الى ارض الخيرات الموعودة . فالمماليك قد خرجوا للقتال وهم يحملون ثرواتهم معهم . فالبعض كانوا يخبئون في اخراجهم ما بين الثلاثمائة والاربعمائة دينارا من الذهب . اما امتعتهم ومهامهم ـ كالسيوف والخناجر المطعمة والمآزر الموشاة بالاحجار الكريمة ـ لقد

كانت كنوزا طائلة بالنسبة لرجال لا يزيد دخل الفرد منهم على بضعة دراهم في اليوم . ولم تكن الغنائم قليلة ، لان من ماتوا او غرقوا من المماليك وأتباعهم ، لا يقلون عن الثلاثة أو الأربعة آلاف رجلا ، وقليل من الفرنسيين هم الذين لم ينالوا نصيبا من الغنيمة . أما الفرنسيون فلم تتعد خسائرهم المائتي رجل ، بينما غنموا العشرين مدفعا التي كانت بالمعسكر كما هي ، مضافا اليها ثمانمائة رأسا من الجمال ودواب الحمل الاخرى وكميات ضخمة من المؤن وصناديق كثيرة من الفضة ، وثروات اخرى طائلة . ومما يدل على مبلغ وحشية المماليك وشجاعتهم ، ان الاسرى منهم لم يزيدوا عن الالف رجل .

انتهت المعركة والوقت لا يزال نهارا ، فلم يضع مراد الا قليلا من الزمن ، وقف اثناءه عند ضيعته بالقرب من الاهرامات ، ثم توجه ومعه نحو الفي رجل ممن تبقى من فرسانه ، نحو بني سويف عن طريق الصحراء . ولكنه قبل أن يغادر المدينة قام بعمل واحد أخير ، ألا وهو انه امر باشعال النار في ستين قاربا كانت تقف بالقرب من الروضة وهي محملة بممتلكات المماليك الشخصية . فقد حاول اولا ان يجد لها الرجال والبحارة الضروريين للاقلاع بها جنوبا ، ولما عجز عن ذلك ، أمر بحرقها . وعندما كان نابوليون يقترب من النيل رأى منظرا بالغا حد الروعة ـ رأى اهرام خوفو العظيم وهو يتلألأ في ضوء اللهب وبعيدا في الجانب الآخر للنيل كانت ظلال القباب والمآذن تتراقص في الوهج .

وانتقل بونابارت بحاشيته لمنزل مراد ، وهناك ـ في هدوء الظافر ونشوة المنتصر ـ اخذ يتفقد منزل مراد حجرة فحجرة ، مبديا دهشته واعجابه لما رأى من سرر مرفوعة وزرابي مبثوثة ومن سجف الدمقس وستائر الحرير الموشاة بالذهب ، وفي حديقة القصر اقبل ضباطه على قطوف العنب الدانية يلتهمونها في شراهة ونهم .

وفي حوالي الساعة التاسعة مساء تلألأ وهج أقوى مــن السابــق وارتفع الى عنان السماء ، ولكنه كان في هذه المرة مــن القاهرة نفسها . فابراهيم لم ينتظــر حتى توجه نحوه المدافع الفرنسيــة عبر النيل ، بل انسحب مباشرة نحــو المدينة ومعه حرسه الخاص ، وهناك اخــــذوا يجمعون نساءهم وما خف حمــله من ممتلكاتهم ، ثم خرجوا من المدينة متجهين نحو الشرق . وعلى اثرهم اخذ الناس يتقاطرون طيلة الليل مــن ابواب المدينة ـ الرجال بامتعتهم على رؤوسهم والنساء باطفالهــن على الأكتاف ـ ويخبرنا عبد الرحمــن الجبرتي ـ (وهو ابن لأحد الأئمة) ان الحصان قد بيــع بثروة طائلة . هذا ـ ولم يبق بالمدينة احد الا من عجز عن الهرب ، فالاعتقاد الذي كان سائدا هو ان الفرنسيين سيقومون بمجزرة شاملة بمجرد ان يدخلوا القاهرة . الا ان مصير هؤلاء الهاربين لم يكــن احســن مــن مصير المماليك الذين القوا بانفسهم في النيل ابان المعركة ، فقد اغار عليــهم البدو وهم على بعد بضعة اميال مــــن القاهرة ، وجردوهم من جميع ما يملكون . ولم ينج من هذا المصير غير ابراهيــم ورجاله المسلحون .

ثم عمت الفوضى وسيطر الغوغاء على القاهرة ، واخذوا يقتحمون منازل البكوات واحدا بعد واحد ويجردونها من كل ما يمكن حمله ، ولم يشذ مــن ذلك حتى منزلي مراد وابراهيم . وكانوا احيانا يشعلون النار في المنازل الخالية ـ ونور هذه الحرائق هو ما رآه الفرنسيــون اخيرا ، مــن وراء النيل .

ويضيف عبد الرحمن الجبرتي قائلا : « كانت أشأم ليلة في تاريخ القاهرة » [1] اما بالنسبة للفرنسيين فقد كان هذا شيئا رائعا ، وجزاء لا

---

(١) هذه ترجمة تكاد تكون حرفية لما جاء في النص الانجليزي . اما مــا قاله الجبرتي في تاريخه فهو «وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة، جرى فيها ما لا يتفق مثله في مصر ، ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريــخ المتقدميــن . »

يخطر على بال ، لما لاقوه مـن ضنى ومشقة في الثلاثة اسابيع الماضية ...
وجلس بونابارت بعد ان تحقق له كل ما وعده لجنوده ـ جلس في زهو وخيـلاء في قصر مراد ، واخذ يحرر رسائله للحكومة الادارية بباريس .
وكان مـن رأيه ـ كمـا جاء في احدى هذه الرسائل ـ ان النصر في هذا اليـوم يعزى لما تحلـى به رجاله مـن نظام وصبر ورباطة جأش ، مكنتهم مـن ان يتريثوا حتى اصبح المماليـك على قيـد خمسيـن خطوة مـن صفوفهم ، قبل أن يطلقوا النار . والآن يمكننا أن نتصوره وهو مستلق على احد اسرة مراد ، لينعم بنوم هانيء وهو لا يـزال في لبس الميدان ، فلم تذق عيناه طعم الكرى لأكثـر من عشريـن ساعة ـ يا لعظمة الشباب ـ !..

* * *

الفصل السابع

الاحتلال

« ما هذه البلاد الا لوحاً تعاقبت عليه التعاليم ، فسطر الإنجيل فوق تعاليم هيرودس ، وسطر القرآن فوق الإنجيل » .

الليدي دف جوردون

رسائل من مصر

لقد اكتسب بونابارت بعد الحرب الايطالية ، خبرة كافية في تصريف شئون المدن التي يحتلها حديثا ، ولا شك أن ما قام به الآن من اجراءات في مصر ، هو من الاشياء المألوفة للجنود الذين اشتركوا في الحرب العالمية الاخيرة . فاول ما فعله ، ان استدعى الزعماء ، الذين كانوا في حالة ذعر وقلق ، وطمأنهم على انه لن تتخذ اية اجراءات انتقامية اذا ما اوقفت كل مقاومة ، وفتحت المتاجر ، واعيد استتباب القانون والنظام واعدت الثكنات اللازمة لجيش الاحتلال . ثم عين احد ضباطه كحاكم عسكري للمدينة ، وامر بان توضع المناشير على حوائط الدور . واخيرا دخل الجيش الفاتح المدينة ، في تشكيلاته المعروفة ، واخذ السكان يرقبونه من نوافذ مساكنهم في صمت وامعان محاولين في يأس ان يتفهموا ما سيئول اليه مصيرهم .

وكل جيش فاتح لا يخلو من الغطرسة ، ورغم انها كانت مكبوتة ومخفية في هذا الوقت ، الا انها كانت موجودة . والجنود عادة يحتقرون الضعيف ، ويحتقرون الاهالي برؤوسهم المطأطأة ووجوههم المكفهرة ومنازلهم القذرة . وعندما ينادي صغار الضباط في جنودهم « ارضا سلاح » فانهم يخفون وراء المظهر الرسمي شعورا بالاطمئنان الى قوتهم . غير ان مصير هذه الظواهر يكون عادة للزوال ؛ وذلك عندما يشعر الأهالي بالثقة المتزايدة ، وعندما يشعر الجند بأنهم في حاجة الى مزيد من الروابط الانسانية ، وخصوصا مع النساء . نعم ستزول كل هذه المظاهر بمرور الزمن ، وعندها سيكون في مقدور الجند أن يشتروا طعامهم من الأسواق ، وستصبح الوجوه الغريبة والعادات الغريبة ، وجوها وعادات مألوفة . وكلما نفض الجند عنهم مظاهر الغطرسة والتزمت · وكلما عرف الأهالي كيف يتعاملون مع حكامهم الجدد وكلما عرفوا كيف يستغلونهم لمآربهم الشخصية ، وبمرور الزمن ربما عرفوا ايضا كيف يغشونهم وكيف يخدعونهم . أما في الوقت الحاضر فلا يوجد غير الشك والقلق والتطلع الى ما يكشفه المستقبل . فالثقة والاعتداد بالنفس في جهة ، والخوف والقلق في جهة اخرى . واخيرا عندما يدخل القائد العام المدينة في مركبته ، سوف يبدو في نظر الجميع ، جنود ومدنيين على السواء ، رجلا عظيما جدا ، بالغا حدود العظمة ، كرمز للسلطة المطلقة ، في يده وحده تقرير مصير حياتهم جميعا .

والاجراءات التي كانت على وشك ان تطبق في القاهرة ، كانت في الواقع من الأهمية بمكان كبير ، ليس فقط لأن الفرنسيين هم أكثر شعوب اوروبا موهبة أو لأنهم المنتصرون ، ولا لأن الشعب المصري شعب منحرف ، طالت آلامه أو لأنه كان الجانب المنهزم ولا لأن الهزيمة كانت سريعة ومذهلة تدعو الى العجب . ليس هذا او ذلك ، بل

لان هذه هي المرة الاولى التي يلتقي فيها الغرب بالشرق في مصر وذلك منذ رحول الحاميات الرومانية منذ الف مـن السنين .

وبدأت المفاوضات في يوم الاحد الثاني والعشريـن مـن شهـر يوليـو . ففي ذلك اليـوم وضع بونابارت فرقة مـن جنوده بجزيرة الروضة التي تفصلها قناة صغيرة عـن القاهرة ، ثم ارسل للمشايـخ والائمة طالبا منهم ان يحضروا لمقابلته بالجيزة ــ ولم يكـن جمـيع العلماء قد غادروا القاهرة ــ فاختاروا شخصين كمندوبين عنهم ، علـم بونابارت منهمـا ان ابراهيم قد غادر المدينة ومعه ابو بكير باشا مندوب السلطان . وهنا رأى أن لا بد من اختيار مـن يحل مكانهما ، فأعـاد المبعوثين الى القاهرة حاملين كل تأكيـد باحلال الامن والسلام ، واشار عليهمـا بان يعودا ومعهما مـن تبقى مـن قادة الرأي بالمدينة . وفي اليوم التالي ــ الثالث والعشريـن مـن يوليـو ــ حضر وفـد مـن المشايخ ، وبعد ان عقدوا اجتماعا لعدة ساعات ، تقدمـوا لبونابارت بفروض الولاء والطاعة .ثم عين الفريق « دوبوي » حاكمـا على القاهرة فتبع هذا المشايخ الى المدينة حيـث احتلت قواته مينـاء بولاق وقلب القاهرة والقلعة ، بينمـا اتخذ هو مـن منزل ابراهيم ، الذي كان في مواجهة النيل ، مقرا لرئاسته .

واخيرا ، بعد ان تمت الاستعدادات مـن جميع أوجهها ، دخـل بونابارت القاهرة على قرع الطبول واصوات النفير ، فخرج السكان يتفرسونه ، وهو يخترق طرقات المدينة على صهوة جواده. وكان قد أعد له قصر بالغ الأبهة ، بني حديثا لألفي بك أحد اثرياء المماليك الهاربين. وكان قصرا فخما يتوسط المدينة ويطل على ميدان الأزبكية (في نفس المكان الذي شيد به فندق شبارد فيما بعد) وله حديقة رحبة تمتد الى ضواحي القاهرة . وهنا عاش القائد الاعلى (او السلطان الكبير كما كان يلقبه المصريون) في ابهة وعظمة . وكان سائق مركبته « قيصر » يثـير

العجب والدهشة كلما ظهـر بمركبته ذات الست جياد ، في احد شوارع القاهرة الضيقة . هذا ــ وقد أعدت منازل اخرى عديدة للحاشية ولرجال العلم الذيـن تألف منهم فيمـا بعد « معهد مصر العلمي الحديث » .

وبعد ان أفاقوا مـن ذهول المعركة وأخذ الفرنسيون والمصريون يراقبون بعضهم البعض . وشعر المصريون أول الأمر بشيء من الأرتياح، وبأنهم قد انقذوا مـن محنة عظيمة ، رغم ان الفرنسيين كانت لهـم اتجاهاتهم الجنونية ــ كالامر الذي صدر بارغام المواطنين على وضـع شارة الثورة بعمائمهم ــ الا أنهم كانوا كرماء ، لدرجـة السذاجـة احيانا ، اذ كانوا يدفعون اثمانا باهظة لما يبتاعونه ، مما اغرى الخبازين ــ وهم في عجب لهذا التغرير ــ ان يخلطوا الدقيق بالتراب ، ويصغروا من احجام الرغيف . واخيرا عادت الاسواق والمقاهي الى حالتها الاولى ، واخذ الكثيرون ممـن هاجروا مـن المدينة في العودة اليها مرة اخرى .

ومـن الطبيعي ان تحدث بعض الفظائع ــ فرغم اوامر بونابارت ، اشترك بعض الجنود في السلب والنهب الذي كان مستمرا حتى الآنــ الا ان المساجد قد وجدت منهم كل احترام ، كمـا ان اصحاب المنازل كان في امكانهم الحصول على بطاقة رسمية من مكتب المدير ، تثبّت علـى الابـواب فتعطيها الحماية الكافية مـن الرعاع ــ في اغلب الاحيان ــ .... وفي الايام القليلة الاولى اخـذ الاهالـي يبلغون عـن المماليـك المختفين ، فيقبض عليهم واحيانا يساقون الى المشانق . غير ان نساءهم وجدن حمـاية مـن الفرنسيين ، فكانوا يكتفون منهن بدفع الفدية ــ التي كانت باهظـة جدا في حالة زوجة مراد « فاطمة » ، اذ فرض عليها مبلـغ ٧٢٠ الف فرنـك .

وحاول بونابارت جهده في تلك الايام ، ان يكسب ثقة رعـايـاه الجدد ، فكوّن مجلسا من الشيوخ المصريين ليحل محل مجلس المماليك، وبذل مجهودا صادقا لتشجيعهم على ادارة شئون الحكم . وامام هـذا

بونابرت في مصر

المجلس كان ان ظهر بونابارت في الزي المصري ـ بوجهه الشاحب تحت عمامة ضخمة بيضاء تثير الدهشة والعجب ـ وألقى خطابا كله هرطقة ، عـن المساواة والاخاء بين الناس . وقيل انه ذكر في ذلك الخطاب العبارة التالية : « انا مسيحي عندما اكون في فرنسا ، أما عندما اكون في مصر فأنا مسلم » . كما قال ايضا : « ان الدين المسيحي وعيد اما الديـــن المحمـــدي فوعد » . وكان يجلس في الولائم متربعا على الارض بـين المشايـخ ويأكل معهم باصابعه . وفي احدى المناسبات وجد الضيوف امام كل منهم نسخة من المصحف الكريم واخرى من كتاب « حقـــوق الانسان » [1] .

ثم عين بعض المصريين كحكام على الاقاليم ، ووضع مع كل حاكم مندوب مـــن الفرنسيـــين لمساعدته . ووضع بونابارت بنفسه تصميما رائعا للزي الرسمي لهؤلاء الموظفين ، من ضمنه قبعة عليها ريش ازرق . ثم فرضت الضرائب على اسس كانت تعتبر عادلة ومناسبة .

وفي المحاكم ودور الحكومة منعت الرشـــوة ، واوقف الفساد ، اللذان كان يقوم عليهما حكم المماليك .ثم وضع مشروع للاشغال العامة، ففتحت القنوات وازيلت الاوساخ من الطرقات ، واقيم جسر من القوارب على النيل . ثم قام المهندسون بترميم دولاب الميـــاه في الصهريج الكبير المثمـــن الاضلاع الذي كان يمد القلعة بالمياه. وعندما جاءت الأخبار بأن قافلة للحجاج ، في طريقها الى مكه ، قد تعرضت لمناوشات البدو خارج القاهرة ، ارسلت قوة من الجيش لنجدتها ـ وبعبارة اخرى فقد كانـــت

---

(١) كان توماس بين «Thomas Paine» المؤلف الشهير لكتاب حقـــوق الانسان ، يعيش في منفاه بفرنسا في هذا الوقت ، فبعد ان جردته انجلترا مـــن حقوقه المدنية ، واعتبرته خارجا على القانون لمؤلفاته الثورية ، احتضنتـــه فرنسا ومجدت اعمـــاله .

حاشية المؤلف

هذه هي سيـاسة التهدئة . اما ما سيحققه الفرنسيون مـن انجازات فسوف لا يكون اقل مـن بعث جديد لمصر .

وهذا هو المجال الذي سيلعب فيه رجال الفكـر دورهـم ـ وفي الاجتماع الافتتاحي « للمجمع العلمي المصري الحديث » قبل بونابارت ان يشغل منصب نائب الرئيس تحت رئاسة « مونج » وانتخب ايضـا ليقوم بادارة قسم الرياضيات ، بينما انتخب « بيرتولي » لادارة قسـم الطبيعيـات ، « وكافريللي » للاقتصاد وبارسيفال جراند ميسـون «Parseval-Grand Maison» للآداب والفنون . ولو طبق برنامج هذا المجمع العلمي اليـوم في مجلس الشئون الاقتصادية والاجتماعية التابع لهيئة الأمم المتحدة (المسمى باليونسكو Unesco) لأعلا مـن شأن هـذا المجلس ومن شأن جميع المنظمـات التابعة لهذه الهيئة (الامم المتحدة). ففي مجال الفنون كان عليهم ان يدرسوا الآثار وعادات الشعب المصري ، وان يكتبوا تاريخ مصر القديمة ، وان يضعـوا قاموسا « فرنسيا ـ مصريا » ، وان ينشروا مجلتين باللغة الفرنسية . وفي ميدان الهندسة ، كان عليهم ان يضعوا تصميما لشق قناة في برزخ السويس ، وآخـر لتخزين الميـاه العذبة باقامة سلسلة من القناطر على النيل . وان يدرسوا طبيعة الفيضان واسبابه . وفي مجال الزراعة كان عليهـم ان يقومـوا بالتجارب اللازمة لادخال محاصيل جديدة . وان يجروا في مجال الطب ، ابحاثا في الرمد ، وان يعيدوا تنظيم مرافق الصحة العامة ، والمستشفيات. كما كان عليهم ، في مجال الاقتصاد ، ان يضعوا نظاما جديدا للموازين والمكاييل . وطلب من مونج وآخرين غيره ان يكرسوا وقتهم لدراسـة الاسرار المجهولة كالسراب وفرس البحر والتمساح وظاهرة الشهب التي تكثر في سمـاء مصر المضيئة . ثم كانت امامهم عدة مشاريع اخـرى ، أحدها لاجراء احصاء للسكان ووضع خريطة دقيقة للقطر، وآخر لدراسة طبقات الارض ، وثالث لدراسة التاريخ الطبيعي . وبمعنى آخر كان عليهم

ان يميطوا اللثام عن مصر حتى يعرفها العالم وتعرف هي نفسها ــ فسوف يكون ذلك اول عمل من نوعه يحدث في مصر منذ ان عرف التاريخ .

واتضح ان المصريين بعد ان افاقوا من صدمة الغزو الاولى ، لم يقبلوا هذه « الألاعيب » ولم يقروها . اما بونابارت وعلماؤه فقد كانوا مدفوعين بمبادىء الثورة القائلة : ــ ان جميع الناس يتعشقون الحرية ويتوقون لاصلاح احوالهم . ولكن هذه المبادىء كما رأينا ، لم تكن ضرورية في بلد لم يذق طعم الحرية ولا طعم الاصلاح الا فيما ندر . وكان واضحا ان المشايخ والائمة كانوا عازفين عن تحمل مسئولية الحكم ، بل كانوا منها خائفين . لقد كانت لهم طرقهم الملتوية في الحياة وهم تحت نير المماليك . وما يقدمه لهم الفرنسيون الآن ليس من الحرية في شيء ، بل هو نوع آخر من العبودية ، اسوأ مما عرفوه من قبل ، لانه دخيل وغريب .. وقد كان المماليك يتهاونون معهم في جمع الضرائب، اما الفرنسيون فقد ابدوا شيئا من الشدة ، واستخدموا الاقباط واليونانيين لتحصيل آخر قرش منها ، ولم يكن من السهل الوصول الى تسوية مناسبة مع هؤلاء عن طريق الرشوة . ثم دللوا على ان احصاء السكان سيزيد من امعان الناس في اخفاء الحقائق . وابتدأوا يتشككون في كل شيء ــ فكل ما وضعه هؤلاء الغزاة كان ارهاقا لهم ، فمن الارهاق ان لا يلقوا بالاوساخ في قارعة الطريق ، ومن الارهاق ان لا يستطيع الشخص رشوة الشهود ، كما انه من الارهاق والازعاج ان يجبروا على العلاج بواسطة الاطباء ، بينما هنالك الرقي والعزائم وهي تفي بالغرض . وكانوا يعتقدون ان احوالهم في الماضي كانت على ما يرام ، فهم ليسوا في حاجة الى قنوات ، وليسوا في حاجة الى مكاييل او موازين ، ولا الى مدارس حديثة ، وفوق كل هذا فقد كانوا يكرهون تدخل المسيحيين في شئونهم الخاصة . كما انهم لم يصدقوا بونابارت في دعواه بانه يحترم النبي العربي ، ولم يقع في

نفوسهم ما كان يعمد اليه احيانا من ارتداء العمامة والقفطان ، او ما كان يأمر به من اقامة الاحتفالات العظيمة بمناسبة المولد النبوي وكل إشارة تبدو من جنوده كانت بمثابة اهانة لشعائرهم الدينية .

وكتب غربال في هذا الصدد ما معناه : ـ « ان ميل الفرنسيين للسكر والعربدة، واباحيتهم مع النساء ، كان عارا مشينا في مجتمع عرف بالمحافظة وبتدقيقه وحساسيته في هذه المسائل . لقد عانى المصريون من كل فظائع الاحتلال ، فما نزل الفرنسيون في قرية الا ووجد الفلاح المسكين ان كل ما يملكه من اواني ومحاريث وابواب وسقوف ، وبالاختصار كل ما يمكن حرقه ، قد اصبح وقودا لنيران المطابخ . كما كان يجد أن أوانيه الفخارية قد كسرت ، وغلته قد أكلت ، ودواجنه قد شويت والتهمت ، واسوأ من كل هذا ان عرضه في بناته قد انتهك».

وحتى الكتاب المعاصرون من المصريين قد نددوا بنفس الشيء ، فذكر احدهم ما معناه : ـ « لقد اصبحت القاهرة باريس ثانية ، يخرج فيها النساء مع الفرنسيين دون حياء او خجل ، كما اصبحت المسكرات تباع علنا على قارعة الطريق ، وهكذا ابيح ما حرمه الله بارىء السموات » .

ومما لا شك فيه ابدا أن المماليك كانوا ، عندما تتأزم الامور ، يعاملون المصريين بقسوة بالغة ، اشد واعنف من قسوة الفرنسيين ، ولكن لم يكن موضوع القسوة هو بيت القصيد ، فالمهم ان المماليك كانوا بمثابة « الجن الذي عرفوه » اما بونابارت فلم يعرفوه بعد . لقد اساءوا فهم اخلاصه ـ ولا شك في ان الطريقة التي عالج بها نظام الحكم في بادىء الامر كانت مخلصة وحكيمة في نفس الوقت ـ فالمصريون قد جبلوا على ان ينظروا الى كل عمل يأتي بدافع الانسانية ونكران الذات ، بعين الريبة ويعتبرونه شيئا من الرياء والنفاق . وكانوا في نفس الوقت ـ كالاطفال المدللين ـ منحوا حرية لا يحلمون بها ، فاصبحوا يطالبون

بمزيد مـــن الحرية .

والفرنسيـــون مـــن جانبهم لم يكونوا اكثر ارتياحا للموقف بعد ان ذهبت نشوة النصر الاولى . فعندما غزوا ايطاليـــا مـــع بونابارت ، كانوا يتنقلون بيـــن اماكن مألوفة لديهم ، وبين اناس في نفس مستوى اخلاقهم ، اما هنا فقد كانوا محاطين بمنازل مظلمة مغلقة ، ونساء لا يبدين من اجسادهن غير عيونهن واخمص ايديهن ، وبقوم دينهم ولغتهم لغـــز مـــن الالغاز ، قوم اعيادهم جلبة وطعامهم خير منه المسغبة . زد على ذلك فلم تصلهم اية رسائل مـــن اهليهم منـــذ ان ابحروا مـــن بلادهم قبل ثلاثة اشهر ، واخذ المرض يدب في اوصال الكثير منهم بمجرد ان زال الكرب الذي كانوا يعاونونه من جراء الحملة ـــ فالحمـــى والعنـــاء لا يفارقانهم ابدا . ثم سرعان ما سرى فيهم ما يسري في جميـــع جيوش الاحتلال مـــن منغصات ـــ سأم وملل وضيق ـــ فأسرع بونابارت بوضع قائمة بما يحتاج اليـــه مـــن فرنسا ، طالبا ارسالها على جناح السرعة ، فطلب فيما طلب : فرقة مـــن الممثلين الهزليين ـــ فرقة من راقصات الباليه مسرح للاراجوز ـــ مائة عاهرة ـــ مائتا الف رطل من الكنياك ـــ مليون رطل مـــن النبيذ . وفي نفس الوقت اقام مدينة للملاهي من نوع مـــا باحد مياديـــن المدينة .

ورغم العمل الجبار الذي كان يشغل جميع اوقات بونابـــارت ، فيبدو انه اخذ يشعر بحنين متزايد لوطنه وبحاجة ملحة للترفيه ، وسرعان ما قامت علاقته المشهورة مع فتاة تدعى « لا بالليلوت » «La-Ballilote». وتتلخص القصة فيما يلي : عند بداية الحمـــلة وقبل مغادرتها لفرنسا ، كانت قد صدرت الاوامر بمنع النساء من مرافقتها ، الا ان نحوا مـــن ثلاثمائة ضابط تحايلوا على هذا الامر وتمكنوا من احضار زوجاتهم او صديقاتهم ، متخفيات في الزي العسكري . وكانت هذه الشابة الشقراء التي تدعى « مارغريت بولين بلليل » قد تزوجهـــا الملازم « فوري »

بونابرت في أحد الاحتفالات بالقاهرة .

«Foures» بعد ان عثر عليها بأحد متاجر القبعات بمدينة « كاراسون » ثم احضرها معه الى مصر متخفية في ملابس بحاري . وكان من سوء طالعه ان رآها بونابارت اثناء وجودها بنادي الضباط . وما اعقب ذلك من قصة (مما يمكن تخيله بسهولة) كانت له جوانبه الساخرة ، فقد ارسل بونابارت زوجها ببعض الرسائل الرسمية الى باريس . ويقال انه دعاها بعد ذلك مباشرة لحفل عشاء بمنزله . وهنا اختار اللحظة المناسبة وصب على ملابسها كوبا من الماء ، وهكذا اوجد لنفسه العذر ليقودها لمخدعه ـ فغابا لاكثر من ساعة . وفي اليوم التالي استقرت بولين بقصر الفي بك كضيفة على بونابارت . والظاهر انها قامت بهذا الدور (دور ضيفة القائد الاعلى) في شيء من الزهو والتباهي ، لانها كثيرا ما كانت تظهر في زي قائد في الجيش ، وتقابل بالتحية العسكرية اينما ذهبت كمحظية للقائد العام .

وكانت تبدو في منتهى المرح في الحفلات التي يقيمها الضباط ، وفي الرحلات الخلوية ، فعلق عليها احد النقاد الفرنسيين بقوله : « لم تكن قبيحة في منظرها ، ولم تكن كليوبترا في حسنها وجمالها ، ولكنها كانت مرحة » . وكانت هذه هي اول علاقة غرامية لبونابارت منذ ان تزوج بجوزفين ـ هذا ، وكانت بولين تظهر دائما وعلى عنقها قلادة تحمل صورة حاميها .

اما زوجها « فوريه » فقد وقع في قبضة الانجليز واعتقلوه وهو على ظهر السفينة الفرنسية « لاشاسير » «Le-Chasseur».
وعندما فض قبطان السفينة الانجليزية « ليون » (السفينة التي اعتقلته) عندما فض غلاف ما كان يحمله من رسائل ، اتضح انها منشورات قديمة واوراق روتينية عديمة الاهمية . فاشتبه في انه كان يحمل اسرارا ليبلغها للمسؤولين في باريس شفويا ، فأعاده الى الساحل بالقرب من الاسكندرية بعد ان اطلعه على الاوراق التي كان يحملها . فما كان

مـن « فوريه » الا ان توجه للقاهرة مباشرة ، وهناك وجد مسكنـه خاليا كما كان يتوقع . فتوجه الى منزل بونابارت ، وتمكن مـن اقتحام غرفة زوجته ، الا أنها رفضت ان تخرج معه . وعندما اشتد الجدل بينهما همّ بضربها ، لولا ان تدخل بعض افراد حاشية بونابارت وارغموه على الخروج ... وحصل الطلاق بعد ذلـك ... وبمـرور الزمـن تلاشت « لابليلوت » ــ وهذا هو تحريف لاسمها الحقيقـي «بلليل» Belliele او اسم الدلع كما نقول ــ من حياة بونابارت وتلاشت من التاريـخ ايضا كما حصل لمعظم من رافقوا هذه الحملة .

وكان قد لحق بالقائد الى مصر كثير من الرجال المـدنيين ومـن النساء أيضا . ومعظـم هؤلاء المدنيين كانوا مـن التجار والمغامريـن . وصفهم « دينو » بانهم مترددون حائرون ، عديمو النفـع قليلـو الاستقرار ــ الذين كانوا يؤملون في ابتزاز الشرق وهم تحت حمايـة الجيش (ذلك الشرق ذي الشهرة الخرافية) بأن يشتروا منه الحبوب والخيل والتوابل والذهب والمجوهرات ليبيعوهـا بارباح خيالية عنـد عودتهم لفرنسا . الا ان املهم قد خاب ولم يجدوا شيئا من التجـارة حتى الآن ، فقد هرب المماليك بثرواتهـم وسلبت ديارهم ، وتعطلـت التجارة من جراء الحـرب . ثم كان هناك النهمـون ومحبو الدعـارة والمجون الذين حضروا من باريس بحثا عن انواع جـديدة من المتـع بالقاهرة ، الا ان جميع المدن التي تم احتلالها حتى الآن لم يكن بينهـا مدينة مثل « سادوم » او « عامورة » [1] .

---

(1) سـادوم «Sadom» هي مدينة سيدنا لوط التي عرفت بالشـذوذ الجنسي بين الرجال ، وعمورة مدينة كانت قديما بفلسطـين ، اشتهرت بالفجور والدعارة فباءت بغضب من الله فامطرهـا نـارا وكبريتا مع سادوم .

المتـرجم

فها هي معنوياتهم تنهار بعد ان خابت آمالهم ، فمن مكث منهم بالاسكندرية وجد نفسه معزولا عن القاهرة ، ومن تمكن من الوصول الى القاهرة وجد انه غير قادر على العودة للساحل . لقد سد قطاع الطرق من البدو جميع سبل العودة ، ولم يعد في مقدور أحد ان يتحرك دون حراسة . وحتى طريق النيل لم يكن مأمون الجانب ، فالبدو على ضفتيه بالمرصاد ، حتى اذا جنح قارب او سكن الهواء انقضوا عليه . وتحت هذه الظروف تعطل كل اتصال مع القاهرة ، حتى رسائل بونابارت كانت لا تجد طريقها من القاهرة أو اليها ، فمنذ ان ابحر من فرنسا لم تصله كلمة واحدة من حكومتها . ولذلك فقد أخذ عدد المتذمرين يزداد يوما بعد يوم ، ولم يعد لهم من حديث الا عن فرنسا وطريقة العودة اليها .

ولكن لم يكن في مقدور أحد أن يعود الى فرنسا الآن ، ولا بعد زمن طويل . وسرعان ما تيقنوا ان الحملة التي بدت متألقة في البداية ، لم تظهر مرارتها الا الآن فقط ، وها هي على وشك ان تأخذ طورا جديدا . فبدل المعارك القصيرة التي كان النصر فيها دائما حليفهم ، ها هم يواجهون الآن حرب العصابات ، التي — على ما يبدو — ستكون طويلة وشاقة . فرأى بونابارت ان يرسل الى مراد ، الذي كان قد وصل الى واحة الفيوم يعرض عليه ان ينصبه واليا على مصر العليا اذا ما سلم ورضخ . الا ان مرادا لم يفعل اكثر من ان يجيب عليه بعرض مضاد ، قائلا انه مستعد ان يدفع له فدية اذا ما خرجوا من مصر . ولم يكن بونابارت بأسعد حظا مع المماليك الذين توجهوا نحو الشرق ، لانه عندما اقترح على ابو بكير باشا ان يعود ويستلم منصبه السابق كوالي من قبل السلطان على مصر ، لم يعبأ بكير بالرد عليه ، فالباشا كان قد توغل في طريقه الى سوريا ومعه ابراهيم وبصحبة كل منهما كميات كبيرة من الامتعة تسير في اثرهم ، ولم يكن لهما اي تفكير في العودة

مـرة أخـرى .

ومن المؤكد ان بونابارت كان ينوي الفتك بابراهيم على الاقل ، فقد لحق بنفسه بالتجريدة التي سبق ان ارسلها لتتعقبه ، ورغم انهم اشتبكوا مع حرس ابراهيم في مناوشات ، ثم في قتال بالايدي عند الصالحية — التي تقع على الطريق الشرقي للدلتا — الا أن ابراهيم قد نجا ومعه بكير واستمرا في طريقهما . ثم مكث بونابارت لمدة يومين بالصالحية ، دبّر اثناءهما شؤون ادارة المنطقة . وفي طريق عودته من هذه الرحلة ، وصلته اول رسالة من الحامية التي تركها بالاسكندرية تحت قيادة كليبر ، وقد قيل أنه قرأ رسالة كليبر هذه برباطة جأش ، ولو ان ما قيل هذا حق ، لكان شيئا يدعو الى الدهشة والعجب ، لان الرسالة كانت تحمل أسوأ ما يمكن من الاخبار — فقد دمّر البريطانيون الاسطول الفرنسي تدميرا كاملا بالاسكندرية — وهكذا عزلت الحملة عن فرنسا .

وكتب دينو عن هذا الموقف يقول : « في صبيحة الحادي والثلاثين من يوليو سنة ١٧٩٨ كان الفرنسيون سادة على مصر وكورفو ومالطة ، وكانت هناك ثلاثون سفينة مقاتلة تربط بين هذه الممتلكات وبين فرنسا ، وفي صبيحة اليوم الاول من أغسطس ، أي بعد « واقعة النيل » (التي لم يسمع بها بونابارت الا بعد مضي احد عشر يوما من هذا التاريخ) اصبح جيش الشرق حبيسا لفتوحاته » . وهكذا بين عشية وضحاها أصبح الفرنسيون مستعمرين مغتربين بعد ان كانوا فاتحين .

ولم تصل تفاصيل هذه الواقعة — التي تركت جرحا عميقا في نفس بونابارت — لم تصل اخبارها للقاهرة الا بعد مضي عدة ايام . واستمر تأثيرها في نفس بونابارت الى ما قبيل وفاته في « سنت هيلانه » حيث كان لا يزال يشرح ، وهو يملي مذكراته ، الدور الذي قام به في هذا الموضوع . وهو يتلخص في ان «بروويه» «Brueys» كان ممتنعا

عن ادخال سفنه للميناء الا بعد وضع خريطة لها . ويقول بونابارت أنه قبل أن يبدأ زحفه نحو القاهرة ترك أوامر واضحة « للاميرال » أنه اذا تعذر عليه دخول الميناء ، يجب ان يفرغ شحنته على احسن وجه ممكن ثم يبحر بالاسطول الى جزيرة خورفو ، لانه سيكون هناك في مأمن من الانجليز . ويمضي بونابارت في مذكراته قائلا : انه اعاد هذه الاوامر فيما بعد ، الا ان بروويه بدل ان ينفذها ظل متلكئا لمدة ثلاثة اسابيع في خليج ابي قير ، رغم أنه لم يكن راغبا في الدخول الى الاسكندرية ، او قادرا على ذلك . وهكذا وجد نلسون فرصته لينقض عليه .

كل هذا الذي قاله بونابارت حق ، ولكن ليس فيه شيء من الانصاف لبروويه ، لان تعليمات بونابارت لم تصله في حينها . كما أنه طيلة المدة التي كان يتقدم فيها الجيش الفرنسي نحو القاهرة ، لم تصل الى بروويه أية أخبار من بونابارت ، وعليه فلم يكن يعلم ماذا كان يجري للجيش الفرنسي ، وقد رأى انه ليس من المستبعد ان تلحق به هزيمة فيضطر للعودة للسفن مرة اخرى ، وتحت هذه الظروف لم يكن في مقدوره ان يتركهم ويبحر الى خورفو . ولهذا السبب ظلت السفن راسية قرب الشاطىء بين جزيرة أبي قير ومصب فرع رشيد ، وكانت منتظمة في قوس يبلغ طوله نحو الميل والربع ، وتبعد كل سفينة عن الاخرى نحو مائتين وخمسين ياردة ، وكانت السفن دائما على أهبة الاستعداد للقتال ، غير انها كانت مكتظة بالغرف التي أعدت للبحارة ، كما أن ثلث رجالها او اكثر كانوا في البر ، والكثيرون منهم كانوا مرضى (وحتى بروويه نفسه كان متوعكا) وفي نفس الوقت كانت روحهم المعنوية سيئة .

اما عن نلسون ، فانه بعد ان ترك الاسكندرية في اواخر يونيو ، جدّ في السير الى صقلية بحثا عن الفرنسيين ، ولم يعلم انهم في مصر الا بعد ان وصل الى « سرقسطه » في التاسع عشر من شهر يوليو . فزوّد



موقعة النيل عند بدايتها ــ البوارج الفرنسية في الوسط

سفنه بالماء والاغذية ثم قفل راجعا للاسكندرية . ووصل على مرأى من الاسطول الفرنسي قبيل غروب اليوم الاول من أغسطس ، وكانت الشمس والنسيم من خلفه ، وكان البحر هادئا . فخطرت له فكرة جريئة بأن يقسم قوته الى جزأين ، يسرع جزء منها ليتخذ مواقعه بين الاسطول الفرنسي والشاطىء ، بينما يشن هجومه بالجزء الآخر من عرض البحر مباشرة . ولم يتردد بعد ذلك لحظة بل نفّذ خطته في الحال .

ان عبارة « معركة النيل » التي أطلقت على هذه الواقعة ما هي الا تسمية خاطئة قصد بها الاثارة ، فالمعركة لم تدر على النيل ، ولا حتى عند مصب النيل ، ولكنها نشبت عند مرسى « أبي قير » حيث كان الاسطول الفرنسي راسيا لعدة اسابيع . الا ان احدا لم يتشكك في هذه التسمية التي اطلقها نلسون ، كما لم يتشكك أحد في صواب خطته وفي نصره المؤزر . فبعد ان وصلت كل سفينة من سفنه على مرمى من سفن الاعداء ، ارخت مراسيها ثم امطرت الفرنسيين نارا جانبية حامية ، أتت من اتجاهين متقابلين ، والفرنسيون على ما هم فيه من قلة في العدد . وفي الساعة الثامنة مساء جرح بروويه وهو في برج المراقبة بسفينة القيادة « تونان » «Tonnant» وفي التاسعة مساء قضى نحبه . ثم اشتبكت السفينة البريطانية « بلليروفن » «Bellerophen» في معركة مع « الشرق التي أقلت بونابارت من فرنسا ، فعطبت الاخيرة وتعطلت . وفي العاشرة مساء حدث انفجار في « الشرق » ثم ساد السكون طويلا تحت ضوء القمر المكتمل والنجوم الزاهية ، الا ان سحبا كثيفة من الدخان كست سطح الماء فحجبت الرؤيا ولم يستطع أحد ان يتبين شيئا — ثم بدأ القصف مرة أخرى .

وأسفر الصبح عن منظر رهيب ومخيف لحطام السفن . فقد كانت تقف تسعة من السفن البريطانية وقد تحطمت سواريها وقتل نحو ٢٨٨ من ملاحيها وجرح ٦١٨ آخرون ، ونلسن نفسه قد أصيب بشظية في

رأسه . اما الفرنسيون فقد ابيدوا تماما ولم يبق من اسطولهم (المكوّن من ١٣ بارجة و ١٢ مدمرة) غير بارجتين ومدمرتين ، اما الباقي فاما غرق او تعطل تعطيلا تاما او وقع غنيمة في يد البريطانيين . وهذه السفن الاربعة التي نجت ، ما كانت لتنجو لولا ان قطعت حبالها من مراسيها ولاذت بالفرار . واستمرت الجثث والحطام من جميع انواعها ينجرف نحو الشاطيء غنيمة للبدو . ولم يحص احد ما خسره الفرنسيون في هذه المعركة ، الا انه من المعروف ان نحوا من ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص ممن نجوا منهم قد انضموا الى جيش بونابارت بمصر .

وبقي نلسون بالقرب من أبي قير لمدة اسبوعين ونصف ، أنزل أثناءها البحارة الذين أسروا في المعركة ، وقام باصلاح السفن التي غنمها استعدادا لارسالها لانجلترا ، ثم ترك البارجة « هود » لتضرب حصارا على المنطقة ، بينما أبحر هو الى نابلي — لقد أنزل ببونابارت ضربة لا يمكن لأي قائد آخر أن يسترد أنفاسه بعدها .

ومع ذلك فقد خدمت هذه الكارثة المروعة الفرنسيين الى حد ما وبطريقة لم تكن في الحسبان — لقد انفصلوا الآن كلية عن فرنسا ولم يعد لهم أي أمل في العودة اليها ، ولذا فقد كرّسوا كل جهودهم في مصر ، ورضوا بحياة المنفى التي فرضت عليهم . الا ان هذا لم يمنع الجند والاتباع من ان يبعثوا برسائل الى أهليهم بفرنسا ، تفيض حزنا وقنوطا ، مؤكدين لهم ان مصر هي أحقر بلاد الله قاطبة وأشدها لهم كراهية وان شعبها على جانب كبير من البذاءة والقذارة ، وارضها ليست الا صحراء قاحلة ، ومدنها بؤرة للامراض القاتلة . وحتى بونابارت كان يستسلم احيانا الى نوبات من اليأس ، ففي كتاب له ارسله فيما بعد لاخيه « جوزيف » ذكر شيئا عن احتمال تفكيره في الهرب فقال :

« من المحتمل ان أعود لفرنسا في ظرف شهرين من الآن ، فأرجو

ان تجد لي منزلا اقضي فيه الشتاء وحيدا ، فقد سئمت البشر واصبحت في حاجة للعزلة . لقد اصبحت العظمة تضنيني والاثارة ترعد اوصالي ، وتلاشى تعطشي للمجد ، وهأنذا اجد نفسي منهوك القوى ولا زلت في التاسعة والعشرين من عمري . لقد صممت أن أعيش بعد هذا في منزل خلوي ولكنها (جوزفين) لن تعيش معي فيه ابدا ، فقد سئمت الحياة وليس ثمة من سبب يجعلني أتعلق بها » . ويتضح من هذا أن أخبار علاقات جوزفين الأخيرة بفرنسا قد وصلته بطريقة ما ، وهو في القاهرة .

وكانت مثل هذه الخطابات ترسل بالسفن الحربية من الاسكندرية، وكثيرا ما كان يعترض طريقها الحصار المضروب من البريطانيين—والذي قد عزز اخيرا بعد معركة النيل بسفن من تركيا وروسيا — هذا ، وكان البريطانيون يعتقدون ان الحملة لن تحتاج لأكثر من عامل الزمن قبل ان تنهار كنتيجة لنكباتها الداخلية . وقد أيدت لهم هذه الخطابات ما ذهبوا اليه ، ولذا فقد رأوا ان ليست هنالك ضرورة لانزال قوات انجليزية بمصر ، فالاتراك الذين اعلنوا الحرب على بونابارت كفيلون بأن ينزلوا به الضربة القاضية دون مساعدة من أحد . وكان من رأي نلسون أن الفرنسيين سيضطرون للتسليم في ظرف ثلاثة اشهر .

ولكن الواقع كان بخلاف ذلك ، فالجيش الفرنسي كان بعيدا جدا عن اليأس ، اذ لم يؤثر عليهم أبدا عدم وصول الامدادات من فرلسا ، فقد وجدوا الغذاء الكافي في مزارع الدلتا الغنية ، وهم الآن ، في اغلب الظن احسن حالا مما كانوا عليه في وطنهم من قبل . وتدريجيا ومع اقتراب شتاء مصر المعتدل — الذي قوبل بالبهجة والترحاب — وشيئا فشيئا اخذوا يتفاءلون ــ لقد وقعت في ايديهم كميات وافرة من المدافع والاسلحة بجميع انواعها ، بالاضافة الى الكثير من دواب الحمل والقوارب النهرية ، كما أقاموا مصنعا للبارود ، اما المهمات الاخرى

والاحذية وما شابهها فيمكن صنعها محليا في مصر . ثم ان خسائر الجيش كانت قليلة جدا ، وقد ظلت القوة الاصلية المكوّنة من ستة وثلاثين ألف رجل — ظلت سليمة كما هي تقريبا رغم ما عانوه من امراض . أضف الى ذلك انهم عززوا قوتهم بالتجنيد المحلي من اليونانيين والاقباط ، الذين استفادوا منهم في مهام الحراسة والترحيلات .

وأخيرا اتضح لبونابارت ان سياسة الترضية لن تخلق من المصريين حلفاء ايجابيين ، او شركاء في الحكم جادين . فالمصريون يمكن حكمهم ويمكن ارهابهم ، ولكن لا يمكن اقناعهم او الاعتماد على اخلاصهم اعتمادا مطلقا . فابتدأ يتخذ خطة اشد حزما مع المشايخ ، وأخذ في ارساء حكمه على قواعد اكثر واقعية . فوجد سكان القاهرة ان عليهم ان يستخرجوا ترخيصا لكل نشاط يقومون به في حياتهم اليومية ، فالبيع والشراء ، وتسجيل المواليد والوفيات والزواج ، وتحويل الملكيات — كلها اشياء تحتاج الى تراخيص ، وهي تراخيص ، عليها رسوم مالية . ثم حرم عليهم الحديث في السياسة ، واصبح الاتصال بالمماليك او المعاملة معهم جريمة يعاقب عليها بالاعدام . وصدر أمر بأن تباع كل البغال للحكومة لاستخدامها في شؤون النقل ، وكل من يوجد في حوزته بغل توقع عليه غرامة قدرها ألف وثلاثمائة فرنك . كما صدر أمر بتحريم دفن الموتى بالقرب من المنازل ، وأصبح لزاما ان تحمل الجنائز وتدفن بمقابر المماليك خارج المدينة ، وبين عويل النساء المحزن أخذ الجنود الفرنسيون ينبشون القبور التي كانت بميدان الازبكية . ثم اقيم محجر صحي لحجز المسافرين عند بولاق ، وكزيادة في الاحتياط ضد الطاعون ، كانت تغسل جميع الخطابات في الخل ، وفي نفس الوقت صدر امر بنظافة جميع المنازل ومحتوياتها في ظرف خمسة عشر يوما .

هذا ، والمنشورات والاوامر كان يطوف بها المنادون في الاسواق والطرقات معلنين عنها الواحد تلو الآخر . واخيرا اصبح الجنود

الفرنسيون ، الذين ظنوا أنهم جاءوا لتحرير البلاد — اصبحوا يخافون من التجوال دون سلاح .

ثم جاء موضوع الاضاءة ، فأثار من السخط ما لا يمكن وصفه ، وكان هذا القانون هو بالضبط نقيض قانون « الاظلام العام » الـذي طبق أثناء الحرب الاخيرة ، فكان على كل صاحب منزل ان يعلق مصباحا امام داره ليلا ، فاذا ما انطفأ المصباح واكتشف ذلك العسس ، ما كان منهم الا ان يسمروا الباب فيظل موصدا حتى تدفع الغرامة ، والمصابيح المصرية كانت بدائية جدا وقابلة للانطفاء باستمرار ، فسرعان ما عمّت المدينة موجة من التذمر والهياج ، وبلغ التذمر درجة أنه أشيـع ان البوليس كان يطفىء الانوار عمدا ليجد ذريعة لجمع الاموال عـن طريق الغرامـات .

فاوقف بونابارت بعض هذه الاجراءات (فسوى موضوع المصابيح بأن أقام اضاءة رسمية بالشوارع ، وفي نفس الوقت اوقف نبش القبور من ميدان الازبكية) . إلاّ أن المصريين ابتدأوا الآن يعرفون حقيقـة الاحتلال الغربي ، فهو ليس الا حكما استبـداديا يفرضـه القانـون العسكري ، فها هي المدينة تستيقظ على طلقة من مدفع في كل صباح .

واستمر القائد الاعلى في ثقته التامة بنفسه، وهو أبعد ما يكون عن التسليم او الاستسلام . فشرع في اعادة تخطيط القاهرة ، وأخذ في شق شوارع جديدة رحبة غرس الاشجار على جانبيهـا على نمـط شوارع باريس ، واقام دارا لصك العملة ، ثم زار السويس راكبا ليضع مشروعه العظيم — لشق قناة السويس — موضع التنفيذ [١] .

---

(١) تركت هذه الفكرة عندما ذكر (خطا) مهندسة « ليبير » في التقرير الذي وضعه ان تنفيذ هذا المشروع شيء مستحيـل لان مستـوى البحر الاحمر اعلى من مستوى البحر الابيض بنحو ثلاثين قدما .

حاشيـة المؤلف

ثم تمكن « كوتنية » خبير المناطيد — من اطلاق منطاد ذي ثلاثة ألوان في سماء القاهرة ، كما وضع نفس هذا العالـم تصميما لبعـض دواليب الهواء ، كانت الاولى من نوعها في مصر ، كما كانت برهانا آخر على روح الابتكار الرائعة التي يتحلى بها الفرنسيون .

الا ان النيل هو الشغل الشاغل لبونابارت ، فقد يستطيع البقاء في الوقت الحاضر دون ان تكون له صلة بفرنسا ، ولكنه لن يستطيع تأمين موقفه في الدلتا طالما كان المماليك مسيطرين على النيل جنوبا . فمـن مصر العليا يستطيعون ان يشنوا هجوما مضادا في أي لحظة ، وقد ظهر جليا فيما بعد ان مرادا كان بصدد انشاء جيش جديد هناك . ومراد هذا حصل ان طرده الاتراك الى الجنوب فيما مضى ، ولكنه عاد منتصرا الى القاهرة مرة اخرى ، وعليه فيجب ان لا يغتر أحد بضعفه الحالي . قد يكون من الصحيح انه لن يستطيع ان يقف وجها لوجه امام الفرنسيين ، الا ان حرب العصابات شيء آخر . فقد اخذ معه نحو الفين من المماليك وخمسة آلاف من خيالة الاعراب الغير مدربين ، ويمكنه ايضا ان يعتمد الى حد ما على مساعدة البدو والقبائل القاطنة على ضفاف النيل ، ففي ذلك قوة كافية لشن غارات مسلحة على الدلتا ، بل ولضرب حصار على القاهرة . وكان مراد في نفس الوقت ، على اتصال دائم بالمتذمرين في كل من القاهرة والاسكندرية ، ومع ابراهيم باشا في سوريا. زد على ذلك ان الاصوات كانت ترتفع مرة كل اسبوع [1] ، منادية بالجهاد واخـراج المشركين ، وكان النداء يزداد قوة يوما بعد يوم . وفي أوائل أغسطس اصبح واضحا ان الفرنسيين لن يستقر لهم قرار في الدلتا ، ما لم يبيدوا مرادا او يبعدوه الى اقاصي الجنوب ، للدرجة التي يصبـح معها بعـد

---

(1) الاشارة الى خطب الائمة بالمساجد في ايام الجمـع وما يعقبها مـن هتافـات .

المترجم

المسافة وحده حائلا كافيا دون أن يشكل أي خطر عليهم . وهكذا نجد ان بونابارت بينما كان في غمرة نشاطه بالقاهرة وهو ينظر الى كل شيء بعين البهجة والسرور ، اذا به فجأة يفكر في اعداد حملة على النيل .

وشاءت الظروف ان ينظر الى هذه المغامرة الجديدة كعمل ثانوي بالنسبة للحملة الفرنسية في مصر ، وكذيل من ذيول العمليات الحربية . وكانت هي في الواقع كذلك اذا ما تحدثنا عنها في الناحية العسكرية البحتة ، لأنه لم يشترك فيها أكثر من الخمسة آلاف جندي في الوقت الذي كان فيه تحت امرة مراد ما بين العشرة والاربعة عشر ألف رجل . ومع ذلك كانت هذه المغامرة كالغصن الذي نما وترعرع واصبح اكثر حيوية من الشجرة الأم ، لما حققته من اعمال عظيمة بالغة منتهى الروعة .

فقد قدر لها ان تكون اول من يفتح الابواب المغلقة امام حضارة مصر القديمة وتاريخ قدماء المصريين ، اللذين عفا عليهما الدهر منذ عهد الرومان . كما كان مقدرا لها ان تمهد الطريق للعالم الحديث ليتوغل تدريجيا نحو منابع النيل ، الى ان أميط اللثام عن سره ونظام تكوينه من نيل ابيض ونيل ازرق .

لربما كان من الاسباب التي من اجلها أن اهمل المؤرخون ذكر هذه الحملة ، ان بونابارت لم يصطحبها بنفسه ، وان جميع القواد العظام تقريبا ، وجميع المؤرخين ومسجلي المذكرات الذين كتبوا فيما بعد عن منجزاتهم في مصر ، قد بقوا جميعا مع القائد الاعلى في القاهرة، ثم ذهبوا معه الى سوريا فيما بعد . وكانت حملة النيل عبارة عن تجريدة داخل تجريدة ، فلم يعلم بها او يهتم بامرها احد في اوروبا ، اذ كانت انجلترا وحلفاؤها مولين كل اهتمامهم نحو بونابارت والبحر الأبيض المتوسط . ولذلك فقد ظل الجيشان الصغيران الغريبان عن بعضهما البعض بعيدين كل البعد عن العالم ، ومحصورين خلف ابواب مغلقة

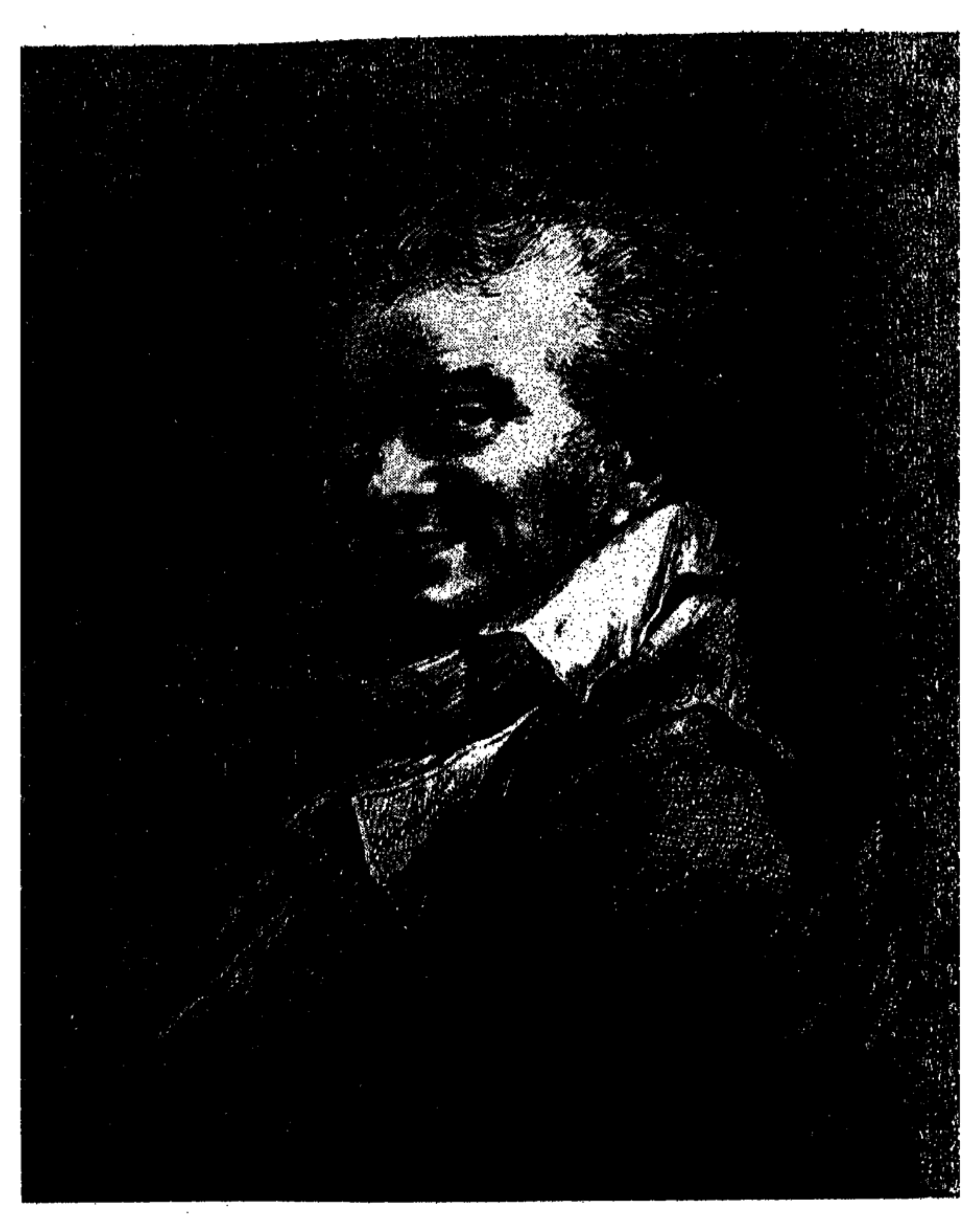
من الغموض والابهام في مضارب النيل العليا ، ما بين الاهرامات ومعبد « بيلك » [1] .

وقد وقع الاختيار على ديسيه لقيادة هذه الحملة ، وديسيه هو الرجل الذي اعترف به الجميع كالشخصية الثانية بعد بونابارت مباشرة في كفاءته في ادارة العمليات الحربية . وكانت الاوامر التي صدرت اليه في غاية البساطة وهي : ان يتعقب مرادا في مصر العليا ويمحوه من الوجود . وكان عليه في البداية ، ان يأخذ معه ثلاثة آلاف من المشاة ونحو مائة مدفع وألف فارس واسطول صغير من القوارب ، ثم قافلة من الجمال لحمل المعدات ، واختير الجنرال بايار ، الذي رافق ديسيه من سفنتيا فكسيا ، ليحتل المركز الثاني في القيادة .

وارسلت الجواسيس مقدما لواحة الفيوم ، ولكن كل شيء على النيل بوجه عام ، كان مجهولا تماما للفرنسيين . ولا شك في انهم درسوا الخرائط التي وضعها « نوردن » و « دانفيل » ، ولربما قرأوا ايضا ما كتبه بروس عن رحلته للحبشة . وعلى اي حال فقد اصطحبوا معهم مترجمين وتحصلوا على بعض المرشدين وهم في طريقهم نحو الجنوب ، ولكن فيما يختص بالظروف والملابسات العامة للمغامرة ـ كضحالة الماء وتيارات النهر وارتفاعه وانخفاضه ـ وفيما يختص بلغة السكان وطبيعتهم ،ونوع الطقس وحرارته نهارا وبرودته ليلا ـ وفيما يتعلق بالزوابع الرملية والسراب ، الذي يتكشف دائما عن عدو وراء الافق . ثم فيما يتعلق بوفرة الطعام للجنود ، والعلف للدواب ، ونوع الحصون والمدن القديمة التي قد تعوق تقدمهم ـ ثم ما هي طبيعة هذا النهر العظيم الذي كان يقودهم ويقودهم باستمرار نحو الجنوب ،

---

(1) بيلك او كما يسميها الغربيون «Philae» ـ جزيرة بالقرب من الشلال الاول في صعيد مصر وخلف اسوان حاليا ـ بها معابد فرعونية . المترجم



دينو Denon

فيما يبدو ، الى ما لا نهاية له . لقد كانت كل هذه ألغازا لم تتكشف لهم الا شيئا فشيئا وعن طريق تجاربهم الخاصة . اضف الـى ذلك انهـم كانوا معرضين على الدوام لعدو متحفز لينقض عليهم في أي لحظة ، ثم يختفي ويتلاشى وراء الصحراء .

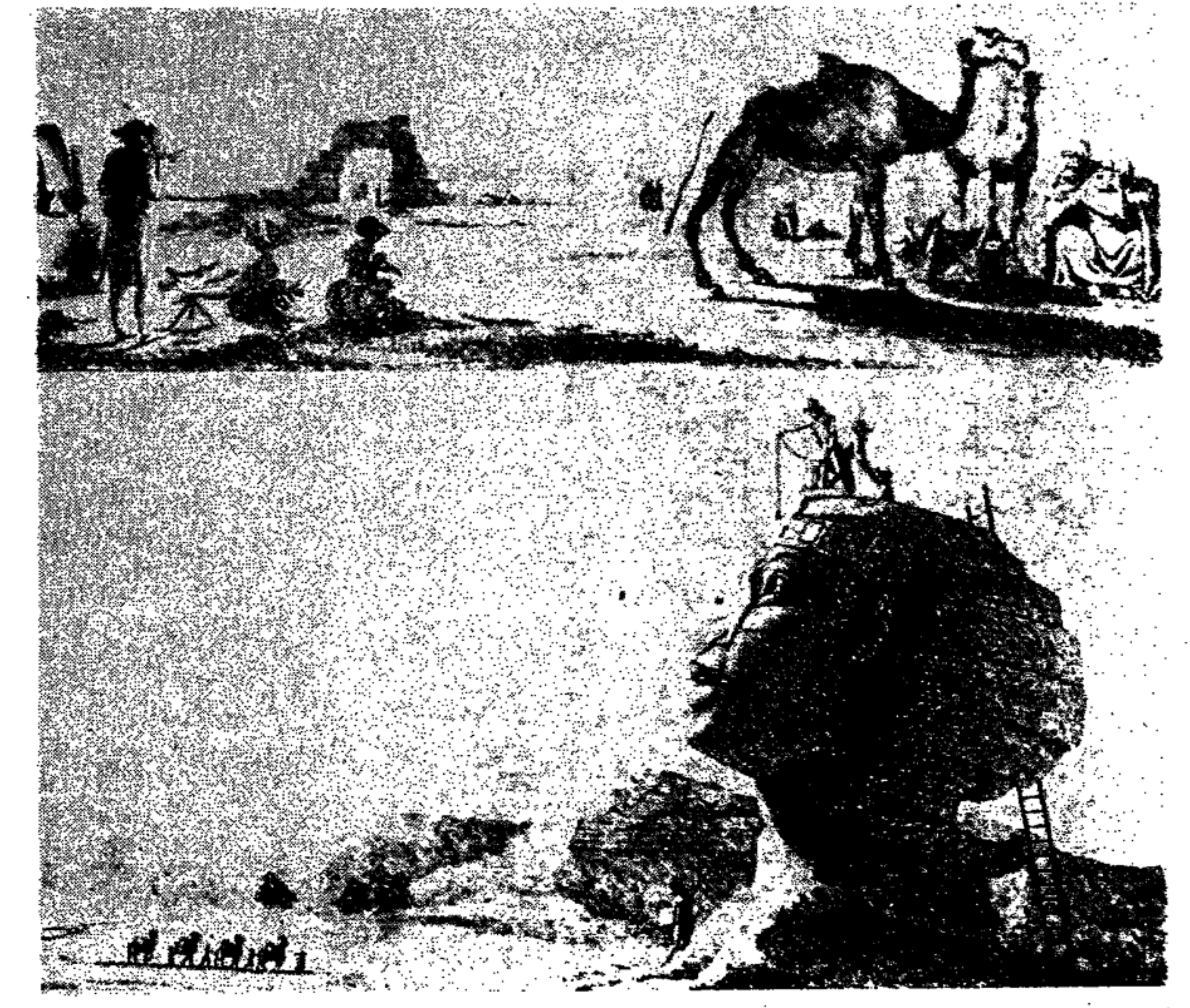
وعلى اي حال فقد كان النهر عاليـا في هذا الوقت والرياح تهـب مؤاتية مـن الشمال ، فشحنت القوارب وتجمعت الجمال عند ضفـة النيل ، وفي الخامس والعشرين بدأ ديسيه في المسير .

وكان « دينو » ضمن آخر مـن انضم لهذه الحمـلة من الرجال . وكان وجوده شاذا في هذه الحمـلة البرمائية ، لانه من المدنيين ، ونشاذ بين هذا الشباب المتحدي من جنود الثورة ، لانه كـان في الحـادي والخمسين من عمـره . غير انه في الواقع ، لم يكـن مهتمـا بهـذه الحرب اطلاقا ، ولم يكـن مهتما بالحاضر ايضا ، بل كان كل اهتمامـه وتفكيره منحصرا في الماضي . لقـد كان « دومينيك فيفان دينـو ــ باروند » ــ وهذا هو اسمه بالكامل ــ كان « كل الصيـد في جـوف الفرا » في زمانه . فقد كان كاتبا مسرحيا وفنانا وعالم آثار ومتخصصا في الزينة (فهو الذي وضع الـزي الرسـمي للثـورة) وكـان في وقت مـن الاوقـات مقـربا مـن لـويـس الخامس عشر (وكـان قـد وضـع تصميمـا لخزانة النياشين والمجوهـرات من اجـل «لا بومبادور» [1]) . كما كان ممن يترددون على جوزفين، وصديقا لفولتير وللفنان « دافيد » (الذي انقذه مـن المقصلة) ، والآن هـو صديق لبونابارت ... وقد جاء الى القاهرة بعد دخول الجيش بزمن ، وبمجرد وصوله ذهب للاهرامات عندما علم ان حرسا مكونا من مائتي جندي قد

---

(١) مدام بومبادور «La-Pompadour». هي محظيـة لويـس الخامس عشـر .

المترجم



الصورة العليا : دينو يخطط في الصحراء

الصورة السفلى : الفرنسيون يقيسون ابو الهول

ارسل اليها قبله ـ لأن القيـــام بأي رحلة لأي شخص وهـــو منفرد لم يكـــن مأمون العاقبة . وهناك ، وفي حماس ولهفة قام باستكشاف هرم خوفو في الداخل وزار « ابو الهول » الذي كان مدفونا حتى عنقه في الرمال ، ودوّن الملاحظة التالية عن رأسه : » « ملامحه رقيقة ولطيفـــة وهادئة » . ثم ذهب الى سقّارة وساعد في استخراج خمسمائة طائـــر محنط (مـــن فصيلة « ابو منجل ») من أوانيها . وبعد شهر قضاه في البحث والتنقيب المتواصل ، كأنه كلب صيـــد لا يكل ولا يمل ، ها هو ذا يسرع في اثر ديسيه ورجاله بصفته ممثلا للمجمع العلمـــي المصري . وخلال العشرة اشهـــر التالية برهن على انه أصلب المراقبين عودا وادقهم ملاحظـــة ومن اقدر الرواد الذيـــن انقذوا لهذا النهـــر ماضيه القديم مـــن الاهمـــال والنسيـــان .

* * *

الفصل الثامن

الحملة في النهر

« المماليك عدو متنقل لا يضع السلاح أبداً »

ديتو

ان الرحلة على النيل ما بين القاهرة وجزيرة بيلك ، لا تعادلها رحلة في هدوئها وسكونها وتهدئتها للاعصاب ، فالسفينة يدفعها الريح متهادية ضد التيار يوما بعد يوم ، والمناظر متشابهة لا يتغير فيها شيء في قليل او كثير ، والكواكب والأنجم المتألقة التي نراها في ليلتنا هذه ، هي نفس الانجم التي رأيناها في الليلة الماضية والتي سنراها في الليلة المقبلة والنيل يجري متعرجا في مسيرته الطويلة مبديا نفس المناظر عند كل انحناءة من تعاريجه ـ نفس الجواميس التي تدور وتدير معها السواقي ، ونفس ابراج الحمام المقامة على رؤوس المنازل ، والوجوه السمراء المعصوبة بالعمائم البيضاء هي التي تقابلنا في كل مكان ـ وضفتا النيل في خضرة يانعة ، هنا رقعة من حقول الأرز ، وهناك أخرى من قصب السكر ، ثم النخيل واشجار الكافور الى غير ذلك . ومن وراء ذلك كله تمتد الصحراء ، وعلى الأفق البعيد تبدو التلال كاطار حول لوحة فنية رائعة . هذا ـ والحركة على الشاطىء لا تنقطع ابدا ، ولكنها حركة وئيدة تتنقل في خطى موقعة مع مواكب الجمال والدواب

الاخرى ، ومع انسياب الزوارق على صفحة الماء الهادىء الرقراق . وعند كل غروب يرى المسافر تلك الجواميس وهي تتسابق نحو الماء البارد ــ بعد ان تطلق من نيرها ونواعيرها ــ لتنعم برطوبته وتتحلل من ادرانها . وبين الفينة والفينة تهب نسمة من بين الاكواخ الطينية تدل على ان بها نوعا من الحياة البشرية ــ كدخان من نيران المطابخ او رائحة من روث المواشي ، او أريج لقهوة يجري اعدادها ، او شذى عطر قوي منعش ربما كان منبعثا من شجيرات الياسمين ، او قد تكون نسمة رذاذ منبعث من ماء أريق على الارض لترطيبها ــ وكلها على اي حال ليست مما تشمئز له النفس .

وقد يستلقي المسافر على ظهره وهو في مركبه فيرى الطيور اسرابا وفرادى ترفرف من فوقه غادية رائحة ، فيسترسل في حلم لذيذ ، والساعات تمضي وئيدة . ثم ليس ما هو ابهج للنفس من منظر اعمدة داكنة لمعبد قد تهدم منذ القدم وظلت هي وحدها شاخصة على حافة الصحراء ، شاهدة على ماضيه طيلة الفي سنة . فهذا هو الماضي يعانق الحاضر في خداع محبب للنفس . والمسافر ــ كالمتفرج في مسرح ــ لا علاقة له بهذا او ذلك ، فهو لا يرضى بالدنيا ثمنا لان يعيش في هذه القرى القذرة المكفهرة ، رغم ما في ظاهرها من مسحة من الروعة والجمال . اما الاطلال القديمة التي جاء السائح لمشاهدتها ، فهي لا تنقل حضارة المصريين القديمة على الوجه الصحيح . فالرسومات التي نقشت للفراعنة على قبورهم ، ورؤوسها متجهة يمنة او يسرة في قالب نموذجي ، وتظهر معهم بطانتهم من العبيد ــ هذه الرسومات ليست الا لوحات فنية ، اكثر منها رمزا للعظمة والخلود . كما ان صور آلهتهم ، من ذكور واناث ، التي تحيط بهم مثل اوزيريس وايزيس وهو روس وهاتور وانوبيس وتوت وغيرها ــ كلها اصبحت عديمة الاثر وليست الا ضربا من الخرافة التي لها جوانبها الممتعة المسلية . وحتى في العهود

الفرعونية قد عرفت بينهم أسطورة الآلهة الفانية ، وهي التي لم يعد لها من يعبدها ـ أما الآن فهذه الآلهة التي تحمل فوق أعناقها رؤوسا كرؤوس الطير أو رؤوس الحيوان ، فقد ماتت تماما الى الأبد . ونفس المثل ينطبق على الكتابة الهيروغليفية ، فنحن بعد فترة من رؤيتنا الاولى لها ، لا نعيد النظر فيها مرة اخرى لما تحمله من اخبار ، تكون عادة سجلا مفخما لبعض الحروب والمذابح ، بل باعتبار انها زينة تتحلى بها الجدران ، فهي في تكرارها وتشابهها لا تختلف كثيرا عن التطريز . ومن المثير ان نلاحظ ان قمبيز وغيره من الفاتحين قد سلكوا هذا الطريق واننا الآن نقتفي آثار الجيوش الرومانية ـ ومع ذلك فهم بعيدون عنا كل البعد ، فقد اختفوا تماما في عصورهم الغابرة ، كما اختفت الدماء التي اراقوها والتعاسة التي اشاعوها ولم تبق غير ذكراها وغير ما سجلوه عنها .

الا ان الموقف لم يكن كذلك بالنسبة لديسيه وجيشه الصغير ، فوادي النيل كان بالنسبة لهم موطنا صعب المراس يناصبهم ساكنوه العداء ، كلما تقدموا فيه كلما ذاقوا الطعم المرير لواقع الحياة التي كان يعيشها الناس على ضفاف هذا النهر ، سواء اكانوا غزاة في الماضي او مواطنين في الحاضر . فها هم جنوده يأكلون مما يقتات به السكان ، وها هم يشربون من النيل مباشرة وينزلون في مساكن المصريين ، ومع هذا فكل قرية يمرون بها كان عليهم ان يستكشفوها اولا او يحتلوها عنوة او يتلطفوا مع اهلها . وكل مقبرة كانت مكمنا محتملا للعدو ، ثم الحرارة المذهلة المذهبة للابصار والتي تبلغ غايتها في هذا الشهر بالذات ، ثم الزوابع الرملية ووهج الشمس الذي لم يتعودوه ... والزحف كما يبدو لا نهاية له ـ وفي طريق صحراوي كله حجارة صلدة ، مما كان يضطرهم ليجددوا حذاء كل جندي مرة في كل شهر . وقد قيل ان ديسيه صاح منذ بداية الحملة قائلا : « لم ار في حياتي

رجالا بلغ بهم الاجهاد مثل هذا القدر » .

ولم يكن هذا غريبا اذ كانوا لا يزالون في ملابسهم الصوفية الخشنة وفي ياقاتهم العالية . وكان لون ملابسهم من قرمزية وصفراء ، ملفتا للنظر تحت ضوء الشمس المتوهج . ولعلهم جميعا قد اصيبوا في وقت او آخر بالرمد او الدوسنتاريا . ولم تكن الشجاعة ورباطة الجأش من الصفات التي ساعدتهم على مواصلة السير ، بل كان الصبر وقوة الاحتمال هما العامل الاساسي في ذلك . وكان صوت البوق يدوي كل صباح بين الثانية والثالثة قبل طلوع الفجر معلنا استئناف المسير الذي لا ينقطع طيلة اليوم . فهم في سير دائم وقتال دائم ، واذا ما اقترب المساء اخذوا يبحثون عن المأوى ، ثم هناك مهمة جلب الماء وطهو الطعام ـ واخيرا ينامون ليستيقظوا مرة اخرى ويستأنفون المسير .

والمناظر التي شاهدوها على النيل ليست هي نفس المناظر التي نشاهدها اليوم ، فتلك الرقعة الخضراء الممتدة على ضفاف النيل كانت أضيق مما نراه الآن ، فالقنوات كانت أقل والخزانات لم تكن معروفة واشجار الكافور ـ التي لم تدخل الا حديثا من استراليا ـ لم تكن موجودة آنذاك ـ ولذا فقد كانت الاماكن الظليلة نادرة جدا . اما القرى ، فرغم صغرها لم يدخل عليها تغيير يذكر طيلة هذه الحقبة من الزمن . غير أن المعابد كانت تختلف عما هي عليه الآن ، فالكثير منها كان مدفونا في الرمال حتى نصفها ، كما ان الاجيال المتعاقبة من الاعراب كانت قد شيدت على جدرانها المتهدمة ، منازل من الآجر ملقية بالاوساخ في كل مكان . ولم يهتم احد بهذه الاعمدة القديمة او التماثيل العجيبة ، كما لم يكن هناك من يستطيع قراءة الكتابة الهروغليفية التي على الجدران . اما مئات المومياء المخبأة داخل المغارات فلم تكن مما يثير الاهتمام الا لما بها من الراتنج (القلفونية) الذي كان ينتزع منها ليباع في اسواق القاهرة . والمسلات المتهدمة لم

تكــن في نظرهم الا حجارة اخرى لا معنى لها .

ولربما كان لكل هذا ميزته ــ على الاقل من ناحية واحــــدة ــ فالآثار العظيمة التي تنقب تنقيبا شاملا ويعاد ترتيبها ثم تؤخذ لها صور فوتوغرافية على نطاق واســع ، تصبح شيئا مبتذلا بعد أن يعاد طلاؤها وتطأ أرضها ملايين الاقدام . ولكن ، لرجل مثل دينو في سنة ١٧٩٨ ، وكان كل شيء جديدا طازجا يثير الدهشة . فاذا ما قرآنا عــن هــذه الحمــلة لــن نتمالك ان نشعر بنفس الحماس والاثارة التي شعر بهــا هو نفسه عندما كان يتحسس طريقه بين مسالك ضيقة ، حاملا مصباحا في يده ينير له الطريق ، ورأى ما لم تره الا أعين قليلة في الألــف سنة الماضيــة ــ رأى غرفا واسعة تحت الارض مكتظة بتماثيــل ورسومات عديدة ما زالت الوانها زاهيــة ، وبها نقوش غامضة محفورة على جميع ما حول تلك التماثيل من جدران . ويمكننا أن نقدر مبلــغ اعجابــه بمنظــر المعابد الضخمة الهائلة التي عفى عليها النسيــان وهي ترتفــع شامخة مــن بين الرمال ــ كمعبد ادفو مثلا ــ فلأن يجد كل هذا ويراه على جدته وغرابته وجماله ، لا بد ان يكون قد غمره بشيء من الانقباض لقصوره عــن حل طلاسمه ، ولا بد ان زاده تعطشا ليرى اكثر واكثر .

وكثيرا ما جانبت ملاحظاته الصواب، ولربما كان فيها أيضا شيء من التكلف الذي تعدى قليلا حدود المعقول . ومع ذلك فقد كان فيهــا شيء مــن الطرافة ، وعلينا ان نتذكر ان علم دراسة قدماء المصريــين «Egyptology» لم يكــن حتى ذلك الوقت قد ظهر في الوجود ، كمــا انه حتى ذلك الوقت لم يكــن لدينا مراجع نستدل بها الى ما في العالــم مــن معالم اثرية ــ اصبحت فيما بعد مزارات للسواح ــ غير ما تركه لنا هيرودوتس واسترابو وبوزيانوس . ويجب ان لا ننسى ان دينــو عندما كان يتفحص هذه الآثار ، كانت تحف به ظروف كلها مخاطــر تثير القلق ، كما لم يكــن لديه متسع مــن الزمن . ولربما كانت هــذه

الحقائق هي التي شحذت مخيلته وارهفت احساسه .

ولقد كان دينو محظوظا لان يجد في كل مـــن ديسيه وبايـار ، رجلين على جانب من الثقافـة وحب المعرفـة ، دائما مستعـدين بـل ومتحمسين لان يسمحا له باشباع هوايته . غير ان الحرب كانت قائمة ولا بد من خوض معاركها ، كما انه من الخطورة ان يتأنـى دينـو أو يتأخر عن باقي الجيش . ووجد أنه ما يكاد يشرع في تخطيط رسـم أو نقل كتابة الا ويجلجل صوت النفير معلنا بالرحيل ، فما كان امامه الا ان يمتطي صهوة جواده ويسرع في ذيل الآخرين — وكان في ذلك خيبة امل عظيمة له ،مثله مثل رجل جاء متحمسا من مسافات طويلة ليرى لوحة فنية في متحف ، ولا يكاد يصل الا" وتقرع الاجراس معلنـة قفل ابـواب المتحف فيضطر للخروج دون ان يشبع رغبته — ومع الفارق الكبير في أن دينو هنا لم يكن يعلمأن كان سيقدر له أو لأي بحاثة آخر ان يعود الى هذه البقاع . اما بقاؤه بمفرده وراء الجيش فكان يعني الموت المحقق على ايدي البدو . وكثيراً ما كان عليه ان يركض تحت طلق الرصاص ، وكثيرا ما توسل لمزيد من الزمن — عشرون دقيقة فقط لادرس هـذه المومياء أو لأتفحص هذه الاعمدة او لانهي هذا الرسم — وديسيه كان دائما يبذل ما في وسعه لتسهيل مهمته ، وأحيانا كان يترك معـه بعض الجند لحراسته وهو يؤدي عمله . الا ان كل هذا كان دائما غير كـاف في نظر دينو . وكان على دينو ان يعيش كما يعيش الجند — ان يفترش الغبراء وحسامه في يده — أضف الى ذلـك أن صحته كانت دائمـا منحرفة ، فهو يعرف احيانا بانه حتى حماسه المفرط لم يكن كافيا ليدفع بتفكيره المرهق لمزيد من الجهد .

وكانت مشاكل الجيش تدعو لمضاعفة الحرص والتدقيـق ، لأن المماليك بعد ان فشلوا في هجوم شنوه بالقرب من الفيوم ، ثابوا الى رشدهم وتيقنوا من أن أجدى وسيلة للقض من مضاجـع الفرنسيين او

لدحرهم هي اللجوء الى حرب العصابات ، فهم يعرفون البلاد حق المعرفة بينما كان الفرنسيون على نقيض ذلك ، يجهلونها كل الجهل . ثم ان الفرنسيين كان يعوقهم ما يحملونه من امتعة ومؤن ، اما المماليك فكانوا يهبون خفافا رغم انهم كانوا يصطحبون زوجاتهم واتباعهم معهم ، وفي نفس الوقت كانوا يخربون كل شيء وراءهم كلما تقهقروا . وقدروا أن تقهقرهم البطيء هذا — شيئا فشيئا نحو الجنوب — سيمد من خطوط مواصلات ديسيه ويضعفها ، بينما يتيح الفرصة لهم لان يقفلوا راجعين ليقطعوا على ديسيه خط مواصلاته . وهذا هو ما لجأ اليه مراد فعلا ولكن بطريقة عرضية غير مركّزة . وما يجب ان نتصوره الآن هو قيام اشتباكات متفرقة هنا وهناك على ضفتي النيل وعلى طول الستمائة ميل التي تفصل ما بين القاهرة وجزيرة بيلك ، وكانت تمتد هذه الاشتباكات احيانا داخل الصحراء المتاخمة . لقد كان رائعا من ديسيه ان لا يترك مجالا لليأس يتطرق الى نفسه ، وان لا يكف عن المطاردة لحظة واحدة، وقد علق أحد ضباطه على رباطة جأشه قائلا : « يخيل الي أن الجنرال ديسيه ابرد من الثلج بعشر درجات » . ويجب ان نتذكر هنا ما قاله ديسيه مشيدا ببونابارت من « انه يتعقب عدوه حتى آخر الدنيا » .

والحملة في بدايتها لم ترجح كفتها ضد المماليك على طول الخط . فبعد ان غادر ديسيه القاهرة منيت قواربه بكثير من المتاعب في المياه الضحلة وعند الشواطىء الرملية للنيل الذي كان قد بدأ في انحساره . ولهذا السبب (الذي اعاقه وأخره كثيرا) لم يلتق بمراد قبل السادس من اكتوبر ، وكان ذلك في موضع يقال له « اللاهون » عند مصب ترعة يوسف في واحة الفيوم . فهناك رأى مراداً من خلال منظاره وهو جالس بين مشائخه ، خارج فسطاط نصبه على احد المرتفعات المحيطة بالمكان ، ولكنهم سرعان ما انسحبوا . واستمر ديسيه يعمل طيلة اليوم في اخراج مراكبه من الرمال ، ثم أمر رجاله بان يبيتوا ليلتهم في سلاحهم

وفي تشكيلاتهم الحربية . وفي صبيحة الثامن من اكتوبر تقدم نحو استحكامات مراد وجيشه في تشكيلاتهم . ولم تكد مقدمة جيشه تصل الى مرتفع صغير امامهم ، الا وقد قرعت الطبول في معسكر الاعداء ، ثم اذا بالنقع يعلو من تحت حوافر جيادهم ، فلم يعد هناك شك في ان المماليك قد بدأوا هجومهم .

ولقد كان موقف مراد في هذه الموقعة خير منه في موقعة الاهرامات فقد كان آنذاك يواجه حوالي عشرين الفا من الفرنسيين ، بينما لا يرى امامه الآن اكثر من الثلاثة آلاف رجل ، فجيشه في هذه المرة كان يفوقهم بمعدل رجلين مقابل رجل واحد . وربما كان قد شد من ازره ما سمعه عن هزيمة الفرنسيين البحرية في موقعة النيل (ابو قير) ، ولعله ايضا كان قد اشتم رائحة التمرد الذي كان يدبر ضد نابليون بالقاهرة . وعلى اي حال فقد استعد ديسيه للقائه ، ونظم رجاله في وضع عجيب ، اذ نثر مربعين صغيرين في المقدمة يتكون كل منهما من مائة وثمانين رجلا ، بينما ترك بقية الجيش — بما في ذلك المدفعية — في المؤخرة ، كتلة واحدة متماسكة . ثم صدرت الاوامر من قائد المربع الذي في المقدمة فأمر رجاله في شجاعة مستهترة ، ان لا يطلقوا النار الا عندما يكون المماليك على بعد عشرة خطوات منهم — وكان عمله هذا غاية في الطيش، لأن المركبات — رغم اصابة سائقيها — قد حملتها قوة اندفاعها الى داخل المربع ، فتقاطر من خلفها عدد من المماليك وقتلوا نحو عشرين من مشاة الفرنسيين . اما بقية جنود هذا المربع فقد كان لهم من حضور الذهن ما مكنهم من الاستلقاء على الارض ، فتمكنت المدفعية ان تطلق النار من فوقهم على كتل الخيالة المتقاطرة . ثم قام المماليك بهجوم على المربع الثاني فصدوا بالمثل . وأثناء ذلك كان مراد قد تمكن من استخدام بطاريته فاضطر الفرنسيون ان ينقضوا عليها باسنة بنادقهم ليسكتوها — وعند ذلك تقهقر المماليك تاركين نحو اربعمائة رجل بين قتيل



اسيوط

وجريــح .

ثم بدأت المطاردة — ان أي جندي اشترك في حملة بالصحراء في الحرب العالمية الاخيرة سيتذكر البهجة التي تستحوذ عليه وهو يلاحق عدوا متقهقرا . انه احساس رائع بعظمة ما يقوم به ، فرحابة المكــــان وسهولة المطاردة ، ثم تصبح المسافة نفسها غاية في حد ذاتها . والجنود والطوابير المتقدمة تتملكهم رغبة في الاستمرار وفي التقــدم ــ ميــلا واحدا فقط او ميلين قبل ان تغرب الشمس ، أو نظرة اخرى فقط مــن أعلى المرتفع التالي — انها مطاردة مجنونة حمقاء ، كأنما يبحثون عــن كنز ، الا ان الدليل لما يبحثون عنه كان امامهم في هذا الموقف — هنا متاع القاه العدو وهناك مدافع محطمة على جانب الطريق — وها هوذا معسكر مهجور وموضع نيرانه لا يزال ساخنا ، وهناك أخدود حديــث شقته عربة لا تزال مندفعةولا يحجبها عنهم الا بعد المسافة فقطــوهكذا.

شيء من هذا القبيل هو ما حدث مع الفرنسيين الآن . لقد احتلوا مدينة الفيوم ثم تقدموا نحو بني سويف ، وهنا توقفوا بعض الوقــت ريثما يذهب ديسيه للقاهرة لاحضار بعض التعزيزات. ولكنه عاد مباشرة في زورق بونابارت الخاص « ايطاليا » ثم واصلوا سيرهم نحو الجنوب. وفي أواسط ديسمبر كانوا في المنيا وفي آخره وصلوا أسيوط ، وهــي احدى المدن الرئيسية على النيل وتقع على بعد ٢٥٠ ميلا جنوب القاهرة. وبعد عيد رأس السنة مباشرة واصلوا سيرهم مرة اخرى — الرجــال زاحفون على الضفة الغربية والاسطول الصغير على النهر ، خلفهم بقليل — وفي التاسع من يناير كانوا في جرجا .

وقد رأى مراد ان لا يتقدمهم الا بمسافة قصيرة جــدا (وذلــك ليغريهم بالجد في السير أملا في اللحاق به) لدرجة أنه كان ينتظر أحيانا حتى يكون الفرنسيون على بعد ساعة او ساعتين منه قبل ان يواصل سيره مرة اخرى . وكثيرا ما ينقلب خيالته راجعين لينقضوا على فصيلة

منعزلة من الجيش الفرنسي ، ولكنهم عادة يعودون ادراجهم بعد مناوشة سريعة . وكان مراد يعاني من نفس المتاعب التي واجهها ديسيه في وسائل نقله — وهي في الواقع نفس المتاعب التي يواجهها أي قائد يحارب على ضفاف النيل — ومما زاد متاعبه انه اضطر في المنيا لترك خمسة قوارب واثني عشر مدفعا . ثم زاده ضغثا على ابالة ان فرّ بعض مشاته وانضموا للفرنسيين ، وكان اغلبهم من اليونان والاقباط ، الا انه في نفس الوقت قد كان له حلفاؤه من السكان المحليين — فالبدو وكثير من سكان القرى كانوا أبدا على اتم استعداد ليقاوموا أي غاز ، طمعا في الغنائم والسلب ، وقد قاموا فعلا ببعض المناوشات في كل من اسيوط وجرجا . ويتحدث دينو في هذا الموقف عن الفرنسيين الذين « انهكتهم خسائرهم وارهقتهم انتصاراتهم » في هذا القطر « حيث العدو دائما مدحور ولكنه لا يخضع ابدا . فهو يكر في صبيحة اليوم التالي لهزيمته ليحدث ما يمكنه من ازعاج » . ثم يقول : « وفي كل مساء كان اللصوص يتسربون الى المعسكر الفرنسي كما تتسرب الفيران ، ثم يخرجون منه كما تخرج الوطاويط » . والظاهر ان اللصوص كانوا مزعجين فعلا ، فقد استطاعوا ذات يوم ان يسرقوا حصان ديسيه نفسه .

الا ان الروح المعنوية في صفوف الفرنسيين كانت عالية . هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى فقد كانوا يسيرون معظم الوقت وسط مزارع يانعة وحدائق مثمرة توفر لهم فيها الغذاء بكثرة . وكانت اسيوط بنوع خاص ، في غاية الرخاء ووفرة المأكولات بحيث ان نزول ثلاثة آلاف جندي اجنبي بربوعها ، لم يؤثر في اسعار الدواجن او الفواكه . هذا — وكل ما كان يحتاج اليه الجند بخلاف المأكولات ، كانوا ينهبونه من القرى . كما أنهم لم يعدموا اللحظات التي يسترخون فيها عند الامسيات ويجلسون تحت اشجار الدوم التي تكثر بالقرب من ضفة النيل . ولا شك في انهم كانوا يجدون ايضا المتع الاخرى ، فالاغتصاب

لا يعد جريمة كبرى في قطر تدور فيه رحى الحرب ، وعلى اي حـال فالمومسات لسن بالشيء الذي يصعب الحصول عليه في اي مدينة .

ثم حل الشتاء وتحسن الطقس واصبح اكثر احتمالا نهارا ، وباردا لطيفا ليلا . وفي ذات مرة هبت عليهم عاصفة رعـدية نادرة الحدوث ، فامطرتهم السماء مدرارا وزادتهم بهجة وانتعاشا .

وفي الثاني والعشرين من يناير قرر مراد ان يقف لخوض معركة عند بلدة « سمهود » على بعد ستة أميال من جرجا وبالقرب من معبـد « ابيدوس » ، اذ كان قد انضم اليه نحوا من الفي رجل من الانكشارية الاتراك الذين قدموا من مكة عن طريق القصير ، بعد ان ادوا فريضـة الحج ، وكانوا يجهلون كل شيء عن الفرنسيين ويتعطشون للقائهم . ومرة اخرى وقع الصدام — كما يقول دينو — « بين فظاعة الغـرب وأبهة الشرق . الحديد يمتحن قوته مع الذهب ... فتلألأ المكان بمنظر براق رائع » . فقد ابيد الانكشارية عن بكرة ابيهم .

وبعد كل هذه المدة ، بدأ الفرنسيون يعرفون أعداءهم حق المعرفة فما منهم من احد الا واصاب شيئا من الاسلاب . فأس للقتال او كنانة مبطنة بالجوخ او قطعة من النسيج المشجر — كما كانوا قد عرفوا منذ زمن كيف يميزون بين البكوات والمماليك العاديين ، فالبكوات كـانوا دائما يرسلون لحاهم (وبعضهم كانوا يتخذون — لسبب او لآخر — اسماء مستعارة) .

وفي جرجا وصلت مع قوارب الامدادات ، فرقـة اضافية مـن الخيالة لتعزيز قوات ديسيه فصمم على أن يجدّ في السير في طلب مراد . ولذا امر رجاله بالزحف السريع المتواصل ، وكرر هـذا الاجراء عـدة مرات على التوالي — وكان الزحف مضنيا بمعنى الكلمة ، يمتـد الى الليل في معظم الحالات ، مما سبب شيئا من الامتعاض لدينو لانه اضطر

لان يمر سريعا على كل من دندرة والاقصر ووادي الملوك واسنا وادفو وكومومبو ، وهي نفس الاماكن التي كان يتلهف لرؤيتها بنوع خاص .

وقد أثاره معبد دندرة الى درجة الذهول ، رغم ما تكدست حوله من رمال غمرته حتى نصفه ، ورغم ما أقامه عليه الاعراب من اكواخ بالية متداعية شوهت من روعته . الا انه لم يسمح له من الوقت الا بقدر ما مكنه من تخطيط رسم سريع لمنطقة البروج ، وجمع بعض المصابيح الرومانية وقليل من التماثيل الدقيقة المصنوعة من الزجاج والخزف . وقد دوّن في مذكراته وهو يبتعد على صهوة جواده من هذا المكان ، ان المعبد قد شيد تقديسا للاله ايزيس (الحقيقة ان هاتور ، لا ايزيس هو الاله الذي كان يعبد هنا) وان النقوش التي بقاعدته شبيهة بورق اللعب (الكتشينه) الفرنسي ، وانها موضوعة على نسق واحد لا تغيير فيه . وذكر ايضا ان المصريين لا تهطل في بلادهم الامطار ، ولذلك فهم ليسوا في حاجة لتبليط سقوف منازلهم بالقار أو ما شاكله . ودوّن عن الأقصر العبارة التالية : « عندما بدت أطلالها للعيان ، توقف الجيش من تلقاء نفسه ووضع سلاحه أرضا ، ولكنه عندما حاول ، هو وديسيه ، دخول اروقتها داهمهم سكان الكهوف فاضطرا الى ان يفرا هاربين على جواديهما تحت وابل من الجريد والحجارة . وقال دينو في ذلك : «لقد كانت هذه حرب شنها حارسو الكنز من الجان » .

الا انه قد اشمأز ، فيما يظهر ، من معبد الكرنك رغم عظمته فقال ما معناه : « ليس هناك من سرك واحد او ملعب واحد او مسرح . لا شيء غير المعابد والالغاز والتعاليم ورجال الدين والضحايا ! للمسرات الطقوس وللبذخ القبور [1] ! وحتى تمثالي ممنون العظيمين كانا خيبة امل لدينو ، اذ لم يجد فيهما غير البساطة والصرامة وتناسق

(١) يبدو انه عندما وصل دندره كان قد سئم من تكرار المعابد وكان يتطلع الى شيء آخر لم يجده .

الاعضاء ، ولكنهما كما قال : « ليس فيهما جاذبية او رقة او فن ، بل ليس فيهما ما يسر ابدا». وعندما كان الجيش يسير بالقرب منهما جلس دينو يخطط رسما لها وانهمك في ذلك حتى انه لم يشعر بان الجيش قد ابتعد عنه ، وكم كان فزعه عظيما عندما رفع رأسه ووجد نفسه وحيدا .

ووصلوا أسنا بعد أن غادرها مراد بليلة واحدة ، وهنا خطر لدينو ان المصريين لم يقتبسوا فنهم المعماري من اي امة اخرى ، وانهم غير مدينين لأي من النماذج اليونانية أو الأيونية أو الكورنثية ، بل كانوا يستلهمون الطبيعة في فنهم ، فسيقان البردى اوحت اليهم باعمدة المعابد ، وزهرة اللوتس المتفتحة اوحت اليهم بتيجان تلك الاعمدة .

وعند ادفو شوهد « الفي بك » نفس المملوك الثري الذي احتل بونابارت منزله بالقاهرة ـ ومعه مئتان من اتباعه ، ولذلك لم يجد دينو من الوقت الا ما مكنه من ان يلاحظ التشابه الكبير بين معبد ادفو ومعبد درنا ، وأن يبدي امتعاضه لوجود قرية اقامها الأعراب داخل اسواره [1] . اما كومومبو فلم يكد دينو يراها اطلاقا ، لان الفرنسيين كانوا بالضفة الاخرى للنهر ، ولكنه سمع ان التمساح هو الاله المعبود في هذا المعبد ـ وقد رأى فعلا بعض التماسيح الضخمة على ضفة رملية بالقرب من هذا المكان ـ وكان يبلغ طول الواحد منهما نحو خمسة وعشرين قدما .

ثم جاءت المرحلة الاخيرة من الزحف ، فكان زحفا حثيثا متواصلا نحو اسوان ، لان ذلك كان املهم الوحيد في اللحاق بمراد قبل ان

---

(١) لقد سبق الرحالة الانجليزي « بروان » الفرنسيين الى زيارة دندرة في سنة ١٧٩٢ ووجد شيخ القرية يقوم بنسف جزء من اسوار المعبد بحثا عن الكنوز .

حاشية المؤلف

يختفي في الصحراء النوبية عبر الحدود . والواقع ان الصحراء النوبية لا تبتدىء بعد الحدود المصرية ، فالجدب قد اخذ يزداد شيئا فشيئا ، والقرى اخذت تزداد تعاسة اكثر فاكثر ، منذ ان غادروا ادفو . وأصبح الفرنسيون الآن على أبواب منطقة «تبعث السأم والملل بسكونها الرهيب وهدوئها الشامل ، ومناظرها المتشابهة التي لا يتخللها منظر واحد جديد يثير النفس او يسترعي الانتباه . انه سكون من ذلك النوع الذي يترك فراغا طويلا من الزمن بعد كل حدث من احداث الحياة ، وبعد كل خلجة من خلجات النفس ـ ذلك النوع من السكون الذي تتعاقب فيه الاحداث في طمأنينة وسلام ـ حيث يتحول كل انفعال الى عاطفة وكل عادة الى مبدأ . وبالاختصار حيث تتعرض اتفه الانطباعات الى التحليل والتلخيص . ويبلغ هذا التحليل اقصاه عندما تتحدث الى اهل تلك البلاد فتجد ، لدهشتك ، انهم على اعظم درجة من الدقة في تمييز الأشياء ، وفي أرق مستوى من المشاعر ، كما تجد في نفس الوقت انهم في اعمق درك من مدارك الجهل المطبق » . ومتطلبات الحياة في مصر العليا لا تتعدى قليلا من الاواني الفخارية ، وكوخا من الطين ، وبرجا للحمام فحظيرة للدواجن وحقلا من الذرة وشيئا من البطيخ ، ثم النهر ـ هذه هي الحياة . ان العقل ليذوب اسى في دراسة ممحصة لما لا وجود له .

وفي اول فبراير من سنة ١٧٩٩ عبر الجنود النيل وهم يتضورون جوعا ، ويتمايلون ألما من تفسخ أقدامهم . ثم دخلوا مدينة أسوان ليجدوا انهم وصلوها بعد فوات الاوان ، فقد رحل عنها مراد واختفى في مجاهل الفيافي النائية . واصبح الجيش الآن على بعد ٥٨٧ ميلا من القاهرة ، وبلغ به الاعياء غاية مداه ، فأمر ديسيه بان توقف المطاردة ، واستقربهم في مدينة اسوان .

وفي الاسابيع القليلة التالية اصبحت اسوان وهي في عهد

الفرنسيين ، تحمل شيئا من الشبه لما كانت عليه في عهد الرومان . فقد اشادوا بها قلعة ، ونصبوا لوحة تذكارية تخليدا لانتصاراتهم في وادي النيل ، الا انهم لم يجدوا الكروم التي وجدها الرومان بجزيرة بيلك ، غير انهم اقاموا المقاهي والمطابخ في اسوان واشبعوا رغبتهم من الجعة المحلية . ولما لم يجدوا اوراق للعب الميسر ، ابتكروا اوراق خاصة ، وقامروا بما جمعوه من غنائم . ثم تجولوا بين الاطلال ، وحفروا اسماءهم على حجارتها كما فعل الرومان قبل الف سنة . وفي الوقت الذي ذهب فيه ديسيه لاقامة سلسلة من المراكز العسكرية ما بين أسوان وأسيوط ، أنشأ الجنرال بايار جهازا للتحكم في أسوان . ومرة اخرى اخذ الاهالي يشاهدون جنودا غربيين يقومون باستعراضاتهم العسكرية على انغام الفرق الموسيقية . ثم بثت العيون الى ما وراء الشلال ، فعلموا ان مرادا قد عاث فسادا وتخريبا في قرى النوبة على طول ضفتي النيل ، ثم جاءت الاخبار بانه اخذ يتقدم نحو اسوان طلبا للعلف . فما كان من الفرنسيين الا ان ارسلوا فرقة للقائه فباغتوا المماليك وهم يتناولون وجبة العشاء ، غير انه كان من المستحيل ان يشتبكوا معهم في معركة بالايدي في ذلك الظلام الدامس . وفي صبيحة اليوم التالي كان العدو قد اختفى ... وبدا الآن كأنما الحرب قد انتهى امرها .

لم يكن هنالك خزان باسوان في ذلك الوقت ، ولم تكن معابد جزيرة بيلك عرضة لأن تغمرها المياه بنفس القدر الذي تغمرها به الآن . وكان دينو حريصا كل الحرص لاستكشافها . الا أن جميع محاولاته للوصول اليها بالقوارب كانت تقابل بالعويل والتهديد ، ثم بوابل من الحراب من الاهالي الساكنين في اطلالها ، فقد كان النوبيون فيما يظهر ، على جانب كبير من الهمجية . ووصف دينو لبسهم بقوله : « ... وزيهم الوطني هو التجرد تماما من الملابس عند الرجال ، ما عدا ازار تافه من القطن او الصوف . اما العذارى فيرتدين

منقطة من سيور جلدية تتدلى الى منتصف الفخذ [1] ، وهي كافية في نظرهم لسد جميع متطلبات الحشمة حتى وقت الزواج » . واشار دينو الى ان النوبيات كن اجمل من نساء مصر وان تجار الرقيق يقدرونهن تقديرا عظيما لما تتميز به اجسادهن من ملمس رطب [2] . ولا شك في ان سكان جزيرة بيلك كانوا مصممين على الدفاع عن عوائلهم ، مما اضطر الفرنسيين ان يأخذوا المكان عنوة ، وعند ذلك لاذ رجالهم بالفرار . وعندما وصل دينو ليتفحص المعبد وعظمته وينقل رسمه ، روّع بالامهات يلقين باطفالهن ليبتلعهم النيل ، خوفا من ان يستولي عليهم المعتدون . ثم بينما هو تائه في تأملاته وفي تفحص النقوشات المسيحية والمصرية التي على جدران الاطلال ، اذا بصياح طفلة صغيرة مشوهة يقطع عليه تأملاته ... وقد تبناها فيما بعد .

لقد كان جوا رهيبا اختلطت فيه السكينة بالوحشية البالغة ، واهتزت ارجاء المعبد الصامت بصياح الضحايا من القرى المتاخمة . وجرت مذكرات دينو على نمطها المحتوم «وكنا نخرج احيانا لبضع دقائق نستنشق فيها الهواء ، فلا نسمع غير انفاسنا تجلجل بين انغام العدم » ويقول في مكان آخر : « كانت اسراب من الحداء والنسور تتابع الحملة على طول الطريق ، فلم تكن تخيفها اصوات مدافعنا ، بل على النقيض كانت تتجمع من كل صوب عند سماعها لها ... ومع اول طلق ناري ــ وخصوصا اذا ما انفجر لغم ــ كانت تهتدي الى

---

(1) يقصد الرهط او ما نسميه بالدارجي « الرحط » المعروف لدينا جيدا بالسودان
المترجم

(2) ابدى بروس نفس الملاحظة قائلا : « يعترف الاتراك باعجابهم بالحبشيات لان اجسادهن ندية كاجساد الضفادع »
حاشية المؤلف

اماكننا في اقل مــن لمح البصر ، ثم تتقاطــر مسرعة لتلعب دورها في المعركــة [١] » .

ثم حل الصيف وأخذت الحرارة تتصاعد ، فوصفها دينو بقوله :
« كانت دماؤنا تغلى من وطأتها ... فما مــن ميتة أبشع مــن هــذه ، فالمصاب تفاجؤه اضطرابات قلبية لا يمكن انقاذه منها ولا مما يتبعها من اغماء » .

أضف الى ذلك ان الفرنسيين كانوا يضللون انفسهم بان مرادا قد انتهى امره. الا أنه فيأواخر فبراير نما الى علمهم أنهقام بحركة التفاف واسعة عبر الصحراء ومعه مئات من المماليك تحت امرته ، وانه الآن في طريقه من بلاد النوبة الى مصر .

وشهدت السبعة اشهر التالية قصة مضطربة لزحــف من هــذا الجانب ، وزحف مضاد من الجانب الآخر ، وكمين اثر كمين ، وعديد من المناوشات المركزة — في اماكن مختلفة ما بين اسوان والفيوم . ولا يسع الانسان الا ان يعطف على موقف مراد ، فمراد بك لم يكــن « روبن هود » آخر [٢] ، كما أن المماليك لم يكونوا طغمة مهرجــة ، ولكنهم كانوا يحاربون من أجل ما كانوا يعتبرونه حقا لهم . كما انهم يعتبرون ان ما مس كرامتهم من اهانة وتحقير يستحق كل تضحية مهما

---

(١) يذكرنا هذا بقول النابغة الذبياني :

اذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طير تهتــدى بعصائب
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهــم من الضاريات بالدماء الضوارب
تراهن خلف القوم خزرا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المراتب

(٢) «Robin-Hood» شخصية خرافية انجليزية ـ تظهرها القصص التي وضعت حولها كبطل مــن طراز عجيب . فهو نهــاب ـ يعــقد اجتماعاته مع اعوانه بغابة في مقاطعة نوتنجهام ـ وبطولته نشأت من انه ينهب الاغنياء دون الفقراء الذيــن يظهر غيرة وعطفا شديــدا عليهم . وكانت له مهارة خاصة في استعمال القوس والنبــوت ، والفت فيه كثير من القصص المنظومة . المتــرجــم

بلغت ، ولذلك لم ييأسوا أبدا ، وكتب عنهم ديسيه يقول : « انهم كالافعوان كلما قطعت رأسه نبت رأس آخر مكانه » . لقد كانت هذه هي النهاية لما وضعه المماليك من عرف وتقاليد لحكم دام في مصر لاكثر من خمسمائة سنة ، وكانت له جوانبه النبيلة المشرفة . فقد كان جريحهم مثلا ، لا يطلب الرحمة ابدا ، بل يفضل ان يموت وهو يقاتل طالما كان هناك امل في ان يقتل ولو رجلا واحدا فقط من الفرنسيين .

ولم يكن الفشل حليفا لمراد على الدوام . فقد تمكن ذات مرة من ان يستولي على اسطول نهري للفرنسيين محملا بالذخيرة والعتاد . وفي مرة اخرى تمكن من نسف ذهبية بونابارت المسماة « ايطاليا » ، ومرة ثالثة تمكن من قتل سبعين جنديا من خيالة ديسيه في هجوم سريع مفاجيء . هذا — وقد كتب ديسيه يطلب بعض الامدادات من بونابارت فقال : « ان امراض العيون قد فتكت برجالي فتكا ذريعا فحرمتني من خدمات ألف واربعمائة رجل منهم ، ومائة قد فقدوا ابصارهم ... نحن عراة الاجسام ، حفاة الاقدام ، لا نملك شيئا ابدا ... غير انني لا أريد أن أثقل عليك بما نقاسيه » . وفي مايو سنة ١٧٩٩ اضطر لأن يرسل بايار على رأس فرقة من الجنود ليوقف تدفق الانكشارية عن طريق القصير . ورغم الحامية التي تركها بلليار بها فلم يكن هنالك ما يضمن ان لا يفاجئهم الانجليز بانزال حملة من الهند على شواطىء البحر الاحمر .

وفي يونيو سنة ١٧٩٩ كان في استطاعة ديسيه ان يقول في شيء من الثقة انه قد سيطر على الموقف تماما ، فقد استطاع ان يوقف العدو بعيدا عن النيل على جبهة طولها خمسمائة ميل كما استطاع ان يكسب المشايخ ويضمن خضوعهم . عند ذلك اتخذ من اسيوط مقرا لرئاسة المنطقة التي تم اخضاعها ، ثم بدأت التجارة تتدفق عبر النيل مرة اخرى.

اما دينو فقد عاد الى القاهرة ليرفع تقريرا لمعهد الابحاث المصري عن منجزات الحملة العلمية والثقافية ، وكانت في جعبته قصة رائعة

ليرويها . حقيقة انه قد فشل اخيرا في بعض ابحاثه الغامضة — فلم يستطع ان يتحصل على تمساح صغير ، كما ان الساعات الطويلة التي قضاها داخل بعض الانفاق النتنة لم تمكنه من ان يستخلص مومياء سليمة — الا انه قد احضر معه مئات الرسومات لمعابد وقبور ولنقوش محفورة ، كما احضر مجموعة من المذكرات ، في حجم دائرة المعارف حوت الكثير من الدراسات — تمتد من دراسة الزوابع الرملية واسراب الجراد ، الى مقاس النيل الذي رآه باسوان وعادات سكان الكهوف ، كما حصل على كثير من مخطوطات قدماء المصريين التي لعبت دورا هاما فيما بعد (بالاشتراك مع حجر رشيد الذي عثر عليه عند مصب النيل برشيد) في حل طلاسم الكتابة الهروغليفية . واستمع اعضاء المجمع لهذه الروائع في حماس شديد ، ثم اتخذوا قرارا بأن تقوم منهم بعثة كبيرة لتكملة هذه الابحاث ، فقال دينو في تواضع جم « انه لم يفعل اكثر من ان وضع بعض المعالم في الطريق » .

واخيرا سادت فترة من الركود في الموقف — او هكذا كان يبدو— ردحا من الزمن . وعلينا ان تتصور قيام سلسلة من الحاميات المتفرقة على النيل ، تبعد عن بعضها البعض بنحو الخمسين ميلا او اكثر ، وان تتصور الخيام منصوبة على ضفاف النيل الخضراء ، واماكن الحلاقة ومحال الشرب وقد انتظمت القرى هنا وهناك ، وأن تتصور نيران الطهو تحت الاشجار والجنود الفرنسيون من حولها عند الامسيات . ثم الولائم التي يقيمها المشايخ للضباط ، فهي خليط عجيب من الملابس الضيقة والعباءات الزاهية الفضفاضة ، ومزيج اعجب من العربية والفرنسية . ثم الاشاعات التي تنطلق يوميا ، وابواق الانذار ، والمرضى الدين يتضورون ألماً عبر الليالي الطوال الحارة . ثم الهرج والمرج الذي يحدث عند وصول قارب من قوارب الامدادات من القاهرة ، وخيبة الامل التي تصيب الجند لعدم وصول رسائل من الوطن العزيز . ثم

أقاموا اللافتات العجيبة المضحكة ووزعوها هنا وهناك في المعسكر ، وهذه واحدة منها كتب عليها « شارع باريس رقم واحد » . باريس التي لا يمكن الوصول اليها فقد حجبتها عنهم الصحراء ومن ورائها البحر الرهيب ، باريس التي لا يمكن احياؤها في الذاكرة الا بما يحكونه عنها من القصص ، تعاد المرة تلو المرة حتى تصبح كالامثال التي فقدت معناها تماما . هذا هو المنفى المغلق الممل في أبشع معانيه ، المنفى الذي لم يكن محتملا ابدا — دون ادنى شك — لولا التمارين المتواترة ولولا التدريب المنتظم والعمل الدائم ، ولولا ريح من الخطر تهب احيانا ونسمة من الأمل تهب على الدوام ودون انقطاع — الأمل في حدوث المعجزة وحلول الفرج ليضع حدا لهذا المصير الرهيب .

ومن الطبيعي ان يلجأوا لنسج اسطورة عن فرنسا الثائرة ، وعن عظمتها على ضفاف النيل ، ولا يسعنا الا ان نتساءل في تعجب ان كانت هذه الاسطورة او تلك الشعارات كافية لرفع الروح المعنوية في الجنود ، أو مجزية كبديل للستة أفدنة التي وعدوا بها ، والتي أخذت تبتعد عنهم باستمرار — كما اخذت تبتعد فرنسا نفسها — الى ما لا نهاية له . الا ان هذا الانسان العجيب قادر ، فيما يبدو ، على ان يكيف نفسه مع أي وضع يجد نفسه فيه — واستمر هؤلاء الجند من يوم ممل الى آخر مزعج ، راضين بعزلتهم ، مطيعين لأوامر رؤسائهم ، ولعلهم قد أسهموا بقدر لا يقل في اهميته عما اسهم به اولئك العلماء البحاثون ، في ايقاظ مصر من ليلها الطويل .

انه لشيء جميل من رجل فنان كدينو أن يكتب عن روعة النهر المتناهية ، بفلكه المتهادية على صفحته الهادئة الصافية ، تحت ضوء الفجر الناعس الحالم الجميل ، فقد كتب شيئا من هذا القبيل بعد فترة طويلة . ولكن من هو الذي يريد ان يتذكر او ان يسجل شيئا مما يلاقيه من ملل وسآمة وألم في مغامرة يقوم بها ؟ انها مغالطة صارخة ، نلبس بها القوة

الغاشمة ثيــاب الفضيلة البراقة . فما كان لرجل انخرط مكرها وجنــد اجباريا في سلك الجندية ، أن يتحدث عن المعارك التي خاضها كشيء لم يكن منه مفر ، وان يدعي انه كان في حالة اثارة وتهيج ، هي في الواقع وفي اغلب الاحيان ابعد بكثير من ان تتنازعه في مثل هذا الوقت . فلم يقل أحد قط أن هــذه الحملة كانت ضرورة لا يمكــن تجنبها ، أو كانت لها مبرراتها — لم يقل احد شيئا من ذلك عندما كانوا يلهثون من حرارة الصيف في مصر العليا — لقد كانوا في الواقع ، يمقتونها وكانوا يتشوقون لنهايتها . ولذلك فلم يكن غريبا أن يحدث تذمر بين الصفوف، عندما تزعزع السكون في يوليو سنة ١٧٩٩ ، وظهر مــراد فجأة مــن الفيوم ، كأنه جان من الشرق — وكان واضحا انه متجه نحو الدلتا .

فما كان من ديسيه الا ان هب في اثره ، وفي نفس الوقت تحركت قوة أخرى من القاهرة لتعترض طريقه قبل ان يصل الــدلتا . وكانــت الدلائل تشير الى انهم قد تمكنوا من ايقاعه في الفــخ . وكان الثالــث والعشرون من يوليو يوما رهيبا ، فقد وصلت الأخبار أن مرادا كان على مشارف الاهرامات ، فخرج بونابارت مسرعا الى مسرح الاحداث .

وأثناء الأحد عشر شهرا التي قضاها ديسيه بعيدا عــن القاهرة ، وقع لبونابارت من الاحداث ما يجعلنا نشيد بمقدرته على التحكم في اعصابه ، ومقدرته على الاحتفاظ بالمبادرة . بل انه مما يستوجب الدهشة ان نرى انه تمكن من ان يعيش حتى الآن ، فقد ظل طيلة هذه المدة دون ان تصله اية امدادات من فرنسا ، بينما كانت تركيا وانجلترا قد تواطأتا عليه وشددتا من الحصار المضروب على السواحل المصرية . ومع ذلــك فقد تمكن من اخماد تمرد خطير وقع بالقاهرة ، وقام بحملته المشئومة على سوريا ، حيث اوقف تقدمه الاتراك بمساعــدة السير « سدنــي سميث » عند مدينة عكا . وها هو يعود الى القاهرة ، كأن لــم تهزه الاحداث ، وجيشه لا يزال كما هو تقريبا ، في نفس قوته وعدده وعتاده

لم يفقد منه الا القليل ، كما ان مصر لا تزال تحت سيطرته . وظهرت اشاعة عن غزو تركي على الابواب ، ولكنه كان واثقا كل الثقة من ان أفضل ما يفعله الآن هو أن يوجه كل اهتمامه للقبض على مراد .

الا انه قد تأكد ، في هذا الوقت ، ان اشاعة نزول القوات التركية قد كانت صحيحة كل الصحة . فقد كانت هناك قوة مكونة من ستين سفينة نقل ، عليها جيش مكوّن من عشرين الف رجل ، في طريقها الى خليج ابي قير ، بالقرب من الاسكندرية . كما ان مرادا كان قد وصل الى الشمال بنية الانضمام اليها . وليس من الواضح تماما كيف حصل مراد على اخبار القوات التركية وقرب وصولها ، الا انه من المؤكد ان زوجته فاطمة ، قد كانت لها يد في ذلك ، فقد كان لها نشاط بارع في القاهرة . والحقيقة ان بونابارت بعد ان سمح لها بالعودة لمنزلها في المدينة ، كان ان ارسل « يوجين » — ابن زوجته — لمقابلتها ، فكانت حريصة على ان يحمل فكرة طيبة عنها . وعاد « دي بوهارمي » الصغير ليقص كيف انه استقبل استقبالا كريما من سيدة لا يقل عمرها عن الخمسين سنة ، ومع ذلك كانت على جانب كبير من الجمال ، وتحتفظ في دارها بما لا يقل عن الخمسين رأسا من الرقيق . وكيف انه دعي الى جناح الحريم — فقد كان هذا تشريفا نادرا لا يعادله تشريف — وهناك بولغ في اكرامه بتقديم القهوة والشربات . وفي نهاية المقابلة نزعت فاطمة من اصبعها خاتما قيمته الف جنيه ذهبي ، وقدمته كهدية له .

واذا لم يكن بونابارت قد انخدع بكل هذا ، فهو على الاقل قد تأثر به غاية التأثير ، فارسل يخبرها في شيء من التعاظم والتعالي ، انها اصبحت تحت حمايته ، ولن يمسها أحد بسوء بأي حال من الأحوال [1].

---

(١) كتب بونابارت الى قائد الحامية ، ذات مرة يقول : « لقد ساءني يا عزيزي القائد المواطن ان اعلم ان زوجة مراد بك تشكو سوء المعاملة ... وان كبير اغواتها قد اعتدى عليه بالضرب . ارجو التحري عمن فعل ذلك وان تضعه في الحراسة . حاشية المؤلف

ولم تتأخر من الاستفادة من هذا الموقف ، فكان رسلها في ذهاب وایاب مستمرين بين منزلها والقسطنطينية من جانب ، وبينها وبين زوجها من الجانب الآخر . ومن المحتمل انها كانت تحيك مؤامرة لقيام تمرد ضد الفرنسيين بمجرد نزول القوات التركية بابي قير . وفي الثالث عشر من يوليو كانت ، على اغلب الظن ، في ضيعتها بالجيزة ، ويقال ان مرادا — بسابق اتفاق معها — قد صعد الى اعلا الهرم الاكبر وتفاهم معها عن طريق الاشارة .

وحانت الساعة التي يجب فيها ان ينقضوا عليه وينزلوا ضربتهم ، وكان بونابارت يقوم فعلا بتوزيع قواته عندما حمل اليه الرسل اخبار نزول الأتراك . فسر مراد لأن يرى الفرنسيين يستديرون فجأة زاحفين نحو الساحل .

لم تكن معركة ابي قير هي اعظم الانتصارات التي حققها بونابارت في حياته العسكرية ، بل لم تكن شيئا قريبا من ذلك ، ولكنه من المؤكد انه لم يخض معركة بلغ فيها الخراب والتدمير والخسائر ما بلغته هذه المعركة . ففي العشرين من يوليو وصل الرحمانية ، وتوقف بها ليوم او يومين في انتظار قواته الاحتياطية . ثم تقدم مباشرة الى ابي قير في عشرة آلاف جندي والف من الخيالة . وكان الاتراك قد سبق وأبادوا الحامية الفرنسية ، وأقاموا لهم رأس جسر على الشاطىء الرملي . والظاهر ان تسليحهم كان ضعيفا ، فلم يكن بين قواتهم سلاح للفرسان او المدفعية الحديثة ، كما ان بنادقهم كانت من غير سنان . وفي فجر الخامس والعشرين من يوليو انقض عليهم بونابارت . وفي المجزرة التي اعقبت ذلك فقد الاتراك نحوا من خمسة عشر الف رجل بين قتيل واسير وغريق ، وهؤلاء الاخيرون غرقوا وهم في فرار بلغ غاية الرعونة من شدة الفزع . اما القائد التركي — مصطفى باشا — فقد اسر وهو داخل

مخيمه ، واما الهزيمة فقد كانت ساحقة لم يمن بمثلها حتـى المماليك . هذا — ولا يمكن لنلسون نفسه ان يدعي انه حقق نصرا مؤزرا كهذا في حياته ... وعندما سمع مراد بهذه الاخبار قفل راجعا الى مصر العليا وديسيه لا يزال في اثره .

واخذ الاعياء يفت من عضد المماليك ، ففي اوائل اغسطس باغتهم ديسيه وهم في معسكرهم بعيدا عن النهر ، عند قرية سمهـود ـ نفس المكان الذي حدثت فيه المناوشات قبل ستة اشهر — وكان مراد على وشك أن يقع في أيدي الفرنسيين لولا أنه فر تاركا سلاحه وملابسه ، وحتى نعليه قد وجدا داخل خيمته . وبعد ان دارت معركة قصيرة حامية، وصلت رسالة من زوجته فاطمة تقول فيها ان زوجها مستعد للمفاوضة . وقد وافق ان يضع نفسه تحت خدمة الفرنسيين ، كمـا جاء في شروط التسليـم .

كان هذا في اواسط اكتوبر ، وحق لديسيه ان يستعرض ما حققه في شيء من الزهو والفخار . اما اولئك المماليك الذين لم يستسلموا مع مراد فقد اصبحوا معزولين في صحراء النوبة ، لا حول لهم ولا قوة ، بينما ساد السلام طول ارجاء النهر من بيلك الى القاهرة . ففي اقـل من سنة ، وبقوة لا تتعدى الخمسة آلاف رجل ، تمكن ديسيه من اخضاع اقليم تبلغ مساحته نصف مساحة فرنسا .

* * *

الباب الثالث

الأتراك في السودان

الفصل التاسع

حياة الاجرام الكبرى

« إن القطر الذي يحكمه طاغية أشبه
بمخروط قلب رأساً على عقب » .
حياة جونسون لبوزويل

نحن في هذا الكتاب تتتبع مجرى النيل ، ولذلك فلن نفعل في هذا الفصل أكثر من القاء نظرةعابرة على مجرى الأحداث في مصر ، في ظرف العشرة سنوات التالية . فبعد واقعة «أبي قير» مباشرةوصلت أول أخبار لبونابارت من فرنسا ، ولكنها كانت أخبارا مفزعة . فالجيش الفرنسي متقهقر في ايطاليا ، والأتراك قد احتلوا جزائر « الأيونيان » ، ومالطا قد ضرب عليها الحصار ، والحالة السياسية في باريس مضطربة . فقرر أن يعود لفرنسا تاركا شئون القيادة في مصر لكليبر .

واتخذت الاحتياطات اللازمة لهربه في سرية تامة ، فأعلن أنه سيقوم ومعه بعض العلماء والقواد برحلة تفقدية بمصر السفلى ، ثم اجتمع للمرة الاخيرة مع « لاييلليلوت » واخبرها بانه سيعود بعد اسبوعين . وبعد منتصف ليلة الثامن عشر من أغسطس سنة ١٧٩٩ مباشرة ، كان على ظهر اليخت «بولاق» في طريقه للاسكندرية ، وكان ذلك بعد مضي ثلاثة أيام من عيد ميلاده الثلاثين ـ وكان في رفقته مونج وبيرتوللي ودينو ومارمون ولاينه وبيرنيه وبوربين وMورا ويوجين دي بوهارنيه وآخرون . كما كان معه احد اسرى المماليك ، وقد اخذه لعرضه

بفرنسا . ومعظم مـن اصطحبوه كانوا لا يعلمون شيئا عـن وجهتهم
وكانت السفينتان «موريو» و «كاريير» في انتظارهم بالاسكندرية.
وكان بونابارت عازما على مقابلة كليبر عند رشيد ليطلب منه ان يتولـى القيادة في مصر ، غير انه في يوم أغسطس نُصح له بأن يبحر مباشرة لأن الرياح كانت تهب في صالحهم ، ولأن السفينتين البريطانيتين اللتـين كانتا تتربصان بالقرب مـن الاسكندرية ، قد ذهبتا لقبـرص لتتزودا بالمؤن . فلم يكـن أمامه مـن الوقت إلا ان يكتب لكليبر قائـلا : « عندما اصل الى باريس سأطرد هذه الطغمة مـن المحامين الذيـن يسخرون بنا ، والذيـن تعوذهم الكفاءة بشئون الحكم في الجمهورية . كما أني سأجمـد هذه المستعمـرة الرائعة » . ونصحـه بأن يثبـت في مواقعه حتى تصله التعزيزات اللازمة ، ولا يدخل في مفاوضات مـع الأتـراك إلا اذا فشلت التعـزيـزات مـن الوصول اليـه قبـل مايو سنة ١٨٠٠ او اذا فقد ما لا يقل عـن الألف وخمسمائة رجل مـن تأثير الطاعـون .

وفي الصباح الباكر مـن يوم ٢٢ أغسطس صعد بونابارت ظهـر السفينة « موريو » التي كانت عند شاطىء العجمي ، وهو نفس المكان الذي نزل فيه عند وصوله مصر قبل أربعة عشر شهراً . واتفق جميع من رافقوه على ان القائد الأعلى كان في أحسن حالاته المعنوية طيلـة الرحلة ، رغم ما كان حفه بها مـن الأخطار . وجـرت بهم السفينتان بالقرب من الساحل الشمالي لافريقيا نحو رأس «بون» ، وكـان بونابارت يشارك رفاقه لعب الورق احيانا ، واحيانا اخرى يتناقش مـع مونج في علم الهندسة والطبيعة . هذا ـ وقد أطلعهم جميعا على مـا خططه مـن مشاريع للمستقبل . واستمرت بهما السفينتان دون أن تقع أعينهم على أية سفينة أخرى الى أن وصلوا كورسيكا . وفي التاسع من اكتوبر ، أي بعد سبعة أيام مـن قيامهم من مصر ، أبحروا من كورسيكا

مخترقين الحصار البريطاني نحو رأس روفائيل . وبعد شهر كان بونابارت دكتاتورا على فرنسا .

اما كليبر فقد وجد نفسه مهملا في مصر ، وكان مستاء لذهاب بونابارت ، فرأى انه ليس من العقل في شيء ـ وكان محقا في ذلك ـ ان ينتظر حتى يفتك الطاعون بالف وخمسمائة من رجاله . فما كادت تلك السنة تنقضي الا ودخل في مفاوضات مع الأتراك « وسدني سميث » بالعريش ، وتوصلوا الى اتفاق بأن يغادر الفرنسيون مصر ويحملوا معهم جميع أسلحتهم ، وان يعاملوا معاملة عسكرية كريمة . وكانت هذه هي أسعد نهاية يمكن أن يسوّى بها الموقف ، ولكنها كانت أقل بكثير من ان تشبع الضغائن والأحقاد المتأججة ، كما ان الحكومة البريطانية كانت تتوقع شروطا أكثر شدة ، فرفضت هذه الاتفاقية . وكان ذلك في منتهى الغباء لأنها حكمت بذلك على مصر بأن تستمر في قلاقلها لثمانية عشر شهراً اخرى . وأخيرا وبعد أن مات عدة آلاف من الرجال ، وجد البريطانيون انفسهم مضطرين لقبول نفس الشروط التي سبق ان رفضوها في العريش .

ومن الحق أن يقال أن «بت» PITT لم ير خطأه إلا بعد عدة أشهر . وكان في إمكانه أن يعيد فتح باب المفاوضات ، ولكن كان الأوان قد فات ، فقد دمر كليبر ، في هذا الأثناء ، جيشا تركيا آخر ، كان قد حضر براً من سوريا ، كما أنه تمكن من قمع تمرد حدث بالقاهرة . ووضح الآن أنه اذا كان لا بد من إخراج الفرنسيين من مصر ، فلن يتم ذلك إلا بارسال جيش أوروبي لقتالهم .وأخيرا فيمارس سنة ١٨٠١ نزل جيش مختلط من الانجليز والأتراك بالقرب من الاسكندرية . ورغم أن الحامية الفرنسية بالاسكندرية قد صمدت لمدة من الزمن ، الا ان القاهرة قد سقطت دون مقاومة .

وظـن الكثيرون في ذلك الوقت ، انه مـن المدهش أن لا يبذل الفرنسيون غير مقاومة هزيلة ــ رغم أنه كان هناك تحت قيادة « بيار » نحو اثني عشر الف رجل ، بالاضافة الى كميات وافرة مـن المؤن والمعدات ــ غير ان الحقيقة هي انقضيتهم قد اصبحت خاسرة ، فقد سئم الجيش الفرنسي مصر ، وكان جميـع قواده الممتازين قد ذهبـوا لفرنسا ، كمـا ان كليبر كان قد اغتيل على يد احد المتطرفين ، وهـو على شرفة منزل الفي بك بالقاهرة ، وذلك في الرابع عشر مـن يوليـو سنة ١٨٠٠ ، وهو نفس اليوم الذي قتل فيه ديسيه في « مارنجو » بعد ان تمكـن مـن اللحاق ببونابارت بأوروبا . اما مراد فقد ظل وفيـا لعهده ومخلصا لحلفائه الفرنسيين ، وقد كان فعلا في طريقه من مصر العليـا لمساعدة ديسيه ، عندما عاجلته المنية بالطريق متأثرا بالطاعون . ثم نزلت قوة بريطانيـة اخرى ــ قادمة من الهند ــ على شواطىء البحر الاحمر ، كما هبت ثورة مسلحة في جميع ارجاء الدلتا ، فلم يكن امام بيلليار إلا أن يستسلم ومعه ما لا يقل عـن الاثني عشر ألف رجل ، فتر حماسهم وتزعزعت روحهم المعنوية . ومما شجعهم على التسليم ان البريطانيـين وعدوا بترحيل الجيش الفرنسي لوطنه .

وكانت المناظر الأخيرة للحمـلة مأساة تناقض روعة تألقها عنـد مجيئها اول مرة . ففي الخامس عشر من يوليو سنة ١٨٠١ ، خرجـت طوابير الفرنسيين من القاهرة ، متجهة نحو القوارب التي كانت تنتظرهم عند بولاق لتحمـلهم الى رشيد .وكان موكبا عجيبا ، ضم الجنـود والخدم والنساء وما تبقى مـن التجار المغامرين ، وسار الجميع مطأطئي الرؤوس حسرة والما ــ وبينهم المرضى محمولين على الاكتاف ، والحمير محمـلة بالمتاع ، ثم بدأ السلب والنهب . وأخيرا أحضر جثمان كليبر ــ وسبق ان حنّط ووضع داخل نعشه ــ وحمـله قارب في المقدمة ، نكس عليه علم أسود . وبحلول اكتوبر سنة ١٨٠١ كان آخر جندي فرنسي قد

غادر الاراضي المصرية . ثم تبعتهم الى اوروبا ، القوات البريطانية التي أخرجتهم من مصر .

لقد كانت نهاية محزنة لمغامرة عظيمة ، تركت اعتقادا بان بونابارت لم يحقق شيئا يستحق الذكر في مصر . فقناة السويس لم تشق بعد ، والشوارع وشبكة القنوات التي خططت في البداية قد اهمل امرها تماما فيما بعد . ثم القانون العسكري الذي وضعوه ،والموازين والمكاييل التي فرضوها ، والمستشفيات التي انشأوها ، والخزانات التي صمموها ، وتعداد السكان الذي اجروه ـ كل ذلك نُسِيَ أو تنوسي . أما عن تطلع بونابارت لغزو الهند وفتح الامبراطورية العثمانية فقد تبخر كلية، كما تبخر بالون «كونت» المثلث الالوان .

غير أن هذا الادعاء ليس فيه إنصاف للحقيقة أو الواقع ، فجميع مشاريع بونابارت لادخال الحضارة الغربية لمصر قد أنجزت فيما بعد ـ فقناة السويس قد شيّدها رجل فرنسي بعد نصف قرن ـ وما قام به العلماء من أبحاث ودراسات قدملأ فراغا كبيرا في معارفنا ، ظل شاغرا منذ العهود الرومانية . ولم تترك ناحية من نواحي الحياة في مصر الا وضمّنت في أثرهم الخالد المكون من أربعة وعشرين مجلدا ، اطلق عليها عنوان «وصف لمصر» . اما الرسومات البيانية ، فرغم أنها كانت ادق من الواقع بكثير ـ اذ ان الاعمدة المتساقطة وتيجانها المهشمة قد أعيد بناؤها في هذه الرسومات ، كما انهم في قسم التاريخ الطبيعي حرصوا على أن تظهر النسور بمظهرها الطبيعي فأعادوا كل ريشة الى موضعها ـ رغم ذلك فهي تعطينا صورة واضحة لهذا القطر ، لم تعادلها صورة له حتى الآن . لقد سِفرهم هذا مرجعا عظيما ، استفاد منه كل فاتح اتى من بعدهم في القرن التاسع عشر . وقد كان احصاء صادقا لمصر ، وتعريفا دقيقا بها ،وحتى المواضع التي جانب فيها

الدقة ، قد كانت حافزا لمزيد من الاهتمام . هذا ــ وعندما بدأ «شامبليون» علم الدراسات المصرية في اواخر سنة ١٨٢٠ ، بازاحته الستار عن مدلول الكتابة الهيروغليفية التي وجدت على حجر رشيد ، فتح لنا بذلك طريقا نرجع به الى الماضي البعيد [١] .

إلا أن أهم ما أحدثه الفرنسيون من أثر في مصر ، كان تأثيرهم على مستقبل الحياة السياسية فيها . فكأي بقعة في الارض اكتشفت فيها آبار للنفط ، او كأي طريق عام وجدت به كميات ضخمة من الامتعة القيمة المهملة ، اذا بها فجأة تصبح قطرا عظيم الأهمية ، عظيم القيمة . وفي نفس الوقت لم يعد في امكان بريطانيا انتنظر للهند كقطر ناء ينزوي في أمن وسلام عند نهاية الطريق الطويل الذي تدور حول رأس الرجاء الصالح ، فقد أصبح من الممكن الآن ان تهدد تهديدا مباشرا من مصر ، كما ان البحر الأحمر لم يعد طريقا ثانويا لا اهمية له ، فقد اصبح الآن طريقا قصيرا مباشرا بين الشرق الأقصى واوروبا . ولذا فلم يكن من المعقول ان تسمح انجلترا ــ بعد الآن ــ لأي عدو بالبقاء في مصر . وإذا كانت هي راغبة عن احتلال هذا القطر ، فقد كان لزاما عليها ايضا أن تمنع الفرنسيين من البقاء فيه . وبناء عليه فقد اضطرت أن تدخل تدريجيا في البحر الأحمر ، وأن تجوب ببوارجها مياهه ، ثم تنشىء لها قواعد على سواحله . كما رأت أنه من الضروري أن تضمن بقاء اثيوبيا كدولة مسالمة لها . ولجميع هذه الاسباب فقد أدرجت هذه الاقطار الثلاثة التي يرويها النيل ، والتي تقع ما بين بحيرة

---

١ ــ يوجد حجر رشيد الآن بالمتحف البريطاني بلندن . ففي سنة ١٨٠١ نقل من القاهرة للاسكندرية حيث سلم للبريطانيين . الا ان بونابارت ، قبل قيامه من مصر ، كان قد أمر بأن تطبع منه صور . ومن احدى هذه الصور كان ان قام شامبليون بدراساته للكتابة الهيروغليفية واماطة اللثام عنها .

حاشية المؤلف



محمد علي

تانا والبحر الأبيض المتوسط ــ مصر والسودان وأثيوبيا ــ أدرجتها جميعها في تخطيط جديد في مجال السياسة الدولية . واخيرا ، وعندما فشلت في الحفاظ على حيادها بالطرق الدبلوماسية ، كان لا مفر من الدخول في حرب من اجلها . وما حدث فيما بعد من احتلالها لكل من مصر والسودان ومن غزوها لاثيوبيا كان نتيجة غير مباشرة لحملة بونابارت في مصر .

ولعل هذه الاشياء لم تكن واضحة تماما في سنة ١٨٠١ ، لانها في الواقع قد احتاجت الى كثير من المناورات السياسية المعقدة التي استمرت الى ما يقرب من القرن قبل أن يعرف مرماها وتظهر نتائجها. غير ان سلسلة المشاكسات التي دفعت بعجلة الأحداث في هذا الاتجاه ، كان قد بدأها بونابارت دون أدنى شك . فقد كان يتمتع بالنظرة الثاقبة نحو المستقبل ، وكان هو السبب المباشر لان تصبح مصر ويصبح وادي النيل محكًا للقوى بين خصومات الدول الغربية ، الشيء الذي استمر في شكل او آخر حتى يومنا هذا .

اما الشخصية الثانية التي كان لها أهميتها والتي ظهرت على مسرح الاحداث في وادي النيل ــ محمد علي ــ فيمكننا أن نقول انه كان الخلف المنطقي لبونابارت . والحقيقة ان محمد علي قد أعلن بنفسه انه كان متأثرا الى درجة بعيدة ببونابارت . وكانت هناك اوجه شبه كثيرة بين الرجلين . فقد كانا في نفس العمر ، وكلاهما بدأ حياته بداية غامضة (مثل كثير غيرهما من الدكتاتوريين) في الاقاليم ، وكلاهما انقلب الى متمرد يرعى مصالحه الشخصية،واخيرا فإن كليهما قد انشأ امبراطورية عظيمة ، وأدار شئونها في سهولة ظاهرة ــ فكأنما خلقا ليسوسا منذ البداية .

ونحن لا نعرف عن حياة محمد علي الاولى كثيرا . وكل ما نعرفه عنه هو انه تركي الجنسية ، ولد في سنة ١٧٦٩ بميناء « كافالا »

من اعمال ما يعرف الآن باليونان ، وانه كان من صغار موظفي الحكومة ، وانه تزوج من احدى بنات عمدة المدينة وانجب منها ثلاثة اولاد ، هم ابراهيم وطوسون واسماعيل [1] . وعندما نزل في مصر لأول مرة ، كان متطوعا في الجيش التركي الذي نزل في أبي قير سنة ١٧٩٩ . وكان من بين الذين نجوا من الموت لأنه لاذ بالفرار الى البحر ، ويقال أن زورقا بريطانيا قد انتشله . وعلى اي حال فقد أنقذ ، ولم يعرف عنه بعد ذلك شيء الى ما يقرب من السنتين ، الوقت الذي كان فيه بطله بونابارت ، يقوم بغزوه للدول الاوروبية . ثم نسمع عنه مرة اخرى وهو زاحف مع فرقة البانية عند انهيار الجيش الفرنسي ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت له القاهرة موطنا ، ثم قاعدة لامبراطوريته الحديثة .

وكانت بداية هذه الامبراطورية ــ كما كان لزاما أن تكون ــ سلسلة من التطورات العنيفة المهووسة . فبعد ان أنهى الفرنسيون حكم المماليك ، لم ينتظروا المدة الكافية في مصر ليقيموا نوعا آخر من الحكم مكانهم ، كما ان الانجليز لم يحاولوا شيئا من هذا اطلاقا . وبعد ان غادروا البلاد في سنة ١٨٠٣ ، أصبحت مصر خاضعة لتركيا اسميا فقط ، الا انه لم يكن قد تقرر شيء واضح بخصوصها ، فخلقوا بذلك فراغا من ورائهم . والشيء الوحيد المؤكد عن هذا الموقف هو ان الفئات المتنازعة ، ممن بقي حيا من اتراك ومماليك ، تسابقت نحو ذلك الفراغ وهم متباغضون متناحرون الى درجة الغباء . ولم يكن هناك امل في تسوية سلمية ، فالمماليك كانوا مصرين على استعادة ما سلبه

---

١ ــ بلغ مجموع ذرية محمد علي من زوجته هذه ومن زوجاته الاخريات خمسا وتسعين نفسا ما بين ذكر وانثى .

حاشية المؤلف

منهم الفرنسيون ، بينما رأى الأتراك ـ الذيـن حاولوا مرارا وتكررا في الماضي الاطاحة بالمماليك ـ رأوا الآن ان فرصتهم سانحة .

ولا يستطيـع أحد ، غير العاطفيين مـن هواة المؤامرات الشرقيـة العنيفة ، ان يتتبع في شيء من الاهتمام ، الاحـداث التـي جـرت في القاهرة في ظرف الست سنوات التالية . فقد اشتعلت حرب أهليـة في أبشع صورها ـ حرب تساوت فيها كفتا الميزان بين طرفي النزاع ، كما تساوى فيها مبلغ تعصبهم وتطرفهم . وما تتابع فيـها مـن مؤامرات ومجازر دموية بمنطقةالدلتا ، كان شيئا لا معنى له ولا جدوى منـه ، وهي أشبه ما تكون بحروب أباطرة بروس الصوريين في أثيوبيا . وكان الأتراك يسيطرون اساسا على المدن ، بينما سيطر المماليك علـى مصر العليـا والأرياف . وبما ان الحروب الاهلية تنتهـي دائمـا بقيـام دكتاتوريـات ، فلم يبق الا عامل الزمن ليظهر زعيم اكثر حنكة واشد قسوة مـن غيره ليتولى زمام الامور . ولو لم يكـن محمـد علـي موجودا لخلق محمـد علي آخر مـن العدم ، ولكنه قد كان موجودا ، وقد أوجد نفسه بطريقة غامضة مضطربة لم يتوقعها احد . وعندما بـرز اخيرا مـن بين ضحايا المجازر ، اعاد شيـئا من الوضوح على الموقف ، ثم وضع مصر على الدرب الذي ظلت تسلكه بوجه عام ، حتى يومنـا هذا .

فعندما خرج الانكليز مـن مصر كان محمـد علي يلعب لعـبة ماكرة . كان آنذاك قد حصل على قيادة فرقة البانية ، زاد عددها فيما بعد الى أكثر من عشرين ألف رجل . وبواسطة هذه الفرقة ـ التـي اصبحت فيما بعد تشكل حرسه الخاص ـ كان يؤيد كـلا الطرفـين ـ الأتراك والمماليـك ـ بينما يدعي أنه ليس أكثر من رئيس للبوليس عليـه ان يحفظ الامن والنظام في العاصمة ، وفي نفس الوقت يـدعي

انه صديق مخلص للمصريين . وليس مــن الصعب على مــن درس حياة رواة القصص وزعمـــاء الأحزاب ، أن يتبين هنا ما كان يقوم به هـــذا الرجل الداهيـــة مـــن مناورات ، كلها مكر وكلها قسوة لا رحمة فيها . اذ كان يقبع في مكان جانبي ، وعيناه جاحظتان في برود تام لا ترمشان ابدا ، كأنهما عينا صنب . فاذا مـــاسنحت الفرصة المؤاتية انقض على فريسته دون تردد . لقد كان العصر عصر فتك وتهور ، ولكـــن محمـــد علي كان فتاكا دون ان يكون متهورا ، فلم يحاول ان يزحزح حجرا أكبر من طاقته قط ، ولم يتباهى بانتصاراته ابدا ، كما لم يرحم عدوا بـــأي حال من الأحوال . لقد كان متضلعافيما أسماه الاستاذ«دودول بروف» Dodwell Prof. «حياة الاجرام الكبرى التي تقوم في الشرف مقـــام السيـــاسة » .

وفي سنة ١٨٠٥ شعر بانه مـــن القوة بحيث يستطيع اعلان خطته ، فبعد أن ضمن تأييد المشايـــخ له ، حاصر القلعة وأسر الوالي التركي ، ونصب نفسه مكانه . ثم ارسل رسالة لَبِقَة للقسطنطينية قال فيها انه تسلم زمام الامور بصفة مؤقتة فقط ، حفاظا على الامن والقانون . وفي السنة التالية ، عندما يئس الباب العالي مـــن ايجاد شخص آخر مناسب ، اقر تعيينه واليـــا على مصر وخلع عليه لقب الباشوية .

لقد كان الفرنسيـــون هم الذيـــن خلقوا الظروف الملائمة لبروز محمـــد علي ، وكان الانجليز هم الذين أمنوا مستقبله . ففي مارس سنة ١٨٠٥ دخلت تركيـــا في تحالف مع فرنسا ، فقام الانكليز بانزال جيش آخر في مصر كجزء من خطة عامة ضد بونابارت . وكـــان الغرض مـــن انزال هذا الجيش هو مساعدة المماليك ضد محمـــد علي ، ولكنه كان تفكيرا سخيفا وعمـــلا أسخف . فالخمسة آلاف جندي الذيـــن ارسلوا في هذه الحمـــلة كانوا مـــن غير البريطانيين ، وكانت قيادتهم فاشلة . ثم ان المماليـــك لم يكونوا نفس اولئك الرجال البواسل الورعين كمـــا

تصورهم البريطانيون . لقد منع الأتراك عنهم مددهم من الرقيق البيض الذي كان يأتيهم من جورجيا ، فاصبحوا شعبا آيلا الى الانقراض ، مشغولين بكفاحهم اليائس من اجل البقاء ، ويحتقرون الاجانب دون تمييز . وقد كتب عنهم القنصل الفرنسي «دروقتي» ما معناه : « لم يعد لدى جميع البكوات مجتمعين أكثر من ثمانمائة مملوكا . اما باقي جيشهم فقد كان لقيطا من اليونانيين والعثمانيين والاعراب الذين اغراهم الامل في السلب والنهب بالانضمام اليهم . كما ان المماليك لم يعودوا اولئك الرجال الشجعان ، المستعدون لبذل ارواحهم في سبيل أسيادهم بل لم يعد لهم نظام او تنظيم . وبلاط البكوات الذي كان في يوم من الأيام عبارة عن مدرسة للتدريب العسكري والترويض الاخلاقي ، اصبح الآن مصدرا للفجور والعصيان . وقد حط من قدرهم ما صاروا اليه كشرذمة هائمة على وجهها ، لاعمل لها غير السلب والنهب وقطع الطريق . وعلى أي حال فقد كان معظمهم في هذا الوقت بالذات ، منزويا بعيدا في مصر العليا ، ولم يكن لهم عزم في الزج بأنفسهم في مغامرة خطرة كهذه .

وعليه فقد اضطرت القوة البريطانية ، على ضعفها ، أن تقاتل منفردة بالقرب من ساحل الاسكندرية . فلم يجد محمد علي أية صعوبة في حصرها عند الشاطىء بعد معركتين عنيفتين ، فقد الانجليز فيهما الفا من رجالهم بين قتيل واسير . واجبر كل من كان يستطيع السير من الاسرى ان يحملوا رؤوس القتلى من زملائهم حتى القاهرة . وهناك بيع الاسرى في المزاد العلني كعبيد ، بينما وضعت رؤوس القتلى على صفين من الشواخص بميدان الازبكية ــ وكان عددها اربعمائة وخمسين رأسا ــ وفي الاسكندرية قام البريطانيون بدفع الفدية عمن امكنهم فداءه ، ثم اقلعوا راجعين .

لقد كان نصرا مؤزرا لمحمد علي من جميع الوجوه ، أظهر به

مبلـــغ قوته للاتراك مـــن جهة ، وجمع به حوله المصريين مـــن الجهة الاخرى ، ولم يعد له منازع في كل القطر غير المماليك الذين في مصـــر العليا . وبعد سنة ١٨٠٧ كان في استطاعته ان يقول في شيء من الثقة ، ان الدلتا على الاقل قد اصبحت تحت قبضته. وبغريزته الدكتاتورية التي فطر عليها، لم يتوان لحظة واحدةفيان يحيل الدلتا الى ضيعة خاصة له، فسنـــع التملك الخاص ، ثم رفع الضرائب ، وجند جيشا ضخمـــا عن طريق القرعة ، وعاد المصريون مرة اخرى ــ بعد حقبة مـــن الزمـــن قضوها في المعارك والحروب الاهلية ــ عادوا مرة اخرى الى حياة الهدوء والتعاسة تحت حكم الشرق الاستبدادي .

ومـــن فضول القول أن نذكـــر أن محمـــد علـــي لم يكـــن في عزمه ان يقف مكتوف الأيدي عنـــد هذا الحد . فقد درب أبناءه عـــلى شئون الحرب ، وكان الباب مفتوحا امامه نحو الجزيرة العربية ونحـــو السودان وسوريا واليونان ، وحتى تركيا نفسها كانت ضمـــن مطامعه . ولكن كان عليـــه ان يسوي حسابا أخيرا في مصر قبـــل ان يخوض في مغامرته وهو مطمئـــن البال ... وفي اول مارس سنة ١٨١١ دعا المماليك الى احتفال بالقلعة ــ وعلينا ان نلاحظ كيف ان مارس هذا شهر مشئوم في مصر ــ وبعد ان اطمأن المماليك لعبارات محمـــد علي المتكررة بأنـــه لا يكـــن لهم الا كل صداقة ومحبة ، ركب منهم نحو الخمسمائة رجل ووصلوا كتلة واحدة في الموعد المضروب . وكان هناك طريق ضيق يؤدي مـــن القلعة الى المدينة ، وبعد أن انتهى الحفل دعي المماليك ليسيـــروا راكبين في هيئة موكب على هذا الطريق . وكان يتقدمهم جماعة من حرس محمـــد علي ، كما سار جزء آخر من هذا الحرس في مؤخرة الموكب . وما ان توسطوا الطريق الا واغلقت الابواب في كلا الطرفـــين ، وقفـــز رجال محمد علي الى المرتفعات في كلا الجانبين ، ثم اطلقوا النار علانيـــة على الفرسان مـــن تحتهم . وهناك اشاعة قريبة مـــن الخرافة تقول بأن

بعضهم قد تمكـن مـن الهرب ، الا ان الأرجح انهم جميعا قد قتلوا في الحال ، او جزت رؤوسهم فيما بعد .وامتدت المجازر الى اتباعهم في طول القاهرة وعرضها ، وبلغ عدد القتلى في ذلك اليوم عدة آلاف . وزيادة في الاحتياط ارسلت فرقة تحت قيادة ابنه الاكبر ــ ابراهيم لابادة من تبقى منهم بمصر العليا ، الا أن حوالي الثلاثمائة رجل منهم قد تمكنوا مـن الفرار الى بلاد النوبة ، خلف شلالات النيل ، وكان هذا العدد هو آخر ما تبقى مـن المماليك تقريبا .

ويقول غربال : « ان هذه السنين تظهر لنا محمـد علي كأسوأ مـا يكون الطاغيـة فتكاً وقسوة وجشعاً ... وكانت كلمته نهائية لا رجوع بعدها . » وكتب لين Lane يقول : « كان احيانا يأمر باعدام أي فرد من رعاياه دون محاكمة ولو صورية ودون أن يوضح له الأسباب ، واشارة افقيـة واحدة من يده كانت كافية لضرب عنق ضحيته » .

كان محمـد علي في هذا الوقت قد بلغ الاربعين من عمره . ويصفه معاصروه بأنه كان صغير الجرم ، ضاربا الى السمرة ، له لحية ذهبيـة اللون يبدو عليه النشاط وسرعة الحركة أكثر مما تبدو عليه المهابة .ويقال انه كان في حياته الخاصة بسيطا ووديعا . وكانت عقدته في السلطة وليس الثراء ، ومع ذلك فقد كان يميل بطبعه لجمع التحف ، وبذلك وضـع تقليدا لذريته مـن بعده ، استمر معهم حتى تنازل آخرهـم عن العرش في اوائـل النصف الثاني من هذا القـرن . ففي سنة ١٨١١ كما في الخمسينيات من هذا القرن ، كانت قد تكدست كميات ضخمة مـن العملات الذهبية والمجوهرات وعلب النشوق وغيرها من التحف الاثرية القيّمة . وبالاضافة الى ذلك كان محمد علي يلجأ الى القسوة المتناهية في جمع الضرائب ، واذا ما تمنّع الفلاحون عن دفعهـا كانوا يجلدون بالسياط ثم يجردون من ممتلكاتهم .

وتوجد اليوم صورة لمحمد علي بالقلعة ، تظهره متربعا في ديوانه ، وعليه العباءة والعمامة وممسكا بمبسم نرجيلته ، بينماجلس مستشاروه من حوله في تبسط تام . والصورة تظهرهم يستمعون الى شخص من ذوي الظلامات ، والكاتب في ركن من الاركان يدوّن اقواله . اما الديوان فعبارة عن حجرة واسعة مظلمة ورطبة ، فرشت أرضها بالسجاد العجمي الفاخر ، ولا شك ان الصورة تدعو الى الاعجاب كلوحة فنية . فهذا هو محقق العدالة يجريها دون ان يزعجه شيء من قريب او بعيد ـ فلا هاتف ترن اجراسه ، ولا حركة تتعالى ضوضاؤها في الطريق العام ـ ان لديه متسعا من الوقت للتفكير دون ان يجرأ احد على استعجاله ـ هذا هو الخليفة يصرف العدالة بين رعيته .

فعلى اي المبادىء يكون المغامر مصلحا ويصبح السفاح رجلا محترما ؟ احقيقة اننا لا نشعر بالأمن والاطمئنان الا اذا اضطهدنا غيرنا وعذبنا الآخرين ؟ ثم ينقلب هذا الظلم الى رعاية وذلك الاضطهاد الى حماية ؟ لقد ذكر محمد علي نفسه شيئا من هذا في حديث له مع زائر اوروبي ـ وكان ذلك في وقت متأخر جدا ـ عن قصة استيلائه على الحكم فقال : « انا لا انظر بعين الغبطة لتلك المرحلة من حياتي . وماذا يستفيد العالم من الحديث عن تلك السلسلة الطويلة من المعارك والتعاسة والمكر وسفك الدماء ؟ الشيء الذي اكرهتني عليه الظروف اكراها .... ان تاريخ حياتي لن يبدأ الا اذا اتى الوقت الذي اجد فيه نفسي طليقا من كل العوائق لاتمكن من ايقاظ هذا الشعب من سباته الابدي » .

ونحن نعلم من خطابات محمد علي انه كان رجلا عصريا لابعد الحدود . وانه كان ثائرا على التقاليد ، موطدا العزم على ان يتم ما بدأه بونابارت من ادخال الحضارة الغربية لمصر . وكانت منشوراته لقواده ولولاة الاقاليم ، تحرر في احكام ووضوح لا تعرفهما المكاتبات الشرقية. ففي خطاب له لاحد مرؤوسيه قال : « لقد منحتك السلطة التامة لادارة

هذا الاقليم .... فلا تطلب موافقتي على أمور ليست ذات بال » . وكتب لقائده بالسودان في ظرف آخر : « أنت تعلم أن كل ما نرمي اليه من وراء هذه الجهود هو الحصول على الرقيق ، فالمرجو أن تبذل قصارى جهدك لتنفيذ رغبتنا في هذا الامر الهام ».أما اذا خولفتأوامره فيكون عندئذ في منتهى الشراسة ، ولكنه بعد انيكيل ما شاء أن يكيله من السب والتقريع ، لا ينسى ان يقول كلمة تشجيع ، وان يمس ظهر مخاطبه في حنان الوالد . وكان لا يشعر بالسعادة الا مع السلطة ، كما كان يعرف جيدا أسرار الطبيعة البشرية . ومن صفاته البارزة أنه لا يكل أو يمل ابداً ، وحتى بعد أن سيطر على نصف الامبراطورية العثمانية ، كان يظهر عليه أنه ملم بكل صغيرة وكبيرة .وما من قائد من قواده ، مهما بعد ، لا تطوله يده او تصل اليه اوامره . وقد كان الوحيد بين جميع حكام الشرق الذي عرف اهمية القوة البحرية .

وكان يرحب بجميع زائريه من الغرب ــ من بريطانيين وفرنسيين على السواء ــ ويستقبلهم بكل حفاوة واكرام دون استثناء . وقد اعترف جميع من زاروا مصر في ذلك الوقت بأن الأحوال العامة قد تحسنت تحسنا ملحوظا على يدي محمد علي ، وأيد ذلك الناقد الانجليزي المدقق « لين » . ويقول بيركهاردت Burckhardt الالماني انه لاحظ ان محمد علي كان يفيض في الانتقادات الساخرة عن كل من نابليون وولنجتون ، كما ان «كايو» الفرنسي قد اشاد بذكائه وكان محمد علي لا يتردد في ان يمنح الرحالة الغربيين ــ مهما كانت مكانتهم ــ لا يتردد في ان يمنحهم ما يحتاجون اليه من فرمانات ليرتادوا مناطق النيل العليا [1] ، فقد كان الغرب في نظره هو الطريق الوحيد نحو التقدم ،

---

١ ــ يطلق هذا التعبير في هذا المجال على مصر العليا لان السودان لم يظهر على الشاشة حتى الآن .

المترجم

وكثيرا ما كان يستدعي بعض المهندسين،من اوروبيين وأمريكان،ليضعوا له تصميمات الجسور والخزانات ، كما كان يطلب مـن ضباطهم تولي قيادة الفرق المصرية ، ومن علماء الجيولوجيا ان يبحثوا له عن الذهب . وكان يستقبل كلا من القنصل الفرنسي والقنصل البريطاني بحرارة فائقة، وفوق هذا وذاك كان دائما مستعدا لان يبحث مشكلة الرق وابطـال تجارة الرقيق .

اذن فالادلة امامنا قاطعة لان نعترف بأن محمد علي لم يأت الـى السلطة عن طريق الصدفة ، بل لانه كان يعلو شامخا فوق معاصريه ، ومن الواضح أن ابرز صفاته ــ وهي مقدرته على التحكـم في الظـروف والملابسات ومعرفته التامة بالرجال ـ كانت كامنةفيه منذ نعومة اظفاره. الا ان هناك مواضع للشك بأن اخلاقه قد طرأ عليها شيء من التغيير مع تقدمه في السن ــ فالطموح هو نفس الطموح ، وشهوة الحكم هي هي على ما كانت عليه ، مع فارق واحد هو انه ، اذا كان مشاغبا في صغره فقد اصبح الآن طاغية ، واذا حصل أن قتل في مشاجرة عامة على قارعة الطريق فهو الآن سفاح يعدم بالآلاف ، دون أن يتحرك شبرا من ديوانه الرطب بالقلعة . أما طريقته فقد تغيرت دون ادنى شك ، فهو الآن ــ وقد بلغ منتصف العمر ــ يتحدث مؤكدا معارضته لتجارة الرقيـق دون ان يمنعه ذلك من ان يكون أكبر تاجر رقيق في العالم .

ومع ذلك يجب علينا ان نكون منصفين لمحمد علي ، عندما نذكر كل ما تقدم ، وان نضعه في زمانه ومكانه . ففي اوائل القرن التاسع عشر، لم يكن في استطاعة اي رجل ان يحكم في الشرق الأوسط لخمس دقائق ، دون ان يكون عنيفا كعنف العصر الذي يعيش فيه ــ والحكم هـو الشيء الذي كانت تحتاج اليه مصر أكثر من اي شيء آخر ــ . فالغزو الفرنسي كان قد زعزع طريقة الحياة من جذورها ، وقلب اقتصاديات البلاد رأسا على عقب ، وعطل التقاليد والعادات للدرجة التـي تركت

معها اداء فريضة الحج . وها هو محمد علي يعيد نوعا من الاستقرار الى البلاد على الاقل ، ويخرجها من ظلمات العصور الوسطى . ومن الممكن ان يقال انه لكي يحتفظ بمكانته بين القلاقل العالمية التي اخذت تضغط على مصر لاول مرة منذ عدة قرون ــ كان لزاما عليه ان يكوّن جيشا عظيما ، وان يتوسع ، والا لكان مصيره هو نفس المصير الذي لقيه المماليك .

فبدأ فتوحاته في الجزيرة العربية سنة ١٨١١ . وهذا لا يهمنا هنا الا من ناحية واحدة ، وهي ان هذه الفتوحات قد استمرت لمدة سبع سنوات ، وانها رغم ما انتهت اليه باحتلال لمكة ، وبنصر شامل كامل ــ كأحسن ما يكون النصر لاي فاتح في تلك الصحارى الشاسعة ــ الا انه وجد نفسه في عوز شديد ونقص مدمر في المال والرجال . ولم يكن امامه غير مكان واحد لسد هذا النقص وملافاة ذلك العوز ، الا وهو النيل نفسه . فالرقيق والذهب متوفران في السودان . وقد تكون هناك موارد اخرى قيّمة لا يعلمها أحد حتى الآن .... لقد وصل الفرنسيون حتى اسوان ، والآن ــ وفي سنة ١٨٢٠ ــ قرر محمد علي ان يتوغل في تلك المتاهات الواقعة خلف اسوان .

* * *

الفصل العاشر

الشيخ ابراهيم بن عبدالله

اما مصر العليا فقد ظلت على حالها لم يمسها اصلاح او تغيير يستحق الذكر منذ ان غادرها الفرنسيون ، فقد انهار الحكم العسكري الذي اقامه ديسيه ، وعم المنطقة نوع من الفوضى والخمول . وكان المماليك اينما حلوا وهم في تجوالهم المستمر ـ كانوا يباشرون شؤون الحكم ، وكقطيع من الذئاب كانوا يشيعون الذعر والخراب ، ويجردون البلاد من نعمها وخيراتها ثم يرحلون الى جهة اخرى . فاذا ما تركت القرى لنفسها رضى اهلوها بسلطة مشائخهم وأولوهم ثقتهم وخضوعهم. ثم ان البدو كانوا يشكلون قطيعا آخر من الذئاب ، يجوبون الفيافي على جانبي النيل ويشنون الغارات على طرق القوافل ، مما استحال معه السفر دون سلاح الا اذا كان المسافر فقيرا معدما لا يلفت الانظار ، فالغريب هو عدوهم اينما حل او سار . وتدهورت الاحوال العامة على ضفتي النيل لدرجة يرثى لها ، وكتب في ذلك القنصل الانجليزي «ميست» Missett فقال : «وهكذا نرى ان ضفاف النيل التي كانت تفيض خيرا وبركة تتحول الى مواطن للتعاسة والشقاء » .

وسيطرت الشمس المحرقة على البلاد ، وتسلمت زمام الامور ، فلم يقم اي عمران، وتوقف كل نشاط ، وانطوت القرى على نفسها في خمول واهمال ، لا يتطلع اهلها الى اكثر من الطعام والعافية .

وفي سنة ١٨١١ بدأ اتراك محمد علي في اقامة سلسلة من المراكز

الادارية على النيل ، واستقر اكبر ابنائه ، ابراهيم في اسيوط كحاكم على كل المنطقة الواقعة جنوب الدلتا . ثم قام بشن غارة اخيرة على المماليك بابريم في بلاد النوبة ، ولكن بعد هذا ، لم يتجرأ احد من الاتراك على التوغل الى ما وراء بيلك ، الا اذا كان في سرية مغيرة . اما فلول المماليك فقد عرف انهم استقروا بدنقلا جنوب الشلال الثالث . وظل السودان ـ ذلك السهل المتسع القاحل الذي يمتد الى الف ميل نحو الهضبة الاثيوبية ـ ظل في عزلته لا يرتبط بالعالم الخارجي الا عن طريق القوافل التي تصل الى القاهرة مرة في كل عام او نحو ذلك . اما وراء جزيرة بيلك فلم يكن لاحد ان يعرف شيئا غير ما تردده التخرصات ، وما يكمن من خطر ، وما يسود من صمت شامل ، فقد ظلت هذه البلاد بعيدة عن تيار الحضارة الرئيسي كما كانت منذ الازل .

وبعد ان تقلد ابراهيم زمام الامور في مصر العليا ، استتب الامن ، وساد الهدوء ، وتطلع المستكشفون الاوروبيون ـ الذين كانوا يظهرون في كل شتاء كالسنجاب المتطفل ـ تطلعوا الى مواصلة سيرهم جنوبا الى ما وراء الشلال . ومن اوائل من ظهر منهم شخصان من البريطانيين ـ احدهم عضو في البرلمان الانجليزي يدعى «توماس لي» Thomas Leigh والآخر من رجال الكهنوت ويدعى «شارل سملت» Charles Smelt .

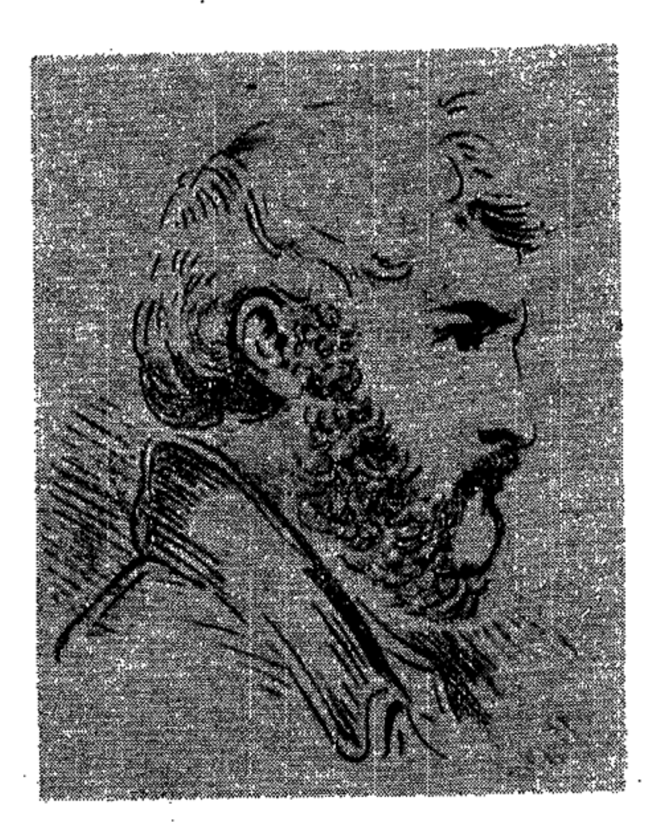
هذا ولم يضر الاستكشاف في القرن التاسع عشر ـ وفي افريقيا بالذات ـ اكثر من انه كان يأتي عفوا ، دون سابق دراسة او تخطيط ، فمثلا ، كان يتقابل بعض الاصدقاء ويتباحثون في موضوع رحلة الى الخارج : هل نذهب الى فيّنا ؟ ام نابلي ؟ ام جزر الكناري ؟ ـ ام هل تفضل افريقيا ـ نعم نعم ! افريقيا ـ بالطبع ـ فلتكن اذن افريقيا ... وهكذا قد اتفقوا على افريقيا وهم لا يعلمون شيئا عنها .... فلم تكن هنالك خطوط منتظمة للمواصلات البحرية ، ولا يمكنهم ان يجدوا من يخبرهم شيئا عنها او عن طقسها ، او عما يحتاجون اليه من أدوية في

الطريق ، او عن اللغات او الطعام او عن العملة او السكان . كما انه لم تكن هناك أية خرائط عنها . ثم يستمرون في جدلهم : « قد يتضح لنا كل شيء اثناء الطريق » . ثم يذهبون الى تاجر الاسلحة فيمدهم بما يحتاجون اليه من سلاح ، والى المصرف فيمدهم باذن على مصارف القاهرة ، ثم الى تاجر القبعات فيبتاعون ما يقيهم الشمس ــ وهي عادة قبعات لها ذوائب خلفية ــ ثم يندفعون خفافا فرحين ،كما لو كانوا ذاهبين الى جنوب فرنسا هربا من الشتاء الانكليزي . وهكذا كان الحال مع المستر « لي » والقس الموقر « سملت » . وسنلتقي فيما بعد بآخرين كالكاتب الروائي « فلوبرت » .

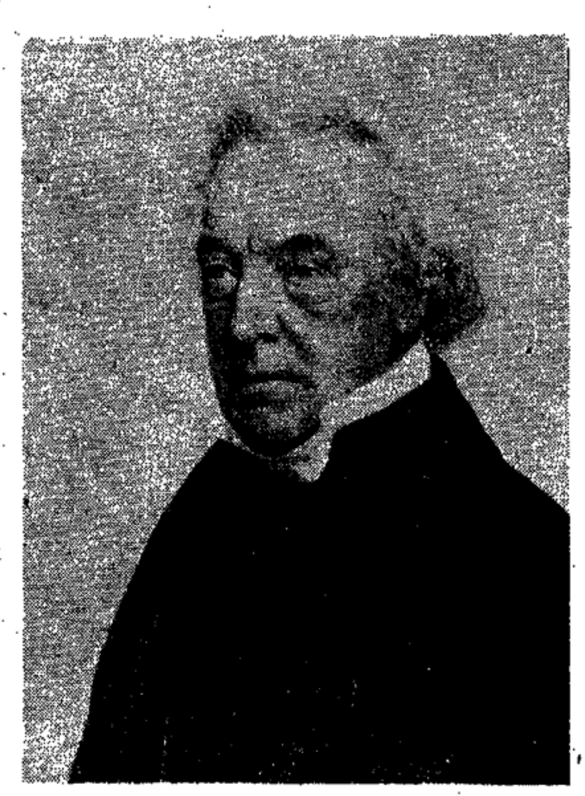
اما « لي » و « سملت » فلم تكن في ذهنهما حتى مجرد الفكرة في الذهاب لافريقيا ، عندما غادرا انجلترا . ويشرح «لي» في كتابه الصغير الممتع « قصة رحلة الى مصر وما وراء الشلال » يشرح لنا انه اثناء غليان بونابارت في اوروبا « كانت زيارة لاثينا والقسطنطينية تعوض المرء عن قضاء شتاء ممتع متهتك في باريس او فيينا او بيترزبرج » . وعليه ففي شتاء سنة ١٨١٢ ذهبا لتركيا ، ولم يتجه تفكيرهما نحو مصر الا بعد ان طردهما الطاعون من « اسميرنيا » .

وكما شاءت الظروف ، فان « لي » و « سملت » لم يسهما كثيرا في استكشاف بلاد النوبة ، الا ان عدم اكتراثهما بالرحلة ، وما صادفهما من حظ حسن (فقد صادف ان توقفت الحروب الاهلية في هذا الوقت في مناطق النيل العليا) ، كان فيه اغراء لغيرهما من العلماء الباحثين ليحذوا حذوهما . وعند وصولهما القاهرة استأجرا دليلا ، (لم يذكر عنه غير انه كان امريكي الجنسية وانه يدعى المستر بارثو) ، كان له عدة سنوات في مصر . وبعد أن زودهما محمد علي بالفرمانات اللازمة ، انطلقا على النيل حتى أسوان ، دون أن يعوقهما عائق أو تصادفهما متاعب . وهناك طافا بالآثار كما فعل دينو من قبل ــ وأعجبا بنساء

الجزيرة اللائي قال عنهن «لي» : « اذا صرفنا النظر عن مسألة اللون ، فان نساء هذه الجزيرة (بيلك) يتميزن برشاقة اجسامهن ، وهن بوجه عام ، أجمل نساء رأيناهن في مصر». ولم يجد « لي » اية غضاضة فيأن يبتاع عبدا صغيرا ، اصبح فيما بعد من افـــراد اسرة القس «سملت» بانجلترا . وبدلا من ان ييأسا لما قابلهما به النوبيـــون من عـــداوة ، باعتبارهما طلائع لجيش آخر ، استأجرا من بيلك زورقا بشراع واحد . وفي فبرايـر سنة ١٨١٣ ابحرا جنوبـا الى ذلك الجزء القفر الموحش من النيل ، الذي يقود الى القلعة الاثرية المشرفة على هضبة ابريم ، والتي تبعد نحو مائة واربعين ميلا من بيلك . فوجدا ان القرية قد هجرت بعد ان خربها المماليك الذين فروا من ابراهيم . ومن هنا قفلا عائدين ، واثناء عودتهما نحو الشمال سمعا في كثير من الغبطة ، بتقهقر بونابارت مـن موسكو ، ولكنهما حذرا بأن الطاعون قد انتشر مرة اخرى بالدلتا ، فقررا البقاء في المينيا حتى يزول الوباء . وهنا قضيا وقتهما في القيـــام بجولات قصيرة على ظهور الخيل أحيانا ، وأحيانـا اخرى بالذهـــاب للحمامات التركية ، وفي المساء كانا يشاهدان فـرق الراقصات المصريات التي كانت توجد حيثما وجدت حامية تركية على النيل ــ ورغم ذلك فقد تسرب الملل الى نفسيهما ، كما قال «لي» في شيء من البلاغة : « وبعد ان يتفقد الزائر كل ما يصادفه من آثار بالمنطقة ، وبعد ان يفقد كل طريف ما فيه من تسلية ومتعة ، تسري الى نفسه الكآبة والانقبـاض التي لا تعادلها كآبة او انقباض . وكلما تذكر المرء ان بقاءهفي احدىهذهالقرى التركية سيمتد ، وانه قد حكم عليه بحياة خاملة فاترة لا نشـاط فيها . حياة أشد ما يضاعف الكآبة فيها هو الحاجة الى الكتب ، وأشد مـــا يزيد السأم هو الثرثرة التافهة التي لا مفر له من سماعها ، بينما يحيط به الجهل المطبق . ثم ما يضطر اليه من تدخين مستمر واحتساء لاطباق القهوة على مدى الايام . فهذه هي المعالم الرئيسية لتلك الحياة الخاملة



Burckhardt بيركهاردت



Waddington وأدنجتون

الرتيبة التي يجد النزيل انه قد حكم عليه بها » .

والتقينا في المينيا برجل اسكتلندي اسمه « دونالـد ــ دونالد » Donnald - Donnald من « انفرنيس » كان قد أسر اثناء النزول البريطاني الفاشل عند رشيد ، قبل سبع سنوات ، وبيع كأحد الأرقاء ، ثم ختـن وأدخل الاسلام . وقد كان راضيا بحالته كما يبدو ، ولم تكن له ايـة رغبة في العودة الى المدنية . وبعد مضي عدة اشهر كانا في القاهرة مـرة اخـرى .

وهناك شخص آخر قابله «لي» و «سملت» في رحلتهما على النيل بمصر العليا ــ رأياه اول مرة في اسيوط ، ومرة اخرى عند عودتهما من ابريم ، الا انهما لم يستطيعا ان يعرفا عنه شيئا ، رغم انه كان يتكلـم الانكليزية والفرنسية بطلاقة . وكان واضحا انه رجل مثقف ، وأنـه يعرف اوروبا معرفة تامة ، ومع ذلك فقد كان يطلق على نفسه اسم الشيخ ابراهيم . وكان متأنقا في ملبسه على الطريقة التركية ، ويعامل في كـل مكان كأنه عربي . ولم يعرفا الا بعد عودتهما لانجلترا ، ان اسمـه الحقيقي هو « جون لويس بيركهاردت » Burckhardt وانـه كان موفدا من قبل جماعة اطلقت على نفسها اسم « جمعية تنميـة اكتشاف اواسط افريقيا » .ولم يكن بيركهاردت رحالة عاديـا ابدا ، فقد كان اديبا وعالما وله اغراض معيّنة نصب عينيه . وعندما رآه «لي» و«سملت» كان في رحلة لاستكشاف طبيعة النيل في السودان .

وبيركهاردت هذا كان من اصل سويسري ، ومن عائلـة ميسورة الحال في لوزان . ولا يمكن ان يتصور الانسان رجلا أشد غرابة منه ، فمكانه الحقيقي هو جامعة صغيرة ممتازة بالمانيا ، لما عرف عنه من تضلع في الآداب والعلوم ، مع تشبث خاص بالتفاصيل . ويبدو انه كان متفوقا في كل ما قام به من دراسات ، سواء في الطب او الكيمياء او في اللغات الاجنبية . وكان يمكنه ان يعيش عيشة هادئة هانئة بـين كتبه لاحقاب

عديدة ، لكنه لم يرض بشيء من ذلك ، فقد حمله إعصار من التخيلات الى افريقيا والشرق. وبدلا من أن يكون مدرسا يرتدي الزي الافرنجي، نجد امامنا رجلا من البادية ، على حمار صغير ، مرتديا الجلباب والعمامة. لقد كان مصابا بلازمة ، ولكنه مصاب بطريقة مرتبة ، فرغم ما كان فيه من ظروف قاسية محفوفة بالمخاطر ، نجده في نفس الكد والاجتهاد والتشبث بالمنطق ، كما لو كان في حجرة التدريس . فهو في الواقع ممن وضعوا قواعد الاستكشاف ، وهو متحذلق تحوّل الى مكتشف،وهو عالم في متاهة ، ورجل انقذ نفسه من الملل والسآمة بما جبل عليه من روح سمحة مرحة ، ومن بديهة حاضرة متقدة . وهو من ذلك النوع من الرجال الذين لا يبالون بالمشاق مهما بلغت في سبيل اشباع نهمهم للاستطلاع . وعلى هذا الاساس فهو من القلة النادرة التي وهبت خيالا واسعا ــ من امثال براون وبيرتون [1] ــ من اولئك الذين لم يخرجوا لاستكشاف افريقيا جريا وراء الكسب او حبا في نشر تعاليم المسيح أو تصيدا للشهرة ، او حتى في تحقيق غرض جغرافي معيّن ، بل فقط حبا في الاستطلاع ، ولأنهم مندمجون في كل ما يرونه من جديد وطريف .

ولا شك في ان حياة بيركهاردت الاولى كان لها دخل في قلقه هذا وعدم استقراره . فوالده كان ضحية الحزب البونابارتي في سويسره ــ فقد حكم عليه بالاعدام لافشائه بعض الاسرار للنمساويين ــ فنشأ بيركهاردت على كراهية الفرنسيين ،وهرب من سويسرا لالمانيا بمجرد أن تمكن من ذلك ، وبعد بضع سنين قضاها في جامعاتها هاجر الى

١ ــ براون رحالة انجليزي جاء ذكره قبل ذلك. اما بيرتون فهو مكتشف بحيرة تنجانيقا واشترك مع الكبتن اسبيك في اكتشاف منابع النيل الابيض وله اسفار عديدة في الشرق الاوسط وافريقيا ــ منها زيارة لمكة والمدينة متخفيا كحاج من الباكستان .

المترجم

انجلترا حيث قضى سنة او سنتين في دراسة اللغة العربية . ثم قدم نفسه للجمعية الافريقية التي تكونت حديثا ، وعرض عليها ان يقوم باكتشاف منابع نهر النيجر وأواسط افريقيا باسم الجمعية [1] . واتفقوا معه على ان يخصص له اجر صغير ـ كان في الواقع صغيرا جدا لدرجة انه لم يعرف بعد ذلك شيئا عن كماليات المدنية او ترفها الى ان لقي حتفه ـ كما اتفقوا معه على ان يذهب لسوريا اولا لمدة عامين يتقن فيها اللغة العربية ، ثم يقوم باستكشاف أواسط افريقيا .

وأعد بيركهاردت نفسه للرحلة بأن اجرى تمارين على المشي حافي القدمين لمسافات طويلة في الريف الانكليزي ، كما عوّد نفسه على النوم في العراء ، وعلى ان يعيش على الماء والخضروات . وفي سنة ١٨٠٩ انطلق نحو المجهول . ونحن لم نعلم عن مغامراته الا من مذكراته الغزيرة ، والا من خطاباته التي كان يرسلها للجمعية الافريقية لانه لم يعد مرة اخرى لأوروبا . كما انه لم يتصل بالاوروبيين الذين كانوا في الشرق الا نادرا جدا ...ومن مالطا حيث ارسل لحينه كتابا للجمعية يقول : « سأتوجه من هنا متنكرا في زي تاجر هندي مسلم .... وعما قريب سأختفي بين الجموع الغفيرة بطرابلس » وبعد ثلاث سنوات توجه الى القاهرة عن طريق «بترا» [2] التي لم يزرها الا قلة من الاوروبيين منذ العصور الوسطى . وفي هذه المدة كان قد تمكن من اللغة العربية لدرجة انه اطلق على نفسه اسم الشيخ ابراهيم بن عبد الله ، وكان يعتبر حجة في الشريعة الاسلامية . ومما يدل على مدى تمكنه من اللغة العربية ، انه عندما كان في سوريا ، ترجم الى اللغة العربية قصة روبنسون كروزو ، وانه

---

١ ـ كان هناك خلط كبير بين النيجر والنيل في ذلك الوقت . وكثير من الجغرافيين كانوا يظنون انهما ربما كانا نهراً واحدا باسمين مختلفين.
حاشية المؤلف

٢ ـ مدينة قديمة بالاردن لم يبق منها الآن غير اطلالها .
المترجم

استوعب جميع ما اطلقه شعراء العرب على الخمر من اسماء ، بلغ عددها مائة وخمسين اسما .

وفي مايو سنة ١٨١٣ ـ وكان عمره تسعة وعشرون عاما فقط ـ كتب للجمعية من اسنا بمصر العليا يقول انه قابل «لي» و«سملت» وانه تمكن من القيام برحلة على النيل حتى دنقلا تقريبا ، وانه عازم الآن على القيام برحلة اخرى حتىٰ ملتقى نهر العطبرة في السودان ، وسيتجه من هناك عن طريق البحر الاحمر الى مكة . كما قال انه يعلم ان هذه الرحلة لن تؤدي به الى جهة النيجر وأواسط افريقيا ، الا انه يثق في أن الجمعية ستوافق على ان يقوم بهذه الدورة ، لانه سيملأ بها الفراغ من الوقت الذيسوف يقضيه في انتظار الرحلة السنوية للقوافل من القاهرةلفيزان وداخل القارة ، والتي ستبتدىء عما قريب . وبعد اكثر من سنة كتب مرة اخرى من «جدّة» يقول أنه وصل للجزيرة العربية عن طريق شندي التي تقع على النيل وأنه الآن يشكو من آلام بعينيه . ثم بعد سنة أخرى كتب من القاهرة يقول انه ذهب لمكة وأنه لا يزال في انتظار القوافل الى فيزان ، وان حالته الصحية ليست على ما يرام .

وفي ربيع سنة ١٨١٦ وصل كتاب آخر يقول فيه انه كان مريضا لحد بلغ فيه درجة الخطورة ، وأنه قد ذهب لدير سيناء فرارا من الطاعون الذي كان منتشرا بالدلتا . وبعد مضي ثمانية عشر شهرا أخرى، صعقت الجمعية عندما سمعت ان رحّالتها قد مات في مصر ، متأثرا بالدوسنتاريا وهو لا يزال في الثالثة والثلاثين من عمره . وقد ترك بعد وفاته ثمانمائة مجلّدا من مخطوطاته عن الشرق ، لجامعة كيمبردج . والى ما بعد وفاته بزمن طويل ظلت تصل للجمعية بعض الخطابات بنفس الخط الذي يعرفونه حق المعرفة .

مسكين بيركهاردت فقد قضى نحبه وهو يحاول ان يثبت للجمعية

انه كان فعلا يعني الذهاب لأواسط افريقيا ،فقد كان حريصا كل الحرص ان تفهم الجمعية السبب الذي اجبره الى كل هذا التأخير وتعطيه مزيدا من الوقت ــ فترة قصيرة أخرى فقط . فلربما تنطلق القافلة في الشهر القادم .... ونحن نعرف هذا الرجل الطيب القلب ، المتفاني في عمله ــ نعرفه حق المعرفة ولا نشك لحظة واحدة في أنه كان سيذهب بأي حال من الاحوال ــ سواء وجد القافلة ام لم يجدها ــ نعم كان ذاهبا دون ادنى شك، لو قدّر له انيعيش. الا انه كان من الواضحأن بيركهاردت قد اصبح اسيرا للشرق الادنى ، ولم يستطع ان يتخلص من اســـاره ويذهب لفوره . وهناك حقيقة واحدة واضحة ، وهي انه قد دفن كمسلم، ولكن ذلك لا يعني كثيرا فقد كان من الصعوبة بمكان أن يحصـــل المسيحيون على اذن بالدفن في مصر. ومع ذلك فلا يمكننا أن نعلّل في سهولة ان الثماني سنوات التي قضاها متجولا في الشرق الاوسط كانت فعلا فترة استعداد لرحلته لأواسط افريقيا . لقد كان فكره وقلبه وجميع جوارحه منصرفة نحو الاسلام ونحو الصحراء . ومن الناحية الاخرى لا يستطيع الانسان ان يجد له مكانا مرموقا في الاكتشافــات الجغرافية . فرغم ان رحلته لمكة (التي سبقت رحلة بيرتون بخمسين سنة) ورحلته لأعالي النيل،كانا عملا فذّا يستحق الاشادة ، وخصوصا اذا لاحظنــا انه قام بهما وهو معدم وفي ظروف قاسية ، لا يقف امامهــا الا رجل في مثل عزيمته ــ رغم ذلك فهي لم تضف جديدا لما كان معروفا وموضحا في الخرائط .

ولا يظهر بيركهاردت على حقيقتـــه الا اذا اطلعنا على رسائلـه ومذكراته ، وعلى المجلدات الرائعة التي استخلصت منها . عندئذ تتحقق انــه كان من اعظم السياح الذين عرفوا ، ومن أدقهم ملاحظة . حقيقة ان كثيرا من كتاباته ممل للقارىء ــ كمذكراته عــن الارصادات الجوية ، وتحليله للّهجات المحلية ، وقوائمه باسماء البلاد والاماكن ، وما شابــه

ذلك ــ ولكنه عندما كان يكتب عن رحلاته ، يشعر القارىء بأنه يتنقل معه في متعة نادرة ، لا يشك معها في صدقه وامانته . فهو يسمو دون ان يبالغ ، وهو يبدع في وصفه حتى ليحيل اصغر الحوادث الى لحن شجي مطرب ، وهو فنان ملهم يسجل التاريخ في صورة دقيقة معبرة .

وبهذا الاسلوب يحدثنا عن رحلته الاولى التي قام بها على النيل الى ما وراء بيلك : فيذكر الغزلان وكيف كانت تجوب الفيافي في قطعان كبيرة ، ثم تأتي ليلا لترعى في حقول الذرة عند شاطىء النيل ، كما يحدثنا كيف كان يحتال النوبيون على إبعادها من حقولهم باقامة المجادير [1] على هيئة ضباع يصنعونها من القصب مرتكزة على أرجل من فروع الشجر . ويتضح من كتابته انه اعجب بالنوبيين عامة . وقد وصفهم بأنهم شعب متوحش في العراة ، وأنهم « يضعون شيئا من الدهن على رؤوسهم لترطيب البشرة وطرد الهوام » ، ولكنهم قوم احرار بواسل ، لا يعرفون السرقة كما لا يعرفون الامراض او الدعارة انه تغيير محبب للنفس عما يجده الانسان في مصر . اما السلب والنهب فلا تعتبر رذيلة ، كالسرقة عند النوبيين ، فاذا ما صادفوا عابر طريق اعزل ، فانهم يطلبون منه الفدية ، وليس من العقل في شيء ــ كما يقول بيركهاردت ــ ان يمتنع الانسان عن دفعها لأنهم في الحال يأخذون في حفر قبره . وفي ذات مرة كان بيركهاردت مسافرا على ظهر أتان ومعه خادم واحد فقط ، وكان معدما للدرجة التي كان يعيش معها على التمر والخبز ، واذا بأحد النوبيين يعترض طريقه فاحتج عبثا بأنه معدم لا يملك شيئا . ويقول بيركهاردت « .... وبمجرد ان بدأ في حفر قبري ، ترجلت وأخذت في حفر قبر آخر قائلا له : سيكون هذا مقرا لجثتك .... فاستغرق في الضحك ، ثم قام كل منا بدفن ما حفره الآخر » .

---

١ ــ مجادير ومفردها مجدار ــ وهو ما نسميه في السودان «الهواب» . المترجم

ثم هناك الفواصل الفكهة التي كان يضمّنها مذكراته ، كالفاصل الذي ذكره عن دليل استأجره ، وكان رجلا لا يحمل اي فكرة عن الزمن او المسافة بين اي مرحلتين من مراحل الطريق . وكل ما يقوله لك : « نسأل الله التسهيل .... فهو القادر على كل شيء ، يمد الطريق او يطويه كيف شاء » . فالرجل لم يكن دليلا ممتازا . وعندما هم بوداعه في آخر الرحلة ، شعر بيركهاردت ان من واجبه ان يقول له : « اسأل الله ان يسهل عليك » ، فأجابه الدليل قائلا : « اما هنا فلا . لأنك انت الذي ستسهل علي في هذه المرة » . ثم طلب من بيركهاردت ان يعطيه شاله ، فتركه له .

وفي المرحلة الاولى من رحلته ، وصل بيركهاردت قريبا من معابد النوبة التي هي الآن (سنة ١٩٦٠) على وشك ان تنقل من مكانها لئلا تغمرها مياه السد العالي ـــ والتي لا يسع من رآها الا ان يتألم لاختفائها في مكانها الحالي . فمما يبهج النفس ، ان يقف المرء قبيل الغروب ـــ او في ليلة مقمرة ـــ الى مكان كوادي الصبور ، ويشاهد بالقرب من الشاطىء مدخل معبد رمسيس العظيم بتماثيله العديدة (وكل منها في شكل ابي هول صغير) التي تحف جانبي الطريق المؤدي الى المدخل .... ولكن لأن يكون المرء في ذلك المكان وذلك الزمان (سنة ١٨١٣) كما كان بيركهاردت ، ولأن يشعر انه لا تحيط به غير البربرية المطلقة ، وان طريق العودة الى المدينة طويل وشاق ، وان هذا المنظر المجهول ، الذي لم يعرفه احد ، ولم يدرسه احد ، بل ولم يذكره احد من قبل ، انما يقف هنا لتراه انت وحدك ، لا يشاركك في النظر اليه احد ـــ لأن تكون هناك وحدك ، وكل هذه الحقائق ماثلة امامك ، لما يمدك بأحساس عميق ، بأن في هذا وحده مبررا كافيا لما تلاقيه من اهوال ، وما تقاسيه من تعاسة وشقاء في رحلتك هذه . هذا ـــ وعندما كان دينو في مصر ، كان معه الجيش يحميه ويقوم

بترحيله ، اما بيركهاردت فقد كان وحيدا في بلاد النوبة . حقيقة انه كان أقل حماسا وأقل ثورة من دينو ، كما كان دونه بمراحل كفنان ، الا انه قـد كانت له عينان فاحصتان ، ولذلك جاء وصفه لمعابد النوبة فريدا في نوعه ، لم يجاريه فيه احد منذ العصور الغابرة . ليس ذلك فحسب بل قد كان وصفه لها هو اروع ما كتب عنها اطلاقا .

وفي مارس سنة ١٨١٣ وصل الى ابي سمبل ، الذي لم يتنبه الـى وجوده أحد من الرحالة قبله . فقد كان اول رجل متعلـم في العصور الحديثة تقع عيناه على هذا المشهد ، الذي يمكننا ان نقول فيه انه اعظم مشهد على النيل .

الا انه لم يعره كثيرا من الاهتمام في بادىء الامر . فأبو سمبل يقع في ركن من الجبل على الضفة الغربية للنيل . وعندما وصل اليه ، كان بيركهاردت في أعلى الجبل ، ولذلك لم يتبين منه غير سطح أحد المعابـد الصغيرة المنحوتة في الجبل ، وذلك عندما نظر الى اسفل ، وكان ما رآه هو معبد « نفرتيتي » زوجة رمسيس الثاني . ولا شـك ان بيركهاردت عندما نزل من الجبل قابل نفس المشهد الذي نراه اليوم . ودخل المعبد من بابه الرئيسي ، الا انه في اغلب الظن وجـده مغمورا بالأتربـة والقاذورات من الداخل ، لأنه لم يذكر شيئا عن الصور والنقوش البراقة التي بداخله . وهو في الواقع يقول ان سكان المنطقة في ذلك الوقت ، كانوا يتخذون منه مخبأ من غارات القبائل المجاورة ، فيمكثون بداخله لعدة أسابيع او عدة أشهر الى أن تهدأ القلاقل .

واستاء بيركهاردت بعض الشيء للمنظـر المخيب للآمال ، لأن الاهالي في القرى المجاورة كانوا قد أعطوه وصفا رائعا للمكان .... ثم استدار صدفة نحو الجنوب ، فوقعت عيناه علـى رأس احد التماثيل الأربعة التي نحتت على واجهة الجبل ، والتي تشكل الزخرف الرئيسي لواجهة المعبد الثاني الذي نحت تخليدا لرمسيس نفسه ، وهو اكبـر

بكثير من المعبد الاول . والمنظر في ذلك الوقت كـان يختلف كثيرا عما هو عليه الآن ، فتسعة أعشار التماثيل لم تكن ظاهـرة ، كما قـال بيركهاردت : « ... وهي الآن مدفونة كليا تحت الرمال التي تجرفها الرياح مع اندفاعها الشديد ، ولم يكن ظاهرا منها الا جزء بسيط من التمثال الذي يقع على الطرف الايسر . وحتى هذا لم يكن ظاهرا منه غير الرأس وجزء من الصدر وأعلى الذراعين » اما التمثال الذي يليه فكان مجدوع الرأس ، ولم يظهر من التمثالين الآخريـن غير غطاء الرأس . وبعبارة اخرى ، فكل ما رآه اذ ذاك هو منحدر كبير من الرمال الصفراء، وكان عليه ان يخمن عما كان تحتها . وهنا يقول : « اذا ازيلت هـذه الرمال فاني اتوقع ان يعثر على معبدهائل تحتها » وقدر بذكائه الخارق انه لو اتضح ان هذه التماثيل لم تكن منتصبة ، بل جالسة ، فـلا شك انها ستكون ضخمة جدا .

وكتب عن الرأس الوحيد الظاهر يقول : « ..... ملامـح معبرة تعبيرا دقيقا لشخص لا يزال في صباه ، هو أقرب الى تماثيل آلهة الجمال اليونانية ، منه الى أي تمثال شاهدته لقدماء المصريين حتى الآن .... وقد يختلط على الانسان انه تمثال لاحد آلهة الحكمة » . ثـم يستمر في حديثه عن « وقاره العديم المثال ، وعن رقته الملائكية » . ثم تسلـق الرمال وقاس البعد بين المنكبين فوجـده «سبع ياردات» ، واحـدى الاذنين فوجدها « ثلاثة اقدام واربع بوصات » . ومن هـذه البيانات قدر ، في كثير من الدقة ، ان طول التمثال الاول ـ اذا كان جالسا ـ يتراوح بين الخمسة والستين والسبعين قدما .

وكان في هذا الاكتشاف وحده مبرر كاف لرحلته الاستطلاعيـة الاولى على النيل ، الا ان تجاربه الاخرى هي التي كانت لها اهمية اكبر بالنسبة لمحمد علي ، فقد زار في هذه الرحلة منطقة المماليك وبـلاد الشايقية . والظاهر ان المماليك في تقهقرهم على النيل ، فرارا من ابراهيم

قد احدثوا دمارا مريعا بالبلاد ، لان بيركهاردت الذي سلك نفس الطريق الذي سلكوه من قبل ، قد وجد كثيرا من القرى في حالة يرثى لها ، وقد قال عن ذلك : «ان هؤلاء العبيد الطغاة الذين لا مبادىء لهم ، لا يزالون يعيشون عيشة البذخ مع زوجاتهم واتباعهم » . واستمروا يلبسون نفس الملابس الصوفية رغم الحرارة الشديدة التي ابتليت بها بلاد النوبة ، غير أنهم كانوا يعيشون داخل أرماث مظللة على النيل ، وعبيدهم يعملون ليلا ونهارا في صب الماء على مظلاتها . ومن اكثر المناطق التي آذوها كانت منطقة الدر ، وهي اكبر المناطق الآهلة بالسكان في بلاد النوبة . وبعد ان احالوها قفرا موحشا استمروا في سيرهم عن طريق وادي حلفا انتجاري ، ليتابعوا سلبهم ونهبهم بمنطقة دنقلا التي تقع خلف الشلال الثالث .

ثم ينحني النيل انحناءة كبيرة مزدوجة ، حيث تقع منطقة قبائل الشايقية ، وهي منطقة تتميز بنواح عديدة تجعلها من أحسن مناطق النيل . فمئات السواقي تدور بها لتضخ الحياة في الرمال القاحلة ، فتنبت الحب والثمار على ضفتيه ، وتزدهر الاشجار وتمتد الخضرة يانعة ريانة تتخللها اشجار السنط والطلح وغيرها .

وعلى الجزر المخضرة ينبت السعتر ذو الرائحة الشذية ، وتكثر الطيور المائية ، غادية رائحة ، لتحط على الماء متصيدة قوتها ، او لترفرف في السماء مبتعدة نحو اوكارها . وتنتشر القرى على الضفتين متقاربة متشابكة ، لا يفصلها عن بعضها البعض غير بضعة اميال ، وأمام كل قرية ترسو قواربها متأرجحة متراصة ، ومن خلفها ترتفع الابراج الضخمة — ابراج شيدت من الحجر الرملي وقد بولغ في سمك حوائطها ، اذ تبلغ احيانا نحو الثلاثين قدما . وهذه الابراج هي آثار العصر الذهبي لمملكة الفونج — .

وكان للمنطقة مساوئها ايضا ، فالذباب والبعوض تكثر بشكل

وبائي في بعض الفصول ، والحرارة مرعبة والامطار نادرة ، ومع ذلك لقد كانت البلاد هادئة بطبعها مبهجة في طبيعتها ، وشر ما فيها هو الانسان . فالشايقية كالفونج ، شعب غامض ، ليسوا نوبيين وليسوا عربا ، ولا يدري احد من اين جاءوا . وهناك ارومة في دمهم تسمو بهم فوق جميع القبائل المحيطة بهم . وهم في شجاعتهم ومظهرهم كالمماليك مهابة وسطوة ، لا يختلفون عنهم كثيرا . وكانوا يعيشون على نهب القبائل الاخرى القاطنة على ضفاف النيل ، ويقال انهم كانوا يستطيعون حشد عشرة آلاف مقاتل ، منهم الفين على الاقل من الفرسان وكان اسمهم في هذا الجزء من السودان مرادفا للقرصنة والدمار .

وكتب عنهم بيركهاردت يقول : « انهم جميعا يقاتلون على صهوات الجياد ، مدرّعين بالزرد الذي يبتاعونه من سواكن او سنار ــ الا انهم لا يعرفون شيئا عن الاسلحة النارية . واسلحتهم هي الحراب والسيوف والدرق ، ولهم مهارة نادرة في قذف الحراب لمسافات طويلة . وعندما يغيرون ، يحمل كل منهم اربعا او خمسا منها في يده اليسرى . هذا وجميع فرسانهم يفضلون الخيول الدنقلاوية ، اما مهارتهم في الفروسية فلا تقل عن مهارة المماليك في مصر ، الا انهم يدربون خيولهم على ان تهز ارجلها بعنف وهي راكضة . اما سروجهم فشبيهة بما رأيته من رسومات لسروج الاثيوبيين ، الذين لا يختلفون عنهم ايضا في طريقة وضع ارجلهم في الركاب ، كلا الشعبين لا يضع غير الاصبع الاكبر للقدم. والشايقية شعب مستقل بذاته ، لا يرتبطون او يعتمدون على اية جهة اخرى ، كما ان لهم ثروة طائلة من الحبوب والمواشي .... ورغم ما عرفوا به من شر وتعد ، الا انهم يقدسون الضيف ويجلون الرفيق ، وصديقهم يجد منهم كل حماية وتعضيد ، فاذا ما اعتدى عليه شخص في الطريق ، فلا بد ان يعاد له ما سلب منه كاملا ، مهما بلغت مكانة المعتدي، حتى ولو كان الملك نفسه . ولغتهم هي العربية ، والكثيرون منهم

يقرأونها ويكتبونها بطلاقة . ولعلمائهم مكانة خاصة في نفوسهم ويجلونهم اعظم اجلال . ولهم معاهد تدرس فيها جميع علوم الدين الاسلامي ،وهذه لا تشمل الرياضيات والفلك . وقد رأيتهم في مروى ينسخون بعض الكتب في خط أنيق لا يقل روعة عن المخطوطات التي رأيتها بالقاهرة . وعندما يفد طلبة اغراب من المناطق المجاورة ، لتلقي العلم ، يقوم شيخ العلماء بتوزيعهم على معارفه من اهل القرية او المدينة ، ليأووهم ويطعموهم ما شاء لهم ان يقيموا لتلقي العلم . اما غير العلماء من الشايقية فعادة ما ينهمكون في المسكرات التي يصنعونها محليا من البلح كالنبيذ والعرق . ويقال ان نساءهم كثيرا ما يجانبن العفة والحشمة » .

هذه الانطباعات قد أيدها الرحالة الانجليزي « وادنجتون » الذي جاء بعد بيركهاردت لاستكشاف النيل .فقد وجد هؤلاء القوم المتخصصين في شؤون القتال ، على جانب كبير من الكبرياء والجمال ، وكتب عنهم ما معناه : « الشايقية قوم من السود ، وسوادهم كالكهرمان الصافي المصقول ، وقد بدا لعيني اللتينلم تعرفا التحيز فيذلكالوقت ، انه اجمل لون يمكن أن يختاره الانسان . وهم يمتازون عن الزنوج في جميع النواحي ــ في صفاء لونهم ، في شعرهم ، في وسامة تقاطيعهم ، في عيونهم البراقة الندية ، ونظراتهم الهادئة الجذابة ، وفي اجسادهم البضة التي لا يفرطون فيها للاوروبيين » .

والشايقية ، كالمماليك ، يحتقرون الفلاحة والعمل بجميع صوره ــ فهو لا يليق الا بالنوبيين الحقيرين ــ ويلقبون الاتراك والمصريين «بالكلاب» . وهم لا يخافون شيئا ــ كما قال وادنجتون ــ ويخوضون المعارك فرحين مبتهجين . والاشارة بالهجوم عند الشايقية ــ كما هي عند بقية العرب على ما اعتقد ــ تصدر من عذراء ، تظهر في أبهى حللها وكامل زينتها ، على ظهر بعير ، فتردد الزغاريد مرارا وتكرارا . ومثل

هذه الفتاة هي دائما موضع الاحترام والتبجيل من ذويها ومن اعدائهم على السواء . وعندما يحملون على العدو ، يرددون عبارة « سلام عليكم » ، يعنون بذلك سلام من الموت [1] وقد كان السلاح في أيديهم ألعوبة من ألاعيب الاطفال والحرب في نظرهم ضرب من ضروب اللهو ، فهم لا يطلبون من اعدائهم غير التسلية ولا يخافون من الموت الا لأنه راحة ابدية لا نشاط فيه .

انها نفس القصة القديمة تعيد نفسها ــ قصة المحافظة على القديم بما فيه من وحشية وسلب ونهب ــ قصة طائفة احترفت القتال ، ولم يدب التدهور فيها بعد . ورغم ما هنالك من شبه كبير واضح بينهم وبين المماليك ، الا اننا نميل لمقارنتهم بشعوب آسيا الوسطى في احترافهم للحروب ، فلو انهم وجدوا طريقهم ، لكان من السهل على الشايقية ان يشنوا غزواتهم المتوالية بمناطق الدندره . وهم ايضا ــ كالآسيويين ــ يعتبرون الخيل رمزا للقوة وللحياة . ويقال ان نساءهم في شجاعة الرجال . ولا شك في انهم كانوا كالطفيليات ــ وطفيليات من النوع الفتاك ــ يعتبرون كل قافلة صيدا حلالا لهم ، وكل حقل وقرية دعوة ليتناولوا عليها وجباتهم . وقد يحارب الرجل في جانب اعدائه ، اذا ما رأى مصلحته في ذلك ، ومهما كانت حججهم في مثل هذا التصرف ، فهي غير مقبولة بين جماعة متمدنة . ومع ذلك فقد كان في تقاليدهم شيء من النخوة البدائية ــ فالاسلحة النارية مثلا ، كانت في عرفهم نوع من الجبن ــ ولا شك في انهم اضفوا شيئا من التحرر والحيوية على حياة الخمول والكسل التي كانت سائدة على ضفاف النيل .

وعندما زار بيركهاردت السودان ، كانت منطقة الشايقية تمتد ثمانين ميلا على جانبي النيل شمال الشلال الرابع.وكانوا ينقسمون الى

---

١ ــ اعتقد انها عبارة تهكمية تردد لتثبط همة العدو واشاعة الذعر بين صفوفه والمهم فيها احداث الضوضاء لارهاب اعدائهم .
المترجم

ثلاثة فروع على رأس كل فرع منها زعيم يلقب « بالملك » يعيش في برج على النيل . وكل فرع من هذه الفروع كان يقوم بغاراته مستقلا عن الآخرين ، الا انهم عادة ما يتحدون اذا واجهوا غازيا او عدوا مشتركا . وكانت هذه الفروع مجتمعة تشكل اخطر قوة على ضفاف النيل بالسودان ، وما من عدو يأتي من مصر الا ويدخل معهم في اشتباك مسلح . وحتى بيركهاردت الرجل المثابر ، قد تردد كثيرا في ان يخاطر بمفرده في بلادهم ، فعندما وصل دنقلا رأى انه اذا كان لا بد له من ان يزور مناطق اخرى على النيل ، يجب ان يتجنب منطقة الشايقية ويأتي عن الطريق الصحراوي الممتد من اسوان الى بربر ، وبناء عليه عاد أدراجه الى اسنا .

وفي اسنا شعر بشيء من الاطمئنان تحت حماية القوة التركية ، فتمكن من جمع مذكراته وتنسيقها ، كما تمكن من ان يكتب وصفا لجزء من النيل يبلغ نحو الخمسمائة ميل . وهو الجزء الواقع بين اسوان ودنقلا ، والذي لم يكن معروفا عنه الا القليل جدا . ولم يترك شيئا لم يذكره — فمن قيام مساجد للمسلمين على انقاض الكنائس المسيحية والمعابد الفرعونية ، الى لغات القبائل وعاداتها ، ومن ارتفاع النيل وانخفاضه الى المزارع المنتشرة على ضفتيه ، ومن هدير الشلالات الى فرس البحر والتمساح والنمل الابيض — لم يترك شيئا ابدا لم يذكره ، حتى الهضاب الصخرية المسلوبة الشبيهة بالاهرامات — وحتى المسافات لم ينس ان يسجلها في دقة تدعو الى الاعجاب . وكانت مذكراته هذه ، هي اول ضوء نقي واضح يلقى على بلاد النوبة منذ القدم . وعندما تصفح اعضاء الجمعية الافريقية خطاباته ، وهم في لندن ، وجدوا انهم في موقف غريب شاذ ، فقد اصبحوا يعرفون عن مناطق النيل العليا وماضيها اكثر مما يعرفه عنها اي شخص في مصر .

الا ان هذه الرحلة قد اثرت في صحة بيركهاردت ، فقد كان يسير

نحو عشر ساعات في كل يوم ، وقطع مسافة تسعمائة ميل في اكثر من الشهر بقليل ثم ظل طريح الفراش متأثرا بعينيه .... وفي مارس سنـــــة ١٨١٤ ، وقبل ان يتم شفاؤه تماما ، كان على اهبة الاستعداد لينطلق مرة اخـــرى .

* * *



برج شندي



سنار في اوائل القرن التاسع عشر

الفصل الحادي عشر

سوق شندي

« وبعد أن تجتاز هذا الجزء من النهر في مدى أربعين يوماً ، تسير على سفينة أُخرى لمدة اثني عشر يوماً وفي نهايتها تصل إلى مدينة عظيمة تسمى مروى ، يقال أنها قاعدة لأثيوبين آخرين » .

هيرودوتس

الكتاب الثاني ، الفصل التاسع والعشرون .

في هذا الوقت كان ذلك الجزء من الصحراء الممتد ما بين اسوان وبربر قد اصبح من طرق القوافل المنتظمة ، خصوصا لانه يجنب المسافر منطقة الشايقية وانحناءة النيل الكبرى . ولكنه كان طريقا محفوفا بالمخاطر ، يمتد الى مسافة اربعمائة ميل في منطقة رملية تنعدم فيها الماء . ومنذ ان قام بروس برحلته ـ في الاتجاه العكسي ـ قبل أربعين سنة ، لم يجرأ اوروبي آخر على القيام بمثلها . وفي هذه الفترة ساد بين العرب شعور عميق بالخوف من الاجانب ، فكانوا لا يرحبون بوجودهم ضمن قوافلهم . فاضطر بيركهاردت ان يدعي ـ وكان بمفرده ـ أنه تاجر فقير ، متوجه لمضارب النيل العليا بحثا عن ابن عم له اختفى منذ بضع سنين ، وهو في رحلة الى سنار.وعلى هذا الاساس وافق رئيس القافلة ان يقبله ليكون في رفقتهم.

وكانت القافلة تتكون من نحـــو مائة تاجر تصحبهم عوائلهم ، فحـــدد أول مارس سنة ١٨١٤ موعدا لقيام القافلة . ورغم قبولهم له فقد كانوا يحتقرونه باعتباره تركيا متطفلا . ويقول بيركهاردت ان النساء بنـــوع خاص ، كـــن يرتعدن فرقا واشمئزازا من لحيته الكثة وبشرته البيضاء . هذا ــ وبما انه رجل معدم فقد خصص له أسوأ موضع في القافلة . وكان يعلم ان تدوينه المستمـــر لمذكراته سيثير شبهة شديدة ، فاحتاط لذلك بأن كان يبدأ المسير قبلهم بفترة قليلة في كل صباح ، ثم يختبـــىء وراء صخرة ويأخذ في تدويـــن مذكراته بسرعـــة قبل وصول القافلة .

وبالمقارنة لما حمـــلته معها البعثات العلمية مؤخرا مـــن امتعـــة ومعـــدات ، فان ما كان يحمـــله بيركهاردت يدعو للشفقة والرثاء . وهو يعطينـــا قائمة بها كمـــا يلي : ساعة (مكسورة) ــ بوصلـــة جيب ــ أدوات كتابة ــ مبراة ــ كيس للتبغ وقطعة حديد لقدح الزناد ــ فأس صغيرة ــ مجمـــوعة من الابر وخيط ــ قميص احتياطي واحد ــ فرش للنوم ــ مشط ــ صندوق للادوية ــ قليـــل مـــن اواني الطبخ وقربة ماء ، ثم مؤن مما يأكله الوطنيون من دقيق.وتمر وكعك وملـــح وأرز وعدس وبن . ولكي لا يثير الشبهات اخذ معه كمـــية بسيطة مـــن البضائع ، كمـــا أخذ معه الاسلحة الضرورية ، وهي بندقية ومسدس . وفي هذه الرحلة لم يكـــن معه خادم ، ومعنى ذلك انه كان عليه ان يجمع ما يحتاج اليه مـــن طعام ومـــن حطب للوقود ، وان يقوم بطهو طعامه بنفسه عند نهاية كل مرحلة ، وكان يعتمـــد في ترحيل متاعه على اتـــان واحد وعلى جزء من حمل بعير . وكل ما كـــان يمتلكه مـــن مـــال لا يتعدى الخمسين دولارا اسبانيا وقطعتين من السكوين [1] ، وذلـــك لسد حاجته في رحلة ستدوم عشرة اشهر ، لا الى الفنج فقط بل الى مكة

١ ــ Sequin ــ عملة ذهبية كانت متداولة في البندقية ، تساوي جنيها ذهبيـــا واحدا . المترجم

ايضـا .

وكان معظم رفاقه مـن صغار التجار الذيـن يحملون معهم الـى اسواق السودان ما يروج فيها من بضائع ، كالسكـر والصابون والخرز والملابس والمرايات وبعض الاسلحة القديمة ، مؤملين ان يعودوا الى مصر ومعهم منتجات السودان المشهورة ، كالصمغ العربي وريش النعام والعاج والرقيق الاسود والذهب ـ وهي نفس ما اتجهت نحوها انظار محمـد علي ـ وكانت الحياة قاسيـة وسط هذه الطغمة مـن التجار ، ومـا ذكره بيركهاردت عـن اخلاقهم ، لا يمكـن مقارنته الا بمـا كتب عن الكابتـن كوك والقراصنة في الميـاه الاسبانيـة . لقد كانت ظـروف الرحلة نفسها ، كمـا نعتقد ، في منتهى القسوة ، فما كادوا يبدأونها الا وهاجمهم جماعة من البدو . وفي كل مرة اخرى كادوا يموتون عطشا ـ الا ان تصرفاتهم الوحشية جعلتها أشد قسوة واحالتها جحيما لا يطاق فقد كان شجارهم لا يتوقف ، وسرقاتهم مـن بعضهم البعض لا تنقطـع أبدا ،اما الضعيف واما المحتضر فلا يجد منهم الا الاهمال ، والا ان يترك ليموت على قارعة الطريق .

وبدأت الرحلة من كومومبو التي تقع شمال اسـوان بقليـل . وبمجرد ان فارقوا ضفاف النيل الخضراء ، زوّدوا الجمال بثلاثة امثال وجبتها الاعتياديـة ، لتجترها تدريجيا فيما بعد وهي سائرة في الصحراء الجرداء . واذا ما اوشكت دابة على الهلاك ـ ومنذ البداية نفق منـها الكثير نتيجـة الاجهاد ـ اداروا رأسها نحو القبلة وذبحوها . ثم يأخذ صاحبها في بيع لحمـها في الحال ، وما اكثر ما كانت تنفق الجمـال ، وما اكثر عظامها المتناثرة على طول الطريق .

وعند كل منزلة يأخذ الرجال في حفر الرمـال بحثـا عن الماء ، وقل ما كانوا يجدونه . ويبتدىء السير عادة في برد الفجر القارص ،

وينتهي مع حر الهجيرة القائظ عند منتصف النهار ، ثم ينزولون ويستسلمون لنوم عميق (كل فوق بضاعته خوفا من أن يسطو عليها الآخرون) ، ويواصلون السير مع اعتدال الطقس عند المساء . وهكذا كانت تسير الاحوال يوما بعد يوم، وهي لا تختلف عن رحلة في البحر ، فالمسافر هنا ينظر في ترقب الى وصوله بربر ، كما ينتظر البحار الى وصوله لاحد الموانيء . وكان هؤلاء الرجال ، كالبحارة ايضا، يمنّون انفسهم بوقت حافل بالملذات ، بمجرد ان ينجوا من مخاطر الطريق . وأخيرا ، في الثالث والعشرين من مارس سنة ١٨١٤ ، تمت نجاتهم فعلا ، بعد مسيرة ثلاثة اسابيع ، ففجأة تنسموا ريحا منعشا في الجو ، وسمع بيركهاردت احد الرجال يصيح فرحا : « الحمد لله ! ها نحن تتنسم رائحة النيل مرة أخرى» . وبعد ساعتين وصلوا مجرى النيل قبل التقائه بنهر العطبرة بقليل ، وهكذا دخلت القافلة بربر، وهم على أسوأ ما يكونون اتساخا من وعثاء السفر . هذا ، وعند وصولهم بربر كان عددهم قد هبط الى ثمانين رجلا بعد انكانوا مائة .

اما بربر فكانت عبارة عن اربع قرى قذرة ، متداعية الاكواخ . وهي في هذه الحالة كانت بعيدة كل البعد عن نظرة الاسلام للجنة ، ولكنها بالنسبة لهؤلاء الرجال المنهوكي القوى ، كانت هي الجنة نفسها ، بل اكثر من ذلك . ويعطينا بيركهاردت ، الرجل العالم ، الذي هو الآن في رحلة علمية بحتة ــ يعطينا صورة بشعة عن بربر هذه ، فيها الكثير مما عرف به السويسريون البروتستانت من تشنيع ، فيقول : « لم أر في حياتي اسوأ من هؤلاء القوم ، فقد سيطرت الدعارة والسكر على حياتهم ، فهم كذابون ومنافقون بلا استثناء ». وهو يعترف بأن الجواري الحبشيات ، اللائي كان يعج بهن المكان ، كن على جانب كبير من الملاحة والمرح ، كما كان لجفاف طقس الصحراء تأثير طيب على اجسادهن ، وما عدا ذلك فقد كن كالسوائم تماما . وقد

استقبلن القافلة ببهجة صاخبة ، وبعد لحظة كان التجار قـد تفرقـوا بين الاكواخ ، ومع كل رجل منهم فتاة تلازمه طيلة اقامته في المدينة ، مومتها ان تعد له مشروبه وطعامه ، وان تدلك له جسده بالدهـن ، وان تلازمه في مجونه وعربدته طيلة الليل .

وكانت بربر هي اول المراكز التجارية الهامة ، التي تقع على الطريق التجاري العظيم المؤدي لسنار . الا أن شندي ، التي تبعد نحو مائة ميل نحو الجنوب ، كانت مركزا اكثر أهمية واوسع تجارة ، ولذلك فقـد واصل بيركهاردت رحلته بمجرد ان تمكـن من ذلك ، ومكث فيـها شهرا قبل ان يواصل طريقه لمكة . وكانت دراسته للمدينة نبذة رائعة من البحث في علم الاجناس ، كما كانت ابدع صورة متكاملة نعثر عليهـا عـن واقع الحياة في اواسط السودان قبيل غزو محمد علي له .

وهناك نواح عجيبة في هذا الجزء مـن النيل ، فهنا تبدأ منطقـة الامطار . ورغم ذلك فالحر بالغ الشدة على مـدار السنة ، والطقس مـن ذلك النوع الذي يدفع الى التطرف ، فاما الكسل والدعارة التـي لاحظها بيركهاردت في بربر ، واما الزهد والتقشف الذي لاحظه بالدامر وهو في طريقه الى شندي . والدامر تقع بالقرب مـن ملتقى النيل بنهر العطبره ، وقد كانت معقلا مـن معاقل الدين ، بها جامع ومقر لبعض النساك الذين حرموا انفسهم مـن ملـذات الحياة ، وتتبعوا تعاليـم الاسلام الحرفية . ثم عندما وصل شندي وجد نفسه مرة اخرى في جو مادي بحت . وهنا ، في شنـدي تضيق الرقعة الخضراء على ضفتي النيـل في زمن التحاريق ، فلا تتعدى بضع مئات مـن الياردات ، وبعد ذلك لا شيء غير تلال جرداء مـن الصخر الاسود ، منتشرة في سهـل منسـع الارجاء يكسـوه الحصى والرمال ، وغـير سراب يتلألأ في حر الظهيرة القائظ .. وكثيرا ما تجتاح القرى والبوادي سحب مـن الجراد كثيفة ، واخرى من العواصف الرملية مخيفة، تكتم الانفاس وتبلد

الحواس وكثيرا ما يخطر للانسان انه لا يمكن ان يكون في هذه المنطقة ما يغري احدا من البشر ليتخذ منها موطنا ومستقرا ، الا ان بيركهاردت قد وجدها آهلة بالسكان ، ووجد شندي بالذات هي في الواقع أكبر مدينة في أواسط السودان ، وبها ما لا يقل عن الستة آلاف نفس .

ومن الواضح انه لا بد ان يكون هناك سبب خاص ، دفع بهذا العدد الكبير من الناس ، لان يعيشوا في مكان ليس فيه شيء ظاهر من الجاذبية او الاغراء ، ولكن بيركهاردت لم يحتج لان ينتظر كثيرا حتى يجد الجواب على ذلك ــ انه سوق شندي. لقد كان سوقا خياليا بالنسبة لبلدة في مثل هذا الحجم . ففي ساحة رحبة مكشوفة عند منتصف المدينة ، اقيمت ثلاثة صفوف من الاكواخ . وهنا ، وعلى بعد آلاف الاميال من اي جزء في العالم يمكن ان يوصف بانه متمدن ــ هنا كان يباع ويشترى ، في يومي الجمعة والسبت من كل اسبوع ، ما لا يمكن ان يخطر على بال الانسان من سلع متنوعة ، كالبهارات وحطب الصندل (التي تستورد من الهند) وكالكحل والعقاقير والسيوف الالمانية والامواس ، وكالسروج والمصنوعات الجلدية التي تأتي من كردفان،وكورق الكتابة والخرز ــ من جنوى والبندقية ــ وكالمنسوجات والاواني الفخارية والمصنوعات السعفية بجميع انواعها، وكالصابون الذي يأتي من مصر ،وكالملح والذهب من اثيوبيا ــ كما كانت هناك سوق حية للقردة التي تدرب على القيام بحركات بهلوانية ، وكانت تصنع بشندي قصاع من الخشب ، كانت لهـا شهرة واسعة وعليها اقبال شديد . ومن الاشياء التي اشتهر بها سوق شندي ، ما يباع فيه من الخيول « الدنقلاوية » بالاضافة للجمال ودواب الحمل الاخرى . وهذه الاخيرة كان يبتاعها التجار ليحملوا عليها ما يشترونه من بضائع من هذا السوق .

اما الحوانيت التي كانت تعرض فيها هذه السلع فشيء بائس

للغاية ، فهي عبارة عن « زنزانات» صغيرة ، طولها نحو الستة اقدام وعرضها اربعة ، وعرشها من الحصير والسعف . ولم تكن هناك وسيلة يوصدونها بها ـ ولانعدام المسامير كانت الابواب تربط بالحبال ـ ولذلك فقد كان التجار يحزمون بضائعهم في كل مساء ويحملونها لمنازلهم بالمدينة . اما النقود ، فمعظمها كان من الريالات الاسبانية ، غير ان جميع العملات كانت متداولة ، وكانوا يودعونها في مخابىء خاصة تحت الارض ـ ولم يكن في مظهر هؤلاء التجار شيء من البذخ ، وحتى اكثرهم ثراء كان يتظاهر بالفقر بان يسكن في غرفة واحدة ، ويفترش الارض ، ولا يلبس غير أزار حول نصفه الأسفل . وتحديد الاسعار لم يكن معروفا في هذه الأسواق (ويعتقد بيركهاردت ان المساومة التي يمارسونها ، ما هي الا نوع من الغش الفاضح) . وكانت المقايضة عادة ما تقوم مقام العملة ، والشجار لا ينقطع ابدا . ولم يكن في شندي الا القليل من الأراضي الزراعية ، كما ان المصنوعات المحلية لم تكن شيئا يدعو الى الاعجاب ، ولذلك فان التجارة ـ كما يقول بيركهاردت ـ « كانت عصب الحياة الوحيد . » ولم تكن للسكان من وسائل للترفيه غير حانات الشرب (البوظة) [1] أو منازل العاهرات التي يعج بها المكان ، ومع ذلك فقد كانت حياتهم صاخبة لأبعد الحدود . والتجار خليط عجيب من شعوب شمال شرق واواسط افريقيا بقبائلها المختلفة ، يتدرجون من احسن العرب صفاء الى أشد الزنوج سوادا ، ومن المسلم في عمامته وجلبابه ، الى الوثني المجرد حتى مما يستر عورته . ومن عادتهم ان يجلسوا القرفصاء على الارض ، غير مبالين بالتراب ، او الرمضاء ، حتى في شدة الحر وقيظ الصيف ،

١ ـ هذا هو اللفظ الذي أورده المؤلف ، وهو يستعمل في مصر لما نسميه في السودان « بالمريسة » والغريبة ان نفس اللفظة تستعمل في سوريا ولبنان « للدندرمه » او الجيلاتي .

المترجم

ويزاولون مقايضاتهم وهم على هذا الحال ، مــن مطلع الشمس حتــى الغروب . والحركة دائبة دون انقطاع ، فهناك دائما قافلة على ابــواب المدينة ، او اخرى على وشك الرحيل ، ووسط هذا الضجيج كــان بيركهاردت يرفع بصره احيانا نحــو السماء ، فيرى ــ في حسرة ــ سربا من الرهو يتهادى فوق رأسه صافات ، متجها نحو الشمال .

وكانت شندي ملتقى لجميع طرق النيل التجارية ــ أو هذا هو ما اكتشفه بيركهاردت ــ فالنيل هنا اقرب الى الجزء الجنوبي ــ من البحر الاحمــر ، منــه في أي مكان آخر . ولذلك فقد كانت شندي هــــي بداية الطريق التجاري المؤدي الى بلاد العرب والهند والشرق الاقصى. ومن هنا ايضا كان يبتدىء طريق القوافل الى الغرب ، متتبعا منطقــة الامطار التي تقع جنوب الصحراء ، وممتدا من واحة الى واحة حتى يصل بحيرة تشاد ، ثم غربا الى تمبكتو على المحيــط الاطلسي . والنيل نفسه يشــكــل طريقا مائيــا مع مصر في الشمــال ، كما ان اثيوبيــا يمكن الوصول اليهــا بالطريق المؤدي الى المتمة فغندار . واذن فقد تجمعت هنا بطريقة عجيبة ، لا مفر منها ، كل مسالك النهر . فالحجاج مــن اواسط افريقيا كانــوا يأتون عــن طريق شندي متجهين نحــو مكة ، والرقيــق مــن اعالي النيل كانوا يرسلون الى سوق شندي ، وشندي هي همزة الوصل بين الشمال وبين أثيوبيا ، وهنا يتنسم المسافر لاول مرة رائحة مصر وهو عائد مــن الجنوب . وتقع شندي « وسط جزيــــرة مروى القديمة » ، وهي تلك الرقعة مــن الارض الواقعة بين نهر العطبرة والنيــل الازرق والنيل الرئيسي . ومن « مروى » هذه حكم فراعنــة الاثيوبيين النيل الى ما يقرب مــن الدلتــا ، وكان هــذا الجزء مــن النيــل هو الذي دحــر قمبيز نهائيــا واخرجه مــن البلاد . وقد مــر بيركهاردت وهو في طريقه الى شندي بأطلال عاصمة مروى القديمة ، الا انه لم يستطع ان يقوم بأي تحقيق علمي عــن المكان ، لانه كما قـــال

« كنت ضمـــن القافلة ، ولو ان عجائب طيبة وضعت امامي في الطريق ، لما استطعت ان اعيرها نظرة متفحص » . ورغم ذلك، فقد تنبأ ــ في فراسة نادرة ــ بأنه سوف يكشف النقاب عـــن آثار هامة في هذا المكان .

وفي ايام هيرودتس كانت هذه المنطقة تعرف باثيوبيا ، اما عندمـا زارها بيركهاردت فقد كان الاثيوبيون يطالبون بها ويهددون باحتلالهـا عـــن طريق النيـــل الازرق ، كما كان محمـــد علي يهدد باحتلالها مـــن مصر ، وكان فعلا قد ارســـل عملاءه لكـــل من شنـــدي وسنـــار ليتجسسوا احـــوال البلاد . امـــا شندي فقد تعودت على كل شيء منذ الف سنة ــ تعودت على الغزو ، وعرفت حمـــلات صيـــد الرقيق ، كما عرفت القوافل التجارية وقوافل الحجاج الى مكة ــ لقد عرفت كل ذلك ولا يزال سوقها هو الغلاف الحقيقي لماضيها . هناك اسواق اخرى كثيرة الى اعلا النيل ، والى اسفله ، ولكـــن ما منها ما كان يضاهي هذا السوق في اهميـــته ، وما منها ما مد في اتصالاته لمثل هذه الآماد الشاسعة ، وما منها ما كانت له تقاليـــد راسخة ، أو ما أمكنه أن يتمخض عـــن مثـــل هذا القدر من الاحداث . لقد كان هذا السوق ، بوجه مـــن الوجوه، هو سر الحياة في هذا النهر ، وما كان يحدث في شندي ، كان بوجه عام هو مصير كل سكان النيل ، من بحيرة تانا الى البحر الابيض المتوسط .

ومـــن المدهش حقا ان تكون شندي على كل هذا الاتصال بالعالم الخارجي ، وان تظل في نفس الوقت بعيـــدة عنه حتى سنة ١٨١٤ .فغزو بونابارت لمصر لم يكـــن له أي اثر عليها ، ومحمـــد علي لم يكـــن اكثر مـــن اسم مزعج ، لا حيلة له بها . فالصحراء المحيطة بها ، والشلالات القائمة على النيل ، كانت منعة ودرعا واقيا لها . ومضت المدينة الصغيرة في شأنها غير عابئة بشيء ، فسكانها يملكون المقدرة على البقاء ،فهم ايضا قد شقوا طريقهم المشروع في الحياة ، معتمدين على السواقي في النيل وعلى القوافل في الصحراء . وما في هذا النوع مـــن الحياة مـــن سخف

وتبديد وضياع لـم يكن قـد انحط للدرك الـذي صوره المبشرون والمستكشفون فيما بعد ، والمحك الحقيقي لكل هذا كان في تجـارة الرقيق . وقد اهتم بيركهاردت بهذا الموضوع ودرسه دراسة مستفيضة، لان شندي كانت مركزا هاما لتجارة الرقيق ، بل ربما كانت اكبر مركز لها في اواسط السودان .

وكان يستقبل سوق شندي ما لا يقل عـن الستة آلاف رأسا من الرقيق في كل سنة ، يجلبون اليه مـن جميع قبائل النيل المختلفة . الا أن الرقيـق المجلوب مـن اثيوبيا ، كان يعتبر ارقـى مـن غيره ، فنساؤهم ، كما يقول بيركهاردت :« يتميزن عن باقي النساء السود ، بحرارة العاطفة وبالجمال والثبات علـى حب اسيادهن ، اذا ما عرفوا كيف يكسبون هذا الحب » كما ان الرجال الاثيوبيين كانوا يتفوقون على غيرهم كخدم للمنازل ، وفيهم من يجيد العمل الكتابي . وأهم العمـلاء لشراء هذا الرقيق كانوا مـن تجار البحر الاحمر ، يأتون الى شنـدي ومعهم البضائع الهندية لمقايضتها بالرقيق والذهب والخيل . اما الرقـيق فيذهبون به الى ميناء سواكـن ، حيث يرسلونه شمالا الـى مصر او شرقا الى الجزيرة العربيـة . وهناك طريـق آخر لارسال الرقيق الى مصر ، وهو الطريق الذي سلكه بيركهاردت على النيل في رحلته الاولـى الى مصر . وبعد وصوله مصر ، كان يصدر عدد كبير منه الى تركيـا من ميناء الاسكندرية . وكان الفرد مـن هذا الرقيق يباع ويشترى عدة مرات وهو في طريقه الى الساحل ، وكانت اسعارهم ترتفع كلمـا اقتربوا من البحر .

ومعظم مـن يعرضون للبيع بشندي ــ كما يقول بيركهاردت ــ كانت اعمارهم لا تتجاوز الخمسة عشر عاما ، ويبلغ ثمن الذكر منـهم الخمسة عشر ريالا ، اذا كانت به آثار للجدري ــ وقد يهبط الثمـن الى الثلثين اذا لم تكن به هذه الآثار ــ أما الأنثى فتبلغ قيمتها نحو

الخمسة وعشريـــن ريالا . ويمكن للشخص ان يحتفظ بالعبد لمدة ثلاثة ايام لاختباره قبل شرائه له . وكثير من التجـــار كانوا يستغلون جواريهم بان يدفعوهـــن للعمل كعاهرات لحسابهم ، وكثيرا ما يضاجعون مـــن يبتاعون مـــن نساء ، ولذلك فالقليل منهـــن مـــن يصل الساحل وهن على بكارتهـــن . ومـــن الأشياء المحببة للتجار ، ان يصطحبوا جواريهم لحانات الشرب ليشاركنهم فيه .

وبمجرد ان يشتري التاجر المسلم غلاما يقوم بختانه ويطلق عليه اسما عربيـــا . ومـــن الحقائق المدهشة ان هؤلاء العبيد ، رغم انهـــم يجهلون القراءة والكتابة ، يصبحون فيما بعد مسلمين متعصبين ، اشد تعصبا مـــن العرب المتدينين انفسهم . أما تجارة الخصيان فلم تكـــن رائجة ـــ ولم يكـــن يرسل منهم لمصر اكثر من مائة وخمسين شخصـــا في السنة ـــ ومع ذلك فقد كانت لهم قيمتهم الخاصة مما جعل اثمانهـــم باهظة . وكتب بيركهاردت في ذلك يقول ان محمـــد علي قد طلب قبل بضع سنين ، اجراء هذه العمليـــة في مائتين من عبيد دارفور لارسالهم للباب العالي . وكان الناس عادة يمتنعون عـــن القيام بهذه العمليـــة ، وحتى المسلمين كانوا يرتعدون من بشاعتها ، ولذا كان يترك امر القيام بها ، في معظم الاحوال ، لاثنين من القسس الاقباط باسيوط . ويمضي بيركهاردت في وصف فظائعها قائلا : « وفي كل مائة شخص ممن تجري لهم هذه العمليـــة يموت اثنان ، والباقون يمكـــن معرفتهم بمنظرهـــم الذي يشبه الهيكل العظمي» ثم يمضي قائـــلا «وقـــد هبـــط طلب الخصيان في عهد محمد علـــي ، فالخصي كان رمزا له دلالته الخاصة، اذ ان الذي يمتلك واحدا ، لا بد أن يكون بمنزله عدد من الحـــريم ، وهذه دلالة مؤكدة على انها رجل ثري ـــ والثراء يجتذب محصلـــي الضرائب . »

والرقيق في شندي كانوا يعاملون معاملة السوائم تماما ، فاذا ما

اراد الشخص ان يشتري عبدا ، طلب من صاحبه ان « يطرده »[1] كما لو كان دابة . ومع هذا فقد كتب بيركهاردت في موضوع الرقيق ومعاملته ، فقال : « كانت المعاملة التي يجدها الرقيق من التجار، اقرب الى الرأفة ، منها الى أي شيء آخر . وكانوا في الغالب يعاملونهم معاملة الاطفال ، واذا خاطب العبد سيده ناداه بعبارة « ابي » ، وكانوا يعتبرون انه من الخطل ان تفصل الام عن طفلها الصغير . ويعترف بيركهاردت بأن هذه الرأفة ليست عاطفة متأصلة فيهم، بل حرصا منهم على ان لا يهرب الرقيق اثناء اقامتهم في المدينة ، فاذا ما أصبحوا في الفيافي ، كان التجار اشد قسوة واقل شفقة . ومع هذا لم يكونوا يسجنونهم داخل المنازل وهم في المدينة ـ فالزنوج يكرهون البقاء داخل المنازل ، واذا ما حجزوا داخل الغرف فسرعان ما تتدهور صحتهم ويسوء حالهم ـ وأثناء السفر يحرص التجار على أن يركب النساء على ظهور الابل ، والرجال فقط هم الذين يوضعون في الاغلال .

وكان العبيد يخافون من المصريين بنوع خاص ، لانهم كانوا يعتقدون انهم بوصولهم مصر سيقتلون أو يخصون على أقل تقدير . والحقيقة ـ في رأي بيركهاردت ـ أن الرق في بلاد العرب وفي مصر ، ليس فيه ما يخيف اكثر من اسمه ، وهناك فرص سانحة في كلا القطرين ليتحصل العبيد على حريتهم . ففي مصر بالذات يمكن للشخص منهم ان يصر على ان يباع لسيد آخر ، اذا ما اسيئت معاملته عند سيده الأول . هذا ـ وفي داخل المنازل يعطى العبد اعتبارا اكثر من الخادم الاعتيادي . فالعبد في الواقع ، هو تحفة في يد سيده ، ومن العار ان يبيع من ظل منهم في ملكه مدة طويلة من الزمن . اما الجواري فكن يلقين الامرّين

1 ـ هذا التعبير يستعمل عادة في السودان عند شراء حمار او حصان ، فيطلب المشتري من البائع ان « يطرد » الدابة ، اي ان يركض بها او يجعلها تركض ، ليتأكد من خلوها من العرج .

المترجم

من غيرة سيداتهن .

وعلى العموم فقد كان بيركهاردت يميل الى الاعتقاد بأن اسوأ ما في تجارة الرقيق ، هو ما تتركه من أثرسيء فيالضحايا انفسهم، فقد كانت تدفعهم كما قال ــ للكسل والتحرش بالغير والشراهة والخمول . وكان مقتنعا بأنه ليس هناك أدنى أمل في ابطال الرق بافريقيا .

وجدير بالملاحظة ان بيركهاردت لم يبد اي هجوم اخلاقي علــى مسألة الرق هذه ، وهو شيء يدعو للعجب ، وخصوصا لأن بيركهاردت قد عرف بعطفه ولين قلبه . ومع ذلك فان فيما قاله ، شيء من الاقناع ، فهو يدعو المرء ليستنتج ان الرق في افريقيا ليس بالشيء الذي لا يمكن استئصاله ، او الذي لا يقبل التغيير ، بل هو شيء مستوطن كالملاريــا والدوسنتاريا ، وانه يختلف باختلاف الزمان والمكان . ففي هذا الوقت بالذات ــ اي في أوائل القرن التاسع عشر ــ كان الرق جزءا من الحياة الاعتيادية في كل من مصر والسودان ، والعبد العادي كان راضيا بوضعه الاجتماعي ــ كالعامل في المصنع والكاتب في المصرف في وقتنا الحاضر ــ ولا شك في ان نوع الرق الذي رآه بيركهاردت في السودان ، لم يكن في القسوة التي صار اليها بعد ان غزا محمد علي السودان في سنة ١٨٢٠ ، فمحمد علي قد ادخل شيئا جديدا بشعا ومتوحشا في موضوع الرق ــ وهو نفي السكان بالجملة ، من اوطانهم لاغراض سياسية بحتة ، فهذا الاجراء العنيف لم يعرف العالم مثله مرة اخرى في قساوته ووحشيته الا في عهد هتلر وستالين . اما في ايام بيركهاردت فلم يتعد الرق ان يكون عادة اجتماعية راسخة الاقدام ، وبشاعته في أوائل القرن التاسع عشر ، لم تكن في غالبالأمر ، أشد وأقسىفي كثير من نواحي الحياة الاخرى في وادي النيل .

وكان لشندي مكها ــاو ملكها الخاص ــ كغيرها من تلك المقاطعات الصغيرة التي كانت منتشرة على طول النهر . وكان الجالس على العرش

في سنة ١٨١٤ يدعى « الملك نمر » . ورغم ان بيركهاردت لم يذكر الكثير عن هذا الرجل (ربما لان نمر قد جرده من سلاحه القيم الذي كـــان يحمله) ، الا أنه من الواضح ــ كما ذكر آخرون ــ انه كان رجلا مهابا ، طويل القامة (يبلغ طوله نحو الستة اقدام) ، متكبرا ومحافظا في عاداته . وكان يرتدي في المواكب الرسمية فروا من جلد النمر (وهو علامة الملك في وادي النيل) وكان يسير في ركابه غلام يحمل مظلة يظلله بها . اما قصره الذي يقع بالقرب من النيل ، فكان عبارة عن بناء من الآجر مطلى بالجير الابيض ، وكان البناء الوحيد بالمدينة الذي يتكون من طابقين ، وكان مؤثثا باسرّة مطعمة بالصدف . وكان له بخلاف هذا القصر ثلاثة منازل اخرى ، كل واحد منها لاحدى زوجاته وما يتبعها من جواري ، وكان يقضي في كل منها اسبوعين على التوالي . امـــا جيشه او بعبارة اخرى حرسه الخاص ــ فيتكون من ثلاثمائة فارس ، بينهم نحو العشرين فقط مسلحين ببنادق قديمة الصنع . وقد استطاع بهذا الجيش ان يسود وان يحكم حكما مطلقا ، وان يشن الحروب على جيرانه الشايقية . هذا وقد كانت له ثروة طائلة ، جمعها اساسا من الجواري اللائي كان يستأجر الكثيرات منهن لأغراض غير اخلاقية في السوق وفي القـــرى المجاورة . وكان نمر رجلا متعلما بالنسبة لبيئته ووسطه ، فهو يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن عن ظهر قلب ، الا أنه قد عرف بقساوته البالغة ... [1] وعلى أي

١ ــ هنا سفسطة للمؤلف عن معنى نمر بالانكليزية ، ولماذا سمّي الرجل نمر بينما لا يوجد النمر بالسودان . والنبذة لا تعطي معنى اذا نقلت للعربية . الا انها تذكرني بقصة وكيل البوستة الذي نقل الى احد المراكز المنعزلة بمديرية خط الاستواء والظاهر انه كان رجلا جبانا . وفي احد الايام وصل منه تلغراف يطلب فيه الاذن بالسماح له بقفل المكتب لانهم « في حرب شعواء مع الافيال والاسود والذئاب والنمور التي تهاجم المكتب باستمرار » وكان التلغراف باللغة الانجليزية . فرد عليه مدير البوستة البريطاني بالعبارة التالية : «لا توجد نمور بالسودان » . فرد عليه وكيل البوستة المسكين قائلا : « احذفـــوا كلمة نمور » . ولسان حاله طبعا يقول « وفي الباقي الكفاية » .
المترجم

حال فقد كان هذا الرجل ملكا مهابا ، الا انه قد قدّر له ان يكون آخر ملوك شندي .

والظاهر ان بيركهاردت قد استمتع باقامة طيبة في شندي ، فهو يقول : « اثناء وجودي في شندي لم يحدث ما يكدّر صفو اقامتي بها ، فبعد وصولنا بقليل امتلأ منزلنا بالرقيق والجمال ، فتعرّفنا الى عدة جماعات . وكان كل منا يعطي الجارية التي تعد لنا الطعام كمية من الذرة ، كما كنا نسدد جميع نفقاتنا الاعتيادية بالذرة ايضا . وفي كل مساء كانت تقيم احدى الجماعات وليمة للشرب . اما النهار فكان يمضي في الاعمال التجارية . وبعد وصولنامباشرة اشتريت شاة صغيرةلأكسب بها ود العبابدة (والعبابدة هم دليلوالقافلة التي احضرتهم) كما انني قد وضعت كل ما احمله من تبغ تحت تصرفهم . وكنت اذهبللسوق باتنظام ، كما تمكنتمن اقامة بعضالصداقات مع بعض مشايخالدين» .

حقيقة ان الضوضاء والحرور وجلبة السوق كانت تصدع رأسه — كما قال — وحقيقة انه كان يعود الى كوخه عند منتصف النهار ليغفو، ولكنه كان مواظبا على الذهاب لمتجره الصغير الذي اقامه بالسوق . وهناك كان يتجاذب اطراف الحديث مع مشائخ الدين هؤلاء ، ومع التجار الذين يفدون اليه باستمرار . وكان يوجه اليهم الاسئلة ويناقشهم مجريات الاحوال ، وبهذه الطريقة تمكن من الحصول على أبعد المعلومات وأدقها تفصيلا .

والقصة كانت متشابهة ، فالتدهور والانحلال في كل مكان . ففي دارفور توفي السلطان عبد الرحمن ، وخرجت القبائل عن الطاعة ، واصبحوا هم القانون وهم المتصرفون . وعلى ضفاف النيل ، في المناطق الواقعة جنوب شندي ، كانت هنالك عدّة دويلات صغيرة شبه مستقلة ، ولكنها كانت في الرمق الاخير ... وبالقرب من الحلفاية ، ينساب النيل الابيض ، هابطا من الفيافي التي — فيما يظهر — لم يرها رحالة من قبل ،

وكل ما عرف عنها انها مأهولة بقبائل زنجية علـى درجة عظيمة مـن التوحش . اما طريق القوافل المؤدي الى جنوب النيل الازرق ، فقد كان ناميا ومنتعشا الى درجة ما ، الا ان سنار نفسها ـ كما علم بيركهاردت ـ قد كانت متدهورة ، تتنازعها الفتن والثورات العظيمة ضد حكم لـم يعد قادرا على الدفاع عن شيء . فقد تسلم مقاليد الامور نائب الملك او الوزير «ودعدلان» ، ، وهو من سلالة الوزير ودعدلان الـذي كانت بيده السلطة الفعلية عندما قام بروس بزيارته لسنار. وقد حاول الحفيد ان يقوم بنفس الدور الذي قام به جدّه الاكبر ، الا ان الامبراطورية الصغيرة كانت فيما يبدو ، في النزع الاخير ، ولم تعد قادرة على مقاومة اي غزو من الجارج .

واستطاع بيركهاردت ان يتحرّى لنفسه عن الطريق المؤدي الـى سواكن بالبحر الاحمـر وفي مايو سنة ١٨١٤ اشترى عبدا صغيرا لم يتجاوز السادسة عشر من عمره ، كما اشترى جملا بكل ما تبقّى له من مال،ثم انطلق في قافلة تتكوّن من مائة وخمسين تاجرا،معهم نحو ثلاثمائة رأسا من الرقيق . وفارقوا النيل عند ملتقى نهر العطبره ، وساروا متقفين طريق الحجاج الى ان وصلوا سواكن في اواخر يونيو . وكان بيركهاردت هو اول اوروبي تقع عيناه على هذا الميناء المشهور ، ولكنه لم يعجب به كثيرا فقد قابلته نفس الصورة : « فساد في العقيدة وجشع وسكـر وفجور » . وكان بالمدينة حوالي ثمانية آلاف نفس ، الا ان جميع المباني تقريبا كانت متداعية . والنشاط الفعلي للمدينة كان متمركزا حـول جزيرة صغيرة بالقرب من الشاطىء، كانت ترسو فيها المراكب التجارية. وكان يصدّر من هذا الميناء ما بين الالفين والثلاثـة آلاف رأسا من الرقيق في كل سنة .

وبهذا يكون بيركهاردت قد كوّن صورة متكاملة ، بعض الشيء ، عن السودان او بعبارة أصح عن الجزء الشمالي للسودان ، فلـم يترك

كبيرة او صغيرة عن نواحي الحياة المختلفة على ضفاف النيل الا وضمنها مذكراته . ورغم ما في هذه الصورة من اخطاء كبيرة في تسلسل الحوادث ، ورغم ما افتقدته من تناسق الا انها كانت صورة مألوفة : ممالك اقطاعية صغيرةاطلت برأسها من درك الهمجيةتحت ستار الاسلام، ثم تداعت مرة اخرى ــ هذه هي افريقيا السوداء ، توغل فيها الشرق السامي ، ودخلها القرآن وتطرّق اليها فرو النمر ــ وما عدا ذلك فلا شيء غير صحراء شاسعة جرداء ، لا تصلح للحياة ، وغير طرق القوافل الموحشة المحفوفة بالمخاطر ، والتي تسير متعرّجة يمنة ويسرة نحو النيل .

وطالما بقيت البلاد بعيدة عن التدخل الاجنبي فان زعماءها ، كالملك نمر قادرون على بسط سيطرتهم بين رعاياهم . ولكن من الواضح ــ كما كان يعتقد بيركهاردت ــ انها سوف تنهار اذا ما دخلها فاتح مسلّح باسلحة حديثة . فالبنادق لم تكن معروفة لمعظم السودانيين ، ولذلك كانوا نسيج وحدهم يختلف موقفهم اختلافا تاما عن باقي اجزاء القطر الممتدة على ضفتي النيل . فهذه كانت متشابهة من جميع الأوجه ، والزمن فيها ثابت لا يتقدم . ومن المدهش ان تظل بلاد كشندي ، محافظة على كيانها طيلة هذه المدة دون ان تتعرض لأي تدخل من الخارج . وكان بيركهاردت يعتقد ان كل هذه المنطقة الممتدة من بربر حتى ملتقى النيلين ــ الابيض والازرق ــ يمكن اخضاعها بقوة لا تتعدى الثلاثمائة جندي من الاوروبيين . وبالاختصار فقد كان باب السودان مفتوحا على مصراعيه لأي متطفل من الخارج ، مثله كمثل بيت متداع ، مات اهله او رحلوا عنه تاركين رحابه لجماعة من السوقة والأوباش الذين لا مأوى لهم فاحتلوا انقاضه واتخذوا منها وكرا لهم .

ولقد كان الموقف هنا شبيها من نواح عديدة ، بموقف مصر عند

دخول بونابارت ، وسنرى فيما بعد موقفا مماثلا له باثيوبيا . لقد توفرت كل العوامل لحلول مأساة كبرى : شعب أعزل لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، تتجاذبه الفتن والمنازعات ومغريات الغنائم من الذهب والرقيق، ثم عزوف العالم الخارجي عن الاهتمام بما يجري فيه من فوضى وما تسيطر عليه من همجية ، فلا احد يهتم بما يجري في شندي ، بل لم يسمع احد بهذا الاسم ــ الا القليلون جدا ــ قبل ان يكتب عنها بيركهاردت . وها هي قد اصبحت على ابواب كارثة سوف تحل بها عما قريب ، فقد اخذت سياسة الغرب تدب في ربوع وادي النيل كالطاعون الفتاك ، وعما قليل سيكون مصير شندي هو ايضا مصير الشعوب النيلية في كل مكان .

واخيرا ، في سواكن ، باع بيركهاردت عبده الصغير وباع جمله أيضا ، ثم اختفى في مسرح الاحداث متجها الى الجزيرة العربية . وهناك التقى بمحمد علي ، ولا شك في انه قد اخبره بكل ما رأى في السودان . وهكذا ــ ودون تعمد ــ قد استعجل المأساة وهي في طريقها .

* * *

الفصل الثاني عشر

السلام عليكم

« إن طموح محمد علي كان يرمي لاحتلال جميع ضفاف النيل وجزره ، وأن يهيمن بسلطانه على جميع من ينعمون بمائه من الحبشة وحتى البحر الأبيض المتوسط ، وهو طموح جدير بأمير عظيم لو لم تكن جذوره نابتة من الجشع » .

وادنجتون وهانبري

مذكرات عن زيارة لبعض اجزاء اثيوبيا

بالرغم مما كان فيه السودان من عجز وضعف ، فقد كانت هناك عوامل وجيهة توجب على محمد علي التردد والتفكير مرارا وتكرارا قبل ان يدخل في مغامرة بمحاولة غزوه . واول هذه العوامل كان جغرافيا بحتا اكثر منه حربيا . فالشلالات تقف عقبة كأداء لا بد من تخطيها . ثم هناك بعد المسافة ، فارسال قوة لمسافة الفي ميل ليس بالشيء الذي لا يعمل له الف حساب . ثم ان المخاطرة بغزو قطر لم يستكشف منه الا القليل جدا ، ولم تقم قوة بغزوه منذ ثلاثمائة سنة ، لهي مغامرة كبرى تحتاج لعقلية بونابارت ، ولاصرار فاتح من المكسيك .

ولم يكن هنالك اي تفكير في ارسال الجيش عن الطريق الصحراوي المؤدي من اسوان الى بربر ، لأنه من المؤكد أن يفنى

عطشا في هذه الحالة ، فلا بد اذن من متابعة النهر ، ومعنى ذلك ان يجتاز ستة شلالات قبل ان يصل الى ملتقى النيلين ـ الازرق والابيض ـ وبعد أن يصل هناك ، ستكون امامه مائتا ميل اخرى ليجتازها قبل ان يصل الى سنار ، التي هي الهدف الرئيسي لهذه الحملة .

وهناك ثانية موضوع مقاومة السودانيين التي لا يمكن التغاضي عنها كلية . صحيح ان النوبيين قد يكونوا اودع من ان يقاتلوا ، وقد يكون المماليك بدنقلا أقل من أن يشكلوا خطورة تذكر ـ فقد تناقص عددهم الى حوالى الثلاثمائة محارب فقط ـ ولكن هنالك الشايقية الذين لا يشك أحد فيانهمسيقاومون . ولنفرض جدلا انهم هزموا ، وان الطريق الى بربر وشندي اصبح خاليا من أية مقاومة ، فمن ذا الذي يستطيع ان يقول ان هذه الدويلات التي كانت في يوم من الايام تابعة للفونج ، لن تتحد امام عدو مشترك ؟ واذا ما اتحدت فسوف يكتب للحملة الفشل منذ البداية .

ثم هناك عقبة اخرى أشد تعقيداً من غيرها ، وهي انه منذ سقوط بونابارت في واترلو سنة ١٨١٥ ، قد برزت بريطانيا في المياه الافريقية كقوة بحرية عظيمة ، وخصوصا في المحيط الهندي . ثم ان البحر الاحمر اخذ يزداد اهمية يوما بعد يوم كطريق تجاري ، رغم ان قناة السويس لم تنشأ بعد . ولكي تضمن انجلترا سلامة الطريق ، ارسلت بعثة لعقد اتفاقية مع امبراطور اثيوبيا ، تتحصل بموجبها على بعض الامتيازات في موانىء البحر الاحمر . ومن الواضح انها لم تكن لتغض النظر عن اي محاولة لاحتلال اثيوبيا ، وتقف مكتوفة الايدي دون ان تبدي احتجاجها بطريقة او بأخرى . وكانت لندن تنظر لمحمد علي كحليف الفرنسيين ، وبمعنى آخر كان الانجليز لا يثقون فيه ، رغم ان بونابارت قد اصبح الآن (سنة ١٨٢٠) معتقلا في منفاه الأمين بسنت هيلانة (ولم

يعش بعد ذلك الا سنة واحدة) الا ان احتمال رجوع الفرنسيين بقواتهم للشرق الادنى ، والدخول في حلف ما مع تركيا كان لا يزال قائما .

وكان محمد علي مدركا لكل ذلك ، الا انه كان قد عقد العزم على الوصول الى سنار ، فقد تجمعت لديه بعض المعلومات مما كتبه الرحالة المتقدمون . فالطبيب الفرنسي بونسيه كان قد زارها في سنة ١٦٩٩ وترك وصفا لامبراطورية الفونج التي كان في استطاعة ملوكها ان ينتقلوا الى مسافة الف ميل دون ان يتجاوزوا حدود سلطانهم الذي كان يمتـد الى البحر الاحمر شرقا ، والى النيل الابيض غربا ، والى الهضاب الاثيوبية جنوبا ، وما يقرب من الحدود المصرية شمالا . وهؤلاء الفونج ، كانوا قد ظهروا فجأة من المجهول في اوائل القرن السادس عشر . والظاهر انهم لم يكونوا عربا او مسلمين في بداية الامر ، ومن الجائز انهم كانوا من سلالة القبائل الزنجية المستوطنة على النيل الابيـض ، وقـد عرفت امبراطوريتهم اصلا « بالسلطنة الزرقاء » فتزاوجوا مع العرب واعتنقوا الاسلام . وقد كانوا في ايام بونسيه على جانب كبير من السطوة والقوة، وكانت عاصمتهم سنار ـ تقع شمال المدينة الحالية بقليـل ـ على نفس الضفة الغربية وعلى بعد مائة وخمسين ميلا من الخرطوم (التي لم تكن قد ظهرت في الوجود في ذلك الوقت) ويقول بونسيه ان عدد سكانهـا بلغ المائة وخمسين الف نسمة ـ ومن المحتمل ان يكون قـد بالغ بعض الشيء في هذا التقدير ـ وأنهم كانوا على جانب كبير من الدهاء والريبة والمكر ، وان منازلهم كانت من طابق واحد ، ولها سقوف مستوية ، الا انه قد كان لهم جامع رحب فسيح . اما قصر الملك فقد كان عبارة عـن حصن منيع ، له برج من خمسة طوابق ، وأبواب محكمة الصنع ، مـن الخشب المنحوت .

وفي سنة ١٦٦٩ كانت لسنار تجارة واسعة مع الهند عن طريق ميناء سواكن ، ولذلك فكثير من نساء البلاط كن يظهرن في حلل من الحرير ،

وأساور وحجول من الفضة ، ويتزين بالكحل والدلال . وكان لهؤلاء النساء اتباع عراة (الا مما يستر العورة) يلازمونهن في كل مكان . أما سوق سنار ، فقد كان عامرا زاخرا بجميع السلع ، باسعار زهيـدة . فالرقيق والجمال والخيل والعاج والعرديب والزباد (الذي يستعمل في تثبيت العطور) والتبر والتبغ ، كلها من السلع المتوفرة في هذا السوق . وكانت تحيط بالمدينة غابات واسعة الارجـاء ، تجوبهـا الحيوانات المتوحشة والوحوش الضارية . وقد قيل ان جانبا كبيرا من ثروة الفونج، كان يأتيها من مناجم الذهب بجبال فازوغلي التي تقـع على الحدود الاثيوبية . وكان ملك الفونج حريصا كل الحرص على هيبة الملك . فمرة من كل اسبوع ، كان يخرج راكبا الى منازله الريفية ، يحف به ما بين الثلاثمائة او الاربعمائة من اتباعه ، ما بين راكب وراجل ، يتغنون اثناء سيرهم بأناشيد موقعة على انغام الدفوف والطبول ، كلها تشيد بعظمته وتمجيده. وكان يتبعهم رهط من النسوة ، يقدر عددهن بالمئات ، يحملن على رؤوسهن مئات السلال المعبأة بالفواكه ، استعدادا للوليمة الملكية المرتقبة . وهناك تقام المباريات التي كانت مألوفة في القرون الوسطى ، كالمبارزة بالجريد والمعارك الصورية . هذا ــ والملك لم يكـن يظهر في المناسبات العامة ، الا وعلى وجهه قناع من الشاش الملون . وكان هـو الذي يرأس محكمة العدل ، في هيبة حكام الرومان وسطوتهم ، فاذا ما ادين المتهم ، طرح أرضا وضرب بالعصي حتى يموت .

وقد أيد بونسيه فيما ذهب اليه ، مبشر بافاري يدعى « ثيـودور كرومب » ، كان قد زار سنار بعد يونسيه بقليل ــ اي في سنة ١٧٠١ ــ وأضاف ان الساحة التي بوسط المدينة ، كانت تضارع في حجمها ميدان ميونخ . وفي هذه الساحة كان ملك الفونج يستقبل ملوك الاقاليـم التابعة له ، كشندي وبربر والدامر ، وهناك يقدمـون له فروض الولاء والطاعة بتقبيل قدميه ، ثم يقدمون ما أتوا به من جزية ، وهي عادة ما

تكون من الرقيق والخيل والجمال والمال . ويقول كرومب انه رأى في إحدى هذه المناسبات ، موكبا من الجــــواري يتكوّن من حوالــــي الثلاثمائة جارية ، يأتزرن بثياب من الحرير ، ويتحلين بالأساور ، وبعقود من الخرز ، ويحملن على رؤوسهن مقاطف ملأى بالعطــور ـــ رآهن يدخلن الساحة وهن يغنين ويزغردن ، ثم قدمن له كهدية .

وعندما حضر بروس الى سنار بعد ستين سنة ـــ كما رأينا سابقا ـــ وجد الأحوال قد تدهورت كثيرا ، فمعظم الغابات أخــذت تتلاشى ، والقصر الملكي اخذ يتداعى ، والملك الشاب ، الهزيل المضطرب ، اصبح ألعوبة في قبضة كبير وزرائه ، لا حول له ولا قوة . وفي هـــــذا الوقت كانت قبائل الشايقية ، بمنطقة دنقلا ، قد تمردت ، ثم شقت عصا الطاعة ، وتبعتها باقي دويلات النيل ، الواحدة تلو الاخرى . وهكذا بعد ثلاثـــة قرون ، كما قال كروفورد «من القذارة والهمجية» اخذت مملكة الفونج في التداعي ، واصبحت على ابواب الانهيار .

اما عن قبائل غرب السودان ، فقد تجمعت لدى محمد علي بعض الحقائق غير المترابطة . فقد ذهب براون الى دارفور في سنة ١٧٩٣ ونشر كتابا عن رحلته هذه في سنة ١٨٠٦ ، فذكر انه سار بالمراكب الشراعيــة حتى اسيوط ، ومن هناك سافر على ظهور الجمال حتى جبال النوبة ، حيث سلب ونهب وأسيئت معاملته ، وكان ذلك على يدي ملك عربــي يدعى عبد الرحمن . ثم قضى سنتين تحت المراقبة قبـــــل ان يسمح له بالعودة للقاهرة ، فتمكن في هذه المدة من مراقبة الريف مراقبة دقيقة ، وجاء بتفاصيل مذهلة عن طرق القوافل ، وأســواق دارفــور وعادات الأهالــي .

ثم جاءت الحملة الفرنسية ، وتلتها الحــروب الأهلية في مصر ، فتوقفت الاستكشافات في مناطق النيل العليا . وقليل جدا من المغامرين من أمثال بيركهاردت ـــ الذي لا تقدر مجهوداته بقيمة ـــ من تمكن ، في

هذه المدة ، من القيام بوصف للاحوال على النيل . ومع ذلك ، فقد كانت هنالك ظروف ملحة ، تضطر محمد علي لأن يجازف بارسال حملته للسودان . ولم تكن هذه الظروف متعلقة باكتشاف مناجم الذهب التي كان يتطلع اليها ، ولا بالحصول على الرقيق الذي كان يريد « ان يحقق به حلمه بانشاء جيش ضخم من السود » ـ كما قال رتشارد هل ـ لم يكن السبب شيئا من هذا او ذاك ، بل كان هناك موضوع آخر اكثر أهمية من كل ذلك . كان هنالك هذا الخطر الذي أصبح يهدده ، ويهدد مصر على السواء . كان هناك حرسه الخاص من الألبانيين الذين كانوا السبب في وصوله الى السلطة والحكم، فهم قوة ضخمة، اصبحوا في سنة ١٨٢٠ ـ من الخطورة بحيث انه يجب ان يعمل لهم الف حساب . وحملة السودان هي الطريق الوحيد للخلاص من نشاطهم وخطورتهم .

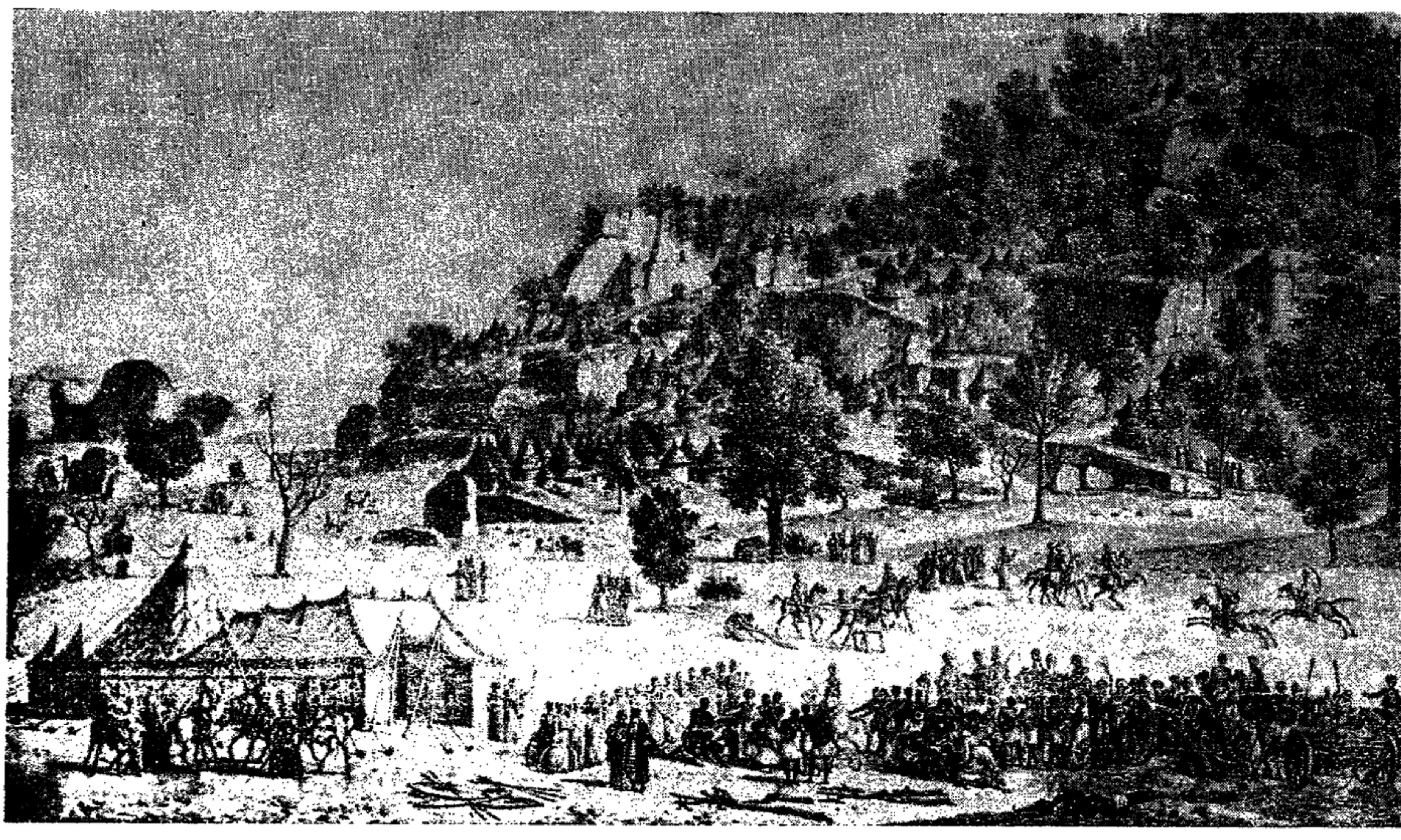
الا ان الحقيقة ظلت قائمة ، من انها مغامرة عظمى محفوفة بمخاطر جسيمة . وأغرب ما في الامر ان محمد علي كان يعتقد ان في امكانه ان ينفذ مشروعه بمثل هذا العدد الضئيل من القوات ، وبمثل هؤلاء الجنود غير النظاميين ـ كما حصل بالفعل ـ ودون أن يتحرك هو شبرا من القاهرة . ومما زاد في غرابة الموقف ، انه عقد لواء الحملة لابنه الثالث اسماعيل ـ وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .

واسماعيل هذا كان كاللغز في عالمه القريب من الهمجية ، وقد وصفه معاصروه بأوصاف متفاوتة ، ولكن ليس منهم من يرفعه الى المرتبة التي يمكن ان يقارن معها باخيه ابراهيم . فالأخير كان قائدا ملهما ، اما اسماعيل ، فقد علمنا من اكثر من مصدر ، انه كان على جانب كبير من الذكاء ، وانه متواضع لابعد الحدود ، كريم وشفوق بفطرته . الا أن هذا الوصف لا يتفق ابدا مع ما ظهر منه من تصرفات اثناء هذه الحملة فقد كان أشبه بجنكيزخان منه بانسان متحضر . وهذا الوصف لا يتفق ايضا مع ما كان يرسله له والده من رسائل من القاهرة ، ففي أكثر من

مرة حذره بأن يكون الين عريكة مع السودانيين . والحقيقة انه كـــان صغيرا جدا، ومن الطبيعي ان يكون أميل الى العنف وهو في هذه السن. وهناك نقطة اخرى جديرة بالاعتبار ، فقد كان اشرم الانف ، جهوري الصوت ، سريع الكلام ، لا يكاد يفهم . فهذه مثالب ، ربما كان يحاول مضاهاتها بالتظاهر بالعظمة والنفوذ. ومع ذلك فقد كان لبقا في تصرفاته، بارعا في اتخاذ قراراته السياسية ، وبهذه اللباقة تمكن من مراوغـــة «وادنجتون» وزميله عندما طلبا منه شيئا لم يكن مستعدا لاجابتهم له . ولكنه كان متهورا ، فظا ، سريع الغضب ، يرتعد منه الجيش فرقا ومهابة ، ورغم ذلك لم يخرج عن طوره او يفقد اعصابه طيلة السنتين الرهيبتين اللتين قضاهما في هذه الحملة ــ وهي كل ما تبقى له من عمر ــ ولم يكن يفتقر الى روح المرح والفكاهة ، فقد كان من احب هواياته الى نفسه ، ان يتبارى مع مهرّجه في الشطرنج ، على ان يدفع اسماعيل قطعة من الذهب عن كل مباراة يخسرها ، وان يوقع عليه عقابا بدنيا بأن يسدد له عشرين ضربة ، عن كل مباراة يكسبها .

وكأخيه الاكبر ، كان يكن لوالده كل اجلال واحترام ، ولكنه احترام قد يبلغ درجة الخوف احيانا . ولم ينس قط في أي لحظة من اللحظات ، حتى وهو على بعد الف ميل مسافة ، وعدة اشهر زمنا ــ لم ينس تلك النظرة الهادئة الفاحصة ، التي تفيض مكرا ودهاء من عيني والده ، وهو هناك ، قابع في قلعته ، بعيد في قاهرته . وما كان ليتوانى لحظة واحـــدة في ارسال منشوراته وتقاريره ، أو أن يستدر عطفـــه ويتودد رضاه ، في شيء من التذلل والخضوع . فمحمد علي لم يكـــن يحكم دولا فقط ، بل كان يحكم منزله بالمثل .

اما القوة التي كان على اسماعيل ان يقودها ويزحف بها ، الى ما يبلغ ضعف المسافة التي قطعها الفرنسيون على النيل، فلم تزد على الاربعة آلاف جندي ، والحقيقـــة ان الانسان ليتردد كثـــيرا في أن



جيش اسماعيل في أحد معسكراته بالنيل الازرق

يطلق على هذه الطغمة لفظة جنود ، فقد كانوا اغرب مجموعة من الرعاع تقوم برحلة في ربوع وادي النيل اطلاقا . ولم تر شواطىء النيل في تاريخه الطويل ، لم تر قبلهـــم او بعدهم ، عصابة اشد غرابة منهم . ونحن لا يمكننا تشبيههم الا بتلك الحشود الاضافية ، التي نراها في الافلام التاريخية ذات المناظر الخلابــة . فالاتراك والالبانيون الذين يشكلون نصف الحملة ، كانوا في زي يتكون من طرابيش مترهلة ، بعضها خضراء وبعضها حمراء ، ثم صدار ازرق محبوك باللون الذهبي، فحزام من الجلد ، وسراويل فضفاضة ، ونعال حمراء ــ وكان لكل منهم عبد وأتان ــ وهناك جزء آخر كان يرتدي زيا مختلفا يتكون مــن قميص في مستوى الركبة وجوارب طويلة الى منتصف الفخذين ، اما الخيالة الاكراد فكانوا يمتطون جيادا عليها لبد لا تخترقها السهام ، وعلى صدورهم دروع من الفولاذ ، وفوق رؤوسهم خوذات مخروطية الشكل . وهناك نحو الف من البدو مجهزين بقلنسوات ودروع من الزرد . ثم حشد من الاتباع والمتطفلين ، كل يلبس على هواه ، الا ان معظمهم كان في الملابس الشرقية البيضاء الفضفاضة . وجميع الجنود كانوا من المرتزقة الذين تجري عليهم رواتب شهرية ، الا انها رواتب هزيلة جدا ، ولم تكن هذه الرواتب هي التي أغرتهم للتجنيد ، بل كان دافعهم الاول هو ما كانوا يأملون فيه منغنائم ،ثمما وعدهم به محمد علي ، بأن يدفع خمسين قرشا عن كل اذن بشرية يتحصل عليها أي منهم في القتــال .

وكان القائد العام حريصا على ان يتشبث بمظاهر الابهة والعظمة، التي تليق بجيشه الصغير ذي الالوان البراقة ،فأعد لنفسه فسطاطا رائعا من الخيش الاخضر ، طوله مائة قدم ، تعلو ساريته الرئيسية كرة كبيرة براقة ، وعلى كل عمود من اعمدته كرة صغيرة في نفس البريقوالبهرج وكان الفسطاط مبطنا من الداخل بقماش مزركش ، تتدلى منه الستائر

والضفائر الحريرية ، وفرشت ارضه بالسجاد ، وبثت عليها الوسائـــد والطنافس ، وتتدلى في وسطه نجفة كبيرة من المصابيح الزيتية ــ وقد نقلت كل هذه الفخفخة بالقوارب النيليـــة ــ وكان اسماعيل ، يجلس يومياً وسط فسطاطه على احدى الوسائد ، خالفا ساقه على الاخرى ، يحف به حرسه الخاص وقواده العظـــام ، وكاتما اسراره ــ احدهما يوناني والآخر ايطالي ــ وكان يلازمه ايضا اطباؤه ومهرجه .

اما الخطة العامة للحملة فكانت في منتهى البساطة ، وتتلخص في ان تتحرك الحمـــلة جنوبا مع النيل في طابورين ، يتجه احدهمـــا ، تحت قيادة اسماعيل ، نحو سنار والحدود الاثيوبية رأسا . ثم يتبعه صهره محمد بك ــ المعروف بالدفتردار ــ على رأس الطابور الثاني ، ويتجه غربا نحو كردفان . اما اهداف الحملة فكانت محددة ، وهي ان محمد علي كان في حاجة الى اربعين الف رأس من الرقيق على الاقل ، والى اكبر كمية من الذهب والمعادن النفيسة الاخرى .

اما معلوماتنا عن هذه الحملة فقد استقيناها من ثلاثة شهود من الغرب ، كانوا قد سجلوا وصفا لما شاهدوه . ويجدر بنا ان نقف هنـــا قليلا لنتعرف اليهم ، لانهم كانوا على جانب من الطرافة ، قد لا تقل عما كان فيه هذا الجيش الحقير من طرافة . واولهم كان يـــدعى « جورج وادنجتون » وهو شاب في السابعة والعشرين من عمره ، حائز على درجة الزمالة من كليـــة الثالوث بدوبلين . وقد حضر لمصر بنـــوع الصدفة ، مثل ما حضر «لي» «وسملت» قبل ثماني سنوات . فبينما كان في رحلة بأوروبا ، صادف ان قابل القس «برنارد هانبوري» من كلية اليسوعيين بالبندقية ، في سنة ١٨٢٠ ، فتمكن برنارد من اقناع وادنجتون بأن يقوما برحلة سياحيـــة لزيارة الآثار بمناطق النيل العليا . ووصلا القاهـــرة في اغسطس من تلك السنة ، وفيها حظيا بمقابلة محمد علي ، وتحصلا منه على اذن باللحاق بالجيش في مصر العليا . فتزيا بالزي التركي ، وذهبا

عن طريق النيل حتى مروى . وكان في صحبتهما شاب ايرلندي يدعى «جيمز كيرتون» ورجلان مالطيان، وكلب للصيد اطلقا عليه اسم انوبيس «نلى اسم الهقدماء المصريين الذي لهرأس كلب».وعند وصولهما الى مروى صرفهم اسماعيل راجعين لانه لم يكن في حاجة الى مراقبين من الاجانب .

اما وادنجتون فقد كان مقدّرا له ان يقضي آخر سني حياته الطويلة كمؤرخ للكنيسة ، ثم عين كنائب مطران ، ثم عميدا لجامعة ديرهام . ولعله لم يكن أنسب رجل ليعطينا وصفا لحملة وحشية ، تقوم على القرصنة في وادي النيل . فقد كان عالما مولعا بالفنون الجميلة ، متأنقا ومنهمكا في هوايته الخاصة ، غير أنه لم يكن دقيقا في ملاحظاته . وكان معجبا ببيركهاردت ، الا انه هو شخصيا ، كان منطويا على نفسه، يرقب العالم من داخل برجه العاجي ، في استرخاء تام مما يقرأه لغيره . ومع ذلك فقد ترك لنا معلومات ممتعة عن تجاربه الشخصية في بعض المواضيع . وفيما كتبه عن السراب ، كان يسمو الى مراتب الشعراء ، فهو مثلا ، يقول ان العرب كانت تسمي السراب «غدائر الغزلان» ، لان قطعانا كبيرة من الغزلان كانت ترعى في الصحراء آنذاك ، وكان هذا السراب يبدو للعيان كبحر أسطوري ترتاده تلك الغزلان لترعى وتسرح على شواطئه ، وبين مياهه الشاردة .

وفي مروى التقى وادنجتون بشخصية غريبة جدا ، كرهها هذا الرجل الورع المتعصب من اول وهلة ، وكان هذا الشخص امريكي الجنسية ويدعى «جورج بثيون انجلش» (George Bethune English) ولد قبل ثلاثة وثلاثين عاما في مدينة كمبردج ، من اعمال «ماساشوست» وكان قد تلقى تعليمه بجامعة «هارفارد» . وبدأ انجلش حياته كقسيس، ثم انتقل للعمل بالصحافة ، وقبل سنة او سنتين من التاريخ الذي نحن بصدده ، التحق كضابط بالبحرية الامريكية ، بعد ان توسط له في ذلك «جون كوينسي آدمز» بما له من مكانة ونفوذ . وكان «انجلش» رجلا

وقورا في مظهره ، ويبدو عليه الجد والصرامة ، كما كان متضلعا في اللغات ، الا انه كان أحيانا يتخذ بعض القرارات الشاذة بطريقة فجائية. ففي سنة ١٨٢٠ توقفت سفينته بالاسكندرية ، بينما كانت في جولة في مياه البحر الابيض المتوسط ، وفجأة استهواه الشرق ، فاستقال من خدمة البحرية الامريكية ، واعتنق الاسلام ، ثم التحق بخدمة محمد علي تحت اسم محمد افندي . وقد أدّى هذا التصرف الطائش الى كثير من الاقاويل والاتهامات ، ثم انتهى بأن انتقل الى القسطنطينية ليصبح فيما بعد عميلا بها لحكومة الولايات المتحدة .

اما في الوقت الحاضر ـ أي عند التقائه بوادنجتون ـ فقد كانت له رسالة خاصة : فقد وضعه اسماعيل على رأس فرقة من المدفعية ـ تتكون من عشرة مدافع ميدان ، ومدفع «مورتر» ومدفعي «هويتزر» ، وتشكيلةمن رجالالمدفعية الوطنيينيبلغ عددهم نحو ثلاثمائة رجل ـ وسار بهذه القوة حتى مدينة سنار[١] . وفي النبذة التي وصف فيها وادنجتون مقابلتهما ، اطلق عليه عبارة «المرتد» ، الا انه قد اجبر على الاعتذار لانجلش فيما بعد . وفعلا لم يكن من الانصاف ان يلقبه بهذا اللقب ، لان انجلش كان يعتقد انه قد سلك الطريق السوي بارتداده هذا ، فخدم اسماعيل باخلاص ، وأدى له اعمالا جليلة . هذا وقد وضع انجلش بدوره كتابا كان له فيه بعض النواحي الشاعرية ، فقد تحدث عن الجياد العربية وكيف انها تقذف برؤوسها الى الخلف ، فتتماوج عرفها فوق عمائم راكبيها[٢] . كما تحدث عن خياشيمها المنفرجة ، التي

---

١ ـ كان لانجلش نائب امريكي آخر على سلاح المدفعية يدعى «برادش» ، يرى اسمه حتى الآن منقوشا على مذبح المحراب الداخلي لمعبد ابي سمبل الا اننا لا نعرف اي شيء آخر عن هذه الشخصية المؤلف

٢ ـ يذكرنا هذا الوصف ببيت المتنبي في قصيدته المشهورة التي مدح بها بدر بن عمار الاسدي اذ يقول (في وصف الاسد)

ويرد عفرته الى يافوخه حتى تصير لراسه اكليلا

والقياس مع الفارق طبعا . المترجم

تنسع لان يدخل الرجل «قبضتيه فيها» وقـد كان بوجه عـام ادق في ملاحظاته من وادنجتون ، الا أن كتابه كان أدعى للسأم والملل .

ثم كان هناك رحالة آخر ، فرنسي الجنس ، لا يسع الانسان الا ان يصفه بأنه مجمع ابحاث قائم بنفسه ـ ذلك هو « فردريك كايو » فهو اقرب ما يكون الى «دينو» من نواحي عديدة . فقد كان عقلية قناصة ، شجاعا ، متحمسا ، كثير الجدل ، شديد الاهتمام بكل شيء ، ولا يقف في ابحاثه عند حد ، لا تثنيه الصعاب ولا يثبط في عزمه الفشل . كان حماسه ملتهبا دافقا ، فهو يريد ان يعرف كل شيء عن أي شيء ، فالمعابد والحروب وسوق شندي وتجارة الرقيق واللغات والاديان والحياة على الفطرة ومناجم الذهب ثم النيل نفسه ، كلها كانت مجالا لابحاثه ، فهو يستوعبها في حماس ودقة منقطعي النظير . وهو خير من كتب عن هذه الحملة من بين الرحالة الثلاثة الذين نحن بصددهم الآن .

ولد كايو بمدينة «نانت» في سنة ١٧٨٧ ، وكان والده جوهرجيا وساعاتيا . وكان له عدة سنوات بمصر عندما بدأت هذه الحملة ، فقد ارسله محمد علي قبل خمس سنوات ليبحث له عن الزمرد في شواطىء البحر الاحمر ، باعتباره عالما في طبقات الارض . كما أرسله في عـدة رحلات اخرى لا تخلو من المخاطر ، زار خلالها جميع البحيرات الكبيرة بمصر ، وتمكن ايضا من دخول معبد ابي سمبل عنوة ، بعـد زيارة بيركهاردت له بقليل . وعندما عرض نفسه على اسماعيل بأسوان ، لقي منه ما لقيه وادنجتون ، فلم يرحب به واعاده الى القاهرة . وهناك عرف كيف يؤثر على محمد علي ، ووعده بأن يبحث له عن مناجم الذهـب بالسودان ، فلان له قلب محمد علي واذن له باللحاق باسماعيل . فادركه عند مدينة بربر ، وكان معه زميلان آخران اوروبيان ، فأذن له اسماعيل هذه المرة بأن يرافق الحملة الى حدود اثيوبيا . وبالقرب من وادي حلفا التقى بوادنجتون الذي لم يتأخر في الاساءة اليه ، كما اساء لانجلش

من قبل . وقد ذكر وادنجتون في كتابه ان كايو وزميليه : «كانوا يرتدون الملابس التركية ، وقد غطوا وجوههم من لفحة الشمس ومن الرمال ، بقطع طويلة من الشاش ، تتدلى امام اعينهم . ولم تدم مقابلتنا لاكثر من تبادل التحيـــة وعبارات المجاملة، ثم سار كل منا في طريقه ، كما لو كنا قد التقينا في حديقة عامة او فيشارع لاحدى المدن الكبيرة» .اما كايو الذي كان يتحرق شوقا لمعرفة شيء عن الآثار بالسودان ـــ فقد كانت له قصة مختلفة عما رواه وادنجتون ، اذ قال انه سألوادنجتون عن موضوع الآثار ، الا ان الاخير رفض ان يدلي له بشيء عنها .

وها نحن الآن وامامنا ثلاثة من شهود العيان الغربيين ، احدهم انجليزي والثاني امريكاني والثالث فرنسي ، وكل منهم يبغض الآخرين (اما كايو فلم يشر ولو اشارة عابرة الى انجلش) وكلهم موضع شك في نظر الاتراك ، كما ان ثلاثتهم كانوا متأثرين من الاجهاد وسوء الصحة ، الا ان ثلاثتهم ايضا لم يشهدوا المعركة الوحيدة التي كانت لها اهميتها في هذه الحملة . ومن حسن الصدف ان هناك مصادر اخرى غير هؤلاء الغربيين الثلاثة . وباضافة هذه الى تلك ، يمكننا ان نستخلص مفهومـــا متناسقا لهذه الحملة التي كانت تفتقر الى التناسق من جميع الوجوه ، والتي لم تكن في واقعها الا حربا استعمارية في ابشع صورها .

وفي صيف سنة ١٨٢٠ كان كل شيء على اهبة الاستعداد، وتجمعت عند بولاق بضع مئات من المراكب ، وطيلة شهري يوليو واغسطس ، كان طابور طويل من الرجال والدواب والعتاد يسير جنوبا على النهر ، وكانت الحرارة مذهلة في كل مرحلة من مراحل الزحف .

وبعد اسوان سحبت المراكب بعناء شديد عبر الشلال الاول ، ثم دخلت الحملة منطقة بلاد النوبة ، وبحلول سبتمبر كانت معظم القوات قد تجمعت عند وادي حلــفا . واضطروا هنا للتوقفقليلا ريثما تعبر

المراكب الشلال الثاني ، الذي لم يجتازوه الا في اواخر اكتوبر . وحتى هذه اللحظة لم تبد اية مقاومة ، فالنوبيون قد انهاروا ، والمماليك قد فروا من دنقلا والتجأوا الى شنـدي . الا انهم عندما استداروا مع انحناءة النيل بالقرب من كورتي ، ودخلت الحملة منطقة الشايقية ، ظهر بعض رجال القبائل المتحفزون ليناجزوا المعتدين القتال .

وحاول اسماعيل ان يدخل معهم في مفاوضات، فاقنعهم بأن يرسلوا وفدا من مشائخهم وائمتهم لمقابلته . وعندما حضر الوفد ، اخبرهم بأن والده يرغب في ان ينصرفوا جميعا لفلاحة الارض والعناية بها ، وانـه سوف لا يفرض عليهم الا شيئا تافها من الجزية اذا ما سلموا سلاحهم وخيلهم . ويقول انجلش ان المحادثات سارت على النحو التالي :

الشايقية ـ لماذا هذا الغزو لبلادنا ؟

اسماعيل ـ لانكم نهّابون .

الشايقية ـ ولكن ليس لنا مورد رزق خلاف ذلك .

اسماعيل ـ يجب عليكم ان تزرعوا الارض .

الشايقية ـ لقد نشأنا على ما تسميه بالنهيب ، ولا يمكننا ان نقوم بأي عمل آخر .

اسماعيل ـ اذن فسأكرهكم عليه .

وهنا توقفت المفاوضات ، فأرسل اسماعيل مائة فارس من البدو لاستكشاف بلاد العدو . فما كادوا يبتعدون عن كورتي الا واشتبك معهم الشايقية في معركة لم يعد منها احـد الى خطوط الاتراك ، الا خمسة وعشرون فارسا فقط . وفي مساء الثالث من نوفمبر ، احتشد الجيشان في سهل متسع ، على الضفة الغربية للنيل ، الى جنوب كورتي بقليل . وارتكب الشايقية اكبر غلطة في انهم لم يهاجموا في الظلام ،

حيث تكون سيوفهم ورماحهم اشد فتكا من الاسلحة النارية . والمعركة التي دارت في الرابع من نوفمبر كانت شيئا رهيبا محزنا ، وفي امكاننا ان نصرف النظر عنها كغيرها من المعارك الرهيبة ، باعتبارها مذبحة اخرى قضت على رجال عزل — نعم كان في امكاننا ان نصرف النظر عنها لولا انها ، كواقعة الاهرامات ، تمخضت عن نتائج بعيدة الاثر ، فقد كانت خاتمة عهد في مناطق النيل العليا تقرر على ضوئها — كما يقول البروفسور دودول — مصير السودان للمائة سنة التالية .

وصدرت اشارة الهجوم للشايقية من فتاة صغيرة تدعى مهيرة بنت عبود كانت على ظهر بعير محلّى بافخر زينة. فارسلت زغردة مجلجلة ، اندفعت على اثرها حشود هائلة من القرويين العزل، فحملوا على الاتراك حملة رجل واحد تحت سحابة مظلمة من الغبار . وقيل ان مشعوذا كان قد اكد لهم ، ان رصاص البنادق لن يخترق اجساد المؤمنين الذين حسن ايمانهم ، ولذلك فقد كانوا يحملون معهم السلب والحبال ليقتادوا بها اسراهم من الاتراك . واتى من خلف هؤلاء المشاة ، نحو الف فارس بدفوفهم وطبولهم ، وهم يصيحون في تهكم «سلام عليكم» . ومن الغريب ان يتمكن الشايقية في البداية من اختراق صفوف الاتراك ، واحراز بعض التقدم . فقد كانوا امهر من الاتراك في استعمال السيوف ، الا ان الاتراك قد لجأوا لبنادقهم وغداراتهم . وقبل غروب الشمس كان كل شيء قد انتهى وتقهقر الشايقية تاركين نحو ثمانمائة قتيل في ميدان المعركة ، فتهافت عليهم الاتراك يقطعون آذانهم ، في وحشية تشمئز لها النفوس . وقال وادنجتون الذي اتى الى ساحة القتال بعد انتهاء المعركة — قال ان وجوه القتلى كانت ترتسم عليها سيماء الغضب اكثر مما كانت ترتسم سيماء الرعب ، وان بعضها كان مبتسما . وفي تلك الليلة دخل الاتراك قرية كورتي وعاثوا فيها ذبحا وتقتيلا ، ثم اشعلوا النار فيها فأبادوها عن بكرة ابيها .وعلى اثر هذه المأساة ،ارسلت

للقاهرة ثلاثة آلاف اذن بشرية ، نزعت مـن الاموات ومن الاحياء على السـواء .

وبعد شهر مـن واقعة كورتي ، نشب صدام آخر على الضفـة الشرقية ، بالقرب من جبـل الدقر ، فأبيد عدد آخر مـن الشايقية بنيران المدافع . والفتاة التي قامت باثارة حماسهم في هذه المرة ، كانت تدعى صفيـة ، وهي بنت لاحد زعماء الشايقية البارزين ، فوقعـت في الاسر بعد المعركة . الا ان اسماعيل قد تصرف معها بمنتهى الحكمة ، اذ امر بأن تغسل وتعطر وتعاد لوالدها . ويصف لنـا وادنجتون هـذا الحادث فيقول :« وبمجرد ان رأى الزعيم كريمته تعاد اليه معززة مكرمة، سألها في شيء مـن القلق : « كل هذا جميـل ، ولكـن خبريني هـل لا تزالين على بكارتك ؟ » فأكدت له ان احدا لم يمسها بسوء . وعندما تحقق مـن صحة قولها ، انسحب برجاله واقسم ان لا يقاتل رجلا صان له عرضه ، وابقى على عفة كريمته .... وكان لهذا الحدث الصغير صدى طيبا في كلا المعسكرين .

وسواء كان لهذا الحادث ـ كما ذكر وادنجتون ـ أثره السحري أم لا ، غير انه من المؤكد ان هذه الموقعة ، كانت نهاية كل مقاومة منظمة في الوقت الحاضر فقد تلاشى كل أمل في أن تتحد القبائل المختلفـة ، وسكان القرى المتعددة ، لمقاومة اسماعيل . وسرعان ما توافد زعمـاء الشايقيـة ، الواحد تلو الآخر ، مستسلمين خاضعين ، ثم ابـدوا استعدادهم للتجنيـد ضمـن القوات التركيـة . وفي فبراير سنة ١٨٢١ ابتدأ الزحف مرة اخرى ، فانقسم الجيش الى جزئين ، تقدم نصفه متتبعا مجرى النيل بينما صـار النصف الآخر عبـر الفيافي والقفار ، الـى بربر مباشرة . ويحدثنا انجلش ان الزحف كان دائما يتم ليلا ـ علـى توقيع الطبل ـ على طريق ممهد ، تفتحه قوة مـن سلاح الخدمة ، تسير دائما في مقدمة القوة الرئيسيـة ، وتبدأ عمـلها قبل ان يتحرك الجيش

بزمن كافي . وكانت تشعل النيران على جانبي الطريق وترسل الصواريخ الى عنان السماء ، وهي سائرة في مقدمة الجيش بمراحل عديدة . ورغم ذلك فقد كان الزحف متعثرا ، والنظام مختلا ، اذ لم تكن هناك حراسة منتظمة عندما يتوقف الجيش مساء ليأخذ قسطا من النوم ، ولذلك فقد كانت تنسلخ من صفوفه ، شراذم من الجند خلسة لتسطو على القرى ، او لتنتشر في العراء ، دون مغزى او غرض . وبعد ان عبر الجيش الشلال الرابع ، تركت جميع القوارب لتنتظر الفيضان التالي . ولولا ان طبق اسماعيل سياسة « فرق تسد » كما قال كروفورد ــ لوقعت هذه الجماعات فريسة سهلة لاية قوة مستبسلة من الفرسان ، تعمل من شندي او بربر ، ولابادتها الواحدة تلو الاخرى . الا ان الشايقية كانوا قد جردوا تلك الدويلات الصغيرة ، التي كانت في يوم من الايام ذات بأس وقوة ــ كانوا قد جردوها من كل نخوة ورجولة ، وباعدوا ما بينها وبينهم ، واتاها الاتراك في صورة المنقذين لها من اضطهاد الشايقية وجورهم ، فلم تحرك ساكنا . واصبح في امكان الاتراك الآن ان يتطلعوا الى مستقبل حافل بالقتل والنهب والحرق وإستباحة الاعراض ــ مستقبل يعيثون فيه فسادا كما فعلوا في بلاد الشايقية ، ان لم يكن في مستوى أحسن وأمتع ، حسب مقاييسهم .

وفي اوائل مارس سنة ١٨٢١ ، وصلت الحملة الى بربر ، فاستسلمت المدينة دون مقاومة تذكر ــ استسلمت هذه المدينة الصغيرة ، التي عرفت في يوم من الايام بخلاعتها واماكن شربها المتعددة ــ لقد استسلمت ولم تصمد لحظة واحدة . وفي الثاني عشر من مارس ، جاءت الاخبار الى اسماعيل بان الملك نمر نفسه في طريقه للاستسلام وبعد بضعة ايام وصل الملك نمر محمولا على هودج بين جملين ، ومعه هدية عبارة عن فرسين ، من احسن الجياد العربية . وعندما دخل

على اسماعيل خرّ ساجدا عند قدميه وقبلهما ، ثم وضع احداهما فوق رأسه . الا ان اسماعيل كان في منتهى الحماقة والغطرسة عندما اساء الى نمر ، بأن استقبله في شيء من التعالي والتعاظم . فقد كان يعتقد ان شندي كان عليها ان تستسلم قبل ذلك بكثير . ولم تدم المقابلة لأكثر من عشر دقائق ، ولم تقدم لنمر القهوةوالنرجيلة كالمعتاد ،الا بعد ان خرج من الفسطاط . وبعد ذلك بقليل حضر نحو المائة رجل من المماليك خاضعين مستسلمين ، فضمهم اسماعيل الى حرسه الخاص .

وانتهز « كايو » هذه الفرصة ليشبع هوايته من الآثار القديمة ، فهذه المنطقة كانت موضع تفكير علماء الآثار وتأملاتهم منذ عهد هيرودتس ، والاطلال المهملة تقابل الانسان عند كل موضع ممتاز على النيل . وكتب كايو عن هذه الاماكن في سحر من البيان ، لا يجاريه فيه احد ، فهو يكان يجسد لنا تاريخهذا النيلالقديم في صورة لم يسبق لها مثيل . وحتى بيركهاردت ، لا يمكنه ان يدعي التفوق عليه في وصفه لهذا الجزء من تاريخ السودان . فهو يبرز لنا في وضوح ، تكاد تلمسه ، كيف تدهورت الحضارة في هذا الجزء من النيل ويصف لنا ما اكتشفه ــ منذ ان غادر اسوان ــ من معابد غمرتها الرمال ، ومن فن عفى عليه النسيان ، وحضارة دثرها الانحطاط والتدهور ــ تدهور نزل بمستوى السكان الى ما يكاد يكون في حكم العدم ، وانحطاط ذهب بالمدينة العظيمة والقصور الفخمة والاساطيل الضخمة ، التي كان يبلغ طول السفينة منها نحوا من مائتي قدم ــ فماذا ترى مكانها اليوم ؟ أكواخ حقيرة من الطين ؛ وارماث تافهة من الحطب الخام . وحتى القلاع قد شملها التدهور واصبحت في حكم العدم .

وترك لنا كايو كتابا رائعا بعنوان «كيف تندثر العظمة في هذه الدنيا» جند فيه كل ما اوتي من حماس وخيال ــ على نمط ما كان متبعا في

اوائل القرن التاسع عشر ـ فذكر لنا ، مثلا ، انه عندما كان في موضع يقال له «قورنة» بالقرب من النيل ، أقام مخيمه داخل مقبرة قديمة مطلية ، ولكن لم يغمض له جفن لشدة الحرارة. وعند منتصف الليل اشعل مسرجه ، واخذ يتفحص الرسومات التي على الجدران ، فرأى في جدار منها ، رسما يمثل احد الفراعنة ومعه زوجته وابنته ، وهم يصطادون على النيل في وضح النهار ، والسماء صحو والضفتان تكسوهما الخضرة والرياحين . وفي جدار آخر وجد رسما يبين مركبا لجنازة تظهر فيه نفس الزوجة وابنتها ، إلا انهما هذه المرة ، تتبعان جثمان فرعون المسجى على قاربه المقدس ، في لوعة وحسرة . ويوضح الرسم ان القارب كان قد وصل الى باب نفس الغرفة التي كان كايو مقيما بها . ويقول كايو ان كل شيء في ذلك العصر كان يدل على النظام والهيبة والمدنية ، وانه عندما يخرج المرء من تلك المقبرة ، يشعر كأنما خرج من مسرح الى واقع الحياة ـ وبأنه خرج من عظمة الماضي الى حقارة الحاضر . لقد غلبت على كايو نوبة من جنون الفلسفة ، فتاه في حيرة معماة ، تقبض النفس وتبعث اليأس .

وبوصولهم بربر ، أصبح كايو على مقربة من هدفه الاكبر ـ ألا وهو اطلال مروى القديمة ، التي كانت في يوم من الأيام عاصمة للسودان وللجزء الاكبر من مصر ، ومع ذلك لم يتهيأ لشخص أن يصف هذه الاطلال منذ ألف سنة تقريبا (بل كان هناك شك كبير في صحة وجودها) ، كما لم يهيأ لاحد ان يكتب عنها الا ما ذكره بروس وبيركهاردت من اشارات عابرة . اما كايو فكان قد قرأ كل ما أمكنه قراءته عن مروى ، وكانت في مخيلته على الدوام ، ولذلك قد وضع خطته مسبقا للوصول اليها ـ فادعى لاسماعيل ، انه ذاهب للبحث عن الألماس ـ واخيرا وصلها وهو في موجة عالية من الحماس مهتديا بخريطة وضعها بروس ـ وسبق الجيش ، وكان في رفقته زميله ليزتروك

Leztroc . وفي الخامس والعشريـن مـن ابريل وصلا مـروى ، في اللحظة التي كانت فيها اول خيوط مـن أشعة الشمس ، تداعب قمـم الاهرامات المدرجة . لقد كانت كثيرة العدد ، ومعظمها انقاض متناثرة ، وما بقي منها ثابتا لا يرقى لمجرد المقارنة باهرامات الجيزة العظيمة ، أو حتى باهرامات سقارة . الا انها كانت مثلها في الدلالة على العظمة ، ومثلها محاولة ــ كمـا قال بروفسور ستيفنس اسميث ــ لبلـوغ اسبـاب السماوات [1] . وكاد كايو يطير فرحا عندما وقعت عيناه على الاهرامات فأسرع الى اكبرها وتسلقه ، وعلى قمته نحت اسـم العالـم الجغرافي الفرنسي « دانفيل » ، الذي وضع خريطة نهر النيل . وكانت لفتة بارعة ، وتكريم نبيـل لا يزال باقيا على قمة هذا الهرم . واقام هـو وزميلـه ليزتروك لمدة اسبوعين تحت وهج الشمس المحرقة ينقلان ما على هـذه القبور مـن نقوش تحكي تاريخ الاسرة المالكة ، ومـا بها من رسوم تمثل ملوكهم وملكاتهم ، وما كانوا عليه مـن هيبة وعظـمـة . الا أن فراعنة هذا الجزء مـن النيل ، كانوا ــ كما يتضح مـن رسوماتهم ــ ممتلئي الاجسام ، على نقيض فراعنة مصر ، الذيـن كانوا نحافا رشاقا في قوامهم. أما الخرائط والرسومات التي اعدها كايو ،فقد اصبحت فيما بعد اساسا لعلم الآثار لمنطقة مروى القديمة .

ولنعد الآن للحمـلة لنرى ما كانت تقوم به مـن اعمال ، فسنجد انها قد كرست جهدها للغرض الرئيسي الذي جاءت مـن اجله ــ وهو جمع الرقيق ــ أما من يقع في الأسر ويتضح انه لا يمكن استرقاقـه ، فكان مصيره القتل ، وسنجد أيضا ان اسماعيل قد فقد كل سيطرة على جنوده ، فعاثوا في البلاد سلبا ونهبا وتخريبا ، فما مـن قرية تقـع في

---

١ ــ لعل الفكرة ماخوذة من الآية الكريمة : « وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب ، اسباب السماوات فاضطلع الـى الـه موسى ، واني لأظنه كاذبا » صدق الله العظيم . المترجـم

طريقهم الا ونكلوا بها شر تنكيل . وفي الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨٢١ وصل الجيش الى الحلفاية ، عند ملتقى النيلين ، الابيض والازرق، فأمر اسماعيل جنوده بعبور النيل عند نفس الموضع الذي يقف فيه «كبري» النيل الابيض الآن . واستغرق عبورهم ثلاثة ايام، ساد فيها الهرج والمرج ، وكان منظرا عجيبا يدعو للدهشة والرثاء ـ فمن تعلقوا باذيال الخيل ، ومن صنعوا ارماثا هزيلة مرتجلة ـ وكانت النتيجة ان غرق ثلاثون رجلا ومائة وخمسون بعيرا .

وهنا سمع اسماعيل بحقيقة ما آلت اليه سنار ، فمنذ ان غادرها بروس لم يطرأ عليها ما يعيد لها مجدها ومنعتها ـ لقد زالت تلك الامبراطورية العظيمة ، واصبحت قصة من قصص الاساطير . وبمجرد انتشار الخبر بوصول القوات المصرية ، شبت الحروب الاهلية في كل مكان ، وما كاد اسماعيل يسمع بذلك الا وأمر جيشه بمواصلة السير فورا نحو سنار .

وتمكن كايو من الحصول على مركب شراعي ، أبحر به جنوبا نحو سنار ، فخطر له في شيء من الغبطة والسرور ، ان هذا ربما كان أول مركب شراعي يمخر عباب النيل منذ عهد الفراعنة . والمتصفح لمذكراته عن هذه الرحلة ، وهو يقوم برحلة مماثلة في يومنا هذا ، لن يشك لحظة في انها كانت دقيقة وامينة لدرجة بعيدة . فضفاف النيل كانت ، كما هي اليوم ، محفوفة بالغابات الكثيفة من أشجار السنط وأدغال القنا . وكلما توغل المسافر جنوبا في تلك الغابات الاستوائية ، كلما وجد نفسه في عالم فطري ، عامر بالطيور والزهور البهجة الزاهية ، وبالوحوش الكاسرة ـ مع فارق واحد ، وهي انها في ذلك الوقت كانت في أعداد أكبر مما هي عليه اليوم ـ ويحدثنا كايو عن فرس البحر ووجوده باعداد كبيرة ، وعن النعام ووفرته وعن القردة والضباع والزراف ، كما يحدثنا عما رآه من آثار حديثة لاقدام الافيال،

وعن النعام ووفرته وطريقة الاهالي في اصطياده، مستعينين بالكلاب . كما يحدثنا عن الطيور مثل «ابي منجل» الذي اختفى من مصر ليظهر لنا مرة اخرى في هذه البقاع،وعن الببغاوات الزاهية الخضرةالتي ترى في كل مكان ، ضمن طيور أخرى مختلفة الالوان . وقد تحصل على مجموعة من بيض التمساح ، وسجل ملاحظات دقيقة عن المارد الصغير الذي يخرج منها ، ويتجه نحو البحر مباشرة ، مدفوعا بغريزته ، رغم أن طوله لا يتعدى القدم الواحد .

وعندما وصل كايو الى سنار ، في منتصف شهر يونيو ، وجد ان اسماعيل قد سبقه اليها ، واحتل المدينة دون ان تطلق رصاصة واحدة . فقد قابله «بادي» خارج المدينة مستسلما ، وقدم له هدايا من الخيل والسروج، فأحسن اسماعيل وفادتهوقدم له القهوة،ثمأهداه عباءةمبطنة بالفراء ، لم تكن تتناسب معه ، شكلا او مقاسا . وفي الرابع عشر من الشهر قاد اسماعيل غوغاءه الى داخل المدينة ، فأخذوا في السلب والنهب كعادتهم ،وفي تأديب « العصاة » ، مستعملين كل انواع التعذيب، بما في ذلك تلك البدعة البشعة المسماة « بالخازوق » .

وبعد بضعة ايام اقيم عرض عسكري ابتهاجا بالنصر وتكريما لاسماعيل ، الا انه كان عرضا هزيلا بالنسبة لما شاهده بونسيه في سنة ١٦٩٩ . اما «بادي» فقد كان رجلا صغير الحجم ، ضعيف الارادة ، محدود الذكاء الى درجة بعيدة ، وقد اذهله ما شاهده من احداث وفظائع . واضطرب للهدية التي اهداها له كايو ، وكانت عبارة عن علبة من الكبريت ــ اذ لم ير شيئا من هذا القبيل من قبل ــ هذا ، والبناءان الوحيدان اللذان كان لهما أي اعتبار ــ قصر الملك والجامع الكبير ــ كانا متصدعين وعلى وشك الانهيار ، كما ان ما تبقى من ادغال حول المدينة ، كان قد اتت عليه الاغنام . اما السكان فقد كانوا في حالة سيئة من القذارة ، خصوصا النساء ، وكان شغلهم الشاغل هو التدخين

وسرب الجعة . ووجد كايو ان النساء لا زلن يضفرن شعورهن في تمائم دفيقة ثم يجمعنها في كتل مكورة فوق رؤوسهن ، إلا أن ما كن يتزين به من حلى فضية وملابس زاهية ، قد اختفت تماما . واما الفتيات الصغيرات ، فكن لا يرتدين شيئا غير الرهط المحلى في اطرافه بالودع ـ وكان الرهط عندهم دلالة على البكارة ـ اما «الحرس الاسود» الذي كان مشهورا أيام بروس فلم يبق له من أثر . واخيرا فقد القى بادي بآخر ما تملكه سنار من عتاد ـ وهو اربعة مدافع عتيقة صدئة ـ القى بها في النيل ترضية للاتراك . وكما قال كروفورد : «ها هي سكرات الموت التي قاستها سنار طويلا ، تقترب من نهايتها .»

وحتى هذه اللحظة ـ واسماعيل على بعد الفي ميل من البحر الابيض المتوسط ـ كان طريق اسماعيل سهلا لدرجة تدعو الى العجب ، كأنه حلم لا واقع فيه . فهذه الشرذمة الافاقة ، لم يكن عليها سيماء جيش فاتح منتصر ، وها هم يزحفون كالسلاحف الهزيلة في سهل واسع مترامي الاطراف ، اعظم واكبر منهم بآماد شاسعة . ويحق لنا ان نعجب كيف امكن لهذا النيل العظيم ، ان يقهر بمثل هذه البساطة ، ودون مشقة او جهد؟ لقد كان الاجدر بهذه الفيافي ، وكان المتوقع منها ، ان تبتلع اسماعيل وجيشه الهزيل ، كما ابتلعت قمبيز وجحافله الجرارة قبل الفي سنة . ولكن النيل على أي حال لم يغفر لاسماعيل ـ او على الاصح ان طقس النيل هو الذي لم يغفر لاسماعيل ـ فهو عدوه اللدود ولا بد له من ان ينتقم منه . حقيقة ان اسماعيل قد قال لكايو (وكان قد قرأ ما كتبه بروس عن سنار) ان بروس رجل كذاب اشر ، ولكنه كان في يونيو عندما قال ذلك ، والامطار لم تهطل بعد ، واسماعيل لم يستقر بسنار زمن يذكر . وما كاد يوليو يحل ، والامطار تهطل ، الا وقد غير اسماعيل من نغمته ، عندما فتكت الملاريا والدوسنتاريا بجيشه التافه ، الذي كان يعوزه الدواء ويعوزه الاطباء الاكفاء . وبحلول شهر

سبتمبر كان قد مات من جيشه نحو الستمائة رجل ، وفي اواسط اكتوبر ــ وهو لا يزال عاجزا عن مغادرة المدينة بسبب الامطار ووعورة الطريق ــ كان معظم رجاله طريحي الفراش ، لم يحتفظ منهم بلياقته للخدمة اكثر من خمسمائة رجل . وحتى هؤلاء كانوا شبه جياع ، ويخشى ان يدفع بهم سوء الاحوال الى التمرد . اما الذهب الموعود فلم يجدوا منه شيئا ، واما الرقيق فلم يرسل منه للقاهرة الا النذر اليسير .

ثم وصل ابراهيم ، الاخ الاكبر لاسماعيل ، وكان وصوله في الوقت المناسب لتفادي الكارثة . ورغم انه كان مريضا ، الا انه اعاد للجيش شيئا من النظام بالسرعة التي كان معها ، في أوائل ديسمبر ، مستعدا لمواصلة الزحف مرة اخرى ، وخصوصا بعد ان تحسن الطقس وحلت موجة من الهواء المنعش . وتوجّهوا في طابورين نحو الجنوب ، اسماعيل على الضفة اليمنى ، وابراهيم على الضفة اليسرى . وكان الهدف هو هو ــ الذهب والرقيق ــ .

ان جميع الغزوات التي قامت على النيل ، كانت متشابهة في قسوتها ووحشيتها ، ولم تشذ هذه الحملة عن القاعدة . لذلك فان الثلاثة اشهر التالية لم تكن لها اهمية خاصة ، الا لكشفها القناع عن هذا الجزء من النهر ، الذي ظل مجهولا تماما حتى الآن . فقد دخلت الحملة لأول مرة اقليم الزنج من الدينكا والشلك والنوير [١] ، وهم قوم يتميزون بسيقانهم البالغة الطول ، وبوضع يتّخذونه وهم وقوف ، يذكرنا «بمالك الحزين» الذي يرتكز على ساق واحدة داخل المستنقعات . وهناك قبائل اخرى ضاربة في التأخر والهمجية ، لا يضعون على ابدانهم غير طلاء من المغز الاحمر ، ولا يعرفون من الحلى

١ ــ يعجب الانسان لأن يذكر المؤلف هذه القبائل في هذه المنطقة ، فالمعروف أن مناطقهم أبعد ما تكون عن سنار . المترجم

غير الوشم بالنار ، يزيّنون به جباهم وصدورهم واذرعهم وظهورهم .

وهناك قصة اسطورية كتبها فريزر فيما بعد (أي بعـــد حمـلة اسماعيل) في كتابه المسمى «الغصن الذهبي» ذكـر فيهـا شيئا عـن « الملوك الكهنة » الذين كانوا يحكمون مملكة « نيمي » بايطاليـا في عهود ما قبل التاريخ، يقول فيها : ان الملك منهم كان يتجول ليلا وحسامه مشهر في يده ، وهو يعلم جيدا انه مهما طال به الامد ، لا بد ان يلاقي حتفه يوما ما ، على يد خصم مـن خصومه في احدى المبـارزات . وان هذا الخصم سيحكم بعده الى ان يلاقي مصيره هو ايضا بنفس الطريقة، وهكذا ... ان شيئا مـن هذا كان موجودا فعلا على ضفاف النيـــل الأبيض قرب التقائه بالنيل الازرق. بل قد كانت هنالك قبائل اخرى من المجوسيين الذيـن يعبدون الشمس والقمر كما عبدهما قدماء المصريين من قبل ، ويقدمون القرابين لشجرة البوباب [1] .

وكان كايو هو الأوروبي الوحيد الذي سار مع الحملة اثنـاء غاراتها على المناطق الواقعة بين سنار والحدود الاثيوبية . وقد ذكر لنا انه كان يتناول عشاءه مع اسماعيل كل مساء ، ويستمـع اثناء ذلك الى احلامه عن الذهب المزعوم الذي سيعثـرون عليه بمناجـم فازوغلـــي الوهمية . وقد كتب عـن ذلك يقول : « ان الحافز الوحيد الذي يدفع بهذا الامير الى الامام ، هو تعطشه للحصول على الذهب » . واستمروا في سيرهم مـع النيل الازرق الى ان تخطوا الرصيرص ، وكانوا اثنـاء ذلك يلقون القبض على كل مـن تمكنوا منـه مـن الزنوج . واذا مـا ابدى سكان القرى اية مقاومة أو حاولوا الدفاع عن أنفسهم بتصويب سهامهم على الجند ، أو بدفع الصخور عليهم من فوق التـــلال ، فان مصيرهم يكون الابادة دون تردد.. وقال كايو انه كان يتقزز لما يجـري امام عينيه من وحشية ، الا انه كان مضطرا للبقاء ، عسى ان يجد فرصته

---

١ ـ هي شجـرة التبلـدي .

في النهاية لاستكشاف النيل الابيض ، الذي كان يعتقد انه سيقوده الى منابع النيل الحقيقية .

وفي غرة سنة ١٨٢٢ ، كان الجيش امام منظر رائع من التلال والهضاب الصخرية التي تغطي السهل الفاصل بينهم وبين بداية الهضبة الاثيوبية الشامخة ، فأمر اسماعيل جيشه بالتوقف حتى لو لم يأمره ، لما استطاع المضي ، لأن النيل يختفي هنا فجأة داخل وديان سحيقة ، بين شعب الجبال الوعرة التي يستحيل السير فيها حتى للمشاة . وعندما وصلوا فازوغلي ، أسرع ملكها لاستقبال اسماعيل ، وخر بين يديه ، ساجدا له ولمدافعه الرهيبة . ثم بدأ كايو في البحث عن الذهب في مناجم فازوغلي الشيرة ، الا انها كانت خيبة أمل عظيمة ، اذ لم يتمكن من الحصول على اكثر من بضع حبات جرفتها المياه من الجبال ، وذلك بعد مجهود دام لعدة اسابيع بين التلال . وكان الأهالي يعرفون ما هو الذهب ، ويعرفون قيمته حق المعرفة وكانوا يحفظونه داخل تجاويف ريش النسور ، ويستعملونه كعملة بينهم ، الا ان الكميات التي بأيديهم كانت تافهة .

وحتى الرقيق ، لم ينجحوا كثيرا في الحصول عليه . فمن جملة الثلاثين ألف رأس الذين ارسلهم اسماعيل ، لم يصل الى القاهرة (حسب تقديرهم) أكثر من نصف هذا العدد ، وكان معظمهم من النساء والأطفال . اما الباقون فقد ماتوا بالطريق ، جوعا ومرضا وسوء معاملة .

وعندما عبر كايو النهر ليلحق بالجزء الآخر من الحملة ، وجد ان ابراهيم قد تدهورت صحته ، وكان على وشك العودة لمصر في صحبة طبيبه الخاص (الايطالي) [1] . وفي اواسط فبراير سنة ١٨٢٢ عاد

---

١ ــ اسمه الدكتور « ركسي » Ricci وقد وعد بعشرة آلاف دولار اذا ما تمكن من أن يوصل ابراهيم حيا الى القاهرة . وقد أوصله فعلا في ظرف ثلاثين يوما فقط ، واستلم مكافأته .

حاشية المؤلف

اسماعيل الى سنار واستقر بها مرة أخرى .

وفي هذا الوقت كانت كراهية الشعب للاتراك قد بلغت قمتها ، وأخذت تنتشر على طول مجرى النيل ، وأصبح اسمهم نذيرا للشؤم والوحشية والقسوة . وشعر اسماعيل بكل ذلك ، فاستأذن والده في العودة الى مصر ، بعد ان قاسى أتعاب خريف آخر كله مرض وعناء . ولم يكن اسماعيل في الواقع ، قد انجز شيئا يستحق الذكر ، غير اشاعة الرعب والاضطراب في جميع ارجاء السودان . وقد زاد من قلقه واضطرابه ، ما كان يتلقاه من والده من طلب متزايد للرقيق . لقد رأينا كيف ان اسماعيل قد قضى سنتين في سفر يكاد يكون متواصلا ، ولا شك في أن ذلك قد هد من جسمه وانهك قواه . وليس بمستبعد انه ، وقد قتل من قتل من هؤلاء القوم الضعاف ، وأباد من أباد من قبائل لا حول لها ولا قوة ، ليس بمستبعد أن يكون قد ساوره شعور ، بأنه ستحل به نقمة اذا ما بقي في السودان أكثر من ذلك . وعلى أي حال ففي اكتوبر من سنة ١٨٢٢ ، وصله الاذن من والده بالعودة لمصر ، فانطلق على الفور . وقبل نهاية الشهر ، كان قد وصل لشندي .

وهنا في شندي ، أرسل في طلب الملك نمر ـ نفس الرجل المحافظ المتكبر ، الذي اذله قبل ثمانية عشر شهرا ـ وعندما حضر نمر ، تقدم اليه بطلبات غير معقولة ـ ثلاثين الف ريال نقدا ، وستة آلاف رأسا من الرقيق ، وكميات كبيرة من المؤن ، على ان يعد كل ذلك في ظرف ثمان واربعين ساعة .

وهناك عدة روايات للمأساة التي حدثت ، وعلى أي حال فان ملخصها واضح دون شك . وهو انه عندما اعلن نمر ان هذه الطلبات غير معقولة ـ وخصوصا لان البلاد كانت على أبواب مجاعة متوقعة ـ ما

كان من اسماعيل الا أن لطمه على وجهه بغليونه ، فامتشق نمر حسامه ، الا أن حرس اسماعيل من المماليك ، كانوا قد احدقوا به من كل جانب، فاضطر نمر لأن يعتذر ، ثم انسحب من المكان .

وفي مساء نفس اليوم أقيم حفل ساهر ، فيه خمر ورقص وغناء . وبينما كان الحفل مستمرا ، اشعل الملك نمر واعوانه النار بمنزل اسماعيل (حيث أقيم الحفل الساهر) وكل من حاول الفرار من الأتراك ، أجهز عليه في الحال . أما اسماعيل فلم يجد سبيلا الى الخروج ، ومات اختناقا او حرقا . وقد قيل أنه سبق وحذّر من أن محاولة من هذا القبيل قد تحدث ، ولكنه لم يصدق ان الملك نمر سيتجرأ . ولم يكن نمر بالشخص الوحيد الذي استثفز لدرجة الانتقام ، وعلى حد تعبير « رتشارد هل » فقد انتشرت اعمال القتل والانتقام في جميع ارجاء النيل واينما وجدت حامية تركية ، ثار عليها السودانيون وحملوا السلاح . الا أنها كانت محاولة يائسة منهم ، اذ ليس من المعقول أن ينتصروا في وجه الاسلحة النارية ، أو ينجوا من غضب محمد علي لاغتيال ابنه . وكان هذا هو فعلا آخر عهد السودان بالحرّية ، ونهاية عزلته المتفككة .... وكان انتقام الاتراك ممعنا في البشاعة والوحشية ، وحتى هذه اللحظة لا يستطيع الانسان الا أن يقشعر تقذذا من قصة انتقامهم الرهيب .

اما المجزرة ، فقد عهد بتنفيذها الى محمد بك الدفتردار ، الذي كان في هذا الوقت يعيش خرابا في ربوع كردفان الى أن بلغ الأبيض . وأول ما فعله أن أغار على المتمة ونهبها ومثل بأهلها ، ثم أشعل فيها النار. وتلتها الدامر ثم كل الاماكن المأهولة ما بين بربر وسنار . وفي شندي كان السكان قد اقاموا حائطا حول المدينة فاستطاعوا أن يصمدوا بعض الوقت ، الا أن النار قد اشتعلت أخيرا في منازلهم ، واقتحمهم الأتراك

بالسيوف والسنان . وتمكن نمر مـــن الهرب بعائلته في اللحظة الأخيرة ، وما أن سمع به الدفتردار الا وأخذ يجدّ في أثره على النيل ، تاركا في كل مكان يحل به ما تقشعر له الابدان مـــن الفظائع والتمثيل . فكل رجل من الاسرى يكون جزاؤه جزّ خصيته ، وكل أنثى قطع ثدييها ، ولكـــي لا يموت الضحايا بسرعة مـــن أثر النزيف ، كان يصب القطران المغلي على الجروح . اما نمـــر فقد التجأ للاثيوبيين ، ولما رأى الدفتردار انه لا طائل مـــن تعقبه في جبال مجهولة ، قفل راجعا الى امدرمان عـــن طريـــق كسلا . وفي أواخر نوفمبر من سنة ١٨٢٣ ، أصبح في امكان الدفتردار أن يقول أنه قد أخضع السودان تماما ، وان ذلك الجزء من وادي النيل، الواقع ما بـــين الجبال الاثيوبيـــة والبحر الابيض المتوسط قد اصبح في قبضة محمد علي . اما ضحايا عملية الانتقام فقد بلغوا نحـــوا مـــن الخمسين ألف نفس ، وهكذا خيّم سلام الموت على ربوع وادي النيل .

* * *

الفصل الثالث عشر

فكرة تنتظم حلماً

« قدفوا قدام يا عيال—انتم اصبحتوا رجال[1]
قدفوا أمال يا عيال » نشيد النوتية

لقد اميط النقاب الآن عن ذلك الجزء من النيل ، الواقع ما بين البحر الابيض المتوسط ، والجبال الأثيوبية . غير أن هناك مساحات شاسعة في السودان ، كانت لا تزال مجهولة تماما ولم يصل اليها الحكم التركي بعد . وأثيوبيا كانت كما هي ، لا يعرف أحد عنها شيئا يذكر ، كما ان المنبع الحقيقي للنيل ما زال لغزا من الألغاز . الا انه منذ سنة ١٨٢٠ ، أخذ التوغل يطرد بطيئا نحو تلك الفيافي الشاسعة ، فبعد مقتل اسماعيل تعاقب على السودان عدد من الحكام الأتراك ، موفدين من القاهرة ، ومع أنهم كانوا أسوأ نوع من المستعمرين ، وأسوأ نوع من المستكشفين ، الا انهم تمكنوا من بسط سلطانهم على أرجائه المختلفة ، وفرض سيطرتهم عليه في وحشية واصرار . غير أنهم لم يحاولوا أن يعلموا أحدا إلا بقدر حاجتهم الى تعليمه ولم يهتموا بالآثار القديمة الا بقدر ما يستفيدونه منها كمخازن لمواد البناء ، كما انهم لم يستكشفوا الا بقصد الدمار والتخريب. ولم يكن لحكمهم الا غاية واحدة ، وهي ابتزاز كل

١ — اورد المؤلف هنا موال للنوتية من حوالي ١٢ مقطع من نوع « المواويل » التي يرددها النوتية اثناء عملهم . ولكن هذا الموال لا يحمل أي معنى أو مغزى ولذلك رايت الاكتفاء بالمقطع الاول فقط .
المترجم

كل ما في البلاد من مال وماشية وطاقة بشرية. فالجلد بالسياط، والنسف بالمدافع ، والتعذيب بالخوازيق ، كانت هي وسائلهم المعروفة ، لعقاب كل مـن يحاول أن يعصي لهم أمرا . ونجاح الحاكم كان دائما يقاس بما يجمعه من رقيق ، وما يرسله من سرايا لتأديب المناطق الخارجة على القانون ، وسلب اموالها .

ومما يدعو للدهشة أن يستطيع مخلوق ما ، من العيش في ظل هذه المعاملة الفظة ، الا أن السودان قطر متسع الأرجاء ، والضغط لم يكن متواصلا ، كما أن الأتراك ، رغم عنفهم ، كانت لهم موهبة خاصة في الشئون الادارية ، واخيرا هناك رابطة الاسلام ، التي كان لها أثرها الفعال . وفي السنين الاولى من حكمهم ــ على الاقل ــ لم يكن قد تسرب الى نفوسهم اليأس والقنوط ، كنتيجة للطقس المرهق للاعصاب ، ليشل من نشاطهم وحيويتهم .

وفي سنة ١٨٢٤ ، نقل الأتراك عاصمتهم من امدرمان ، الى قرية لصائدي الأسماك ، تقع على ذراع من الأرض بين ملتقى النيلين ــ الأبيض والأزرق ــ كان يعرف عند العرب بالخرطوم ، لشبهه الشديد بخرطوم الفيل . وقد كان هذا قرارا حكيما منهم ، لأن الخرطوم هذه ، تقع في نقطة ممتازة ، تمكنهم من التحكم بسفنهم على كل من النيلين ، كما أنها تقع في قلب السودان ، على طريق القوافل الرئيسي للقاهرة . الا أن عاصمتهم الحديثة هذه ، لم تكن بالمدينة التي تلفت النظر ، فمبانيها لم تتعد مجموعة من أكواخ الطين ، وشوارعها كانت ضيقة قذرة ، لم تجد من الرحالة الاوائل الا كل ذم وتحقير . ومع ذلك فقد كانت حصنا اماميا للحضارة ، يمكن الحصول منها على جميع السلع المختلفة من شرقية وغربية ، وسرعان ما ارتفع عدد سكانها الى ثلاثين الف نسمة . ثم انشئت حاميات أخرى في كل من كسلا على الحدود الاثيوبية ، وواد مدني على النيل الازرق والابيض في

أواسط كردفان ، وأخرى على البحر الأحـمر . وبحلول سنة ١٨٣٠ كان للاتراك سلسلة مـن المعاقل تمتد على طول النيل ، حتى القاهرة .

وكتب كروفورد عن النيل الأبيض فقال : « انه مجرى غير نـافذ ينتهي عند مكان يقال له «الليس» [1] على بعد مائة وثمانين ميلا مـن الخرطوم ، ثم تأتي مناطق القبائل النيلية ، والنيل الأبيض لا يؤدي الى أي مكان ذي بال ، ولذلك فقد كان قليل الأهمية ، لا يعرف عنه الكثير ولا يأتي ذكره على الألسن الا نادرا . أما النيل الأزرق فقد كان طريقا مـائيا نافذا منذ القدم » . وعلـى أي حال ففي سنة ١٨٣٩ ، قـرر الاتراك أن يتقصوا النيل الأبيض ويدرسوا مجراه ، فأرسلت بعثـة (أسهمت فيها الجمعيـة الملكـية الجغرافية بمبلغ خمسين جنيها) على المراكب مبتدئة من الخرطوم ، فوصلت حتى قرية بور ، على خط العرض السادس . وهناك منعتها أعشاب السدود من مواصلة السير . وفي سنـة ١٨٤٠ـ١٨٤١ ، أرسلت بعثتان أخريان ، فوصلتا الى ما بعـد غندكرو بقليل ـ وهي بالتقريب في الموضع الذي تقع فيه مدينة جوبا حاليا . وهنا اعترضهم أحد الشلالات ، فتوقفوا عن مواصلة السير . ثم مضت عشرون سنة أخرى ، قبل أن يتمكن المستكشفون مـن النفاذ الـى المناطق المجهولة ، الواقعة خلف ذلك المكان . وفي هذه المدة كـرس الاتراك جهودهم على النيل الأزرق ، ومنطقة السافنا الواقعة بينه وبـين الجبال الاثيوبية ، والبحر الاحمر . أما الملك نمر فكان لا يزال قابعـا عنـد سفح الجبال الاثيوبية ، فقد قابله الرحالة الانجليزي « مانسفيلد باركنز » في سنة ١٨٤٦ ، وكان في ذلك الوقت قد اشتهر بالقرصنـة وسفك الدماء الا أن الكبر كان قد هد مـن قواه ، وافقـده بصره ، فأصبح شيخا وقورا ، طيب النفس كريم الخصال ، على هامته صلعـة

---

١ ـ وهي منطقة الكـوة .

وبجسمه استدارة لا تمجهما العين . وقد أحسن وفادة باركنز في منزله ، وكان شديد الحرص ليستعيد سمعته الطيبة ومجده التالد . كما كان يتحرق شوقا لوطنه شندي ، ولكنه كان متأكدا أن الأتراك لن يسمحوا له بالعودة اليها. لقد كانت نهايةمحزنة للملك نمر ـ الا أن طبعه كان لا يزال متشبعا بروح افريقيا السوداء ، في تحديها الغريزي للغرب .

وفي سنة ١٨٣٨ ، قام محمد علي بزيارة للسودان ، وهو في التاسعة والستين من عمره ، واحضر معه حاشية كبيرة ، كان من ضمنها عدد من المهندسين الاوروبيين . فقد اصبح الطاغية العجوز حاكما لامبراطورية شاسعة ، امتدت بمجهود ابنه ابراهيم حتى نهر الفرات شرقا . وجاء الى السودان ومخيلته عامرة بالمشاريع ، كازالة الشلالات من مجرى النيل ، وانشاء خط حديدي ، وآخر للتلغراف حتى مدينة الخرطوم . وكادخال زراعة القطن والنيلة في الارض الواقعة ما بين النيلين (ارض الجزيرة)، الا ان القدر قد شاء (كما فعل مع بونابارت من قبل) الا تنفذ هذه المشاريع الا بعد وفاته . ثم سار محمد علي متتبعا مجرى النيل الازرق حتى جبال فازوغلي ،ولعله كان لا يزال يحلم بضم اثيوبيا الى ممتلكاته، ومن المؤكد انه كان يأمل في العثور على الذهب بمنطقة فازوغلي . وبعد ان قضى اربعة اشهر بالسودان ، عاد الى القاهرة ولم ير السودان مرة اخرى ، فقد قضى العشرة سنوات الباقية من عمره في ضعف متزايد ، ثم في خرف من فعل الشيخوخة . ولكنه قد عاش ثلاثة عقود بعد موت مثله الاعلى ، بونابارت . اما امبراطوريته فقد بقي جزء منها، على الاقل، اكثر مما عاشته جميع الفتوحات الفرنسية .

هذا ، وعندما عاد كايو لوطنه سنة ١٨٢٦ ، او كلت اليه ادارة متحف التاريخ الطبيعي ، فقام بطبع كتابه الذي سماه«رحلة الى مروى» وضمنه الكثير من رسوماته . وكان كتابه هذا حافزا لكثير من المغامرين الأوروبيين ليقتفوا اثره على النيل . ومن هؤلاء الرجال ، كان ان تحصلنا

على اوضح صورة عن النيل خلال هذه السنوات ، فقد كانوا خليطا عجيبا من الرجال ، منهم تاجر العاج ، ومنهم العالم ومنهم الصياد ، والجندي والسائح ، الى غير ذلك . وبهذا التباين في مشاربهم ، قد تقصوا احوال النيل من جوانب مختلفة .

واول من نذكرهم من هؤلاء المغامرين ، هم افراد عائلة ميللي Melley فقد خطى جورج مللي خطوة اوسع ممن سبقوه الى هذه البقاع ، بأن اصطحب معه والديه واخاه واخته . وهو يدعي ــ واغلب الظن انه كان محقا في ذلك ــ ان هاتين السيدتين ، كانتا اول من زار الخرطوم من النساء الغربيات ، وكان ذلك في سنة ١٨٥٠ . وهو يكتب عن هذه الرحلة في روح مرحة صميمة ، بطريقة الرجل المحظوظ ، كما لو كان في جولة في «برايتون» . فيحدثنا عن بيلك وكيف كان منظرها قبل ان تغمرها مياه الخزان (وقد رسم ادورد لير هذا المنظر ، فيما بعد ، في لوحة رائعة زاهية الالوان) ويقول ان الدخول في معبد ابي سمبل اضطرهم ان يحبوا على الرمال ، في نفق لا يتعدى قطره الاربعة اقدام ، وانه قد صعد الى رأس احد التماثيل الكبيرة ، كما فعل بيركهاردت من قبل ، ووقف على شفة التمثال العليا ، ومع ذلك لم يستطع ان يمس حاجبه بيده . ويكتب في شيء من القلق ، عن الطريقة السيئة التي يتبعها بعض الزوار بحفر اسمائهم .ويقول انالخرطوم لم يكن بها اكثر من ثلاثة آلاف منزل في ذلك الوقت ، وان معظم ما يحتاجه الأوروبيون من كماليات يمكن الحصول عليها من اسواقها ، وانه كان بالمدينة مقر للارسالية الكاثوليكية الرومانية ، وان لطيف باشا الحاكم العام كان له منزل رائع على شاطىء النيل ، تحف به الحدائق الغناء .

وكانت تجارة الرقيق في هذا الوقت تقترب من ذروتها . وترك لنا ميللي بيانا لطيفا عنها فقال : «قبل ان تصل المراكب (في اسوان) اتينا على طائفة كبيرة من الجواري الارقاء ، كن في طريقهن الى القاهرة

حيث تجري عليهن القرعة في سوق النخاسة ، لينتقلن على أثرها الى أسياد جدد ... وكن جميعهن من الفتيات الصغار ، تتراوح اعمارهن ما بين اثنتي عشر سنة وستة عشر عاما . وكن في منتهى المرح ، لا يمكن لانسان ان يقابل طائفة من الفتيات اشد مرحا منهن ، اذ كن يتبادلن ضحكات ساحرة يتردد صداها بين الغابات ، حتى ليخيل للمرء ـ وليس هذا الظن ببعيد عن الواقع ـ انهن لا يعتبرن انفسهن على وشك الدخول في استرقاق الى الابد ، بل على العكس، كما لو كن على ابواب الحرية، وقد تركن حياة الاسترقاق في اوطانهن . ومبلغ علمنا انهن يجدن من اسيادهن كل عطف ورقة . هذا ـ واينما التقينا بقافلة ، كنا نجد ان الفتيات يتعلقن تعلقا شديدا برئيسها . والفئة التي قابلناها الآن ، كانت قادمة من الحبشة ـ فالحبشة هي المصدر الرئيسي الذي تجلب منه الجواري ، ومن المؤكد ان مصيرهن سيكون الى منازل الاتراك ليعملن كوصيفات في الحريم وقد يكون مصير بعضهن الى منازل التجار الموسرين ليتخذوا منهن زوجات او سراري. اما لونهن فكان اسود براقا ، وقوامهن بالغا حد الروعة ، ووجوههن صافية جذابة، تزينها اعين نجل . وقد كن جميعا على جانب كبير من الخفر والحياء ، فلم نستطع اغراءهن بالخروج من اكواخهن ، او بالسماح لنا بالدخول اليهن . وشذت منهن واحدة ، كانت اكثر ثقة بنفسها من غيرها ، وهي امرأة صغيرة في الخامسة والعشرين من عمرها . فخرجت الينا ومعها طفل في منتهى الجمال صورة، ومنتهى الكمال تكوينا ـ كأنه لوحة خطتها يد فنان بارع . وعرضنا عليها شراءه منها ، ورغم انها طربت لهذا الاطراء ، الا ان قلبها كأم ، كان متعلقا بالطفل ، فلم تستطع ان تتخلى عنه . فاعطيناها شيئا من المال لتبتاع به دهنا ، وكان [illegible] سريع على معنوياتها ، فطفحت بشرا في وداعة الطائر البر[illegible]ها وهي موضع حسد من جميع رفيقاتها» .

وبعد ان يصف هذا المشهد الشاعري ، يعود ميللي ويعترف بأن الذكور من الرقيق، الذين رآهم وهم في طريقهم من السودان ، كانت تبدو عليهم آثار الارهاق الشديد . ثم يقول ان النوبيين كانوا يلجأون للتخلص من التجنيد الاجباري في الجيش التركي بتشويه انفسهم ، كأن يفقأ الرجل منهم احدى عينيه ، أو يجدع إحدى أذنيه ، او يبتر يدا من يديه . لقد كانت حياتهم قاسية مريرة ، وقد تقسو الحياة على أي سائح عابر بالمثل ، فقد مات والد ميللي في الصحراء ما بين بربر واسوان .

وهناك سائح آخر يدعى «فلوبرت» ، كان مجيؤه لوادي النيل في سنة ١٨٥٠ شيئا بعيد الاحتمال . ويبدو ان الشرق قد استهواه وجذبه اليه ، فسافر جنوبا على النيل حتى وادي حلفا ، وكان برفقته صحفي ومصور فرنسي يدعى « ماكسيم دوكامب » . وكان فلوبرت في التاسعة والعشرين من عمره ، لا تدل رسائله على أن له أي اهتمام بالآثار القديمة ، فهو يقول : « وأنا على وجه العموم ، لا اهتم بتاتا بالآثار ، رغم ان المفروض أن تسمو هذه الأطلال بالمرء الى مراقي الفكر والخيال» الا أن الذي استهواه وسلب قلبه ولبه ، هم سكان مصر ، فقد حققت مصر كل ما كان يصبو اليه « الى درجة عظيمة » كما قال « حتى انني كنت اشعر احيانا ، انني عثرت فجأة على حلم قديم غاب عن الذاكرة » . فقد زار النيل كثير من الكتاب والفنانين ولكن لم يتجاوب احد منهم مع الشرق كما تجاوب « فلوبرت » ولم يعبر منهم احد عن شعوره كما عبر عنه فلوبرت في براعة ودقة ، فقد كان وصفه لشعوره خليطا عجيبا من الشهوانية العارمة والتأنق الرفيع . وعندما كان بالقاهرة دخل في جدل ديني مع أسقف الأقباط ، ثم زار الحمامات التركية ، حيث راقب ، كما يقول : « ضوء النهار وهو يخبو شيئا فشيئا من خلال المناور الزجاجية التي بقبة الحمام » ، وقد وجد فيها « شيئا من العزلة الممتعة في أن يغتسل الانسان بهذه الطريقة ،وهو وحيدفي تلك الغرف المظلمة .

التي تجلجل فيها الهمـــسات جلجلة الرعد . ومما يزيد في طرافة المكان وسحره ، اولئك الرجال الذيـــن يقومون بعملية التدليك ، فهم لا يكفون عـــن مناداة بعضهم البعض بأصوات عالية بينمـــا يقلبون مـــن بأيديهم في غـــير اكتراث ، كأنما يقومون بتحنيط جثث يعدونها للمقبرة» .

وفي بلاد النوبة كان يقرأ الأودسًّا باليونانية ، في الوقت الـــذي يترنم فيه الملاحون بأهازيجهم القومية ، وهم على ظهـــر السفينة . كما كان يراقب وهو على ظهر السفينة « كل ما يمر بنا مـــن جمال ، ومـــن قطعان الماشية المجلوبة مـــن سنار ، ومن مراكب تتهادى نحو القاهرة وهي محمـــلة بالجواري وسن الفيل » . وكتب عما شاهد من رقصات الرجال فقال : « انها اروع بكثير مـــن أن تثير في المشاهد بهـــجة أو نشوة ، واني أشك في أن نجد في نسائهم ، نفس مستوى الجمال الذي رأيناه في الرجال ، فقد أضفت دمامتهم مسحة من الفن على رقصاتهم ، انتابني على أثرها صداع لازمني طيلة اليوم » .

وعندما كان في اسنا ، زار مومسا مشهورة تـــدعى «كوشيـــك هانم » ، فكتب الى صديقه « لوي بونيه » خطابا يصور فيه البهـــارج الساقطة ، والاثارات الحية العجيبة التي حببت للاتراك الحياة في صعيد مصر . واليك نبذة يصف فيـــها اول مقابلة له مع هذه الغانية : « كانت خارجة لتوها مـــن الحمام ، وقد وضعت على رأسها طربوشـــا أخضر اللون مرصعا بالذهب ، له شرّابة [1] طويـــلة تتدلى حتى منكبيها ، وقد عقدت غدائرها الامامية الى الخلف . وكـــانت ترتدي سروالا طويـــلا فضفاضا قرمزي اللون ، الا أن صدرها كان عاريا تماما ، الا من خمار وردي شفاف . وعندما ظهرت في أعلى السلم انعكست صورتها علـــى

---

١ ـ شرابة بتشديد الراء وجمعها شراريب هي الكلمة الصحيحة لما نسمه بالزر (للطربوش) مع اننا نستعمل الكلمة الصحيحة مع الخـــرج فنقول (شرابة الخـــرج) المترجـــم

صفحة السماء الزرقاء ، فبدت شيئا مذهلا ــ عالية الصدر ، ممتلئــــة الجسم ، يزين وجهها أنف دقيق وعينان نجلاوان ، وتتوج ساقيهـــا ركبتان رائعتان . وعندما اخذت ترقص ، تطوي جلدها فــوق خصرها طيات هائلة ... هذا ــ وأول ما بدأت به أن عطرت ايدينا بماء الورد ، وكانت تفوح من ثدييها رائحة الراتنج المعطر ، وتتدلى عليهما قلادتـــان مــن الذهب ... ثم ادخلت فرقة الموسيقى وبدأت في الرقــص .

« وعندما حان الوقت للانصراف ، لم أغادر المكان مع الآخرين ، رغم ان كيشوك لم تكــن ترغب في أن تقضي ليلتنا معها ، خوفا مـــن اللصوص الذين عادة ما يتسللون الى الدار ، عندما يعلمون بــوجود اغراب بها .. ثم تركتُ «ماكسيم» وحــده في الديوان ، ونزلت مــع كيشوك الى غرفتها الخاصة التي كانت مضاءة بمصباح مــن النـــوع العتيق ، مثبت في حائط الغرفة . وكان بالغرفة المجاورة بعض اتباعـــها يتجاذبون الحديث ، في صوت منخفض ، مع جارية من زنوج الاحباش، كانت ذراعاها مشوهتان بآثار الجدري ... واضطجع كلبها الصغير فوق عباءتي الحريرية ... وكان جسمها نديا مــن العرق ، لما اصابها من اجهاد في الرقص . وشعرت كيشوك برعشة من البرد ، فدثرتها بمعطف الفــراء الذي كنت احمله ، ثم استرسلت في نوم عميــق . اما انا فلم تغمض لي عينان حتى الصباح ، وقضيت ليلتي في توتر شبيه بالحلم .. »

وبعد نصف قرن من هذا التا ريخ قام «بيير لوتي Pier Loti » بزيارة للنيــل ، وعندما علم بفكرة قيام خزان عليه ، احتج لضياع معالم جزيرة بيلـــك تحت مياه هذا الخزان . ولا شك في انه عندما أبدى هذا الاحتجاج ، كانت تداعب ذهنه الحالم اصداء هذه الرسائل التي سجلها فلــو بــرت .

وهكذا ، وبمرور الزمن ، قامت اسطورة عن النيل ، تتمركـــز طرافتها حول المعابد الأثرية ، والوحوش الضارية ، وحول الحريم فــي

قصور السراة ، والقبائل المتوحشة ، واللآلىء والنقوش تحت الرمـــال القفراء . وكان هذا في نظر الجميع ، نوعا طريفا من التدهور والانحطاط، طغى فيه الحاضر المتأخــر على الماضي المتحضر ، فاصبح هذا النهـــر العظيم الذي لا يعرف كنه مصدره احد ، والذي يشكل مصدرا رئيسيا من مصادر النعم والقوة والمتعة ـ لقد أصبح هذا النهر العظيم ، في ظل هذا التدهور والانحطاط ، مركبا ينتقل به الانسان القهقرى نحو اصل الكائنات الغامض المجهول . وفي هذه السنين كتب «لي هنت» عن تمثال اوزيماندياس ـ ملك الملوك ـ ذي الخرطوم ، يقول : ـ

لا تــرى في الارض مــن آثارهم غير شيء مــن حطــام متآكل
حفــه الرمــل فأضحى موحشــا بــين قفر متــرام متواصـــل
ينبىء التاريخ آن كـــان هنـــا صرح مجد من حضارات الاوائل[1]

وهي نفس السنين التي خاطب فيها «كيتس» Keats النيل قائلا :ـ

ياابن السماء تدلى مــن أعاليهـــا وابن الجبال تهادى من روابيها
أنت الرقيب على الأهرام تحرسه وسيد مجد التمساح تأليهـــا
من الهلال الى افريقيا انحــدرت مياهك العذبة الثرى مساقيها[2]

وكتب « لي هنت » أيضا ما معنـــاه : ـ

يسير في مصر والنسيان يغمــرها والصمت قد عمها جهلا بماضيها

---

١ ـ هذه ترجمة للابيات الانجليزية التي يقول فيها الشاعر LEIGHHUNT ما نصه : ـ
Nothing beside remains. Round the decay
of that colossal wreck, boundless and bare.
The lone and level sands stretch far away.

٢ ـ اشارة للخرافة التي كانت سائدة منذ عهد هيرودوتس وحتى القرن التاسع عشر بان النيل ينبع من جبال بالقمر . اما النص الانجليزي لهذه الابيات فهو : ـ
Son of the old moon — mountains African
Chief of the Pyramid and Crocodile

المترجم

يسير كالفكرة العظمى اذا انتظمت عقدا من الحلم تغريه ويخفيها[1]
هيهات للحلم أن يخفي مداركنا والفكر لا بد أن يجلي خوافيها[2]

هذا وفي اوائل الستينات من القرن الماضي ، حضرت «الليدي دف جوردون » Lady Duff Gordon لتستوطن مصر العليا ، في محاولة يائسة لتستشفى من ذات الرئة التي كانت مصابة بها ، فاندمجت في حياة الشعب الاعتيادية ، اندماجا لم يسبقها اليه اوروبي منذ عهد «لين». لقد احبتهم ولذلك فقد فهمتهم حق الفهم . وكانت الاقصر في ذلك الوقت قد اصبحت منتزها للسواح البريطانيين ، فبلغ عدد العوامات الراسية على ضفة النيل بها ، أكثر من ثمان عوامات ، وكانت تصلها باخرة من القاهرة مرة في كل اسبوعين في فصل الشتاء ، مما روج فيها تجارة الاناتيك المزيفة ، فكنت ترى العباءات البيضاء الفضفاضة (التي يرتديها المرشدون) تتنقل بين الاطلال كأنها اشباح . وكانت الليدي جوردون تراقب هذه الاحداث في زهد من دنا أجله ، وفي حنانه . فعرفت من الأسرار ، ما لم يكن للسواح مجال لان يعلموا بها . وكانت قد تعلمت العربية وجالست المشايخ والائمة في مجتمعاتهم ، وعلمت كطبيبة للفلاحين ، ورغم كل ذلك لم تتخل عن شخصيتها كبريطانية . ولذلك فانها عندما كانت تذكر في خطاباتها انها « تشتم ريح زورق لدرقيق » ، وعندما كانت تتحدث عن القرويين ورتابة حياتهم ، وعن ارتفاع النيل وانخفاضه المنتظم على مر السنين والاعوام ، وعندما كانت تتحدث عن الحصاد ، وعن الطاعون ومحصلي الضرائب وغير ذلك من المصائب ـ فانما كانت تتحدث عن الواقع في زخرف من

---

١ ـ والنص الانجليزي هو : It flows through old hushed Egypt and its sands, like some grave mighty thought threading a dream.

٢ـ هذا البيت ضرورة لجأ اليها المترجم لازالة الاشكال الذي خلقه باضافة كلمتي « تغريه ويخفيها » في البيت السابق .

المترجم

القول . فهي تتحدث مثلا عن « القمر الذي يطل من خلف الجبال كأنه شمس خبا لهيبها » ، ثم تمضي قائلة : « والليالي هنا ، رقيقة هادئة حالمة كأنها نهار ساحر يخلب [1] اللب . اما النهار بأشعته المحرقة فشيء لا يطاق . ان هذا الصمت الرهيب الذي يعم الكون وقت الظهيرة ، بشمسها المحرقة الناصعة البياض ، التي تنعكس على صفحة النهر المنساب ، فيبدو كأنه لجة من القصدير المذاب ، ثم ذلك الصمت العجيب الذي يسود الزوارق النوبية وهي تتهادى دون ان تهتز لها صفحة الماء ـ ان هذا وذاك لشيء رائع ولكنه رهيب ومهيب » . وكل من زار الاقصر لا بد أن يتذكر وصف هذه السيدة لوادي الملوك الذي تقول فيه : «انه طريق طويل مقفر ، صامت ووعر ، فهو طريق يظلله الموت بحق وحقيق ، فلا حشرة واحدة تثير القلق ، ولا طائر واحد يرفرف» . وقد انفجرت في ثورة غضب عارمة جديرة بالاكبار ، وهي تهاجم اولئك النفر الذين يشوهون معبد ابي سمبل فقالت : « انه لعار كبير أن تحفر الاسماء في هذا المعبد ... فالأمير « بوكلر موسكاو » قد حفر اسمه وألقابه بحروف كبيرة على الصدر العاري لذلك التمثال العظيم الرائع ، الذي يجلس عند معبد ابي سمبل» .

وهناك آخرون حضروا الى مصر وساروا جنوبا مع النيل . ورغم انهم كانوا أقل ارهافا في مشاعرهم ، الا أنهم قد استجابوا لجاذبية هذه البلاد ،التي بدت وكأنها مألوفة جدا لديهم ، مع أنها كانت جديدة عليهم. فالشاعر والدبلوماسي الأمريكاني «بايارد تيلور» (Bayard Taylor) الذي ترجم قصة فاوست ، قد وصل الى ما بعد الخرطوم بكثير في سنة ١٨٥١ ، كما وضع كتابا عن رحلته هذه . وفي سنة ١٨٥٢ جاء الى

---

١ ـ المقصود هنا نهار من ايام انجلترا حيث الشمس دائما محجوبة بالضباب والغمام فالليالي المقمرة في الشرق فعلا قريبة الشبه بالنهار عندهم . المترجم



صامويل بيكر وزوجتـه

مصر الطبيب الالماني « ثيودور بلهارس » واكتشف الطفيلي الذي يسبب المرض الذي عرف فيما بعد باسمه ـ مرض البلهارسيا ـ والذي هو مصيبة النيل الكبرى . وفي سنة ١٨٤٥ ، أقام فلاح الماني يدعى «بوير» Bauer ـ اقام مصنعا للصابون والكونياك على النيل الأزرق ، وفي سنة ١٨٤٦ حضر الى مصر مهندس مناجم يدعى « جون باتريك » ، من مقاطعة ويلز بانجلترا ، وقام بعدة رحلات جنوب الخرطوم لصيد الفيل ، ثم اصبح فيما بعد عالما في الطبيعة وقنصلا لبلاده .

وشيئا فشيئا ، وسنة بعد اخرى ، كان مثل هؤلاء الرجال يتوغلون في مجاهل السودان المختلفة الى أن استكملوا لنا صورته ، واوضحوا لنا تاريخه وملأوا ما كان يبدو كرقعة خالية في الخرائط الجغرافية . ومع ذلك ، فقد ظل التكوين النهري للنيل الازرق وروافده الموسمية التي تتدفق مرة في السنة من الهضبة الاثيوبية ـ ظلت جميعها مجهولة، ولم تمتد اليها يد المستكشفين ، الى أن جاء ذلك الرجل الانجليزي العملاق ، صامويل بيكر ، فكان أول من كتب ، وأحسن من كتب ، عن هذه المناطق . ونحن مدينون له بالكثير في هذه النواحي .

وفي هذه المرحلة من حياته (١٨٦١) لم يكن بيكر من المستكشفين ، بل كان رجلا يهوى صيد الوحوش الكاسرة ، وقد حضر للسودان هو وزوجته عن طريق القاهرة بحثا عن الصيد . ثم ألف كتابا بعنوان « روافد النيل الحبشية » واهداه للملك ادوارد السابع (وكان اميرا لويلز في ذلك الوقت) الذي كان ، كما وصفه بيكر : «أول شخصية من العائلة المالكة الانجليزية ، تبحر على مياه النيل » .[1] والكتاب في الاصل عبارة عن مجموعة مذكراته في شئون الصيد ، ويتضمن وصفا لرحلاته في شرق أفريقيا . ولكنه قبل ان يصل الى نهاية الكتاب ، كان قد ركز جل اهتمامه على السكان ، وعلى النيل

---

١ ـ زار ادوارد مصر في سنة ١٨٦٧ واستقل زورقا على النيل حتى مدينة الاقصر . (المترجم)

نفسه ، كلغز مـن الالغاز . هذا ـ ولم يفهم النيل احد كما فهمه بيكر ، ولم يكتب عنه احد بالوضوح الذي كتبه عنه بيكر .

ومما كتبه عنه ما يلي : « هناك نهران عظيمان يتدفقان من الحبشة، هما النيل الازرق ونهر العطبرة ، وهما يصبان في مجرى النيل الرئيسي عند خطي عرض ١٥و٣٠ و ١٧و٣٧ على التوالي . وهذان النهران ،رغم ما يبلغانه من عظم وضخامة في موسم الأمطار ، أي ما بين منتصف يوليـو وسبتمبر ، الا انهما ينخفضان في موسم التحاريق الى ما يشبهه العدم ، فيصبح النيل الأزرق ضحلا غير صالح للملاحـة ، بينما يجف نهـر العطبره تماما . وفي الزمن الذي يتوقف فيه تدفق المياه مـن الحبشة ، تعتمـد مصر كليا على مياه البحيرات الاستوائية ، وعلى روافد النيـل الابيض ، الى ان يحين موسم الامطار الجديد ويفيض الرافدان العظيمان من جبال الحبشة مرة أخرى . ويبتدىء هذا الفيضان فجأة في حوالـي العشريـن مـن يونيـو مـن كل سنة ـ وهذا الفيض مـن المياه المتدفقة في كل مـن النيل الازرق ونهـر العطبره ، هو الذي يغمر مصر السفلى ويهبها الخصب والنعمة » .

ووصل بيكر وزوجته الى مصب نهر العطبرة قبيـل فيضانـه السنوي ، ووجدا كثيرا من البرك لا تزال راكدة على طـول مجـراه ، ويمتد بعضها الى ما يقرب من الميل . وكانت تعج بالاحياء المائيـة ، مـن سمـك ضخم وتمـاسيـح وسلاحف ، ويزدحم حولها كثير مـن الحيوانات البرية من غزلان وضباع. هذا بخلاف الآلاف العديدة من اسراب القطن وهي ترفرف غادية رائحة . ووجدا الليالي بهذه المنطقـة باردة وخالية مـن الناموس ، اما النهار فكانت ترتفع فيه الحرارة حتى تبلغ «١٣٧ درجة فهرنهايت» تحت وهج الشمس ، وكان الورق يتفتت هشيما بين يديـه من شدتهـا . وفي ليلـة الثالث والعشرين مـن يونيـو ، انحدر سيل صاخب يزمجر كالرعد في دويـه ، وعندمـا

استيقظا في الصباح ، كان الماء على امتداد خمسمائة ياردة عرضا بينما بلغ عمقه بين الخمسة عشر والعشرين قدما ، وكانت تطفو مع تياره جزر من الخيزران والاعشاب الاخرى . ورغم ان الامطار لم تهطل بعد بهذه المنطقة الا أن الاشجار قد تفتقت اوراقها في سرعة سحرية مذهلة ، بمجرد ان تسرب الماء الى جزورها .

ثم تتبعا مجرى النهر الى مسافة مائتين وعشرين ميلا نحو الجنوب، ومن هناك عبرا الفيافي حتى وصلا مدينة كسلا ، حيث يقف الجبل المشهور شامخا الى علو ثلاثة آلاف وخمسمائة قدم ، وهو جبل من الصوان الاسود الصلد . وهنا كان نهر القاش في عنفوانه ، ينهمر في سرعة بالغة بالقرب من المدينة ، ليتلاشى اخيرا بين رمال الصحراء المقفرة. ولم يتخطيا كسلا لانها كانت عند نهاية الممتلكات المصرية ، ولأنه كانت تدور في نفس الوقت معارك متقطعة على الحدود بين الحامية المصرية وبين القبائل الأثيوبية . والمنطقة كانت من اكثر المناطق ملاءمة لحرب العصابات ، فمزارع القطن والتبغ كانت تمتد حتى سفح الهضبة الاثيوبية ، ثم تبتدىء الغابات كثيفة لتشكل نوعا من الأرض الحرام بين الاثيوبيين والأتراك . أما وقد بدأ الخريف الآن فان جميع قبائل العرب الرحل أخذت في الظعون نحو الشمال ، هربا من الوحل ومن ذبابة « التسي تسي» ، ولذلك فقد عاد البيكران الى العطبرة مرة أخرى. وكان ترحالهما دائما مرتبا ، وعلى نمط متسق ، يستيقظان عادة في الخامسة والنصف صباحا ، فيركبا بعيرين لهما سريعين ، فيسبقا القافلة بمسافة شاسعة ، حتى اذا كانت العاشرة والنصف ، حطا رحليهما بعد ان يكونا قد قطعا نحو اربعة وعشرين ميلا . وهنا يمدا بساطا عجميا تحت شجرة ظليلة ، وفي الفترة التي تعد فيها الزوجة طعام الافطار ــ وهو يتكون عادة من دجاج بارد ، وشيء من الخبز ، وابريق من القهوة ــ في هذه الفترة يكون بيكر قد دخن غليونه ودوّن

مذكراته . وبعد الافطار يخرج متسلحا ببندقيته ليصطاد شيئا من الطيور أو الصيد أو السمك لوجبة الغداء . وفي الرابعة مساء تصل القافلة ، بما فيها من متاع ، فيبتدىء النشاط الممتع من نصب الخيام ، وجمع الحطب ، واشعال النار ، وسلخ الصيد ، واعداد الطيور للطهو ، الى غير ذلك . هذا وكانت زوجة بيكر تصنع الاحذية والملابس من جلد ما يصطادونه من حيوان .

ويشعر المرء بالارتياح وهو مع بيكر وزوجته ، فحياتهما في هذه الفيافي ، كانت أشبه بحياة «روبنسون كروزو» . والقراءة عن اخبارهما فيه تغيير يشرح الصدر ، خصوصا بعد كل هذه المعارك التي شهدناها وعشناها على النيل . وقد ترك بيكر وصية لكل من يعتزم القيام برحلة في افريقيا ، بأن يحمل معه الأشياء الآتية: مظلة واسعة ببطانة مزدوجة ــ محقنة سعة لتر واحد لحقن اللحوم بمحلول الملح ــ اقلام من الحبر الهندي ، يمكن صقلها واعدادها بسرعة للكتابة اثناء سير القافلة ــ ورق مظلل للكتابة (فوهج الشمس شديد جدا لاستعمال الورق الابيض) ــ عدسة زجاجية وزناد ــ ثم شيء من الزيبق والرصاص لاعداد الطلقات النارية .

ولم يكن لبيكر وزوجته أي ميل للعجلة ، فقد اقاما ذات مرة ثلاثة اشهر في بقعة واحدة ، في انتظار توقف الامطار ، ولذلك فقد جاءت مذكرات بيكر عن البادية متميزة بالدقة والتمعن . وكلما كانت تزيد معرفته بلغة العرب ، كلما زادت معرفته بهم وتفهمه لهم . فقد قال عنهم « انهم قوم محافظون متنقلون ، لا يملكون الا القليل من المتاع ، يكرهون المدن بنوع خاص . وهم يتكلمون بلغة القرآن ، واسم الله يقترن بكل حدث في الحياة مهما كان تافها . » والنساء يرتدين الثياب بعد الزواج ، الا أنهن يحتفظن بسفورهن ليبدين شلوخهن الثلاثة التي ترتسم على خدودهن ، والتي تدل على القبيلة التي ينتمين

اليها . ثم يصف كيف أنهن ابتكـرن لأنفسهـن نـوعا مـن « الحمام التركي » فيقول : « تحفر حفرة داخل الكوخ ، وتملأ بالجمر المتوهج ، ثم توضع عليه مجمـوعة مـن العطور كالزنجبيل والقرنفل والقرفـة واللبان الذكر وعود الصندل والمر الحجازي . ثـم تجلس المـرأة القرفصاء وهي عارية ، فـوق وهج الجمر ، وتتدثر بملابسها بطريقـة تمنع الدخان من التسرب للخارج ، « وفي هذا الحمام الساخـن تتصبب المرأة عرقا ، وتتفتح مسامها ، فتتخللها العطور المتبخرة » . وبعد ذلك يدلك الجسم والشعر بكميـات سخيـة من الدهـن . وقد ادعى بيكر أنه كان يستطيـع ان يميـز رائحة المرأة العربيـة ، وهي على بعـد مائة ياردة منه . ورغم أن كل القبائل كان لها رقيقها ، إلا أن بيكر لـم يستطع ان يتحصل على واحد ، فاضطر أن يدفع ما يعادل السبـعة جنيهات ، ثمنا لجاريةلا تحسنالطبخ، ودفـع ثمنها بالريالات النمساوية (ماريا تريزا) التي كانت هي العملة المتداولة في السودان ، في ذلـك الوقت . ثم يقول : «ويبدو ان صورة الامبراطورة بثيابها المنحسرة عن صدرها العالي ، كان فيها مـن الجمال ما يناسب الذوق العربي » .

وفي نهاية الاسبوع الاول مـن سبتمبر ، هدأت الامطار ، وانحسر نهر العطبرة الذي كان يجري بالقرب من زريبة بيكر في واد يبلغ عرضه نحو الميل . وعندما بلغ انخفاضه ١٨ قدما ، أخذت التماسيـح فـي الظهور على الشاطىء الرملي ، لتستمتع بضوء الشمس . وفي نهايـة اكتوبر توقفت الامطار تماما ، واخذت الاشجار والاعشاب في الذبول ، فأختفت ذبابة «التسي تسي » . وفي المستنقعات الصافيـة التي خلفهـا النهر ، وجد بيكر كثيرا من المحار الصالح للأكـل . ثم بدأ الخـضّار وغيره من الطيور الزاهية ، تظهر في اسراب كثيفة ، وظهرت ايضا أوائل الطيور القواطع وهي البط والسنبل .

واصبح في استطاعة الزوجين الآن ان يتحركا ، فعبرا نهـر ستيت



الامبراطور ثيودور

على فرسين حبشين ، واتجها شرقا متتبعين مجرى هذا الرافد الموسمي نحو منبعه ، فوصلا مناطق لم تطأها قدما رجل ابيض من قبل . وعندما بلغا الحدود الأثيوبية رأي بيكر في الاتجاه الجنوبي « كتلا متعانقة من القمم الشاهقة » فقدّر أنه لن يستطيع التقدم اكثر من ذلك ـ كما حدث مع كايو فيجهات فازوغلي على النيل الأزرق ـ فقد اختفى النهر في وادي لا يمكن السير فيه ، وحتى هذا اليوم لا يمكن المضي في هذه الجهات الا على دروب قليلة نادرة لا تصلح الا للبغال او للسير على الاقدام .

وبحلول شهر مارس من سنة ١٨٦٢ ، قفل البيكران راجعين الى السودان ، وحرصا ان يسيرا بحذر متجنبين القرى ، لأن فصل الجفاف ، كما قال بيكر ، قد اشاع نوعا من الفوضى على طول الحدود . واخيرا وصلا عاصمة الملك نمر التي استقر بها بعد ان هاجر من شندي ، وكان ابنه لا يزال في حرب مع الاتراك ، بعد ان تحالف ضدهم مع الملك ثيودور امبراطور الحبشة . وكان في كل موسم جفاف ، يشن غاراته على حدود السودان ، مستعينا بسكان هذه المنطقة الذين كما قال بيكر : « لم يكونوا من الخلاصة الخيرة ، فقد عرفت مقاطعة الملك نمر بأنها ملجأ للاشرار من المناطق المجاورة ، الذين تستهويهم الفوضى القائمة على الحدود ، والحروب المستمرة بها » . والملك نفسه (الذي هو ابن الملك نمر) « كان رجلا في نحو الخمسين من عمره ، قذرا الى درجة بعيدة في مظهره » . ولكنه احسن وفادة بيكر ، ووافق على ان يعقد معاهدة صلح مع الاتراك ، اذا ما تمكن بيكر من اقناع الحاكم العام بذلك .

وفي منتصف ابريل عبر بيكر وزوجته نهر العطبره مرة اخرى ، واتجها نحو القلابات ، وكانت جمالهما محملة بجلود ورؤوس ما اصطاده بيكر من حيوانات ، ومن بينها رؤوس الكركدن (الخرتيت) . وعند

وصولهما القلابات ، التقيا بمبشرين ألمانيين ،كانا في طريقهما الى أثيوبيا ، وكان بيكر عديم الثقة بالمبشرين عامة ، الا" ان هذين المبشرين قد اثارا سخريته بنوع خاص . فقد كان غرضهما من زيارة اثيوبيا ان يدخلا يهودها في الدين المسيحي ، فتزودا لهذا الغرض بعدد من كتب الانجيل المطبوعة باحدى اللهجات الأثيوبية ، وبخزانة مملوءة بقوارير من العقاقير . وكان معظم هذه القوارير قد سقطت منها بطاقاتها ، فساعدهما بيكر في فرزها واعادة البطاقات لاماكنها . ثم حذرهما من أن ثيودور لا يستسيغ المبشرين ، ولكنهما أصرا على الذهاب . وهكذا كما قال بيكر ، « قد توجها ، محملين بخزانة من العقاقير لا يفهمان محتوياتها ، وبنسخ من الانجيل لا يفقهان لغتها ، لينصّرا يهودا لا يعرفون حتى القراءة بأي لغة من اللغات » .

وكانت القلابات في ذلك الوقت داخل الحدود الحبشية ، وكان الأثيوبيون يكنون كراهية شديدة نحو الأتراك في كل مكان ، ولذلك فقد رفض شيخ القرية ان يسمح لهما بالعودة للسودان خوفا من ان يكونا من الجواسيس ، وعلى اي حال فلم يتمكنا من مغادرتها قبل أواخر ابريل . ثم اتجها نحو الشمال الغربي ، متتبعين نهري الدندر والرهد ، الى ان التقيا بالنيل الأزرق عند مدينة واد مدني . وفي الحادي عشر من يونيو سنة ١٨٦٢ ، وصلا الخرطوم ، بعد سنة كاملة ، قضياها في التجوال منفردين . ولم ترق الخرطوم في نظر بيكر ، فقال عنها : « ان الفرق بين منظر الخرطوم ، وانت على بعد ميل منها ، والشمس متلألئة فوق صفحة النيل من أمامها ، وبين منظرها وأنت في طرقاتها ، كالفرق بين منظر المسرح الذي يبدو رائعا وانت تنظر اليه من المقاصير ، ثم تجده شيئا تافها عندما تراه وانت بداخله .... انها مدينة بائسة قذرة » .

وشقا طريقهما في شوارع هزيلة ، الى ان وصلا أحد الميادين العامة ، وهناك لمح بيكر بناء من البواكي المقوّسة ، كانت ابوابه

موصدة ، الا ان مدخله كان عليه درع « يحمل شعاراً سر له ناظري .... ذلك هو الاسد البريطاني والحصان ذو القرن الواحد .... فعلمت ان هذه هي القنصلية البريطانية » . ومع ان القنصل البريطاني ـ جون باتريك ـ كان غائبا عن المدينة ، الا انهما قد دعيا للاقامة باحدى الغرف الرحبة بالطابق الأعلى . وكان جون باتريك قد خصص جزءا من حديقته المسورة كزريبة ، كان يحفظ فيها بعض النعام والخنازير البرّية والضباع والقردة والفهود . ولا شك ان بيكر وزوجته شعرا بأنهما في جو مألوف لديهما .

ولم يلبث بيكر طويلا قبل ان يذهب لمقابلة موسى باشا ، الذي كان يشغل منصب الحاكم العام في ذلك الوقت ، وبحث معه موضوع الهدنة الذي عرضه الملك نمر . فاستشاط موسى باشا غضبا ، وأجابه بأن نمر ما هو الا رجل مجرم ، وان حليفه الامبراطور ليس الا رجلا معتوها ، وانه لولا ما بسطه الانجليز عليهما من حماية ، لنكل بهما منذ زمن طويل. ثم اضاف موسى باشا بأن الامبراطور قد ارسل له قبل فترة وجيزة خطابا في منتهى الوقاحة ، يدّعي فيه لنفسه الحق في كل المناطق التي ارتادها بيكر وزوجته ، والتي تقع ما بين نهري العطبره والنيل الأزرق . بل قد ذهب الى أبعد من ذلك ، وطالب بأن تسلم له الخرطوم وشندي بالمثل ، ولذلك فان المصريين مصرّون على ارسال حملة لتأديبه .

ولما رأى بيكر ان المباحثة معه ما هي الا ضرب من العبث ، قفل راجعا الى القنصلية . وكان لديه من الوقت ما مكّنه من مراجعة نتائج رحلته ـ وما اعظمها من نتائج ـ فقد عبر جميع الروافد المنحدرة من أثيوبيا الى النيل، ووضع أول خريطة معقولة للنظام النهري بالسودان ، وشرح تأثير الفيضانات السنوية شرحا منطقيا . وقد رأى بعيني رأسه وديانا سحيقة في جهات نهر العطبره وغيرها ، يبلغ عرض الواحد منها بضعة اميال احيانا ، فقال انه من المحتمل ان تكون تربتها قد تآكلت بفعل

المياه ، وجرفت مع التيار الى الدلتا . ومن حصيلة رحلته ان جمع معلومات غزيرة مركزة عن مناطق شاسعة كانت حتى ذلك الوقت سرا مغلقا . وشملت مذكراته القبائل وحياتها الفطرية ، والحيوانات البرية ، وتقلبات الطقس ، ونباتات المنطقة ومعادنها . وقد اكتشف بيكر حقيقة واحدة ــ عريضة وبسيطة في نفس الوقت ــ كانت من الوضوح بحيث انها لم تسترع انتباه احد ، الا وهي انه قد ظهرت تخوم من نوع جديد بافريقيا . فالاسلام قد توغل في وادي النيل حتى مشارف الجبال الأثيوبية ، ومن الطبيعي ان يستمر في زحفه ويحاول غزو الحبشة نفسها ، وبذلك سيتحقق حلم مصر في سيطرتها على النيل الذي هو عمد حياتها .

وكانت هناك فكرة رائجة تظهر في كل عصر من العصور وهي انه من الممكن حجز مياه النيل الازرق او تسميمها عند منبعه بغرض ابادة سكان القطر المصري [1] . ومن البديهي ان هذا قول هراء ، فحتى الآن ، وبعد مضي قرن كامل من هذا التاريخ ، لم تستطع علوم الهندسة الحديثة بكل ما أوتيت من عبقرية ، ان تحوّل مجرى النيل ، او ان تتحكم في فيضانه السنوي . اما احتمال تسميم هذه الكمية الهائلة من الماء ، فليس الا حلما ساذجا نابعا عن تفكير خبيث . ولكن ، في سنة ١٨٦٠ ، لم يكن في الوجود من يستطيع ان يقول في شيء من الثقة ، باستحالة مثل هذه الاحتمالات ، بل لم يكن هناك من استطاع ان يتتبع مجرى النيل الأزرق من بحيرة تانا حتى الحدود السودانية . ليس ذلك

---

١ ــ ففي سنة ١٠٩٣ كان فيضان النيل شحيحا جدا ، فارسل المصريون وفدا الى الحبشة لاقناع الامبراطور بالسماح بمزيد من الماء ــ الشيء الذي لم يكن تحت ارادته .

حاشية المؤلف

ملحوظة : هذا هو التاريخ الذي جاء في حاشية المؤلف ، ولا شك في ان هناك خطأ مطبعيا ، والارجح ان يكون التاريخ المقصود هو سنة ١٩٠٣ .

المترجم

فقط ، بل لم يكن احد يعلم من اين يأتي النيل الأبيض ، ولذلك فـان سياسيات اثيوبيا كانت مرتبطة بسياسيات النيل عامة ، كما ان الصراع الذي بدأ في ذلك الوقت للسيطرة على ذلك القطر ، كان في حقيقته صراعا للسيطرة على النيل الازرق . وعليه فان اهمية رحلة بيكر كانت تنركز في انه وضع خطوطا عريضة تحت هذه الآراء . وكما فعل بروس من قبل ، فقد لفت الأنظار ــ هو وغيره من المستكشفين ــ الى ذلـك القطر المسيحي الغريب ، المنعزل عن باقي العالم بين جباله ، ووسط مـا يحيط به من صحارى ، كأنه جزيرة قائمة وسط المحيط . وقـد تنبهت بريطانيا بنوع خاص ، فقد كان العمل في قناة السويس قد قطع مرحلة كبيرة ، وكان من الواضح ، لكل ذي فطنة ، ان طريق البحر الاحمـر سوف يلغى ، عما قريب ، ضرورة السفر عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولذلك فان بريطانيا لم تعد لتحتمل ــ أكثر مـن أي وقت مضى ــ ان يكون لها عدو في اثيوبيا ، او في موانىء البحر الاحمر ــ سواء كـان مسيحيا او مسلما ــ دون ان تتدخل . وفي الستينيات من القرن الثامن عشر ظهر ذلك العدو ، فبدأت آخر مرحلـة من مراحـل غزو النيـل الأزرق .

* * *

الباب الرابع

البريطانيون في أثيوبيا

الفصل الرابع عشر

قوة ثيودور

« لقد استسلم الاثيوبيون الى سبات عميق قرابة الألف سنة، وهم مطوّقون بأعداء دينهم من جميع الجهات . وقد نسوا الدنيا فنسيتهم الدنيا بالمثل .

جبون

تدهور الامبراطورية الرومانية

من المسلم به ان الامبراطور ثيودور قد عرف بأنه لم يكن الا كلبا مسعورا أُطلق سراحه ، أو صورة مجسدة سوداء « لأيفان [1] الرهيب » وغيره من طغاة الروس . لقد كان فعلا مسعورا ، حتى اذا قيس بمقاييس أثيوبيا المتوحشة نفسها ، ومع ذلك فان سمعته السيئة هذه لا تنطبق عليه انطباقا كليا ، فهنالك مسحة طفيفة من النبل في

---

١ ـ هو ايفان الرابع (١٥٣٠ ـ ١٥٨٤) الذي توج قيصرا على روسيا سنة ١٥٤٥ وعمره خمسة عشر عاما . من أعماله العظيمة انه كسر شوكة التتر وجمع شتات البلاد الروسية . الا انه بعد وفاة زوجته في سنة ١٥٦٥ فقد سيطرته على نفسه وقام بسلسلة مجازر دموية رهيبة اثارت عليه غضب البابا . وفي نوبة من نوبات غضبه الجامحة قتل ابنه الاكبر فقضى بقية حياته في حسرة والم .

المترجم

خصاله . ولو قدر لثيودور ان يوجد في ظروف افضل من تلك التي وجد نفسه فيها ، لاستطاع ان يكون عطيلا آخر ، الا انه من المستحيل ان يكون مثل «اياجو» [1] ، فقد كان من الحماقة بدرجة يستحيل له معها ان يموّه خسته بشيء من الدهاء ، كما ان جنونه لم يعرف له حدود او اتجاه معين. وقد قال عنه «بلاودن» الذي كان يعرفه منذ الخمسينيات في القرن الماضي ، قال انه (ثيودور) عندما كان صغيرا «كان على جانب كبير من الرقة والكياسة .

لقد كان غضبه عنيفا ، يرتجف له جميع جسمه ، ومع ذلك فقد كان نشطا في حركته ، حازما في تصرفاته ، كما كان متدينا ورعا ، وكريما جوادا ، وحتى عندما يكون في قمة هياجه ، لا تخلو تصرفاته من المجاملة واللطف . ولم يحاول احد ان يناقض في ان شجاعته من النوع الذي يأتي تلقائيا دون تكلف او تصنع ، كالهواء الذي يستنشقه تماما . اما الجوانب الاخرى من تصرفاته فهي ضرب من الجنون الحالم الكثير الانتشار والذي يسمى «بجنون العظمة» . وهو عبارة عن انفعالات جامحة ، كالتي تنتاب الرجل المصلح الذي يجد ان جميع مشاريعه الاصلاحية تقابل بالرفض ، فيود لو اطاح بالعالم اجمع ، ارضاء لنفسه لما اصابها من فشل . ويعتقد بلاودن ان ثيودور كان مخلصا في البداية ، فقد حاول محاولة جادة ان يبطل تجارة الرقيق ، وان يدخل تحسينا على الضرائب ، وان يجري على جنوده المرتبات بدل ان يتركهم للسلب والنهب . وكان ثيودور هو الذي ادخل الى بلاده ذلك الزي الممتاز من السراويل الضيقة البيضاء التي يستعملها الاثيوبيون حتى يومنا هذا . وكان يعتقد حتى آخر لحظة من حياته ان العناية الالهية قد

---

١ ــ اياجو هو الاسم المقدس «لباخوس» اله الخمر عند الرومان ــ الذي يعزى اليه في اساطيرهم تنمية الثقافة وما تبعها من حضارة .
المترجم

سخرته ليستعيد امجاد الامبراطورية الاثيوبية القديمة . ولكي يحقق هـــذه الارادة الالهية ــ كما يقول بــلاودن «فان شجاعته الشخصية وجرأته الادبية ، لم تعرف لها حدودا » .

وكانت هذه هي مشكلته الرئيسية ، تعوزه الملكة التي تمكنه من أن يقدر الاشيــاء حق قدرها ، وان يعرف اين ومتى يجب ان يقف . وعندما فشل في انقاذ قومه من وهدة العصور الوسطى ــ بالاقناع اولا ، ثم بالقهر والشدة ثانيا ــ تحول الى حيوان كاسر ، لا هم له غير اشاعة المذابح والمجازر . لقد كان كالطفل الذي يعلم انه يسير في طريق خاطىء فيتوق الى العفو والمغفرة ، ويتلمس المخارج لما هو فيه ، وعندما لا يجد سبيلا الى ذلك يستسلم الى الغضب عسى ان يجد فيه سلوى له . ولو هيأ لثيودور ان يجد من يوجهه التوجيه الصحيح للخروج من مأزقه الحرج ، ولتكييف نفسه حسب ما طرأ على العالم مــن تطور وتغيير ، لاختلفت النتائج اختلافا كامــلا . ولكنه كان محاطا بالجهل والخرافة من كل جانب ، ولا يمكن للانسان ان يتصور مكانا في العالم اكثر وحشية وهمجية من اثيوبيا في القرن التاسع عشر .

ولم يطرأ على أثيوبيا اي تغيير منذ ان غادرها بروس في سنة ١٧٧١ غير الفوضى ، والفوضى العميقة الشاملة التي اخرصت كل شيء ، حتى الوثائق كانت صامتة . فنحن لا نعرف في شيء من الدقة والتفصيل كيف كان يسير الاتجاه العام للسياسة في البلاد ، لا نعلم من هم القادة الذين قادوا جيوشهم لاخضاع الآخرين ، ولا نعلم شيئا عن القوانين والقوى التي كانت تتحكم في مصير البشر . فقد كانوا يشنون حروبهم في ليل داج من العزلة ، ثم يطوى كل شيء في عالم النسيان بمجرد ان يحرزوا فيها النصر او يمنوا بالهزيمة . ولم يسلط اي ضوء على الاحداث باثيوبيا الا عندما ظهر ثيودور ، فمع ثيودور اذن يبتدىء تاريخ اثيوبيا الحديث .

لقد ادعى ثيودور انه من سلالة ملكية تنحدر من سليمان والاسكندر الاكبر ، ولكنه في الواقع لم يكن شيئا من هذا القبيل ، فقد كان من صغار زعماء الاقاليم ، ولم تكن له اية صلة بالعائلة المالكة وقد نصب ثيودور نفسه بنفسه ـ اذا جاز مثل هذا التعبير ـ ثم انه لم يخلفه احد من ذريته الى الحكم . لقد ولد في سنة ١٨١٨ بمركز كوارا ، الواقعة على الحدود بالقرب من منبع النيل الازرق ، وهو من مراكز اقليم الامهرا المسيحي . وكان اقليم الامهرا هذا محاطا بالمسلمين من جميع الجهات ـ بالاتراك والمصريين والعرب في سهول السودان ، وبقبائل القالا في اواسط اثيوبيا نفسها ـ وقد شب ثيودور وهو لا يعلم شيئا في العالم الا عداوته للاسلام . صحيح انه عادى الكثيرين من غير المسلمين ، وقتل الكثيرين من اخوانه المسيحيين عن عمد واصرار ، ولكنه اساسا كان يعتبر نفسه قائدا لحملة صليبية ضد المسلمين . واذا اردنا ان نفهمه فهما صحيحا فيجب ان لا ننسى هذا الجانب المهم من اخلاقه . والظاهر انه عرف منذ البداية بانه رجل غير اعتيادي ، وانه يتمتع بكل مميزات القيادة . لقد كان اسود اللون ، جميل الطلعة ، عالي الجبين ، ممشوق القوام ، قوي البنية ، عليه مسحة من الهيبة والوقار . وقد تلقى تعليمه في احد الاديرة ، ولكنه سرعان ما ترك الكهنوت وانخرط في سلك الجندية ولم يمض وقت طويل الا واشتهر اسمه في حروبهم القبلية ، التي لا رحمة فيها ولا هوادة .

وعندما حلت سنة ١٨٥٣ ، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، كان قد قهر جميع منافسيه من الزعماء الذين حول بحيرة تانا ، واخضع مقاطعة الامهرا ، ثم اتجه بجيشه الصغير نحو المناطق المجاورة ، فأخضع قبائل التقري وقوجام وشوا . وبحلول سنة ١٨٥٥ كان قد قتل او اسر معظم الاسر المالكة في هذه المناطق . وكان الاتراك لا يزالون يهددونه في سواحل البحر الاحمر ومن السودان ولكنه في الحبشة نفسها ، كان

هذا «القديس جورج»[1] الجديد منتصرا على طول الخط ، فسقطت في يده غندار وقلعة مجدلا المنيعة . ومع ذلك فقد كان يفضل التجوال في البوادي والارياف ، ويقيم دائما في معسكر من الخيام ، يحيط به جيشه وبلاطه . ثم اعلن نفسه امبراطورا على اثيوبيا باسم «ثيودور الثالث» ، فلم ينازعه احد في ذلك الوقت . ورأت بريطانيا ان تنتدب قنصلا ليبرم معه معاهدة ، فأرسلت «والتر ج. بلاودن» ليقوم بهذه المهمة .

وعندما عين بلاودن لهذا المنصب ، كان قد قضى عدة سنوات بأثيوبيا مقربا من ثيودور ، كما كان صديقه المهندس «بل» يشغل وظيفة في البلاط الاثيوبي ، قريبة من وظيفة رئيس الديوان كما كان كاتما لاسرار البلاط . وكان بأثيوبيا عدد من الارساليات ــ كلها من اصل الماني ولكنها تحت رعاية المنظمات الدينية الانجليزية وعليه فقد كانت تسير الامور ، حتى سنة ١٨٥٠ ، حسب ما تقتضيه السياسة البريطانية ، من اقامة صداقات على طول البحر الاحمر . ولكن في سنة ١٨٦٠ ، حدثت مأساة مفاجئة اعاقت سير الامور الطبيعي ، فقد قتل «بلاودن» بالقرب من غندار وهو في جولة حول البلاد . فما كان من ثيودور الا ان زحف نحو الجناة ومعه بل ، وكمشاطرة منه في العزاء في صديقه القتيل، قتّل ومثل بما لا يقل عن الالفي شخص من الأثيوبيين ، وهو عمل في

---

١ ــ St. George ويسمى عند المسيحيين الشرقيين «مار جرجس» . ويقال انه كان من امراء «القبادوق» ، استشهد على ايام الامبراطور «دوقلينيانوس» سنة ٣٠٣ ميلادية واوصافه تنطبق على اوصاف سيدنا الخضر الذي رفعه القرآن فوق مصاف الانبياء باعتباره الدليل المرشد لسيدنا موسى عليه السلام . ولكن ليس من المعقول ان يكون الخضر هو نفس «مار جرجس» ، لان الاول كان في ايام سيدنا موسى ، اي قبل المسيح بينما عاش الثاني بعد المسيح بما يقرب من الثلاثة قرون .

المترجم

منتهى الوحشية حتى بالنسبة لاثيوبيا نفسها . واثناء المعركة هب «بل» لمساعدة ثيودور فلقي حتفه .

فأصبح من الضروري للحكومة البريطانية ان تنتدب شخصا آخر ليمثلها في بلاط الامبراطور ، فاختارت الكابتن «شارلي دنكان كميرون»، من القيادة الهندية . ولا يستطيع الانسان ان يقرر رأيا قاطعا عن شخصية كميرون هذا ، فرغم انه قد اصبح فيما بعد سبب الحملة البريطانية على الحبشة ، ورغم ان ما قاساه قد أثار عطف العالم المتمدين بأسره ، رغم هذا وذاك فهو لا يبرز كشخصية واضحة المعالم خارج نطاق وظيفته كقنصل لدى البلاط الامبراطوري ، واذا افترضنا انه كان رجلا كفأ ، الا انه لا يخامرنا ادنى شك في انه لم يكن بعيد النظر . ومعظم ما دون عن هذه الحقبة من الزمن ، لا تشير اليه بأكثر من «القنصل كميرون» ، ثم تتركه هكذا ، كمّاً مهملا ، وصورة بلا وجه ودون معالم . واني اعتقد انه لو قدر لبلاودن ان يعيش ، لتصرف تصرفا مغايرا لتصرف كميرون ، ولجارى ثيودور في شيء من الحصافة دون ادنى شك . ولكن ثيودور نفسه كان قد بدأ يتغير تغيرا واضحا في هذا الوقت ، فزوجته الاولى «تفافيش» كانت قد ماتت حديثا ، والظاهر انها كانت قوة مسيطرة على كبح جماحه . وبعد وفاتها تزوج مرة اخرى من كريمة احد الزعماء، ولكن زوجته الثانية كانت فتاة صغيرة في الثاني عشر من عمرها، تدعى «طرو ورك» يبدو انها لم ترق كثيرا في نظر ثيودور ، فأخذ ينتهج نهجا جديدا من الاباحية . فكان يستولي على أي امرأة تروقه ، سواء كانت متزوجة او غير متزوجة ، ويقضي معها ليلة او ليلتين ، ثم يتركها ليستولي على غيرها . كما انه ، بعد ان كان رجلا معتدلا في شربه اخذ يستسلم للشرب ويفرط فيه ، احيانا لدرجة بعيدة . ومن المؤكد ان مثل هذه الظروف لم تكن انسب وقت ليصل فيه قنصل جديد لاثيوبيا .

وعلى أي حال فقد استقبل كميرون في البداية استقبالا حارا في

جو مفعم بالصداقة ، فقد وصل الى غندار في سنة ١٨٦٢ ، وقدم الى ثيودور زوجا من الغدارات على مقبض كل منهما حلية من الفضة نقشت عليها العبارة التالية «مهداة الى ثيودور امبراطور اثيوبيا ، من فكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وايرلندة ، اعترافا بما قدمه من جميل لخادمها بلاودن سنة ١٨٦١ » . ولم يعرف احد ان كان ثيودور قد اعتبـر هذا بمثابة تقدير كريم للمذبحة التي قام بها منذ زمن وجيز ام لا . ولكن من المؤكد انه اعجب غاية الاعجاب بالهدية . وقد شجعت الحفاوة التي استقبل بها كميرون على ان يقترح على ثيودور ارسال وفد لانجلترا لابرام معاهدة صداقة جديدة مع الملكة فكتوريا . ومـن المحتمل ان كميرون لم يكن يرمي الى اكثر من تبادل المجاملات الرسمية . غير ان ثيودور قد اعطى الفكرة اكثر مما تستحقه من اهتمام وجدية ـ شأنه شأن أي زعيم افريقي تافه يريد ان يثبت وجوده في العالم الخارجي ـ وعليه فقد حرر خطابا للملكة ، وامر كميرون ان يرفعه اليها ، ظانا ان كميرون سيحمله اليها شخصيا . وبما ان هذا الخطاب المشئوم كان السبب في كل ما تلاه من سوء تفاهم ومآسي فمن الحدير بنـا ان نورد ترجمته الكامـلة .

«باسم الاب والابن والروح القدس ، اله واحد في ثلاثة اقانيم .»

« من مبعوث العناية الالهيـة ملك الملوك وامبراطور اثيوبيا ، الى صاحبة الجلالة فكتوريا ـ ملكة انجلترا » .

«اتمنى ان تكوني يا صاحبة الجلالة بصحة جيدة . اما انا فبارادة الله على احسن حال .»

«ان آبائي الاباطرة قـد نسوا خالقهم ، فسلبهم ملكهم ووهبه للقالا والاتراك ، الا أنه قد أوجدني ورفعني من التراب ، وأعاد لي هذه الامبراطورية لاحكمها . وقد أنعم عليّ بقوة من عنده مكنتني من ان

استعيد تراث آبائي ، فاستطعت بفضل هذه القوة ، من طرد القالا . أما الاتراك فقد طلبت منهم ان يتركوا ارض آبائي واجدادي فرفضوا الانصياع الى ذلك وأنا الآن على وشك ان ادخل معهم في عراك .

«لقد كنت اسمع من المستر بلاودن،ومن كبير امنائي ــ البريطاني ــ المستر (بل) ، ان هناك ملكة مسيحية عظيمة تحب جميع المسيحيين . وعندما قالا لي اننا على استعداد لان نعرفك بها ، ونقيم صداقة بينكما ، سررت غاية السرور ومنحتهم محبتي ، ظانا انني قد كسبت بذلك ثقتهم الطيبة .

« ان كل من على هذه الارض الى الفناء ، وان اعدائي عندما قتلوا هذين الصديقين انما كانوا يرمون من وراء ذلك الى ضرري وايذائي . ولكني قد تمكنت بعونه تعالى ، من ابادة اولئك الاعداء ، ولم اترك منهم احدا رغم انهم من اهلي وعشيرتي، مؤملا من وراء ذلك ان اكتسب ــ بعناية الله ــ ودك وصداقتك . لقد حال الاتراك الذين يحتلون الساحل دون ان اتصل بكم ، عندما كنت في شيء من الضيق ، اما الآن وقد وصلني قنصلكم كميرون ، ومعه خطاب وهدايا تعبر عن صداقتكم لنا ، فقد غمرني الفرح ، بفضله تعالى ، عندما علمت ما أنتم فيه من نعمة ، وبعد ان وصلني ما يؤكد نواياكم الطيبة نحونا ، فقد تسلمت هداياكم شاكرا حسن نواياكم .

«واني اخشى ، ان أنا أرسلت سفراء بهدايا مع القنصل كميرون ، تأكيدا لمودتنا ــ أخشى أن يقبض عليهم الاتراك ، فأرجو ان تمهدوا لهم الطريق ، في جميع مراحله ، ليصلوا سالمين ، كما ارجو ان يصلني رد على خطابي هذا مع القنصل كميرون ، الذي اتمنى ان يتمكن من ان يقود سفارتي المقبلة لانجلترا . انظري كيف يضطهد الاسلام المسيحيين» .

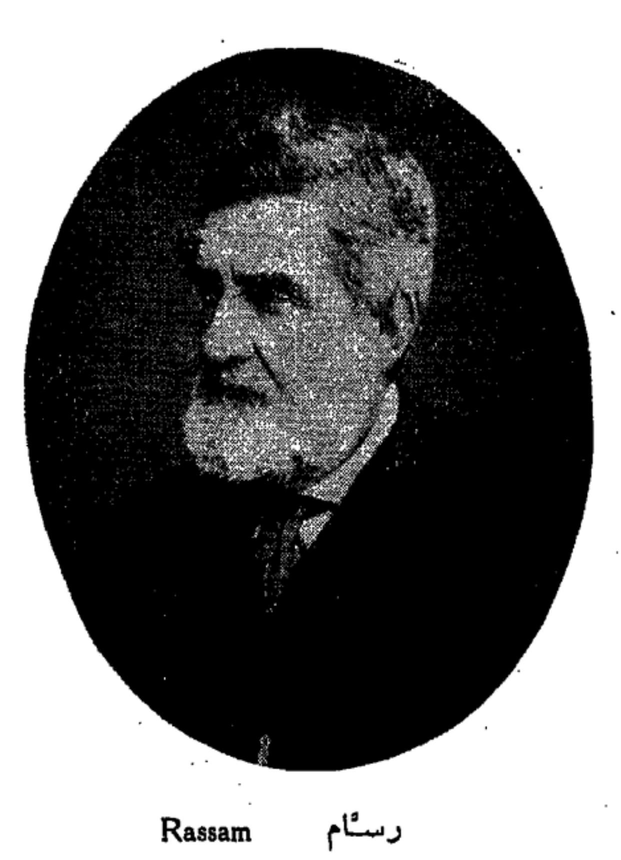
ولقد وجد هذا الخطاب طريقه الى لندن ، وكان من اللائق ، في

الظروف الاعتيادية ، ان يرسل رد لبق لثيودور ، لا يعطي وعـدا او ارتباطا بأي شيء . ولكن في هذه الحالة بالذات ، قد اهمل هذا الخطاب في وزارة الخارجية ولم يجد من يهتم بأرسال رد عليه ، وكل ما وجده كان بسمة ساخرة من المسئولين . وكان في هذا اهانة بالغة لرجـل في حساسية ثيودور . ثم استمرت وزارة الخارجية في الامعان في تجريح الرجل ، بأن أمرت كميرون بالذهاب الى كسلا ليبحث في عدة مسائل من ضمنها مستقبل زراعة القطن في السودان (فقد ارتفعت اسعاره الى اربعة امثالها منذ قيام الحرب الاهلية الامريكية وتوقف وارده مـن الولايات المتحدة) وليبحث كذلك الموقف فيما يختص بتجارة الرقيق .

وكان السودان المسلم هو العدو اللدود لثيودور ، فقد رأينا من اتصالات بيكر بالخرطوم ، ان الاتراك كانوا يستعدون في هذا الوقت لغزو أثيوبيـا ، ولذلك لم يكـن في استطاعة اي شخص أن يقوم بزيارة لنسودان دون ان يتهم بالخيانة . الا أن كميرون لم يهتم لشيء من هذا ، وذهب الى حيـث أمر دون أن يكون لثيودور علم بحقيقة وجهته ، الا بعد مضي عدة اشهر . فقد كان يعتقد انه قد ذهب الى الساحل في طريقه لانجلترا ، وعندما علم بحقيقة الامر استشاط غضبا ثم انقلب غضبه الى حقد مريـر . ولا يستطيع الانسان الا أن يعطف عليه بعض الشيء ، فما هي مهمـة هذا الرجل الانجليزي ؟ وماذا يقصد بالذهاب لمعسكـر اعدائه بعد أن قدم له كل آيات الصداقة والاحترام ؟ ثم لماذا لم يصل أي رد على خطابه ؟. لقد وجد الاجابة على ذلك . فلا بد اذن أن انجلترا تخطط لغزو الحبشة مـن السودان . لقد نشأ ثيودور في عالم عـرف بالغدر والانتقام السريع ، فكان مـن الطبيعي أن ينقض على الارساليات الغربية بغندار ـ وهم نفس المبشريـن الذيـن قابلهم بيـكر عرضا بالمنمة في سنة ١٨٦٢ ـ نعم مـن الطبيعي أن ينقض عليهم ويكبلهـم بالحديـد ، ثم يحفظهم كرهائن . وعندما عاد كميرون مـن مهمتـه في

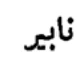
يناير سنة ١٨٦٤ ، وهو خالي البال عما حدث من بعده القي به هـــو ايضا في غياهب السجن . ولم يجدِ الاعتذار او شرح الاسباب ، بعد ان تحركت كل أحقاد ثيودور الوحشيةَ وبعد ان استفز كبرياؤه الجنوني . وفي ثورة مــن ثورات غضبه امر بتعذيب كميرون . ثم تطورت الامور مــن سيء الى أسوأ عندما وصل شاب ايرلندي يدعى « كيرانز » ليعمل كمساعد لكميرون ، فرغم انه كان يحمل العديد مــن الرسائـــل مــن وزارة الخارجية الا انه لم يكــن مــن بينها أي رد على خطاب ثيودور، فوضع كغيره في الاغلال . ووصلت الاخبار الى عدن في ابريـل سنة ١٨٦٤ ، وكان المندوب البريطاني بها رجلا حصيفا وهميمــا ، يدعـــى الكولونيــل « ميروزر Mereweather » ،فاتصل مباشرة بلنـــدن وطلب منها ارسال الرد فورا على خطاب ثيودور الذي مضت عليه سنتان دون ان يهتم به أحد . وفي نفس الوقت قامت جريدة التايمز بنشر رسالة كان كميرون قد هربها مــن سجنه بغندار ، يقول فيها ان لا أمـــل في اطلاق سراحه ، ما لم يرسل الرد على خطاب صاحب الجلالة الامبراطور ، وبذلك حثت الحكومة البريطانية على اتخاذ اجراء مستعجل .

لقد اصبح الموقف معقدا ، فالأسرى الآن في قبضة زعيم نصف متحضر ، يقبع في اواسط أثيوبيــا بعيدا مــن أن تطوله يد بريطانيــا ، أو يصل اليــه نفوذها . ثم ان أي خطاب فيه شيء مــن التهديد ، قــد يكون له أسوأ الأثر ، ويؤدي الى مضاعفة تعذيب الاسرى أو قتلهم . وعليــه فقد حرر خطاب بمنتهى العناية ، روعي فيــه أن يكون رقيقــا ومهدئا لثيودور الى ابعد الحدود ، وعنون الى : « صــديقنا الرجـــل الطيب ثيودور ، ملك الحبشة » ، ووقعت عليــه الملكة في « بالمورال » في السادس والعشريــن مــن مايو سنة ١٨٦٤ ، ثم مهر بالختم الملكي . وبدأ الخطاب بشكــر ثيودور على تمنياته الطيبة ثم تهنئة الملكة لـــه باستتباب حكمه في أثيوبيا ، فوعد باستعداد انجلتــرا لاستقبال أي



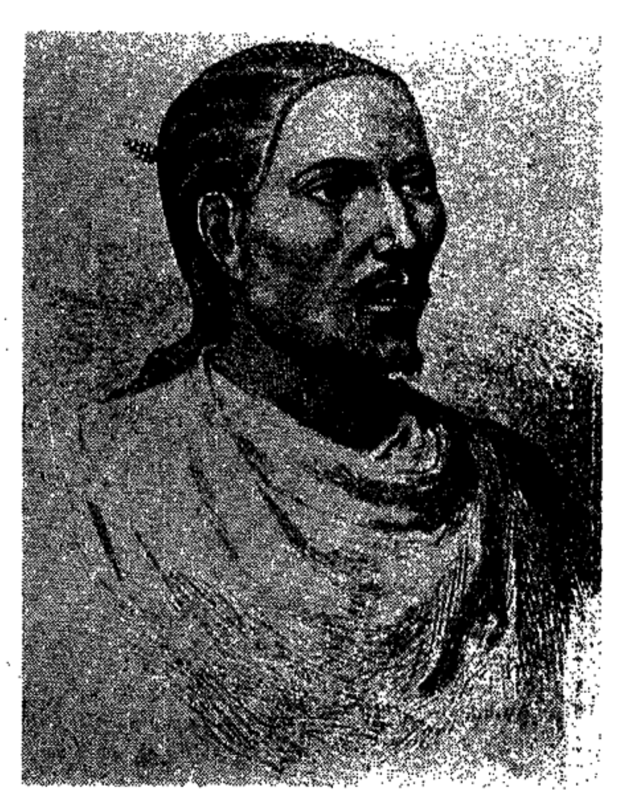
Rassam رسّام



Napier  نابير



Merewther ميروذر



Kassai كسّاي

مبعوثين من أثيوبيا . اما جوهر الخطاب فقد تركز في اطلاق سراح كميرون وجرى على النحو التالي : —

« لقد وصلتنا أخيرا بعض التقارير بأن جلالتكم قد استرددتم ما طوقتم به خادمنا كميرون من فضل . ونحن على ثقة من أن تلك الاخبار ما هي الا تصوير كاذب من جهات تنطوي على سوء النية نحو جلالتكم ، تريد أن تفسد ما نكنه لكم من شعور طيب . ولا يمكن ان تقدموا ،يا صاحب الجلالة ، دليلا على صدق شعوركم نحونا وحرصكم على توثيق ودوام اواصر الصداقة والمودة بيننا ، اكبر من أن تسرحوا خادمنا كميرون من بلاط جلالتكم ، وان تمنحوه هو وكل من أراد ذلك من بقية الاوروبيين ، المساعدة والحماية اللازمتين ليرحلوا الى أي جهة يريدون الوصول اليها » .

وكان اختيار البعثة التي عهد اليها بحمل هذه الرسالة غريبا بعض الشيء ، اذ أن « هرمز رسام » لم يكن انكليزيا بالميلاد ، بل كان من اصل عراقي ، ولد بالموصل من والدين مسيحيين ، والتحق عندما كان شابا ، بخدمة « لايارد Layard » عالم الجغرافيا بآسيا الصغرى . وكان قد تعلم بجامعة أكسفورد ، ثم تجنس بالجنسية البريطانية . وقبل اختياره لهذه البعثة بقليل ، كان قد التحق بوظيفة في مكتب « ميروذر » بعدن . اما على أي أساس كان قد تم اختيار رسام لرئاسة هذه البعثة ، فليس واضحا تماما ، الأنهم في انجلترا ، كانوا يعتقدون أن أحد دهاة الشرقيين هو خير من يفاوض ثيودور؟ أم لعله اختير فقط لانه كان موجودا في المنطقة ولأنه كان يحظى بتأييد ميروذر ؟ وعلى أي حال فقد أشير على هذا العميل الشاذ أن يفاوض ثيودور نيابة عن الحكومة البريطانية . وسرعان ما برهن على أنه رجل في منتهى الكفاءة ، فقد كان مرنا ، مثابرا ولا تنقصه الشجاعة . وعين له مساعدان ليرافقاه في رحلته الطويلة المحفوفة بالمخاطر . وكان اول من عين من هذين

المساعديـــن ، طبيـــب يدعى « هنري بلانك » ، ثم أضيف لهما (رسام وبلانك) ضابط مـــن حامية بومباي ، يدعى الملازم « بريدو » .

وفي يوليو سنة ١٨٦٤ أبحر رسام ورفيقاه الى مصوع علـــى احد زوارق المدفعيـــة البريطانية . وكانت مصوع آن ذاك مـــن الممتلكـــات المصريـــة ، وهي الطريق المألوف لأثيوبيـــا . وحتى في مصوع كانـــت لثيودور سمعة رهيبة للدرجة التي كان الكثيرون مـــن الاهالي يعتقدون معها ، انه يسمع كل ما يقال عنه وهو على بعد مئات الاميال . ولذلـــك فقد حذر رسام بان لا يحاول الدخول لاثيوبيـــا دون ان يتحصل على اذن مـــن الامبراطور ، فكتب خطابا الى ثيودور ، يخبره فيه بأنه يحمل رسالة مـــن الملكة فكتوريا ، وطلب منه ، في عبارات غاية في اللباقة ، ان يأذن له برفعها اليه . وبعد جهد شديد وجد مـــن يقبل أن يحمل هـــــذا الخطاب للامبراطور ، وأرسل معه خطابا آخر ومبلغا من المال لكميرون . ثم استقر رسام بمصوع في انتظار الرد . الا أن انتظاره كان طويلا جدا، فمضى باقي العام وهو في ميناء مصوع ، وسط رائحتها النتنة واوبئتها الفتـــاكة ، ولكنه ، لم يستلم أي رد مـــن داخل أثيوبيا . وفي أوائـــل سنة ١٨٦٥ اخذت بعض الرسائل مـــن الأسرى باثيوبيـــا تجـــد طريقها اليـــه ، فكتب له كميرون يقول ان نحو عشريـــن أو ثلاثين رجلا مـــــن الاوروبيين وعوائلهم ، قد وضعوا تحت الحراسة ، الا أن بعضهـــــم ، كالمبشرين المستـــر فلاد وزوجته ، هم الآن في الميدان مـــع ثـــيـــودور بالقرب من بحيرة تانا ، يتمتعون ـــ نسبيا ـــ بشيء من الحرية. بينما وضع البعض الآخـــر في الاغلال داخل حصن مجدلا،ومن بينهمهو شخصيا والمبشران روزنثال وستيرن . ثم أضاف أنهم مكبلون بطريقة لا يمكنهم معها الوقوف منتصبين . وكان رسام قد ارسل خطابا آخر الى ثيودور في أكتوبر من نفس السنة دون أن يصله رد ، وبعد قليل عززهما بثالث ، فأهمـــله ثيودور كسابقيه . وهنا اقترح عليـــه كميرون ـــ وقد اصبـــح

الآن يراسل رساما وغيره باستمرار ـ أن يحاول لهجة أشد في مخاطبته لثيودور ، ثم أضاف : « ولكني استحلفك بالله أن لا تحضر الى هذا المكان ، لأنه من المؤكد أن يلقي بك ثيودور في غياهب السجن ، فهو يعتقد اننا ما دمنا تحت قبضته ، فهو في مأمن من أي غزو . ومن البديهي انه لو أضيف الينا شخص في مثل مكانتك ، لشعر ثيودور بأنه في موقف أحسن » .

وأخيرا ، في أغسطس سنة ١٨٦٥ ، وبعد أن مكث رسام في مصوع أكثر من سنة ، وصلت الاخبار بأن كميرون قد أزيلت عنه القيود . وتلا ذلك خطاب من ثيودور نفسه ، كان معظم ما جاء فيه تبريرا لموقفه وهجوما عنيفا على القنصل البريطاني . الا أن الفقرة الأخيرة كان فيها بارقة من الامل ، فقد جاء فيها : « وليكن معلوما لدى هورموز رسام أن هناك قلاقل بمنطقة التقرى ، فأرجو أن تحضر ـ بارادة الله ـ عن طريق المتمة . وعندما تصل الى المتمة ابعث الي برسول لأوفد اليك ـ بمشيئة الله ـ من يستقبلك بها » .

الا أنه لم يكن من الممكن تنفيذ هذا الاقتراح ، فالمتمة تقع جنوب كسلا ، على بعد مئات الاميال داخل الحدود السودانية ، وكان موسم الأمطار قد ابتدأ فعلا ، وانتشرت الاوبئة ، وأصبح السفر عن طريقها من المستحيلات . فرأى رسام ان يستمر في لهجته المهذبة في مخاطبة ثيودور كما فعل من قبل فأجابه قائلا : « مولاي الملك المعظم : ارجو أن أخبر جلالتكم بأنه نسبة لانتشار الاوبئة بكسلا والمناطق المحيطة بها ، فلن أجرأ على المخاطرة بالحضور اليك عن طريق المتمة في الوقت الحاضر » . ثم رأى أن يذهب الى القاهرة ويبقى بها حتى نهاية فصل الامطار في أكتوبر .

وكان غرضه من الذهاب للقاهرة ينطوي على شيئين : ليتحصل على تعليمات جديدة من لندن عن طريق التلغراف ،

اولا ، ثم ليبتاع هدايا مناسبة يحملها معه لثيودور ، ثانيا . أما الهدايا فقد كان من السهل الحصول عليها من أسواق القاهرة ، وكانت كلها من المصنوعات الاجنبية . وهي عبارة عن مجموعة من النجف والمرايا وغيرها من المصنوعات الزجاجية ، ثم صندوق من شراب الكيراسو « Curaço » ومجموعة كبيرة من الأمتعة الاعتيادية. وأما التعليمات التي وصلته فقد كانت صدمة عنيفة له ، فقد أخبر بأن شخصا آخر قد انتدب ليحل محله كمبعوث خاص للامبراطور. وهو أحد أفراد السلك الدبلوماسي ، ويدعى « جيفورد بالقريف » ، وكان فعلا قد وصل القاهرة في ذلك الوقت . فاصبح الموقف في حاجة الى عمل جاد في الخفاء (ومن المرجح أن ميروذر قد قام بهذه المهمة من عدن) . وأخيرا سويت المشكلة ، فعاد بالقريف الى لندن (وقد تنفس الصعداء) بينما حمل رسام امتعته وعاد الى مصوع .

ومن اول ما سمعه من أخبار بعد نزوله بمصوع ، أن كميرون ورفاقه قد ضوعفت قيودهم ، بخلاف ما سمعه سابقا من انها قد ازيلت عنهم تماما . ولم يضع رسام أي وقت بعد هذا ، ففي ١٦ أكتوبر ١٨٦٥ انطلق هو وزملاؤه من مصوع التي كانت موبوءة بالكليرا . وحملت الثريات وبقية الامتعة بطريقة مأمونة على ظهور الجمال . وكان عليهم أن يقطعوا ستمائة وعشرين ميلا ، معظمها في مناطق لم تستكشف ولم تخطط جغرافيا من قبل . فساروا بمحاذاة الهضبة الاثيوبية في صحارى السودان حتى مدينة كسلا ، فوصلوها في وقت معقول ، لا يتجاوز الثلاثة اسابيع . وفي الحادي والعشرين من نوفمبر كانوا بالمتمة ، ولأول مرة تطأ اقدامهم أرضا أثيوبية . والمتمة تقع على الدرب المؤدي الى بحيرة تانا ، ولا تبعد عنها بأكثر من مائة ميل . فأسرع رسام بارسال من يخطر ثيودور بوصوله اليها ، وبعد اسبوع واحد وصلت مذكرة من كميرون يستعجل فيها رساما بالحضور ، ويضيف

قائلا : « ان الملك قد ارسل لكل منا بقرة قبل زمن وجيز ، وهي أول مرة يهتم فيها بأمرنا منذ ان تعرضنا للتعذيب . وقد تحدث عنا في شيء من الرقة في خطاب عام ألقاه أخيرا ، ولكنا لا زلنا مكبلين من أيدينا وارجلنا . »

ثم وصل خطاب من ثيودور ، يفيض رقة وشعورا طيبا ، ومعنونا الى حبيبه رسام (كما جاء في الخطاب) ، يخبره فيه بأن الحرس في طريقهم اليه . وفي الثامن والعشرين من ديسمبر توجه الوفد البريطاني نحو الجبال الاثيوبية الباردة المناخ ، وبالقرب من الشاطىء الغربي لبحيرة تانا التقوا بالحرس كما وعد ثيودور ، وكان حرسا ضخما يتكون من الف واربعمائة رجل .

والغريب أن ما كتبه رسام عن هذه الرحلة يكاد يكون تكرارا لما ذكره بروس من قبل . فأثيوبيا المسيحية السوداء لم يتغير فيها شيء ابدا ، فولائم اللحوم النيئة ، والحشود الخفيرة من رجال القبائل الذين يرفلون في ثيابهم البيضاء الفضفاضة ، والقرى التي دمرتها الحروب ، واشباح القسس الاقباط وهم خارجون من أكواخهم في قداسة الانبياء ، والموظفون لا يزالون كالاطفال في تصرفاتهم . ثم نفس الخوف المزري من الملك ، ونفس السكر والعربدة ، ونفس الزهور والعسل والسباع والجبال الممتدة في الآفاق الشاسعة . ونفس تعصب القرون الوسطى وقسوتها ، كل ذلك في محيط مدهش من المناظر الطبيعية التي لم يتغير منها شيء ابدا .

واستمروا في سيرهم لعدة ايام حول المنعطف الغربي لبحيرة تانا . وأخيرا في ٢٦ يناير سنة ١٨٦٦ وصلوا الى منبع أباي الصغير ــ وبعبارة أخرى النيل الأزرق الصغير ــ وهنا ، فوق احدى الهضاب المخضرة ، كان يعسكر ثيودور في مخيمه العظيم ، فها هو فسطاطه الابيض الكبير

يقف عاليـا وسط آلاف الخيام الصغيرة والقطاطي المؤقتة ، التـي اقيمت مـن الحطب والقش .

وهنا ارسل ثيودور تحيـة حارة لضيوفه ، وطلب منهم التقدم نحو المعسكر ، وقدمت لرسام بغلة ليدخل بها على رأس موكبه الرسمي . فما كان منه الا أن غيَّر ملابسه بسرعة ، وارتدى حلتـه الرسمية الزرقاء ، بينما ارتدى كل مـن بلانك وبريدو ، عباءات قرمزية اللون . وبعد ان تقدما قليلا قابلهما « عايتو صامويل » ، كبير امناء الامبراطـور ومعه حاشية من رجال البلاط ، فتضخم الحرس الى نحو العشرة آلاف رجل. وعندما وصلوا مقدمة الخيام ، أطلقت الأعيرة النارية (بطريقة مرتجلة) تحية لهم . فتأثر رسام غاية التأثر ، وكتب عـن ذلك فيما بعد يقـول : « وبعد أن تمرغنا في حياة تعسة امتدت الى ثمانية عشر شهرا ، ذقنا فيها الامريـن مـن جراء طقس موبوء ، بين قبائل وشعوب شبه متوحشـة ونحـن في محاولات يائسة للوصول الى اعجب رجل اهتز في يـده صولجان ... هـا نحن الآن على وشك ان نحظى بالمقابلة التي طالمـا تشوقنا اليها » .

واقيـم لهذه المناسبة فسطاط أحمر ، استقبلهم فيه ثيودور وهـو جالس على اريكة ، ووجهه مدثر بطرف معطفه الفضفاض ، بينمـا وقف رجال بلاطه في دائرة مـن حوله . وابتدأ رسام المراسيم بتقديم خطـاب فكتوريـا الشهير الذي مضى عليـه الآن نحوا مـن ثمانية عشر شهرا . غير ان ثيودور لم يقرأه في نفس الوقت ، وبدلا مـن ذلك دخل في لغـو طويل مما حول ما أثار حفيظته وأوغر صدره ــ وكان هناك مترجم ينقل كلامه مـن الامهرية للانجليزية ــ فأعلـن ان كميرون كان رجلا سـيء السلوك ، وان المبشريـن افتروا عليه الكذب وأنه محاط بالدسائس من جميـع الجهات ، حتى من اتباعه المقربين . ثـم أردف يقـول : ان الأثيوبيين شعب سيء الطوية ، أبدا على استعداد ليقفوا في وجه كـل

حكومة مصلحة ، ودائما على اهبة التمرد والعصيان « فاذا ذهبت الى الجنوب هبت ثورة في الشمال واذا ذهبت الى الغرب هبت ثورة في الشرق » ، وبدل ان يتفرغ للحكم ، وجد نفسه مضطرا ليشنها عليهم حربا شعواء . ثم هناك الاتراك ، فقد احتلوا سنار واحتلوا السودان الذي هو جزء من الحبشة ، وها هو (ثيودور) يستعد الآن لقتالهم ايضا .

واصغى رسام الى هذا التشهير دون ان ينبس بكلمة واحدة ، ثم انهى ثيودور المقابلة بأن كلف كبير امنائه بملازمة ضيوفه كدليل لهم ، ـ واخبرهم بأنه سيسهر على راحتهم ويجيب جميع مطالبهم . فانسحبت البعثة البريطانية للخيام التي اعدت لها داخل الحرم الملكي وعلى مسافة بسيطة من مكان الاستقبال .

وفي اليوم التالي تكررت المقابلة ، وأخبر رسام بان الاوامر قد صدرت الى حامية مجدلا باطلاق سراح الأسرى ، ثم سلمه ثيودور ردا على خطاب فكتوريا ، كان وثيقة غريبة في حد ذاتها وصف فيها نفسه بانه « أثيوبي جاهل » وطلب فيها العفو من الملكة ، قائلا : « ارجو ان تسدي الي النصح يا جلالة الملكة ولا تنحي علي باللائمة » . ولكنه لم يستطع أن يكف عن العودة لذكر همومه ومخاوفه ، واضطر رسام ان يستمع مرة ثانية الى ثورة اخرى على مشاكله الكثيرة . وانتهز رسام الفرصة المناسبة وقدم للملك ما احضره من ثريات ، فقوبلت برضى تام . ثم انتهت المقابلة الثانية .

وحتى هذه اللحظة كان كل شيء يسير على ما يرام ، ولكن سرعان ما اكتشف الوفد البريطاني أن الامور في أثيوبيا لا تسير بالسرعة المطلوبة ، فقد اعلن أن العاصمة ستنتقل الى مقاطعة «داموت» ، لأن ثيودور يريد أن ينكل ببعض قبائلها التي يتهمها بالتمرد . وكان على

رسام ومـــن معه أن يسيروا مع الحملة حتى بحيرة تانا ، ومنها يتوجهون الى قرية « كوراتا » على الشاطىء الجنوبي الشرقي للبحيرة ، وفـــيها ينتظرون وصول الأسرى من مجدلا .

وكانت المسيرة شيئا يدعو الى الدهشة والعجب، ففي كل يوم كانت تتحرك تسعون ألف نسمة مـــن رجال ونساء وأطفال ، بما معهم مـــن قطعـــان مـــن الغنم والماشيـــة ، فيزحفون كالطوفان فوق قمم الجـــبال وفي الوديـــان . وكان ثيودور دائما في المقدمـــة يبدي مقدرة فائقة في حفظ النظام بين هذه الطغمة العجيبة مـــن الغوغاء . أما المسير فكـــان يبتدىء عادة في السابعة مـــن صباح كل يوم ويستمرون مرحلة كاملـــة دون توقف ، وقد يمتد بهم السير احيانا الى مسافة ثلاثين ميلا في اليوم. واستمروا على هذا المنوال اسبوعا كاملا . وعند كل واد ضيق أو معبر وعر ، كان ثيودور يرجع الى المؤخرة ليراقب اتباعه وهم يجتازون المعبر ، وكثيرا ما كان يمـــد يده شخصيـــا لمساعدة الأطفال والمسنـــات مـــن النساء لاجتياز الممر . وعند كل مساء كانت تظهـــر مدينة جديـــدة في الوجود مكونة مـــن عشريـــن ألف مأوى ما بين خيمة وكوخ ، وفي كل يوم كانت تخرج الكتائب للاغارة على القرى المجاورة لسلب ما فيها من مـــؤن وقـــوت .

ومنحت البعثة البريطانية موضعا ممتازا عند مقدمة الموكب تكريما لها ، وكان ثيودور يبدي من الاهتمـــام برسام ما اخجل تواضعه . وفي نهاية احدى المراحل صادف ان نزلوا بالقرب من « أباي الصغير » فزلت قدم رسام وكاد أن يهوى في النهر لولا أن اسرع اليه ثيودور وانتشلـــه مـــن ذراعه ، قائلا له « تشجع ولا تخف » ثم ساعده على صعـــود حافة الضفة . وكانت تصله في كل يوم هدية مـــن الامبراطور ، فيوما يرسل له وعلا اصطاده ثيودور أو زوجا مـــن الطيور ، وفي ذات يوم ارســـل له بطارية مـــن الاسلحة النارية ، ومرة أخرى ارسل له خطابا يقول فيه

إن جميع مصاريف البعثة ستتحملها الخزينة الملكية طيلة اقامتها بأثيوبيا ــ وهكذا .

وفي السادس من فبراير وصلوا بالقرب من البحيرة . وهناك افترقوا ، فاتجه ثيودور نحو الجنوب ليواصل سلبه ونهبه ، بينما عبرت البعثة البريطانية الى الضفة الأخرى ، ومعها صامويل وحامية قوية لحراستها . وتم عبورهم للبحيرة على مجموعة من الارماث المصنوعة من الأعشاب وكان عبورهم عند ميناء « عدينا » . وبعد ان قضوا ليلتهم بجزيرة « داك » ، جدفوا ارماثهم عبر مخرج النيل الأزرق من بحيرة تانا . ووصلوا كوراتا في الرابع والعشرين من فبراير ، وهناك استقبلهم اعيان المدينة ــ بناء على أوامر صدرت لهم من ثيودور ــ فكان استقبالا رسميا حارا .ثم انتقلوا الى مجموعة من الأكواخ المبعثرة بالقرب من الشاطىء . وبعد ايام وصل خطاب من ثيودور يقول فيه: إنه أقام معسكره بمنطقة «زقتيه» بالقرب من أباي الصغير على الجانب الآخر من البحيرة ــ وكانت نيران المعسكر فعلا ظاهرة على ذلك الجانب ــ وأكد ثيودور في خطابه أن قوة قد ذهبت لاحضار الأسرى من مجدلا .وارسل مع الخطاب شبلي أسد كهدية لرسام.

هذا ــ وقد اكتملت الآن لدى رسام صورة فيها شيء من الوضوح عن طبيعة الرجال الذين أتى لانقاذهم . وكان عددهم نحو ثلاثين رجلا ، منهم الانجليزي والفرنسي والالماني والسويسري ، وكانت معهم زوجاتهم (اثنتان منهن من بنات «بل» من زوجته الأثيوبية) وأطفالهم البالغ عددهم ثلاثة وعشرون طفلا . وكانوا ينقسمون الى ثلاث مجموعات ، فهناك اولا سبعة من الفنيين الألمان الذين التحقوا بخدمة ثيودور باعتبارهم عمال مهرة . فهم في الواقع ليسوا من الأسرى ، بل كانوا ينتقلون كما شاءوا داخل معسكر الامبراطور . ثم كانت هناك مجموعة اخرى تتكون من المستر فلاد (المبشر) وزوجته

واطفالهما الثلاثة ، ومعهم أربعة من الألمـان الذين كانوا قـد نالوا عهدا مـن ثيودور بان لا يمسهم احد بسوء ، وكان هؤلاء يعيشون في مستعمرة خارج « دبرا تابور » . وأخيرا كانت هناك اشد هذه الفئات الثلاث كراهية لثيودور ، وهي تتكون من المستر كميرون وموظفيـه الاوروبيين الاربعة ، ومن المبشرين المستـر ستيرن والمستر روزنثال وزوجتيهما ، وكل هؤلاء الاخيرين كانوا بمجدلا ـ والظاهر ان قيودهم كانت قد ازيلت عنهم مؤخرا .

والمفروض في مثل هذه المجموعة من الاوروبيين ان تكون مترابطة ومتحدة في مثل ظروفهم العصيبة ، الا انه قد اتضح لرسام انهم أبعد ما يكونوا عن الوفاق والترابط . فقد كان بعضهم في شقـاق مستمـر وخصومات لا تنقطع ، حتى ان احد المغامريـن الفرنسيين من ذوي المواهب الفنية (وكان يدعى بارديل) ، كان متهما بافشاء اسرار اخوانه الاوروبيين للامبراطور . زد على ذلك انه لم يكن مـن الواضح لرسام انهم جميعا يرغبون في الخروج من أثيوبيا . اما المهنيون الألمان فقد كان واضحا عليهم التعلق الشديد بثيودور .

وعلى اي حال لم يكن امام رسام الا ان ينتظر ويزجـي فراغه في صيد فرس البحر ، وفي الاجابة على سيل الخطابات المنمقـة التي كانت تنهال عليه من ثيودور وهو في مقره بزقيه ، حاملة تحياته « لصديقـه المحبوب » والتي يعرب فيها عن تمنياته له بكل سعادة وهناء وصحـة طيبة ، وراجيا ان يكون كل ما يحتاج اليه متوفـرا وفي متناول يده . والحقيقة ان رساما كان بصحة طيبة ، ولكنه كان يغامره شعور بـأن الاحوال لم تكن طيبة ، وان ثيودور رجل غير مأمـون الجانب ، وان الموقف قد يتغير فجأة وبدون سابق انذار . فهذه المبالغة في الحفاوة وهذا الاهتمام الزائد لا يمكن ان يدوما طويلا .

وفي أواخر فبراير وصل المبشر « فلاد » من «دبرا تابور» فأيـد

لرسام مخاوفه ، وشدّد عليه في ان يكون في منتهى الحذر ، وان لا يثق في اي شيء ثقة عمياء ، الا ان كل شيء في الوقت الحاضر كان يدعــو للاطمئنان . وفي أوائل مارس وصل الصناع الى المعسكر البريطاني ، ثم لحقت بهم زوجاتهم ، وجميعهن من الأثيوبيات ، ما عــدا واحدة كانت فرنسية الجنس. ، وكان يبدو عليهم جميعا انهم يريدون الخروج مــن اثيوبيا . وفي العشرين من مارس حانت لحظـــة من اللحظات المؤثرة ، وذلك عندما وصل كميرون وهو شاحب اللون ، منهار القوى ، من اثر ما لاقاه من عناء ومشقة لعامين كاملين قضاهما في الاسر ، وهو يرسف في الاغلال . فها هو ذا يصل ومعه جميع من كانوا بمجدلا ، وبقية مــن كانوا مع فلاد بدبرا تابور ، وكان مجموعهم ١٨ شخصا . وحرص رسام ان يكون استقباله لكميرون فاترا ،لا يتعدى الشكليات ، لأنه كان عدو ثيودور اللدود ، وأي مظهر من مظاهر الابتهاج في استقباله قد يفسره ثيودور بأنه تنكر وجحود له . وهكذا تجمّع جميع الاوروبيين بقريــة كوراتا ، ولم يبق الا ان يأذن لهم ثيودور بالرحيل .

ولكن هذا الاذن لم يصل أبدا ، وبدلا من ذلــك وصلتهم رسالة تختلف كل الاختلاف في معناها ومغزاها ، فقد طلب ثيودور من رسام ان يجري تحقيقا مع كميرون وجماعته فيما بدر منهم من تصرفات خاطئة ، وان يفيده بنتيجة التحقيق . ثم سلمت الى رسام قائمة طويلة تحتــوي على تهم ملفقة من اساسها ضد الأسرى ، لتساعده في التحقيق . وكانت هذه اول بادرة لما يكمن من خطر بالطريق . فاستشار رسام من معه ، واتفقوا على انه من الحماقة ان يعارضوا ثيودور في هذا الوقت ، فقد كانوا على بعد مئات الاميال من المدنية ، ولم يكن لهم حول ولا قوة مع رجل يعتقدون انه به مسا من الجنون . فلربما كان ثيودور يرمي الى ان يجد له مبررا لما قام به نحوهم من قسوة قبل ان يخلي سبيلهم . اذن فليكن له ما أراد ، وكان هذا هو القرار الوحيد المعقول الذي يجب

اتخــاذه .

وتلا رسام الاتهامات علنا من مخيمه ، ثم راجع مستند أقــوال الشهود ، وأخيرا لفق خطابا رزينا الى ثيودور يقول فيه « ان الجميع قد اعترفوا بذنبهم وليس لهم الا ان يطلبوا العفو والمغفرة » .

وظنوا ان هذا الاعتراف هو كل ما يطلبه ثيودور ، وخصوصا عندما طلب من كل من رسام وبلانك وبريدو الحضور الى « زقّيه » لوداع الامبراطور . فبادروا بارتداء زيهم الرسمي وعبروا البحيرة الى زقّيه ، التي كانت في ذلك الوقت ــ وكما هي اليوم ــ عبارة عن أنف من الجبل تكسوه الغابات الكثيفة ، وهي مشهورة باشجار البن وبما يكثر فيهــا من الأصَل (وقد اهدى ثيودور اثنين منها الى رسام) . وكان المخيم الامبراطوري بعيدا عن الشاطىء ، فقوبل الوفد بكل مظاهر الترحاب ، ثم قابلهم ثيودور خارج فسطاطه ، وأخذ بيد رسام وقاده الى صالـــة الاستقبال حيث تجاذبا اطراف الحديث في بهجــة ومسرّة . واستعرض ثيودور في زهو الغدارتين اللتين احضرهما بلاودن مــن فكتوريا ، ومع ذلك فقد كان يسود الجو شيء من القلق . وفي اليوم التالي علم الوفــد البريطاني وهو في مخيمه ، ان ثيودور استدعى كبار رجاله ليستشيرهم ، ان كان من الصواب السماح للاسرى بمغادرة البلاد . والظاهر انه كان من رأي الزعماء ان يسمح لهم بالذهاب ، الا ان ثيودور كان مصرا على ان يحصل على شيء من الضمان بأنهم لن يكيدوا له بعــد ان يجتازوا الحدود . ثم اعيدت البعثة الى كوراتا دون ان يتخذ اي قرار .

ويلقي رسام فيما كتبه عن هذه المعاملة ، وعما بدر من ثيودور من مراوغة يلقي معظم التبعة على شارلس تيلستون بيك (Charles Tilstone Beke) وربما كان في دعواه هذه شيء من الحقيقة . وبيك هذا كان محاميا في لندن أوجد لنفسه سمعة بأنه خبير في شؤون اثيوبيا والنيل . وكان في الواقع ، قد سافر كثيرا في منطقة بحيرة تانا قبل عشرين سنة وكتب بحثا

معقولا جدا للجمعية الجغرافية الملكية ، يدعي فيه ــ وكان مصيبا فيما ادعاه ــ ان المنبع الحقيقي للنيل يقع عند نهاية النيل الابيض ، وليس عند نهاية النيل الازرق . فاصبح بيك ، كالكثيرين غيره من الناس بانجلترا ، سيء الظن بمقدرة رسام على انقاذ الأسرى ، فقد مضت سنة كاملة حتى الآن دون ان يفعل شيئا . فتطوع نيابة ، عن اقرباء الأسرى ، بأن يذهب بطريقة غير رسمية ليرى ما يمكنه عمله ، وكان يحمل معه العديد من الخطابات من زوجاتهم وأسرهم ، يستدرون بها عطف ثيودور ليخلي سبيل أزواجهم . وعند قيامه من انجلترا نصحه كل من القنصل البريطاني بالقاهرة ، وميروذر بعدن ، ان تدخله هذا قد يكون له تأثير عكسي في نجاح مهمة رسام ، وأنه من الافضل ان يتريث قليلا . غير أن بيك أصر على المضي في مهمته ، فأرسل ما معه من خطابات الى ثيودور ، وأردف قائلا بأنه قادم لأثيوبيا عن طريق « تقري » لمقابلة الامبراطور بنفسه . واستلم الامبراطور هذه الرسالة في زقيه ، ويعتقد رسام ان الامبراطور بمجرد أن قرأها ساورته الظنون واصبح في حيرة من امره . فمن هو الشخص الذي كان مفروضا عليه ان يتعامل معه ؟. أمع بيك ام مع رسام ؟. وما هو الغرض من مجيء هذا الشخص الجديد الذي دخل بدون اذن ، وعن طريق منطقة قد اعلنت العصيان ؟. فهل هنالك خطة بريطانية مبيتة للافراج عن الاسرى اولا ، ثم القيام بغزو للبلاد ؟.

وقضى عدة ايام اخرى وهو متردد ، يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، تارة يغمر رساما بالهدايا والوعود ، واحيانا اخرى يرسل الانذارات بأن على جميع الاسرى ان يستعدوا للحضور «لزقيه» ليطلبوا العفو منه باشخاصهم . واخيرا وفي أوائل ابريل قرر ان جميع الاسرى يمكنهم مغادرة البلاد عن طريق غندار ، وان على رسام وبلانك وبريدو ان يحضروا ليودعوه الوداع الأخير . وفي يوم الجمعة ، الثالث عشر من ابريل انطلق الفريقان ــ فاتجه كميرون ومن معه شمالا نحو الحدود ،

بينما عبر اعضاء البعثة الثلاثة ، بحيرة تانا مرة اخرى الى « زقيه » .

ولم يستقبل رسام على الشاطىء كما حدث في المرة السابقة ، زد على ذلك انهم علموا ان ثيودور قضى الثلاثة ايام الاخيرة وهو في سكر وعربدة . وطلب منهم ان يتوجهوا الى قاعة الاستقبال ، ولكنهم عندما دخلوها لم يجدوا اثرا لثيودور ، غير ان المكان كان مكتظا بكبار رجال البلاط . ويقول رسام : « وفجأة انقضّ علي ثلاثة رجال أقوياء ، أمسك اثنان منهم بذراعيّ ، بينما أمسك الثالث بذيل عباءتي . وعندما التفت الى الخلف وجدت ان رفيقيّ قد القي القبض عليهما وانهما يجدان شيئا من العنف والاستهزاء على ايدي بعض الجنود» .

واتضح لهم فيما بعد ان ثيودور كان يجلس على بضع خطوات من الباب – يستمع الى كل شيء ، بعد ان احيلت قاعة الاستقبال الى محكمة وقرئت عليهم التهم ، وهي تتلخص في ان رساما قد سمح للأسرى بالسفر دون ان يتحصل على العفو عنهم من الامبراطور ، وانه ارسل بعض الخطابات الى الساحل دون ان يتحصل على اذن بذلك . ومضت قائمة الاتهامات في مثل هذا الهراء وكل محاولة من رسام لتفنيد هذه الاتهامات او لشرح الظروف التي دعت الى ذلك ، لم تجد اذنا صاغية . وفجأة جاءت رسالة من ثيودور يعتذر فيها لرسام عما حدث ، ولكنه أضاف ملحوظة تنذر بالشر ، وهي ان كميرون ومن معه قد القي عليهم القبض بالطرف الآخر من البحيرة ، وانهم الآن في طريقهم الى « زقيه » . ثم قيّد رسام ورفيقيه ، واقتيدوا تحت الحراسة ليقضوا ليلتهم في احدى الخيام .

وفي الخامس عشر من ابريل أحضر كميرون ومن معه للمعسكر ، وفي اليوم التالي اقتيد جميع الاسرى للمحاكمة . وعقدت المحكمة في العراء تحت الشمس المحرقة ، وحضرها ألف شخص من الاثيوبيين .

فجلس الامبراطور على اريكة في الوسط . ثم احضر رسام ورفيقاه أولا، وأكرم رسام بأن أجلس الى جانب الامبراطور وأخذ يحادثه مدى ساعة كاملة ، يلاطفه ويؤكد له محبته وحسن نواياه . ثم احضر كميرون وجماعته وهم مقيدون بالسلاسل من سواعدهم ــ كل اثنين منهم سويا ، ومرة اخرى قرئت نفس الاتهامات السابقة ، ومرة اخرى انكرها الاسرى بتاتا ، ثم التفت ثيودور الى رسام قائلا : « أهذه هي صداقتك لي يا مستر رسام ؟. أتريد ان تتركني وتذهب بمن أساءوا الي؟» . وعند الظهيرة انفض الاجتماع دون ان يتخذ اي قرار .

وتكررت نفس المهزلة في اليوم التالي ، الا ان الاجراءات في هذه المرة بدأت بأن صاح ثيودور قائلا : « باسم المسيح ارجو معذرتي » ، فخر الجميع راكعين بالدعاء . ويظهر ان هذه البرهة اعادت الى ثيودور شيئا من صفاء ذهنه ، فقد أعلن اثرها أنه يجب ارسال المبشر فلاد فورا الى انجلترا. ثم استدعى احد الكتبة وأملى عليه ثيودور خطابا للملكة فكتوريا يقول فيه ، ان كميرون وبقية الاسرى سيطلق سراحهم ، الا ان رساما سيحجز هنا . وفي خطاب آخر طلب من الملكة ان ترسل له فرقة من العمال المهنيين ليساعدوه في تطوير اثيوبيا . ثم سلم الخطاب الى فلاد وأرسل تحت الحراسة عن طريق المتمة (ولكنه لم يسمح لزوجته بالذهاب معه) . اما رسام وبقية الاسرى فقد اخذوا الى اماكن سكنهم وهم يعلمون جيدا انه لن يطلق سراح احد منهم ، ما لم يعد فلاد ومعه الرد على خطاب ثيودور ــ هذا اذا ما قدر له ان يعود ابدا .

ورأى ثيودور الآن ان يمارس لعبة القط والفأر مع أسراه الى اقصى الحدود ، فتركهم يتنقلون كما شاءوا داخل المعسكر ، وأمطر رساما ورفيقيه بوابل آخر من الهدايا ، فمن سروج مطعمة بالذهب ، الى وسام خاص يحمل « الصليب وخاتم سليمان » ، الى قمصان من الحرير الخالص ــ وكلها ترمز الى رضاء الامبراطور . وكان الرابع

والعشرين من مايو هو عيد ميلاد فكتوريا ، وعندما علم ثيودور بذلك أمر باطلاق ٢٤ مدفعا كتحية لها ، ثم أقام وليمـــة ذبحت فيها الذبائح . وحرصا منه على ادخال مزيد من السرور الى نفـــوس ضيوفه ، كان يأخذهم معه في رحلات على اطراف البحيرة . وفي يوم من الايام اقام سبارزة بالجريد اشترك فيها هو شخصيا وأظهر فيها مهارة فائقة . وفي نفس الوقت شعر الاسرى ، في كثير من الألم ، مما كانوا يسمعونه من عويل وصياح لا ينقطع ليلا او نهارا ، ان هنـــاك مزيدا من ضحايـــاه الاثيوبيين الذين فقدوا ثقة الامبراطور ، يسامون العذاب حتى الموت ، بالجلد وغيره من طرق التعذيب الاخرى .

وفي بداية فصل الخريف ــ اي في يونيو ــ انتشر وباء الكوليرا في المعسكر ، وعندما بلغ عدد الموتى نحو المائة شخص في اليوم ، أمر ثيودور بالرحيل العام الى الطرف الجنوبي من البحيرة . وفي السابع من يونيو عبر الجيش بأسره النيل الازرق ــ عند نقطة تبعد من مخرجـــه بقليل ــ وحرصوا ان يكون الاسرى في وسط الجيش ــ ثم توجهوا نحو مقر رسام القديم ــ كوراتا ــ . ورغم ذلك فقد استمر الوباء فـــي الانتشار ، فانتقلوا شرقا ، الى ربوة حول « دبرا تابور » ، تبعـــد نحو ثلاثين ميلا من البحيرة الموبوءة . اما الأسرى فقد ارسلوا الى مكان يقال له « جَـفَـتَ » ، ونزلوا في اماكن اعدت لهم خصيصا على بعد ثلاثـــة اميال من القرية . وقد فرش ثيودور السجاد بنفسه فـــي منزل رسام ، ونصب عليه عرشه ليبدو كأنه مقر ملكي .

ورغم ان رساما كان في منتهى الحيرة والارتباك ، الا انه رأى ان يجاري ثيودور ، لكنه كان حريصا على ان لا يتفوه بكلمة الا بعد ان يزنها وزنا دقيقا . وعلى هذا الاساس استمر يمثل دور الكلب المدلل عند سيده ، يربّت عليه تارة ويركله تارة اخرى . غير انه لم يكن من المعقول ان تستمر الامور طويلا على هذا المنوال ، من التظاهر والتلاعب الشبيه

بالجنون ، ففجأة احضر الاسرى من «جَـفَـت» وزجوا في غرف مظلمة بدبرا تابور . ثم حضر ثيودور لزيارتهم عند منتصف الليل ، وكان يحمل مصباحا في احدى يديه وزجاجة بها مشروب في اليد الاخرى ليشرب منه نخب صداقتهم ، ثم خاطب رساما قائلا : « كنت اسمـــع ان الناس يرمونني بالجنون لتصرفاتي ، ولكني لم اصدق ذلك ابدا ، أما الآن وبعد ما حصل مني نحوك في هذا اليوم ، فقد تيقنت انني فعلا مجنون ، الا اننا كمسيحيين يجب ان نكون دائما متسامحين » .

وكانت هذه هي آخر مرة يتحدث فيها ثيودور الى رسام ، لمـــدة سنة وتسعة اشهر . فقد اختفى الامبراطور مع جيشه في متاهات الهضبة الاثيوبية ، ومضى يقتل ويعذب ويخرب اينما ذهب ، بينما ظل الاسرى تحت رحمة الامطار بدبرا تابور ، كبحارة تحطمت سفينتهم فاستسلموا لمصيرهم المظلم ، في انتظار نجدة تأتيهم من العالم الخارجي .

* * *

الفصل الخامس عشر

حمامة الجيش رقم واحد

« اتقوا شر الأحباش ما اتقوا شركم* »

وصل « فلاد » الى انجلترا في يوليو سنة ١٨٦٦ ، ولو خير في انتهاز فرصة غير مؤاتية لتبليغ رسالته ، لما اختار أسوأ من هذا الوقت بالذات ، لأن « الايرل أف ديربي » كان قد فرغ لتوه من تشكيل حكومة من المحافظين ، بسند ضئيل جدا من البرلمان ، كما ان ما أحدثه « قانون الاصلاح » من شغب وهياج ، كان الشغل الشاغل لتفكير كل انسان . ثم كانت هناك الحرب التي نشبت بين بروسيا والنمسا ، وما تبعها من تدهور مالي بمدينة لندن . وزاد الموقف سوءاً انتشار الطاعون البقري في جميع ارجاء انجلترا . فبالنسبة لهذه المشاكل الكبرى ، لم تكن مشكلة اثيوبيا ، الا موضوعا تافها لا يجب ان يؤبه له . والشيء الوحيد الذي كان مطمئنا لحزب المحافظين من هذه الناحية ، هو ان المعارضة لم تكن في موقف يسمح لها بمهاجمة الحكومة الجديدة ، لان حزب الاحرار كان هو المسؤول اولا عما حدث من تقصير في الرد على رسالة ثيودور ، وهو المسؤول ثانيا عن ارسال رسام فيما بعد . ولكن

---

* يقول المؤلف ان هذا حديث عن النبي محمد (صلعم) ولما كان الغربيون والمستشرقون ليسوا بالمصادر التي تنقل عنها الاحاديث فقد شككت فيه ، ورجعت الى بعض علمائنا الدينيين ولم اجد بينهم من يؤيده .
(المترجم)

كان لا بد من عمل شيء بأي حال من الاحوال ، فلو ان الامر كان يتعلق بكميرون وحده لكان من المحتمل ان يهمل امره في الوقت الحاضر ، ولكن ليس من المعقول ان يغضّ الطرف عن رسام ايضا . صحيح ان فلاد قد ذكر انه عند مغادرته لأثيوبيا ، كان الاسرى يلاقون معاملة حسنة ، الا انه بعد بضعة اسابيع من وصوله لانجلترا ، جاءت الاخبار بأن رساما قد سجن بدبرا تابور ، فأصبح من الواضح ان ثيودور قد قصد ان يحتفظ به كرهينة الى ان يجبر بالقوة ، او يستعطف في تذلل لاطلاق سراحه . اما القوة في الوقت الحاضر ، ومع كل هذه الأزمات المتوقعة بانجلترا ، فلم تكن بالاجراء المعقول ، ولذلك فقد كان ديربي (او بالاحرى ابنه استانلي الذي كان وزيرا للخارجية) — كان بطبيعة الحال يميل الى اللجوء الى الطرق الدبلوماسية .

فجندت الحكومة عددا من الصناع المهرة ، وصدرت التعليمات لفلاد بأن يذهب بهم لأثيوبيا ومعهم بعض الهدايا ، وخطاب من فكتوريا الى ثيودور — على ان يتأكد فلاد اولا ان ثيودور قد اطلق سراح الاسرى ، قبل ان تسلم له الهدايا او يرسل له الصناع . ومما يدعو الى العجب ان يكون هناك صناع مهرة مستعدين ان يضعوا أنفسهم بين فكّي الأسد . فمن هم يا ترى ، وما كنههم ؟. ولكن قد اتضح انه امكن الحصول عليهم بسهولة .

وفي الرابع من اكتوبر سنة ١٨٦٦ ، حررت فكتوريا خطابا ، جمع في صورة رائعة ، بين الاقناع والتوبيخ المهذّب الرصين ، فخاطبت ثيودور مرة اخرى بعبارة «صديقنا الكريم» واوضحت له انها استقبلت فلاد واستمعت الى ما حمله اليها من اخبار ، ثم اضافت قائلة : « ولا يخفى على جلالتكم اننا لم نستطع أن نوفق بين تأكيدكم لنا بالصداقة وسلامة الطوية ، وبين ما يعترض أتباعنا ومن معهم من الاوروبيين من مصاعب في مغادرتهم لبلادكم . غير اننا .... قد وافقنا على ان يلتحق

بخدمة جلالتكم بعض الصناع المهرة ، ممن تحتاجون الى خدماتهم بالحبشة ، وقد اتخذت كل الاجراءات اللازمة لتنفيذ قرارنا هذا . وكان فلاد على وشك ان يغادر انجلترا للالتحاق بجلالتكم ، عندما وصلتنا بعض الاخبار بأن جلالتكم قد استرجعتم ما كنتم تغمرون به خادمنا رساما من عطف وجميل ، وانكم أودعتموهم السجن ، هو وخادمنا كميرون وغيرهما من الاوروبيين . الا انه لم يصلنا اي ايضاح من جلالتكم عن هذا الاجراء الذي لا يتفق مع تأكيداتكم لنا بحسن مشاعركم التي سبق ان ابديتموها ، والتي كانت السبب في ان لا تتأخر لحظة في ارسال فلاد لكم مرة اخرى . وها نحن نرسل معه هذا الخطاب لجلالتكم ، ولا يخامرنا أدنى شك في انه بمجرد وصوله لكم ، ستوفون بوعدكم وتبرهنون على حسن نواياكم باطلاق سراح خادمنا رسام وخادمنا كميرون ومن معهما من الاوروبيين ، وفقا لما جاء في خطابكم بتاريخ ٢٩ يناير .

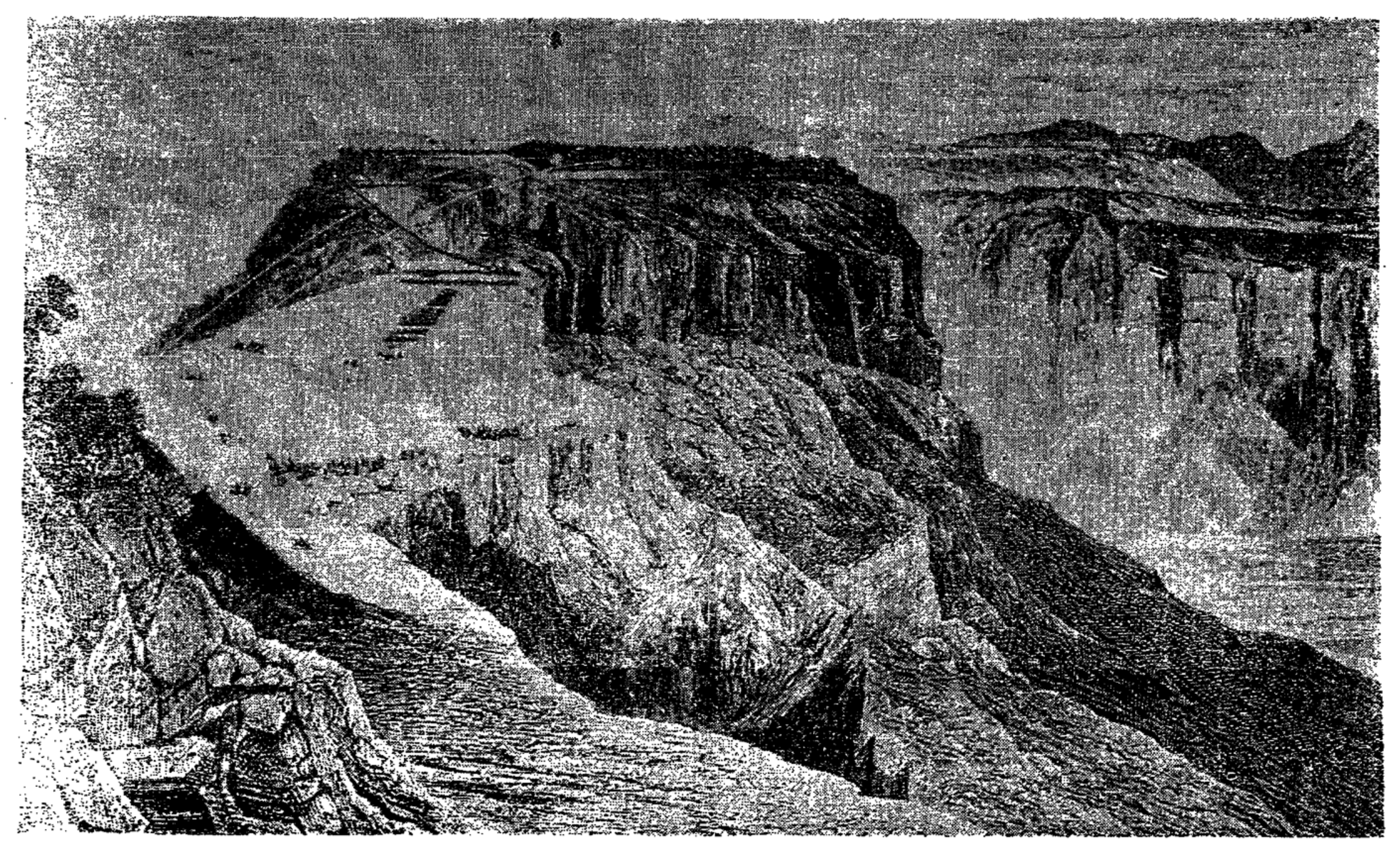
« ولا شك ان جلالتكم تدركون انه من واجب الملوك المقدس ، ان يوفوا بما تعهدوا به من التزامات بكل دقة ، فان اشخاص السفراء كخادمنا رسام ومن معه من حاشية ، يعتبرون في نظر جميع الدول التي تعتبر نفسها متمدينة ، اشخاصا لهم حصانة مقدسة دون استثناء . ولذلك فاننا نجد شيئا من الصعوبة في ان نفسر تردد جلالتكم في هذا الامر ونرجو ان تبرهنوا جلالتكم للعالم انكم تقدرون موقفكم بين الملوك حق قدره .... وازاء هذا الشك الذي لا يسعنا الا ان نشعر به نحو نواياكم ، فلم نستطع السماح لفلاد بأن يحمل معه ما اردنا ارساله لكم تأكيدا لصداقتنا ، بل اشرنا بأن ترسل هذه المهمات فورا الى مصوع لتسلم هناك لمن تنتدبونهم جلالتكم من ضباط لتوصيل خادمنا رسام وخادمنا كميرون ومن معهم من الاوروبيين لمصوع حتى يتمكنوا من الوصول الينا . وختاما لكم خالص تحياتنا القلبية » .

وهكذا قدمت الرشوة في لباقة وبين طياتها تلميح بالتهديد . فليرسل ثيودور أسراه الى الشاطىء ، وليستلم هداياه وما طلبه من صناع ، فليس من ضرر في ذلك .

وغادر فلاد انجلترا في اكتوبر سنة ١٨٦٦ ووصل اثيوبيا في ديسمبر ، فاستقبله ثيودور بمجرد وصوله ، وسرّ كثيرا بالخطاب ، ولكن لم تفت عليه اللعبة . ولذلك لم يرسل ردا على الخطاب بل كتب الى رسام في سجنه يقول : « كما سجد سليمان من قبل تحت قدمي حيرام ، كذلك سأسجد انا بين يدي الله ، وتحت أقدام الملكة وحكومتها وأصدقائها . فأرجو ان تعمل على احضار الصناع عن طريق المتمة ، ليعلموني الحكمة ويروني فنونهم الرائعة . وعندما يتم ذلك ستجد مني ما يسر له قلبك ، وسأطلق سراحك بمشيئة الله » .

فكتب رسام الى ستانلي خطابا يطلب فيه الموافقة على طلب ثيودور ، قائلا : « لأن يرفض طلب الملك معناه أن تعرض حياتنا جميعا للخطر » الا انه قبل ان يصل خطاب رسام انجلترا بمدة طويلة ، كان ستانلي قد قرر أن لا جدوى من الاستمرار في مساومة ثيودور في الوقت الحاضر ، واعيد العمال لانجلترا .

لقد كانت هذه المحنة من منغصات المسؤولية ، وكان السؤال الكبير الذي يواجه الحكومة البريطانية هو : ماذا يتخذ من اجراءات في هذه الحالة ؟ فبريطانيا لم تكن لها الرغبة في غزو الحبشة ، والتهديد كان من الاجراءات الخطرة ، بينما المفاوضة لم تجد نفعا ، فالحل الوحيد اذن هو ان يهمل الموضوع ويترك الموقف ليحل نفسه تلقائيا . وهذا هو ما اتجهت اليه فعلا سياسة الحكومة البريطانية أخيرا . ومضى ربيع سنة ١٨٦٧ ، وتلاه الصيف فذابت القضية الاثيوبية كالحلم المتكرر ـ ذابت بين احداث الساعة الأكثر أهمية . وعلى اي حال فان أثيوبيا بعيدة جدا فلتترك قضيتها في الوقت الحاضر .

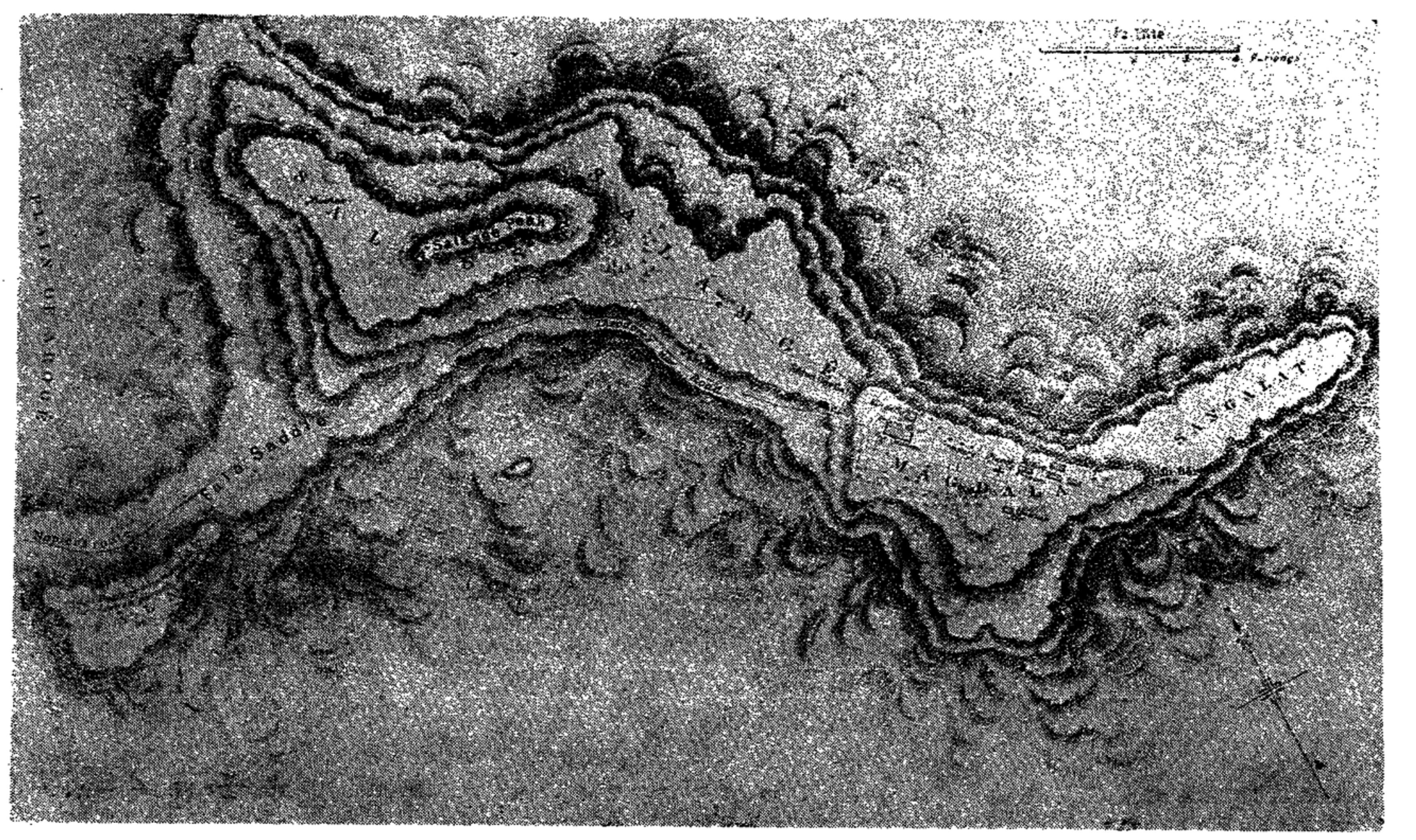


حصن مجدلا

واثناء ذلك كان ثيودور مطلق اليدين ليواصل ارهابـــه وتعذيبه للأسرى ، ففي أوائل يوليو سنة ١٨٦٦ ، نقلوا من دبرا تابور الى مجدلا التي تبعد نحو تسعين ميلا الى الشرق ، وكان نقلهم تحت حراسة مشددة تتكون من مائة رجل . وكان كميرون ورجاله قد امضوا سنتين في هذا المعتقل ، وها هم الآن يقاسون كل المتاعب ويجرون اذيالهم مرة اخرى الى سجنهم القديم ، على رأس تلك الصخرة العاتيـة ، حيث لاقـوا الامرّين من قبل . وما خفي كان اعظم ــ كما يقول المثل ــ فعنـــد وصولهم مجدلا ضربت القيود في ارجلهم مرة اخرى ، وقد شملت هذه المرة كلا من رسام وبلانك وبريدو . وكان في صحبتهم الى منفاهـــم رئيس الديوان صامويل ، وهكذا تبدد كل أمل في الهـرب . فمجدلا كانت حصنا طبيعيا منيعا ، تطل شامخة على نهر « الباشيللو » عنـــد انحداره نحو النيل الازرق في أواسط أثيوبيا . وهي في الاصل ركام لبركان ساكن ، تكوّنت منه هضبة من حجر الصوان ، يبلغ طولها نحو ثلاثة ارباع الميل ، وعرضها نحو نصف ميل ، بينما ترتفع نحو الف قدم عن السهل المحيط بها . ولا يوجد غير درب واحد يؤدي اليها عبر الجبال ذات الاخاديد السحيقة . وتعترض هذا الدرب بوابة ضخمة اقيمت عند مدخل الحصن . فلو فرضنا جدلا ان الأسرى قد تمكنوا من التخلص من قيودهم ، وانهم قد تمكنوا من الحصول على سلّم يهبطون به ، أو انهم حطموا البوابة عنوة ــ لو فرضنا ان كل ذلك قد حصل ، فكيف السبيل الى الهرب ، وهم على بعد مئات الاميال من اقرب بلـــد متحضر ؟. بل كيف يمكنهم الهرب وهم في قطر يرتعد خوفا من ثيودور ؟..... مـــن الجائز ان يتمكن شخص او شخصان من الهرب ــ فقد اعطيت الفرصة فعلا الى رسام ــ الا أن الباقين سيلاقون شر انتقام . وعلى اي حال لم يكن من المعقول ان تفكر مجموعة كبيرة كهذه ــ فيها الكثير من النساء والاطفال ــ ان تشق طريقها بنفسها وبـدون مساعـدة الـى خارج



مصوع
كسلا
زولا
ممر سورو
منطقة التجرة
سنافه
نهر ستيت
ادقرات
أكسوم
عنتالة
المتمة
بحيرة اشانجي
غندار
مقاطعة كوارة
ادنيا
مجدلا
غش
النيل الأزرق
مقاطعة قوجام
مقاطعة شوا
طريق الزحف لحملة نابير من زولا الى مجدلا
أميال
٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠
اديس أبابا



خارطة مجدلا

اثيوبيـــا .

ولذلك فقد انصرفوا عن كل تفكير في الهرب ، ووضعوا أنفسهم امام الامر الواقع ... ويقول رسام في شيء من القنوط ، انه لولا القيود التي يرسفون فيها لما شكا منهم احد من شيء . وكان اسوأ ما يقاسونه هو القلق الذهني الناتج عن التفكير فيما قد يحل بهم من تعذيب في اي لحظة من اللحظات ، او ما قد يلاقونه من نهاية شنعاء ، بان يلقى بهم من اعلا الجبل الى الهاوية السحيقة . وهو نوع من طرق الاعدام التي كان ثيودور مغرما بها في الماضي ، وقد يلجأ اليها مرة اخرى .

وعلى أي حال فقد كانت صحتهم حسنة وقـــد هيأت لهم اكواخ بالقرب من البوابة ، ورغم انها كانت مصنوعـة من القش وفـروع الاشجار ، ورغم ان المياه كانت تتسرب اليها في فصـل الخريف ، الا انها سرعان ما ادخلت عليها بعض التحسينات واحيلت الى مساكن مريحة. وزود كل كوخ بشيء من الكراسي والأسرّة وبمنضدة وهيىء في كل منها مكان للتدفئة وسط الكوخ . وكان الاسرى لا يزالون يحتفظـوا بخدمهم الاثيوبيين ، وبأمتعتهم ومؤنهم الاوروبية . كما كانت تغذيتهم جيدة ، فلم يكن من غير المألوف ان يتناولوا في وجبة العشاء شيئا من الحساء والسمك وصنفين او ثلاثة اصناف اخرى ، وشرائح مـن اللحم وفطائر من الحلوى ، وغيرها من اصناف الطعام . كما ان العرق ومشروب « التج » الذي يصنع محليا من العسل ، والقهوة كانت جميعها متوفرة . وكانوا يصنعون خبزهم بأنفسهم ، ويزرعون خضرواتهم من البذور التي كان يرسلها لهم ميروذر من الساحل . وكانت الخضروات على هـــذا الارتفاع الشاهق ، وفي هذا القرب من خط الاستواء ، تبلغ احجامـا خيالية ـ فالقطاني كان يبلغ ارتفاعه خمسة اقدام، والبطاطس كان يصل الى احجام مدهشة ، والطماطم كانت تنمو على مدار السنـة . وكانت حديقة رسام الفيحاء مرتعا للطيور الزاهية الالوان .

والمضايقة الوحيدة التي كان يعاني منها الاسرى ، هي عدم السماح لهم بمغادرة حظيرة سجنهم ، وفيما عدا ذلك لم يكن هنالك اي تشديد عليهم . فكان في امكانهم مثلا ان يتسلموا اية خطابات من الساحل ، وفي كل مساء كان يتقاطر عليهم تيار من المؤاسين ، معظمهم من نساء كبار الاثيوبيين ، كما كان مسموح لهم ان يتسلوا بلعب الورق (الوست) . وكان يحكم مجدلا — في غياب ثيودور — مجلس من الاعيان يتكون من احد عشر عضوا ، كانوا في غاية الرقة معهم — حتى انهم كانوا احيانا يقدمون الخليلات للرجال من الاسرى ، كما كانوا لا يرفضون اي طلب معقول لرسام . ولولا خوفهم من ثيودور ، لأسعدهم ان يهيئوا للأسرى طريق الهرب .

ومن الطبيعي ان تصبح الرتابة في الحياة ، بمرور الزمن ، شيئا مرهقا للاعصاب ، ولذلك فقد نشبت الخلافات بين الاسرى . الا ان رساما كان الزعيم المعترف به دون منازع ، فشكلوا مجلسا لرعاية شؤون الاسرى ، يتكون من رسام وكميرون وبريدو ومن المبشرين ، ستيرن وروزنثال وكيرانز الايرلندي . وكان من حسن حظهم ان الرجل الفرنسي المتعب ، بارديل ، والصناع الالمان ، لم يكونوا معهم في مجدلا ، بل ظلوا مع ثيودور بالمعسكر الملكي . اما فلاد فقد سمح له بالبقاء مع زوجته في دبرا تابور ، بعد عودته من انجلترا — وبقيت معهما زوجة روزنثال ايضا — فكان ثلاثتهم يتمتعون بشيء من الحرية .

ومنذ ان حضر الأسرى لمجدلا كان ثيودور قد اخذ في بنائها من جديد ليجعل منها قاعدته الرئيسية ، رغم انها كانت وسط ديار «القالا» المسلمين ، الذين هم أعداؤه الألداء . ولم يكن عدد المساكن بمجدلا آنذاك ، يتعدى الالفين الى الثلاثة آلاف كوخ ، مبعثرة حول الهضبة ، الا انه قد كان بها قصر للملك وكنيسة مستديرة البناء ، ومنزل رحب يحتوي على خزائن الملك . ودون ان يظهر هو شخصيا ، كان ثيودور قد

كدس بها جميع ممتلكاته وخزائنه ، وأحضر اليها كل اتباعه وزوجاته ومحظياته ، كما أحضر اليها كل اسراه السياسيين الذين لم يقرر اعدامهم بعد . وقد وضع هؤلاء الاسرى الوطنيين ــ ومعظمهم ظل يرسف في اغلاله لعدة سنين ــ في مساكن تقع في الطرف الآخر من الهضبة ، بعيدا عن مقر الاوروبيين . وكان من بين هؤلاء بطريق الاقباط ، وهو مصري مسن ، كان قد اتهم زورا وبهتانا بالخيانة اثناء احدى نوبات ثيودور الجنونية . وقد استطاع رسام ان يراسل جميع هؤلاء القوم كما تمكن عن طريق رسله من ان يلم بكل ما كان يجري من احداث في أواسط اثيوبيا .

فقد كانت الاحوال في منتهى الاضطراب ، واذا كان هناك شيء في العالم يسمى بالانتشار الحلزوني للطغيان ، فهو هنا يسود اثيوبيا . وفي الواقع ان ثيودور ، منذ سنة ١٨٦٦ ، لم يكن يهتم بحكم الاثيوبيين ، كاهتمامه بابادتهم . ففي نوفمبر من تلك السنة أغار على العاصمة القديمة ، غندار ــ حيث كان الخارجون عليه يبدون شيئا من المقاومة ــ فدمرّها تدميرا كاملا ، بما في ذلك الكنائس المسيحية . وقد كان القتل الجماعي وحرق الاحياء بالمئات من الاحداث المألوفة . وبذلك اصبح الوادي الاعلى للنيل الازرق ، مسرحا لنوع من القسوة والارهاب ، لم ير مثلها بروس ولا غير بروس . وكل ما امعن ثيودور في القتل كلما زاد التمرد والعصيان ، الا أن الجيش قد استمر على ولائه حتى هذه اللحظة ، مقيدا بعامل الطاعة العمياء وعامل الخوف . غير ان عدده في سنة ١٨٦٧ ، أخذ يتناقص تناقصا مضطردا كنتيجة لهرب اعداد كبيرة من سلك الجندية . ثم انفصلت مقاطعة « تقري » تحت زعامة الراس « كساي » ، ودبّت الثورة في كل من مقاطعتي كوجام وشوا ، وبذلك تمرد زعيمان آخران وأقاما مراكز منيعة للمقاومة . اما الزعيمان فهما ، منليك الذي كان ينحدر من سلالة ملكية حقة ، وواجشوم

«قوبازيه» . وفي وقت من الاوقات عزل ثيودور تماما عن مجدلا نتيجة لهذه الثورات . وكان رسام على اتصال دائـــم بمـيروذر وبالزعيمين المتمردين ، وبذلك كان ملما الماما كاملا بكل ما كان يجري من تطورات جسام . وفي يوليو سنة ١٨٦٧ ، استطاع ميروذر انينو"ه له ببارقة من الامل ، ذاكرا له ان الرأي العام البريطاني أخذ يتحرك وان الحكومـة اخذت تلمح ــ على مضض منها وفي شيء من التحفظ ، ولكن في تصميم واضح ــ بأنها ملزمة ادبيا وسياسيا بانقاذ الاسرى حفاظـا على هيبـة بريطانيا في افريقيا والشرق الاوسط . وفي آخر اغسطس ذهب ديربي الى أبعد الحدود ، فأرسل خطابا حازما الى ثيــودور يطلب منه اطلاق سراح الاسرى فورا . ولما لم يصل منه رد صدرت الأوامـر بالاستعداد للحــرب .

* * *

لم يحدث في التاريخ الحديث ان اعدت حملة استعمارية بالطريقة التي اعدت بها الحملة البريطانية ضد اثيوبيا في سنة ١٨٦٨ . فقد جرت منذ البداية وحتى النهاية ، في جو من العظمة والأبهة والصرامة لم تعرفه غير الحفلات الملكية في العصر الفكتوري ، ولم تشذ عنها في اي شيء ، حتى في الخطب الجوفاء تنتهي بها هذه الحفلات . ومـع ذلك فقـد كانت مخاطرة رهيبة بكل معانيها ، فهذا القطر لم يدخله غاز منذ مئات السنين ، وطبيعة الارض وحدها كانت كافية لأن تنــذر بخطورتها . أضف الى ذلك انه لم يكن هناك اي تكتم عن هذه الحملة ، كما كــان الحال في حملة بونابارت على مصر ، فكل شخـص كان يعلم عنها وعن وجهتها وغرضها ، وذلك قبل عدة اشهر من الشروع فيها . فقد ناقشتها الصحافة بالتفصيل ،واتضح ان الرأي العام ، رغم عطفه على الاسرى ، لم يكن متحمسا لها . وانتشرت الأقاويل والتخرصات : فكيف يستطيع الجيش ان يعبر تلك الوهاد السحيقة ، التي يبلغ عمقها احيانا اربعة آلاف

قدم ؟ كيف يستطيع ان يعبرها في بلاد لا توجد بها جسور او طرق أو اجهزة حديثة من اي نوع . ومن ذا الذي يستطيع ان يضمن ان ثيودور لن يقدم على اعدام الاسرى بمجرد ان يعلـــم ان البريطانيين قد نزلوا بالساحل الافريقي ؟ ثم ان الجند سيلاقون من المخاطر ما تقشعر لــــه الأبدان ، وسيعرضون لأوبئة مجهولة مـــن امراض المناطـــق الحارة ، والثعابين سوف تزحف الى فرشهم ليلا ، والوحـــوش الكاسرة سوف تفترسهم نهارا . سيموتون ظمأ أو سيموتون نتيجة البرد القارس ، وكل بغالهم ودوابهم ستتهاوى امام ذبابة « التسي تسي » . وتواترت خطابات الاحتجاج على الصحف ، ورفعت شركات التأمين فئاتها ارتفاعا باهظـــا على كل من يشترك في هذه الحملة .

وقررت الحكومة البريطانية ، في شيء من الحكمة ، انه اذا كان لا بد لها من الدخول في هذه المغامرة ، فيجب ان يتم الاستعداد لهـــا بكل دقة وعناية ، مهما كلفها ذلك . وأوكل امر القيام بالعمليات الحربية للجيش الهندي ، بما له من خبرة بعمليات الحدود الحربيـــة ، ولسهولة ترحيله الى البحر الاحمر . واختير رجل من ابرز الضباط في تلك الايام ، لتولي القيادة . وهو « الفيلد مارشال اللورد نابير » ، ذلك الرجل الذي يطل علينا تمثاله من ميدان الملكة [1] بلندن ، في تعاظم وتعال قد بعدت عنا آفاقه الآن . ولا شك أن الجيل الحاضر ينظـــر الى هذا التمثال في شيء من السخرية ، لما يبدو عليه من تأله اتسم به قواد العهد الفكتوري. الا أن هذا الرجل قد كان في الواقع ، أعظم بكثير مما يدل عليه مظهره . فذلك الوجه المتجعد ينطوي على قدر كبير مـــن المرح والذكاء ، فقـــد كتب ذات مرة الى أهله مـــن الصين يقول : « أتـــدرون ماذا يطـــلق الصينيون على الأسقف الانجليزي بلغتهم الأعجمية ؟ أنهم يلقبونه حمامة

---

١ — Queen's Gate Square

السلام رقم واحد .ولفظة حمامة هو اللقب الذي يطلقونه على أي مهنة من المهن » . وعلى هذا الأساس كان من الجائز أن يطلق على نابير لقب « حمامة الجيش رقم ١ » . ولعل نابير كان يعيش في الحرب أكثر من أي جندي بريطاني آخر ، مع أنه لم يأت الى الجندية بالطريقة الاعتيادية . فقد بدأ حياته كمهندس ، وقضى نحوا من عشرين سنة يجاهد في طول الهند وعرضها ــ ينشيء الطرق ويشق القنوات ويقيم الجسور ويبني المعسكرات ، قبل أن يعطى الفرصة ليظهر كفاءته في القيادة العاملة . وكان اذا ما خاض معركة ، خاضها في رعونة وتهور . وفي الزمن الذي لم تكن فيه مثل هذه العبارات من النكات التي تردد في صالات الموسيقى ــ أي في الزمن الذي كانت فيه الحرب هي في الواقع مسألة فروسية وبسالة ــ في هذا الزمن اصيب جواده من تحته مرتين ، ولم يبد أي انزعاج لما أصابه من جروح . اما ما وصل اليه من مكانة فقد كان لحوادث التمرد الفضل الاول فيها ، فقد أدار دفة المقاومة في لكناو « Lucknow » الى ان وصلتها النجدة للمرة الثانية . ومن هناك ذهب لتولي قيادة الحملة البريطانية على الصين ، فدخل بها بكين في سنة ١٨٦٠. ، ثم عاد الى الهند وتولى قيادة «جيش بمباي» الذي وقع عليه الاختيار الآن لغزو اثيوبيا .

وكان عمره في ذلك الوقت ٥٧ عاما ، كما كان قد تزوج حديثا بفتاة انجليزية في الثامنة عشر من عمرها ، بعد وفاة زوجته الاولى . والظاهر انها كانت تدير شئون منزله في بمباي بنفس الهدوء الذي يمارس به زوجها سلطاته ، وكانت داره مضيافة تقام فيها الحفلات الفاخرة التي يدور فيها الحديث باللغة الفرنسية . واذا ما قارنا نابير بمن أتى فيما بعد من قواد الى وادي النيل ، فاننا نجد انه يفتقر الى الروح السمحة التي تميز بها غوردن ، الا أنه كان ألطف من كتشنر وأكثر منه اعتدالا ، بينما لا يقل عنه كفاءة . وأكثر ما يتذكره عنه جنوده ، تلك

الابتسامة العذبة التي لا تفارق شفتيه ، وما يدخله على نفوسهم من ثقة ــ كما يفعل البحار الخبير وسط العاصفة الهوجاء ــ بأن يؤكد لهم ان كل شيء سيتم على الوجه المطلوب في النهاية. وربما كان ويفل «Wayvel» قائد جيش النيل هو أقرب الشخصيات لنابير من بين قواد هذا القرن .

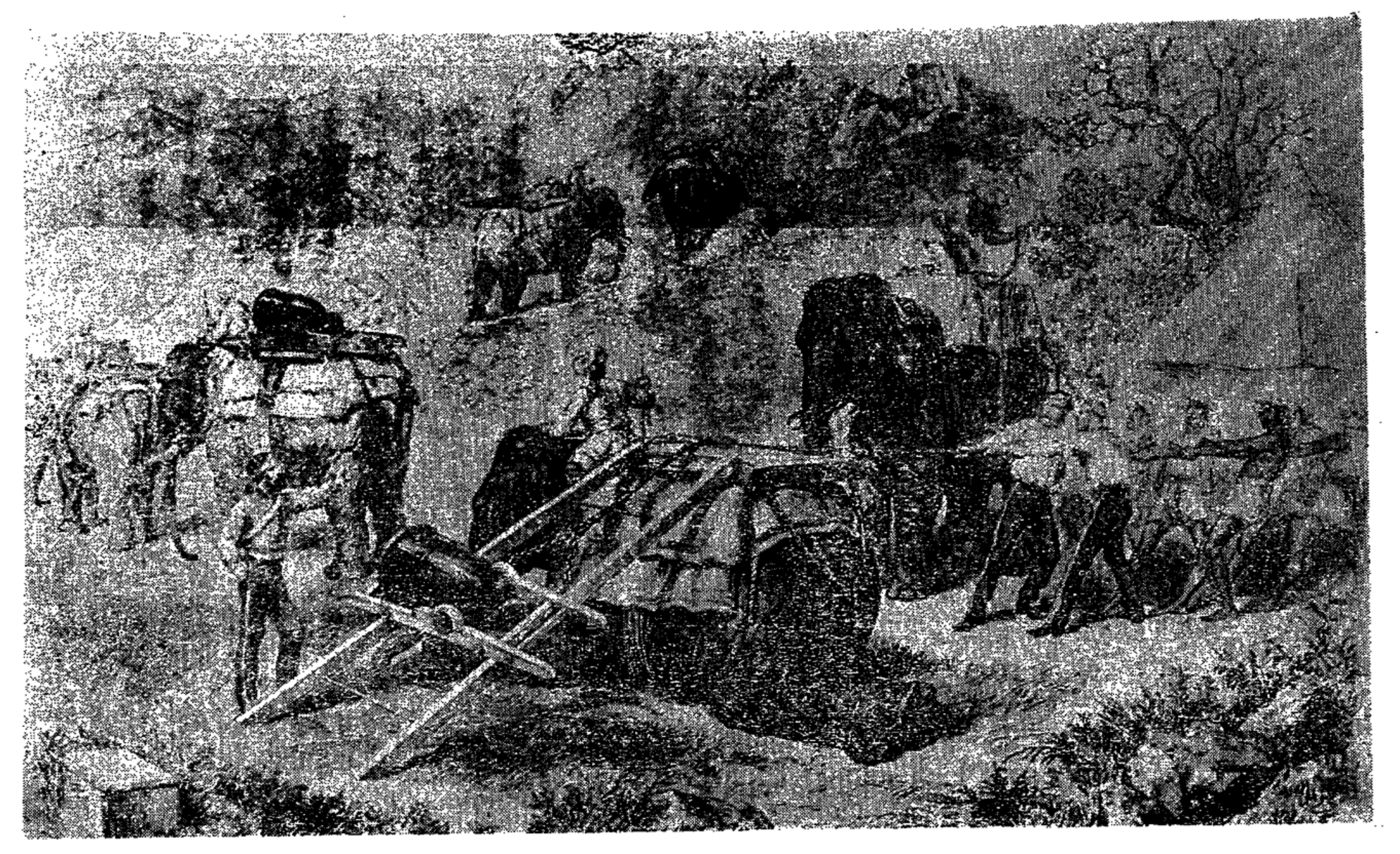
والطريقة التي انتهجها نابير في ادارة هذه المهمة الضخمة التي القيت على عاتقه ، كانت في منتهى المعقولية . واول ما فعله هو أن أرسل رجال المخابرات ليدرسوا كل ما تركه الرحالة الاوروبيون من معلومات ، وكل ما وضعوه من خرائط عن أثيوبيا منذ عهد بروس وحتى الآن . كما استشار كل من له خبرة عن أثيوبيا في لندن ، مثل صامويل بيكر وبيك وغيرهما من الرحالة والمبشرين . ثم ان ميروذر ، وهو يقوم بجولة استطلاعية في سواحل البحر لاختيار موقع مناسب لانزال القوات البريطانية ، ارسل بعض العملاء للاتصال بالقبائل المناوئة لثيودور .

وفي منتصف أغسطس من سنة ١٨٦٧ ، تمكن نابير من أن يقدم للحكومة البريطانية تقديرا بما يحتاج اليه لتنفيذ هذه المهمة ، وجاءت تقديراته على النحو التالي : حوالي ١٢ ألف مقاتل ، وما يقرب من ضعف هذا العدد من رجال الخدمة ، وما لا يقل عن عشرين الفا من البغال ودواب الحمل الأخرى . ثم فرقة كاملة من سلاح المدفعية بجميع لوازمها ، بما في ذلك المدافع الجبلية الثقيلة ، واسطولا من السفن البخارية والشراعية يبلغ عددها نحو المائتين وثمانين سفينة لنقل القوات الى وجهتها . وقدر انه اذا ابتدأت العمليات الحربية في أوائل فصل الجفاف ــ أي في ديسمبر ــ فانها ستنتهي في يونيو من السنة التالية ، أي في ظرف ستة أشهر فقط .

لقد أنقضت الآن سبعون سنة منذ أن قام بونابارت بغزو مصر ، ومن الممتع أن نرى ما أدخلته النهضة الصناعية على فنون الحرب من

تجديد . فالسكك الحديدية والسفن البخارية والتلغراف ، كلها أشياء لم تكن معروفة في عهد نابليون ، أما الآن فقد أصبحت شائعة وزادت في سرعة العمليات الحربيــةوفي نطاقها ، كما أن قوة المدافع ومدى ما تصل اليه قذائفها ، قد خلقت أبعادا جديدة لميادين القتال . الا أنه رغم كــل ذلك فقد قلت سرعة تنفيذ العمليات الحربية ، فالجيوش الحديثة اصبحت تحتاج الىعشرة أمثال ما كانت تستخدمه الجيوش في الماضي من مهمات. ثم أن ما تقوم به ادارة التعيينات مــن استعدادات ــ وهو ما يسمى الآن بعلم ايواء واطعام الجنود ــ قد اصبح مهمة غاية في التعقيد . وعنــــد الغزو الفرنسي لمصر ، كان كل جندي تقريبا رجلا مقاتلا ، أما الآن فكل جندي مقاتل يحتاج الى أثني عشر جنديا مــن غير المقاتلين لامداده بما يحتاج اليه . وفي نفس الوقت أصبحت الحرب أقل خطورة مما كانــت عليــه في الماضي، فالقتل الجماعي ــ كما حصل في بورودينو وواترلو ــ قد اختفى تماما ولم يظهر مرة أخرى الا أثناء الكارثــة العمياء التــي حدثت في حرب الخنادق بالجبهة الغربية في حرب سنة ١٩١٤ .

لقد كانت هذه الفترة ، فترة انتقالية في تاريخ الجندية ، فالنظــم العتيقــة كانت لا تزال متداخلــة ومتشابكة بطريقة سخيفــة مع النظم الحديثة . فمربعات المشاة لا تزال مستعمــلة ، والملابس الزاهية الألوان، التي تشكل هدفا طيبا فيميادين القتال ، كانت لا تزال هي الزي الرسمي المتبع في الجندية . غير أن تغذية الجنود كانت قد تحسنت ، والخدمات الطبية قد تغيرت تغييرا جوهريا ، والتدريب العسكري أصبح أكثــــر فعالية ، والجندية لم تعد ضربا مــن المغامرة ، بل أصبحت عملا فنــــيا يكتسب بالتدريب والتمريــن ، أكثر من أي وقت مضى . وبالاختصار فقد أصبح الجيش الآن ينظم ويدار كمؤسسة صناعية ضخمة ، وعندما يخــوض الجندي المعركة يخوضها كجزء مــن نشاطه وقوة اندفاعــه الاعتياديــة .



الافيال تحمّل بالمدافع

ان التاريخ الرسمي للعمليات الحربية ، لا يشكل عادة موضوعا شيقا لتقرأه الأجيال المقبلة ، ولا يشذ عن ذلك ، ذانك المجلدان الضخمان (وما معهما من ملف ضخم من الخرائط) ، اللذان ظهرا في انجلترا بعد الحملة الأثيوبية . ولكنهما يوضحان الدقة وسعة الأفق اللذين أديرت بهما هذه الحملة ، فقد كانت دون أدنى شك خطة مذهلة للغاية . والعمل الكتابي الذي أنجز في هذه الحملة ، لا يقل عما أنجز من عمل كتابي عند نزول قوات الحلفاء في نورماندي أثناء الحرب العالمية الاخيرة . ومما يلفت النظر حقا ، تلك البراعة التي تمت به هذه الاجراءات والتي تجلت في الربط المتقن ، والتوفيق المحكم ، بين ما هو جديد مذهل ، وما هو قديم مربك . فقد تم مثلا ، ارسال أربعة واربعين فيلا مدربا من الهند لحمل المدافع الثقيلة اثناء الزحف ، وأرسل العملاء الى جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى ، لاستئجار البغال والجمال لحمل المعدات الخفيفة . وأقيم عبر السهل الساحلي ، خط حديدي يبلغ طوله نحو عشرين ميلا ، ثم جلبت له القطارات البخارية بكامل معداتها . كما اقيمت المرافىء الكبيرة والفنارات والمخازن ، عند موقع انزال القوات . وتطلب الموقف احضار جهازين ضخمين لتقطير الماء المالح الى ماء عذب ، واعداد كل شيء لمد خط تلغرافي لعدة مئات من الأميال ، للاتصال المباشر بين الجبهة والقاعدة ، التي كان مقرها عند الساحل . وكان لا بد من اعداد ثلاث سفن كمستشفيات ، وتجهيزها بمكنات لصنع الثلج ، وتزويدها بكميات كبيرة من الأدوية من ضمنها ٢٥. دستة من النبيذ في كل سفينة . ثم كانت هناك مشكلة العملة ، فالعملة الوحيدة المستعملة بالحبشة ، هي ريالات ماريا تريزا التي ضربت في سنة ١٨٧. ، وأي نوع آخر لم يكن مقبولا على الاطلاق . وعليه فقد جرى البحث الدقيق عن هذا النوع من العملة في كل من مارسيليا والقاهرة وفيينا ، الا أن

الكميات التي وجدت لم تكن كافية للحملة ، ولذا فقد وقع تعاقد مـــع مصنع سك العملة الامبراطوري بفيينا لصنع ٥٠٠ ألف قطعة .

وخصص لكل جندي أبيض زوجان مـــن الأحذية ، وخـــوذة هندية ، وحزام مـــن الصوف ، وزوج مـــن القفازات . وكان لا بد من ان يتبع الحملة هيلمان مـــن الخدم الوطنيين ، اذ كان لكـــل ضابـــط خادمان على الأقل ، أحدهما لشخصه والآخر لحصانه . أما المرتبات فقد تراوحت فئاتها مـــن ٥٨٣٣ روبية (حوالي ٥٠٠ جنيها) في الشهـــر لنابير الى ٨½ روبية (او ١٧ شلنا) للجندي الوطنـــي وكان راتب القسيس خمسين جنيها في الشهر ، والفيال جنيها واحدا .

أما موقف التغذيـــة فكان معقدا جدا ، وذلك لان كثـــيرا مـــن الرجال كانوا من شعوب مختلفة ومذاهب متباينة ، لكل منها محرماتها. غير أنه قد انشىء مخزن رئيسي يحتوي على كميات من الخضراوات المضغوطة واللبن المجفف ، وعلـــى خمسين ألف طن مـــن كل مـــن اللحم البقري ولحم الخنزير ، وعلى ثلاثين ألف جالـــون مـــن مشروب الـــروم .

وكان لا بد مـــن تقسيم القوة الى جزئين ، كل منهمـــا تحت قيادة ضابط من الجيش الهندي له خبرة سابقة بالعمليات العسكرية . وشكل ميروذر فيلقا للمخابرات ، ضمنه بعض الشخصيات الهامة ، كـــان منهم « جيمز قرانت » الذي اكتشف منابع النيل الأبيض في يوغندة ، هـــو وجون اسبيك . كما ضمنه بعض المبشرين ، مثـــل « جوهان كرابف » وهو أول أوروبي يرى الجليد على رأس جبل كينيا ، وقد عمل في شرق افريقيا لعدة سنوات . وكان فيهم أيضا بعـــض المغامريـــن العسكريين مثل «النقيب سبيدي» (C. Speedy) وورنر موزنجر (Warner Muzinger) السويسري ، والذي كان يعرف ثيودور معرفة شخصيـــة ، ويتكلـــم العربيـــة والأمهرية . وأرسل المتحف البريطاني ممثلا له ــ رتشـــارد

هولمز ــ ليقوم ببعض الحفريات وليشتري ما له قيمة أثرية من الغنائم التي من المحتمل أن يستولي عليها الجيش في أثيوبيا ، وخصوصا المخطوطات والمنقوشات وما الى ذلك . وأضيف الى هذه القوة أيضا أحد علماء الجغرافيا ، وأحد علماء الأحياء وأرسل كذلك مراقبون من كل من الجيش الفرنسي والبروسي والايطالي والبلجيكي والنمساوي ومن الحبش الاسباني . وكان « هنري مورتون ستانلي » من ضمن مراسلي الصحف الذين صحبوا الحملة ، كممثل لصحيفة « نيويورك هرالد » وكان اذ ذاك في بداية مغامراته المشهورة في القارة الافريقية . وكان من ضمن هؤلاء المراسلين ج.أ. هنتي (G.A. Henty) مؤلف روايات المغامرات المشهورة ــ وجاء مندوبا عن جريدة «ستاندارد» اللندنية .

وأخيرا اتضح لنابير ، كما يحدث عادة في جميع الحملات العسكرية أن تقديره لعدد الجنود الضروريين ، كان دون ما يحتاج اليه بكثير . وبعبارة أخرى قد تضاعف عدد الجنود بطريقة تلقائية ، فبلغ في النهاية ٣٢ ألف رجل (منهم ١٣ ألف جندي فقط ، أربعة آلاف من البيض وتسعة آلاف من الوطنيين [١] (هكذا) . أما دواب الحمل فبلغ عددها ٥٥ ألف دابة . وكانت هذه الحملة شيئا فريدا في نوعها ، تدور المعركة فيها أساسا ضد العوامل الطبيعية للبلاد ، أكثر مما تدور ضد العدو المرتقب ، أو بعبارة أخرى ، كانت المعركة عبارة عن زحف طويل شاق ، وليست ملاحم حربية تخاض . ولا يستطيع رجل واحد من رجال البحرية أن يتردد ، في ابداء الاعجاب بالمقدرة الفنية التي تمت بها ادارة هذا الجهاز الهائل المعقد من جميع نواحيه ، فقد تقاطرت السفن بجميع انواعها ، من شراعية وبخارية ، وأخرى تستعمل الشراع والبخار

---

١ ــ اغلب الظن ان المقصود بالوطنيين هنا هم الهنود .
(المترجم)

معا ــ تقاطرت جميعها من كلكتا وبمباي وليفربــول ولندن ، نحــو البحــر الأحمــر في المواقيت التي حددت لها . وصرف نحـــو نصف مليون جنيه في استئجار هذه السفن من شركات خصوصية ، وقد حملت معها كل ما يمكن الاستعادة منه في انشاء مدينة مؤقتة في تلك الفيافي ، لأن نابير كان يتوقع ــ وكان محقا فيما توقعه ــ أن لا يجد في أثيوبيــا ما يستحق الذكر للاستفادة منه في هذه الناحية . هذا ، ووحـــدة الأفيال وحدها ــ وهي جزء تافه مــن هذا الجهاز الضخم ــ احتاجـت الى سفينتي نقل اعدتا اعدادا خاصا لهذه المهمة ، وتم انزال الأفيال فيها في بمباي بواسطة الحبال دون أن يصيبها أي أذى ، بعـــد أن فرشت حظائرها بالحصى والحجارة . ولوحظ عنــد انزالها الى هذه الحظائــر أن تكون أعجازها متقابلة ورؤوسها متجهة نحو جانبي السفينة ، وترك ممر صغير في الوسط للمراقبين . وفي مراسي كلكتا هب على السفــن أعصار شديد ، فأصيب بعض الأفيال بدوار البحر ، والفيل اذا أصيـب بدوار البحــر أصبح شيئا مخيفا .

وفي أوائل أكتوبر سنة ١٨٦٧ عاد ميروذر مــن رحلته التفقدية في البحر الأحمر ، وجاء في تقريره أنه اختار « زولا » كنقطـــة لنــزول القوات . وزولا هذه ــ هي قرية مهجورة تقع في سهل مكشوف على خليج « أنسلي » الذي يبعد بنحو ثلاثين ميــلا جنوب مصوع . وكانت في الماضي مستعمــرة يونانيــة تسمى « أدوليس » . ومنها يتجه طريق للقوافل الى داخل البلاد نحو مدينة اكسوم القديمة وهذا هو الطريق الذي أوصى ميروذر بأن تسلكه الحملة . الا أن الماء والعلف كانــا يشحان فيها في فصل الجفاف ، كمــا أنه لم تكــن بهنــا حجارة أو أخشاب لاقامة المرافىء . ومــع ذلك ، ورغم ان طقسها حار جدا ، فقد كان بها مــن الميزات الأخرى ما يرجح بهذه العوائق . فالمرفأ يكاد يكون مقفولا تماما ، وهو محاط باليابسة من جميــع الجهات ، ثم هناك ميزة

قربها مـن الجبال التي لا تبعد بأكثر مـن ثلاثة عشر ميـلا . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كانت زولا ضمـن الأعمـال المصريـة ، والمصريون المسلمون كانوا على أتم استعداد لتقديم كل المساعدة الممكنة لأية حملة موجهة ضد اعدائهم القدامى مـن مسيحيي أثيوبيـا ، وعليه فان نزول القوات البريطانيـة بها لـن يجد أية مقاومة . وبمجرد أن يعبر الجيش ذلك السهل الساحلي الضيـق ، سيواجه الهضبة الأثيوبيـة العالية الارتفاع ، ليصعد فيها الى علو ثمانية آلاف قدم فوق سطـح البحر . وهنالك مناطق اشد وعورة وأكثر خطورة من تسلق هذه الجبال ، سوف تقابلهم فيما بعد . الا أنه لا مفر مـن مواجهة هذه العوائق ، فهذه هي طبيعة اثيوبيا ، وهذا هو السبب الذي من اجله لم تتمكن اية قوة من أن تغزوها في الماضي ، بنفس الفعالية التي سيتم بها غزوها الآن . هذا ، وكل التقارير التي وصلت من داخل اثيوبيا كانت تشير الى ان ثيودور ، والثورات قد آحدقت به من كل جانب ، لن يعترض الزحف البريطانـي الى داخل اثيوبيا ، ولكنه سيصمد عند مجدلا حيث لا يزال يحتفـظ بأسراه . ولذلك فقد تقرر ان تكون مجدلا هي الهدف الأول للحملة ، وهي تبعد عن الساحل بما يقرب من الاربعمائة ميل .

وفي أواسط اكتوبر من نفس السنة وصلت الى زولا اول وحدات المقدمة ، وكانت تتكوّن اساسا من سلاح المهندسين ، فأخذت في اقامة الميناء . وفي نهاية الشهر تم انشاء اول مرفأ ، وكان يبلـغ طوله نحو سبعمائة ياردة ، وفي نفس الوقت اقيم فيهخط للترام. ثم اخذت السفن والصنادل تدخل اليه مع كل مد ، فتفرغ شحناتها من الرجال والدواب والمؤن ، فشبت مدينة من الخيام والأكواخ على كثبان الرمل المتموجة والممتدة على طول الساحل ، وأخذت تتسع مع كل يوم يمضي . ثـم وصلت قوة من العمال تتكوّن من آلاف الرجال ، من هنود وعجـم ومصريين وأثيوبيين ، وأخذت تعمل في كد متواصل ما بين السفـن

والشاطىء . وبنهاية الأسبوع الأول من ديسمبر تم إنشاء مرفأ ثاني طوله تسعمائة قدم وعرضه ثلاثون ، كما تم مد الخط الحديـدي الى داخل السهل ، فأصبحت زولا مدينة كاملة بسوقها الوطنـي ومستشفياتها ومخازنها وحظائرها الضخمة ـ للمواشي وحرّاسها ـ ثم اقيم جهازان لتقطير الماء ، واحد عند نهاية كل من المرفأين ، وانتجا نحو مائة وستين طناً من الماء العذب يوميا ، لتزيد من كمية المياه المجلوبة من عدن والبالغ قدرها نحو المليون طن .

لقد كان كل شيء رائعا ومثيرا للغاية ، الا أنه قد كان هناك شيء من الهلع والارتباك ايضا . فقد انتشرت حمى مجهولة بين الخيل والبغال لم يُعرف كنهها ، وأخذت الدواب تنفق بالمئات في كل يوم ، وانتشرت رائحة نتنة من الجثث التي تركت لتتعفّن على الشاطىء . والدواب التي نجت من الموت هي التي انزلت دون ان يكـون لها حرّاس يهتمون بأمرها ، ودون أن تكون لها حبال تربط بها ، والتي أخذت تهيم فـي السهل القاحل بحثا عن الماء . ولكن لم يكن هناك ماء ، فقد جفّت جميع الآبار التي اكتشفها ميروذر في أكتوبر ، مع حلول فصل الصيف واشتداد الحرارة . ولم تستطع اجهزة التقطير والسفن المحملة بالمياه ، توفير الكمية المطلوبة من الماء لسد حاجة التعزيزات من الرجال والدواب التي كانت تصل يوميا . وفي كل مساء كانت تجتمع حول مراكـز توزيع المياه ، أعداد غفيرة من العمال الوطنيين ، وهم في حالة هياج ، لاستلام حصصهم من الماء الذي اصبح يصرف بالبطاقات . ثم انتشرت الاضرابات الصاخبة بين عمال التفريغ ، وظهر في مرسى السفن ارتباك يدعـو الى القلق ، فبعض السفن كانت تنتظر لعدة ايام أو عدة اسابيع دون أن تجد مكانا ترسو فيه . وأصبح ميناء زولا في ذلك الوقت مكانا رهيبا مخيفا ، إذ كان يعج بالذباب مع طقس شديد الحـرارة ، صعب الاحتمال . فساد عمالها القلق والاضطراب ، وتلوّث جوها بنتانة جثث الدواب التـي

نفقت والتي كانت على وشك ان تنفق .

أما في المقدمة فقد كانت الأحوال تسير بطريقة مرضية ، فقد توغل ميروذر الى داخل الحبشة ومعه فرقة المقدمة ، الى أن وصلوا موقعا يقال له « سينافة » ، يبعد نحو الأربعين ميلا من الساحل ، فلم يجدوا أية مقاومة من السكان . الا انهم وجدوا كثيرا من العوائق الطبيعية الجسيمة التي اعترضت طريقهم وهم يصعدون الهضبة الأثيوبية في مجاذاة نهر « الكميلي » الذي كان جافا في ذلك الوقت . وعند ممر « سورو » حيث ترتفع الهضبة الأثيوبية في سلسلة من الشثور المتصاعدة عموديا ، كان الطريق لا يزيد عرضه عن العشرين قدما ، وتنتشر فيه الصخور الصلدة ، فأخذ المهندسون يعملون في نسف الصخر وتعبيد الطريق ليكون صالحا لمرور الأفيال وعربات المدفعية . وعندما وصلوا سينافة كان كل شيء في الطبيعة قد تغيّر ، وانتشرت امامهم غابات شاسعة ، من اشجار البن والسنط والعرعر ، وأصبح الماء عذبا وموفورا، وانخفضت حرارة الطقس حتى قاربت درجة التجمد ، فانتعش الرجال والدواب بمجرد أن وصلوا هذه المرتفعات .

وكان ميروذر قد بدأ منذ زمن في تبادل المكاتبات الودية مع « كساي » ، الزعيم الثائر لمقاطعة تقري ، والذي كان من المقرر ان يمر الجيش عبر منطقته . وفي هذا الوقت وصلت رسائل من الأسرى بمجدلا تقول انهم جميعا بخير وفي صحة جيدة . وقد حان الوقت الآن ليرسل ميروذر انذار نابير النهائي الى ثيودور ، وقد جرى على النحو التالي : ـــ

« الى ثيودور ملك الحبشة ،

« لقد أمرتني جلالة ملكة بريطانيا أن أطلب من جلالتكم أن تطلقوا فورا سراح الأسرى الذين احتجزتهم جلالتكم في الأسر دون وجه حق ، وان ترسلوهم في أمان للمعسكر البريطاني .

« وان لم تستجيبوا لهذا الأمر ، فلدي مزيد من الأوامر بأن أدخل بلادكم على رأس جيش لتنفيذ هذا الامر ، ولن يوقف تقدمي شيء حتى احقق هذه المهمة .

« ان مليكتي ليست لها أية رغبة في أن تحرمكم من اي جزء من ممتلكاتكم ، أو أن تقضي على سلطتكم ، الا انه من الواضح ان هذه ، على ما يبدو ، هي النتيجة المحتملة لأي اشتباكات عدائية قد تحدث .

«وفي امكان جلالتكم ان تتجنبوا هذا الخطر بتسليم الأسرى فورا. أما اذا لم يتم تسليمهم بسلام ، واذا استمر ايذاؤهم أو اصابهم أي مكروه ، فستكون جلالتكم مسؤولا عن ذلك ، ولن يكون هنالك أي أمل في التسامح مرة أخرى » .

الامضاء
ر. نابير ــ فريق
قائد عام جيش بمباي

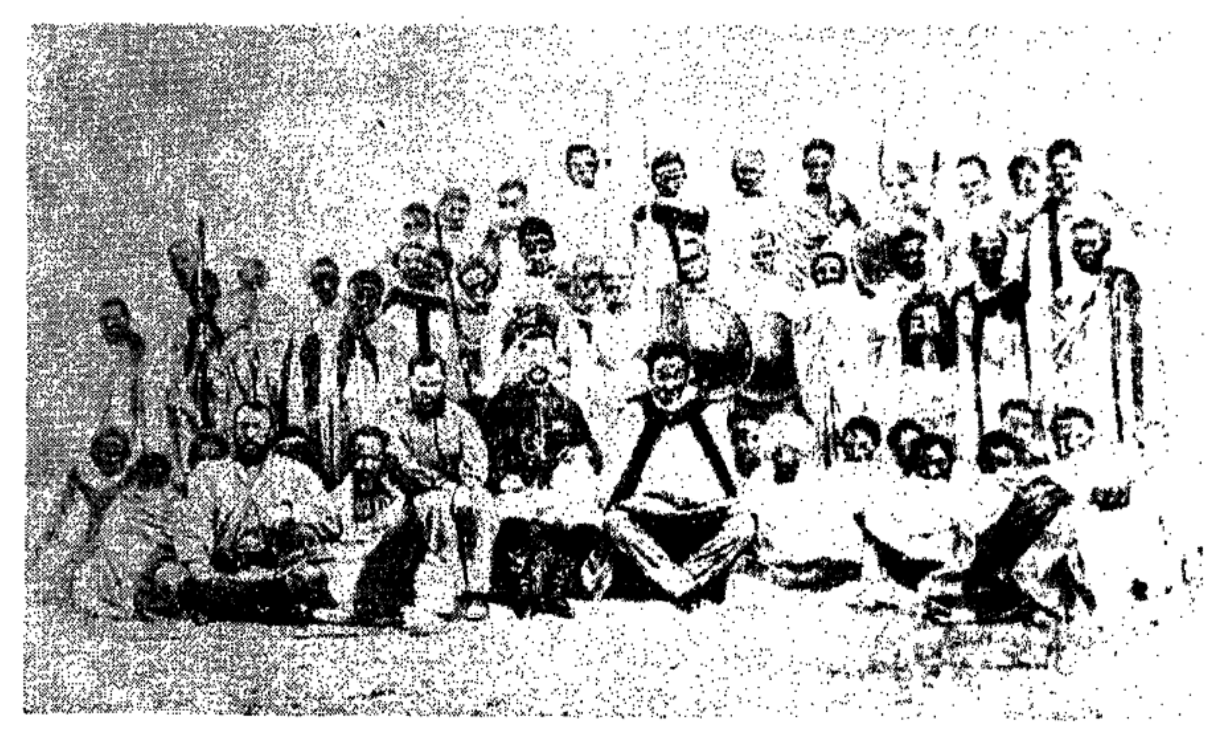
لقد كان انذاراً حربيا رائعا ، ولكن من المشكوك فيه انه كان من المحتمل أن يحدث أثرا في ثيودور، حتى ولو وصل اليه. وما حصل هو ان هذا الانذار وقع في أيدي بعض الثوار الذين أرسلوه الى رسام بمجدلا ، فأتلفه رسام في الحال خوفا من أن يثير سخط ثيودور ضد الأسرى . أما المنشور الثاني لنابير فقد كان موجها لأهالي أثيوبيا ، وصدر في نفس الوقت تقريبا ، وقد صيغ في قالب أكثر تأثيرا من المنشور الأول : ــ

« الى حكام الحبشة وزعمائها ، والى رجال الدين ، وأهالي الحبشة :

« تعلمون ان ثيودور ملك الحبشة يحتفظ في الأسر بالقنصل البريطاني ، كميرون وبالمبعوث البريطاني رسام ، وكثير غيرهما ، وهو بذلك ، ينتهك جميع قوانين الامم المتمدينة . وجميع المحاولات الودية



نابير وهيئة اركان حربه



كساي وقواده وبينهم المترجم البريطاني

لاقناعه باطلاق سراحهم قد باءت بالفشل ، ولذلك فقد صدر لي الأمر من مليكتي بأن أقود جيشا لانقاذهم .

« وعندما يحين الوقت الذي تزحف فيه الجيوش عبر أراضيكم ، أرجو أن تتذكروا جيدا انه ليس لدى ملكة بريطانيا اي شعور عدائي نحوكم ، أو أي تخطيط ضد بلادكم أو حريتكم . فمؤسساتكم الدينية وأشخاصكم وممتلكاتكم ، ستجد كل حماية من الجيش البريطاني . كما ان كل ما سيحتاج اليه جنودي من مؤن ستدفع قيمتها نقدا ، ولن يتعرض أي من السكان المسالمين لأذى أو ظلم .

« ان الغرض الوحيد من ارسال قوة بريطانية للحبشة هو انقاذ خدام جلالتها وغيرهم ممن حجزوا كأسرى ظلما وعدوانا . وسيتم سحب هذه القوات بمجرد ان تحقق الغرض الذي جاءت من اجله . فليس هنالك أية نية في احتلال أي جزء من الأراضي الحبشية احتلالا دائما ، كما انه ليست هنالك نية للتدخل في حكم البلاد » .

ان شبح بونابارت قد يبتسم عندما يقرأ هذه العبارات التي تذكره بالمماليك وبيان بونابارت للمصريين .

هذا ـ وقد توغلت الآن فرقة الاستكشاف الى مسافة سبعة وثلاثين ميلا بعد سينافة ، ووصلت مدينة « اديقرات » التي تقع ضمن نفوذ الراس كساي ، وبذلك تكون قد قطعت ربع المسافة بين الساحل ومجدلا . وقد قوبلوا في كل مكان بالترحاب ، أو على الأقل بشيء من السلبية وعدم الاكتراث ، ولم يظهر حتى الآن أي أثر لثيودور أو لجيش ثيودور .

وفي نفس هذا الوقت كان الموقف قد تحسن كثيرا بالشاطىء بعد وصول الجنرال « ستافلي » (Staveley) نائب القائد العام . فقد هيأ لمقدمة زولا ادارة قوية مركزة كانت تفتقدها من قبل ، ومنذ ان

رحل معظم الضباط العظام الى داخل البلاد ، في اعقاب قــوة المقدمة . وشيئا فشيئا تم فرز برنامج تفريغ السفن ، وأُعيــد تنظيم المدينــة ، وأُزيلت عنها القاذورات ، ثم وضعت الترتيبات اللازمة لارسال الجنود للجبهة بمجرد نزولهم الى الشاطىء . وبانتهاء السنة كانت معظم القوات المحاربة قد وصلت ، وكان المهندسون قد تمكنوا من فتح طريق غــير معبّد لعربات النقل ، يمتد عبر الجبال حتى مدينة سينافة .

وفي الثاني من يناير سنة ١٨٦٨ ، وصل نابير شخصيا مــن بمباي على الباخرة الحربية «اوكتافيا» ، كما وصلت معه هيئة اركان حربه . واستقبل ، كما يقول التاريخ العسكري ، في « شـــيء من الأبهة » ، فأطلقت أُوكتافيا جميع مدافعها ، وردّت عليها التحيــة وحدة مـــن البطاريات الجبلية ، كانت قد أعدت على الشاطىء . واصطفت فرقة من حرس الشرف في عباءات حمراء ، فشهد سكان زولا في كثير مـــن الدهشة والعجب ، منظر الفرقة البريطانية ، وهي تعزف أعذب الحانها على آلاتها النحاسية البرّاقة ، وسط إعصار من الغبار . وتبعت القائد الى البر أول دفعة من الأفيال ، تتكون من تسعة عشر فيلا . اما الخمسة وعشرون الباقية فقد وصلت بعد ذلك مباشرة ، ووصلت جميعها في حالة مرضية ، وكانت تلتهم غذاءها بشهية طيبة ، استعدادا لما ينتظرها مــن نضال . ولعل هذه هي اول افيال هندية تطأ ارضا افريقية منذ عهــد الاسكندر الأكبر .

ولما كان نابير قائدا ومهندسا في نفس الوقت ، بحكم تدريبـــه وبحكم الظروف الحاضرة ، فقد أخذ يعمل مباشرة . فأمر بمضاعفـــة السرعة في تنفيذ برنامج تشييد الطرق والجسور وحفـــر الآبار ومد المرافىء . ثم اتجه نحو تنظيم قوّته الضاربة ، فقرر أن ينتخب قوة من خيرة الرجال ، تتكون من خمسة آلاف جندي ، توكل اليها مهمة الوثبة الأخيرة على مجدلا . أما الباقون فتكون مهمتهم حراسة طرق المواصلات

الى الساحل . ولكي يخفف الحمل على ذلك التيار الطويل المتصل الذي أخذ يزحف الى داخل البلاد ، كأنه طابور من النمل ، فقد أمر بـــأن تخفض كمية المهمات الخاصة لجميع الضباط والجنود . كما امــر بأن يشترك منذ الآن وحتى نهاية الحملة ، كل ثلاثة ضباط في خيمة واحدة من الطراز المخروطي ، وأن يكتفي كل منهم ببغل واحد لنفسه ، وأن يشترك ثلاثتهم في خادم واحد لاعداد الطعام وآخر ليعمل كمراسلـــة وثالث لجمع العلف .

ومكث نابير ثلاثة اسابيع في زولا لوضع اللمسات الأخيرة لخططه العسكرية . وفي الخامس والعشرين من يناير تحرك نحو مرتفعات سينافة ليتولى القيادة بنفسه . وفي نفس هذا اليوم الذي تحـــرك فيه نابير ، منيت الحملة بأول خسارة لها في الأرواح ، فقد قتل اللـــواء « دن » (Dunn) حامل نيشان فكتوريا ، وكان قتله قضاء وقدرا بينما كـــان يصطاد طير « الحجل » فوق الجبال .

* * *

الفصل السادس عشر

موعد في مجدلا

« لقد فقدت جميع الحبشة ما عدا هذه الصخرة »

ثيودور

علم ثيودور عن مقدم الجيش البريطاني لأول مرة ، في أوائل ديسمبر سنة ١٨٦٧ . وقد اعترف بأنه كان مغتبطا لذلك ، عندما ذكر لأحد صناعه الألمان « انه يتلهف لذلك اليوم الذي يرى فيه جيشا نظاميا من أوروبا » . ثم مضى يتحدث عن اسطورة قديمة تقول ان ملكا عظيما من أثيوبيا وملكا عظيما من اوروبا سيقدّر لهما أن يلتقيا بأثيوبيافي يوم من الأيام ، وسيتقرر على يديهما مصير هذا القطر . وكان قد رسخ في ذهنه بوضوح انه سيصل الى نوع من التسوية مع البريطانيين ، يعترفون على اساسها بعظمته كامبراطور وكرجل ، ويعاملونه على هذا الاعتبار . أما أن يهزم جيشه في الميدان ، فشيء عرضي لا يهم كثيرا . وقد كان يبدو عليه في الواقع ، انه يتمنى لو أُبيد هذا الجيش تحت نيران مدافع نابير الحديثة .

ومع ذلك فقد وطد عزمه على القتال ، فمنذ ديسمبر كان قد صمم على ان يصمد في مجدلا . وعلى هذا الأساس بدأ في تعبيد الطريق المؤدي من وادي « الباشيلو » الى قلعته فوق الجبل ، وذلك ليتمكن

من رفع مدافعه واسلحته الثقيلة الى المرتفعات المحيطة بمجدلا . ولـم يكن ثيودور أول المجانين ـ ولا آخرهم ـ من الذين راودهم حلم بأنه قد يمن الله عليهم بمعجزة من الاختراعات الحديثة التـي تمكنهم من هزيمة اعدائهم وانقاذ الموقف في الساعة الأخيرة ، فقد اودع كل ثقته في مدفع الهاون الذي صنعه له عماله الألمان . وأنه لمن المدهش حقـا أن يصنع مثل هذا السلاح الضخم في مثل تلك الأماكن المتخلّفة . فقد كان هذا المدفع كتلة هائلة من الحديد ، تزن ما لا يقل عن السبعين طنا ، صنع في شكل ناقوس مقلوب . وقد صمم على اساس انه اذا ملىء بقطع من الحديد ، وأُطلقت شحنة من المتفجرات ، فسوف يحدث اعظم انفجار مدمر ، وأعظم دوي عرفا في أثيوبيا حتى ذلك الوقت . ولكي يرفع الى ذلك العلو الشاهق ، فقد رُبط فوق عربة مدفع ثقيلة ، ووضع خمسمائة رجل لجره ، شبرا فشبرا ، فوق الطريق الجديد المؤدي الى مجدلا .

وكان كل ما مضى اسبوع ، كل ما اقترب الجيش البريطاني مـن مجدلا ، وكل ما اقترب طريق ثيودور من الحصن . وفي شهر يناير أخذت تصل الى رسام بعض الخطابات العاطفية من ثيودور ، فقد كتب له في الرابع من يناير سنة ١٨٦٨ يقول : « كيف حالك يا صديقي . انني كل ما اقتربت منك كل ما زادت سعادتي». وبعد فترة وجـيزة كتب يقول : « سوف اصلك قريبا بمشيئة الله ، فلا تعتقد انني احمل أي حقـد نحوك ، وتأكد أنني لم اضعك في هذا الموضع ، الا لأستطيع أن أتعرف على قومك .... وأشهد الله انني لا اكنّ لك أي حقد أو عداء » .

وفي آخر يناير وصلت الى مجدلا المسز روزنثال وطفلها من «دبرا تابور» وكان في صحبتها الصناع الألمان . ثم وصلت بعدهم دفعة جديدة من الأسرى الوطنيين ، لينضموا للأربعمائة أسير الذين كانوا مكبّلين في سجن مجدلا . وحلت فترة كلها قلق بالنسبة للأسرى الأوروبيين ، كان من النادر ان يمر منها يوم دون أن يستلم رسام خطابا ، اما من ثيودور

بوادي الباشيلو ، أو من ميروذر بالمعسكر البريطاني . وكان كل منهما يحثه على أن يتشجع ، ويخبره بأنهم سيصلونه في أسرع وقت ممكن . وكان السؤال الذي يتردد بخاطره هو : هل سيقدّر له ان يواجه « عناق » ثيودور الجنوني قبل وصول المدافع البريطانية الحبيبة ؟ واذا ما وصل البريطانيون وبدأوا هجومهم على مجدلا، فماذا سيحدث؟هل سيسمح لهم ثيودور بالذهاب ، ام سيلقي بهم من اعلا الصخرة ؟.

ولم يكن في مقدور احد في أثيوبيا أن يجيب على هذا السؤال في ذلك الوقت ، وكان أقل الناس معرفة بالاجابة الصحيحة هم البريطانيون في سينافة . وكل ما كان في امكان نابير ان يفعله ، هو أن يتقدم ويعلل نفسه بالآمال ــ كما كان يعللها ثيودور بأن كل شيء سيتم على أحسن حال بمشيئة الله ــ وفي آخر يناير كلّف « جيمز قرانت » بأن يسبق الحملة ليهيىء مقابلة بين نابير وكساي ــ حاكم مقاطعة تقري الجديد ــ ثم صدرت الأوامر بأن تتحرك جميع القوات . وكان مشهدا رائعا دون أدنى شك ، أن يراقب المرء هذا الطابور وهو يتقدم مارا به ، دون أن يكون من حوله شيء سوى سهول أثيوبيا المقفرة ، وجبالها المتناثرة على مسافات مترامية ، لتقابله بين حين وآخر قرية متداعية ، وقف سكانها امامها كأنهم أسراب عظيمة من الطيور ــ يثرثرون ويحملقون امامهم في دهشة وتخوف .

وكان سلاح السواري يسير في المقدمة ، وجنوده في زيهم الأخضر وقبعاتهم القرمزية ، والضباط تعلو هاماتهم قلانس فضية . ثم يأتي سلاح المشاة ، ومن بينه فرقة ايرلندية كان معظم الجنود البيض فيها ملتحين ، وقد كست شمس الهند المحرقة وجوههم بطبقة سمراء داكنة . اما الجنود الوطنيون [1] فكانوا يرتدون سراويل خضراء عليها سجف

---

١ ــ لعل المقصود هنا هم الهنود ، لان الجيش قد كان اصلا من الهند .

حمراء ، وعلى رؤوسهم عمائم خضراء ضخمة . وكانت هناك فرق أخرى في ازياء مختلفة ، بعضهم في زي ازرق فاتح محلّى بالفضة ، وبعضهم في عباءات قرمزية وعمامات بيضاء . وكان بعض الضباط الأوروبيين يرتدون ازياء مختلفة من تصميمهم الخاص . وكان يركب خلف نابير ، كما قال استانلي « امير صغير متأنق ، في يديه قفازان من جلد الجدي ، وعلـى وجهه نقاب رقيق اخضر » .

وتجيء في المؤخرة فرقة النقل ، بما فيها من مدافع ومؤن، في طابور طويل يمتد الى سبعة اميال ، وقد انتظم في صفوفها نصف شعوب الهند والشرق الأوسط ، من أتراك وعجم ومصريين وعرب وسيخ ، ومـــن مسلمين وهندوس . وقد اهتز الأثيوبيون عجبا عندما رأوا الأفيال محملة بالمدافع الثقيلة ، وسياسها يجلسون فوق أعناقها في طمأنينة تامة . فالفيل في إفريقيا حيوان متوحش ، ومن المدهش أن يراه الأثيوبيون حيوانـا أليفاً طيعاً يسير في خفة وهدوء كأنه بقرة أو ثور . ان هذا لهو عـــين الاعجــاز .

وفي منتصف الموكب كانت تسير فرقة موسيقية تعزف على آلاتها النحاسية من حين لآخر . هذا ــ وكثيرا ما كان يجتمع الأهالي ، هنـا وهناك ، حول عربة معطوبة أو جمل مريض يئن متضرعا ، أو حـــول جماعة من المسلمين وهم ساجدون ، وقد يمموا وجوههم شطر المسجد الحرام . وأينما توقف الموكب من المسير ، خرج جماعة من «البارزيس» بوجوههم المتجهمة ، وقد ملأوا اخراجهم بريـــالات « ماريا تريزا » ، ليشتروا ما يحتاج اليه الجيش من المواد الغذائية ومن العلف .

«وبالرغم مما كان يسود الجو مــن روح عسكريــة» كما قــال استانلي : « الا أن الجيش كان يبدو وكأنه لمامة عجيبة » .

ومع ذلك فقد روعي أن يكون النظام صارما ، وقد جاء في سجل

التاريخ الرسمي للحملة ما معناه : « ولم يحدث أي تعد او سلب اثناء الحملة » . وجاء في فقرة اخرى في شيء من التحفظ : « ولم تتعرض أي امرأة من الوطنيات لأي نوع من اعمال الرجولة الطائشة ، من ذوي العباءات الحمراء » . وعند كل قرية لها شيء من الأهمية ، كان يتلقى نابير فروض الولاء والطاعة من زعمائها ، كما كان يُسمح لكل من له ميل خاص للعاديات والآثار ، أن يذهب مع مندوب المتحف البريطاني ، ليرى ما بالكنائس المحلية من نقوش ورسوم .

وقبل طلوع الفجر بنصف ساعة من كل يوم ، كانت تعزف النوبة الصباحية ، أما النوبة المسائية فغالبا ما كان يحل موعدها وهم جادّون في السير . ومن الطبيعي ان لا يكون الزحف سريعا في هذه المرحلة من الطريق ، فقد كانوا يسيرون فوق هضبة فاصلة ، تنحدر منها وديان عميقة في كلا الجانبين ، لتشق طريقها نحو النيل الازرق ، وتصب فيه بعد ان يتوغل داخل الاراضي السودانية ، على بعد مئات الاميال . وكثيرا ما اضطروا الى الهبوط آلاف الاقدام مع المنحدرات الطبيعية ، ثم يتوقفون عن السير الى ان تقوم فرقة المهندسين بمد قنطرة يعبرون عليها مجرى التيار ، ثم يصعدون الهضبة مرة اخرى . وعملية واحدة من هذا النوع قد تستغرق عدة ايام .

وقد تأذى كثير من البغال في هذا الارتفاع الشاهق ، وتفشت فيها الامراض . وكانت الليالي قارصة البرودة مما اضطر الجند ان يلجأوا للخيام ما وجدوا الى ذلك سبيلا . وفي هذه المرحلة المبكرة من الزحف ، كان فسطاط نابير يمثل البذخ «والفخفخة» ، فقد كان مبطنا بقماش من القطن الاصفر ومفروشا بالسجاد الشرقي الفاخر ، وفي كل مساء كانت تجتمع فيه هيئة اركان حربه ، ليتناولوا فيه عشاء فاخرا على نظام العهد الفكتوري . واذا صدق استانلي ، فلم يكن نابير لتعوزه الملكة على ادخال البهجة والسرور الى نفوس ضيوفه ، فقد كان يتألق

فوقهم بقامته الفارهة الغليظة ،وهو يفيض رقة وبشرا . لقد كان مثلا صادقا لذلك العهد الذي كانت فيه الاخلاق والمظهر من ابرز مميزات رجال الجيش . وكانت مائدة القائد اعظم بكثير من وجبة تقدم في مطعم.

غير ان هذا البذخ اخذ يهبط في مستواه مع تقدم الزحف، وامتداد خطوط المواصلات ، ومع طول المسافة التي كان على الدواب ان تقطعها بين القاعدة والمقدمة ، مما اضطر نابير لاعادة مئات الخدم والاتباع الى زولا ، والى تخفيض امتعة الضباط الى خمسة وسبعين رطلا فقط . ثم حرموا فيما بعد من السعاة ، بما في ذلك الامير الصغير المتأنق « ومن الآن فصاعدا ، اخذوا يعتمدون على ما قد يجدونه من مساعدة من الجنود» . اما الجنود فقد خفضت مهماتهم الى ٢٥ رطلا فقط ، وخفضت حصتهم من مشروب الروم الى درهم واحد في اليوم . وفي مائدة نابير أصبح القطاني والبسكويت يقدمان بدل الشواء والطيور ، كما حل مشروب التج محل النبيذ .

وبعد هذا التخفيض في الاحمال ، اصبح في امكان الطابور ان يسير بخطى اسرع . وفي الاسبوع الاول من فبراير وصل نابير الى «ادجرات» ، ثم بعد اسبوع آخر كانت مقدمة الجيش في «عنتالو» ، على بعد مائتي ميل من الساحل ، وفي منتصف الطريق الى مجدلا . وهنا اقيمت قاعدة اضافية كبيرة ، وخفض الطابور مرة اخرى ، فأصبح كالشجرة النامية ،ضخم عند القاعدة حيث السكة الحديدية ــ التي وصلت في هذا الوقت الى المنطقة الجبلية ــ وحيث تتردد حوالي عشرين الف دابة بين كل مستودع والذي يليه . اما هنا في القمة ، فقد اصبح الطابور رقيقا جدا، بحيث لم يسمح بالتقدم الا للقوات المحاربة وفرقة المهندسين، وما يحتاجون اليه من مهمات . وفي الطريق الى عنتالو عاد «جرانت» حاملا معه اخبار قرب وصول كساي بجيشه . ولما كان كساي حليفا له اهميته ، ولما كان هذا هو اول اتصال مباشر مع الاثيوبيين، فقد توقف

نابير ليستقبله بحفاوة عسكرية كاملة . وتمت المقابلة على ضفتي مجرى صغير ، فأقام كل من القائدين فسطاطاخاصا بالتشريفات الرسمية ، كأنما يمثلان فصلا من احدى مسرحيات شكسبير، يتقابل فيه قائدان متنازعان للمفاوضة في أمر من الامور . فتقدم كساي على بغل ابيض ، وكان يهرول في ركابه خادم يحمل مظلة قرمزية اللون فوق رأس كساي ، ويسير من حوله في خطى منتظمة موقعة على انغام الطبول ، حوالي اربعة آلاف محارب ، ترفرف الاعلام خفاقة فوق رؤوسهم . وفي نفس الوقت تقدم البريطانيون ، وفي مقدمتهم نابير على ظهر فيل ، ويحف به حرس من الافيال ايضا ، ثم من خلفها الجنود البريطانيون في ملابسهم الحمراء. وعندما اقترب كساي ، لوحظ ان على كتفيه دثار من جلد الاسد تحت عباءة من الحرير المطرز بالزهور ، وكان شعره مرتب في ضفائر عديدة ربطت بشريط خلف رأسه . وهو رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، له بشرة زيتونية داكنة ، وكان يبدو عليه الهم والقلق . وعندما اطلق البريطانيون اعيرتهم النارية تحية له ، ارتعش خوفا من الغدر ، الا ان المترجم الكابتين اسبيدي ـ اسرع وطمأنه . ثم دخل القائد الفسطاط البريطاني ، وبدأ نابير المفاوضات بأن قدم لكساي جوادا عربيا وبندقية وقطعا من الاواني الزجاجية من صنع بوهيميا . ثم قدم النبيذ ـ وكان قد احضر من مخازن المستشفى ـ . وكان نابير حريصا على ان يكون اول من يرتشف كأسه ليؤكد لضيوفه انه لم يكن مسموما . وبعد ذلك قدم للاثيوبيين استعراض عسكري، اظهارا لقوة بريطانيا ، فانتشرت المدافع ، وقام المشاة ببعض المناوشات الاستعراضية ، وانتظمت في مربعاتها التقليدية ، كما قام الخيالة باستعراضاتهم امام الفسطاط وهم في كامل لبسهم الخاص بالتشريفات .

وبعد هذا اكد كساي للبريطانيين انه سيبذل كل ما فيطاقته لمساعدتهم بتقديم المؤن والعلف على طول الطريق . ثم دعا نابير وهيئة اركان حربه

لزيارة المعسكر الاثيوبي . وهنا قامت على خدمتهم بعض الفتيات الاثيوبيات ، وقدم الخبز والكري ، كما قدم شراب «التج» في اقداح ضخمة مصنوعة من قرون الماشية ، كانت كل ما فرغت ملئت مرة اخرى. وبينما هم يتناولون الطعام والشراب ، دخلت فرقة موسيقية ، واخذت تعزف على المزامير . وكان معها احد مرتلي الاناشيد ، فأخذ يردد نشيدا يرحب فيه بالبريطانيين ، وهو يروح ويغدو بين المدعوين . ثم قلد نابير دثارا من جلد الاسد وسيفا ، واعطي درعا وسهما في يديه ، وقدم له بغل اشهب ليمتطيه . وهكذا عاد نابير الى الجانب البريطاني وهو متمنطق بهذه الزينة،بينما اخذت عيون رجاله ترقبه في دهشة واستغراب.

ولم ينفرد البريطانيون بشرف هذه المنافسة ، فقد اعجبوا بجنود كساي وبما يتمتعون به من صلابة في اعوادهم،واستقلال في شخصياتهم، ودهشوا عندما وجدوا ان كل رجل منهم تقريبا ، كان يحمل سلاحا ناريا صالحا للاستعمال . فغالبا ما يكون لدى ثيودور مثل هؤلاء الرجال الاقوياء الذين يجيدون حرب العصابات . ومجدلا بجبالها الشاهقة التي ترتفع الى الف قدم ، لا تزال على بعد مائتي ميل ، والطريق اليها يتخلله كثير من المرتفعات الخطرة ، ولذلك فقد اخذ الجيش يتقدم في شيء من الحيطة والحذر . وفي ١٧ مارس ، وصل نابير برئاسة قواته الى بحيرة «اشنجي» التي تبعد نحو مائة ميل من مجدلا . وفي هذه المنطقة يبلغ انحدار الطرق نحو تسعة آلاف قدم ، والدروب بين الجبال شديدة الانحدار وبالغة الضيق ، بحيث اذا توقفت دابة واحدة يتوقف جميع ما وراءها . وقد يتوقف الطابور اكثر من ساعة وهم يعالجون دفع المدافع عبر احد الاخاديد . ثم اخذت العواصف الرعدية تجتاح الجبال يوميا ، فيضطر الجنود للسير بثيابهم العطنة في طقس قد تنخفض برودته الى ما دون الصفر .

وخفضت الامتعة للمرة الثالثة ، وكان معنى ذلك ان ينام معظم

الجنود في العراء ، وان يكتفوا بنصف الجراية من الطعام ، ثم اخذت الاشاعات تتواتر باقتراب الاعداء، الا انه لم تطلق رصاصة واحدة حتى الآن ، ولم يجد رجال الحراسة ما يزعجهم ليلا ، اكثر من ضبع متربص او اسد يزمجر فوق فريسته في جنح الظلام . وفي الثامن والعشرين من مارس وصلت مقدمة الجيش نهر «تكازيه» الذي يبعد اربعين ميلا ، على خط مستقيم ، من مجدلا ، وهكذا كان الجيشان يقتربان من بعضهما باضطراد ، فبلغ توتر الاسرى بمجدلا اقصاه .

لقد مضت الآن اكثر من أربع سنوات منذ أن اعتقل كميرون ومساعدوه وما يقرب من السنتين منذ ان وضعوا جميعا في الاصفاد ، وفي هذه المدة الطويلة ، تعلموا ان يعيشوا من يوم لآخر في شيء من القنوط واليأس . غير ان هذا الامل الذي اخذ يلوح في الافق كان صعبا لا يطاق ، فأخذوا يستجوبون كل رسول يأتي من الامبراطور استجوابا دقيقا عن اطوار ثيودور ، وفي كل صباح كانوا يتسابقون نحو السور عسى ان يروا ما يشير الى قرب وصول البريطانيين . واستمر ثيودور في ارسال خطاباته الرقيقة للاسرى ، وفي الخامس من مارس ذهل رسام عندما علم ان قيوده ستنزع . فقد كتب له ثيودور يقول : «والآن وقد اصبحت ــ انا صديقك ــ على قرب منك بمشيئة الله ، فستزال عنك القيود ، ولكنك ستبقى تحت مراقبتنا دون اغلال الى ان تتضح لنا نوايا اسيادك فطب نفسا» .

وكان ثيودور رهين كلمته ، ويقول رسام في هذا الموضوع : «لقد اشترك بعض الزعماء في كسر قيودي ، وكان بعضهم يضع اصابعه بين الحديد والجلد لئلا يصاب كاحلي بأذى» . فأرسل رسام خطابا يشكر فيه ثيودور ، ويطلب فيه ازالة القيود عن زملائه بالمثل . وفي الخامس والعشرين كتب له ثيودور يقول : «عم صباحا يا صديقي ... لقد اصبحت على مقربة منك بحيث انني استطيع رؤية سقف منزلك

بوضوح ، فلو خرجت والقيت نظرة الى اسفل فسترى فسطاطي ... فها نحن على وشك ان نلتقي» .

واتضح ، في شيء من المرارة ، ان ثيودور كان يقترب بسرعة نحو مجدلا ، فبعد يومين من وصول هذا الخطاب ، وصـل فلاد واخبر الاسرى ان الطريق الى مجدلا كاد ان يتم ، وكان واضحا ان ثيودور يريد ان يصل الى قمة مجدلا قبـل وصول البريطانيين . وفي ظرف اليومين التاليين وصلت كميات اخرى من الخزائف الملكية ، ومن اعـلا الاسوار تمكن الاسرى من رؤية مقدمة الجيش الاثيوبي ، وهي تعسكر في سهل «سلامجي» الذي يقع تحت البوابة مباشرة . وفي السابـع والعشرين وصل ثيودور الى مجدلا ، ومن الغريب انه لم يحاول ان يقابل رساما او اي واحد من الاسرى ، بل ذهب مباشرة للكنيسة ليصلي ، ثم جلس على عرشه أمام القصر الملكي ، واستمر جالسا لعدة ساعات ، كان يستقبل اثناءها الزعماء ويرميهم بالخيانة مدة غيابه . وفي المساء ، عاد الى معسكره عند سفح الجبل ، بعد أن ارسـل خطابا الى رسام يؤكد فيه بأنه سيطلبه قريبا ـ ويبدو ان مزاجه كان سيئا ، لانهم جددوا الحراسة على الاسرى في نفس المساء ، وكانت روح العداء واضحة في تصرفاتهم المريبة . فبادر رسام الذي كان على اتصال دائم بالمعسكر البريطاني ـ بادر بحرق جميع ما معه من اوراق .

وفي التاسع والعشرين من مارس ، وهو نفس اليوم الذي بدأ فيه الجيش البريطاني عبور نهر «تكازيه» ـ ظهر ثيودور فجـأة في مجدلا ، وبعث لرسام بالرسالة التالية : «ان ما دفعني لاساءة معاملتك هو رغبتي في أن يحضر قومك لبلادي ، وقد سررت الآن اذ علمت انهم وصلوا فعلا . وسواء هزمت أو انتصرت ، فسأحتفظ دائما بصداقتك. والآن اريد مقابلتك في الساحة الواقعة امام منزلك ، واريد منك أن تظهر بنفس الزي الذي كنت ترتديه في مقابلاتك الرسمية لي. وسأخبرك

عندما أكون مستعدا لهذه المقابلة» . فأجاب عليه رسام في خطاب كله استكانة وخضــوع .

ولا يسعنا الا ان تتعجب وتتساءل ، اين نحن واين نقف بين كل هذا ؟ فقد كتب رسام في تفصيل دقيق عن كل اتصالاته مع ثيودور . الا اننا نشعــر بأن باقي الاسرى قد يكون لهم رأي مخالفا ليدلوا به ، كما نشعر بأن هناك شيئا من الغموض حول رسام . ورغم أنهم جميعا لم يكن لهم حول ولا حيلة ، الا أن رساما قد كان في بعض الاحيان ، لينا ومتخاذلا ومستسلما أكثر مما يجب ، وأكثر مما تتطلبه مصلحته الشخصية . ومما لا شك فيه ان صداقته لثيودور لم تكن تمثيلا من جانبه ، بل كانت صادرة عن اخلاص من نوع غريب . فقد كان يتذلل له في سلبية ليس فيها شيء من النخوة او الرجولة ، اعتقادا منــه بأنه سوف يحقق بالكلمة الطيبة في الوقت المناسب، أكثر مما يحققه باظهار المقاومة العلنية . وليس هناك شك كبير في أنه كان يميل الى ثيودور ، بنفس الحرارة التي كان يميل بها ثيودور نحوه . ولكن هل كان هذا هو الاتجاه الامثل الذي يتخذه رجل على رأس بعثة رسمية ، حتى في مثل هذه الظروف الشاذة الخطرة ؟ ألم يكن هنــاك اتجاه آخر أقل خضوعا وأكثر جدية ، يمكــن أن يؤثر على ثيودور تأثيرا أقوى ويعيده الى صوابه ، قبل أن تصل الامور الى هذا الموقف بزمن طويل ؟ ولم ير ثيودور في رسام الا انه أحد السعاة ، ولكنه ساع مــن نوع عجيــب له قيمته . ومما زاد في غرور ثيودور ، أن وجد في قبضته مثل هــذا المبعوث الاجنبي الذي لا ينقطع عن الابتسام والتذلل مهما اسيء اليه .

وربما كان في هذا القول تجني على رسام ، ولكن كم كنا تتمنــى أن نسمع كلمة واحدة عــن هذا الموضوع من القنصل كميرون ، أو من غيره من الاوروبيين . فهل كانوا جميعا يقرون رساما على الطريقة التي عالج بها الامور ؟ وهل ما كانوا فيه مــن بؤس وشقاء ، وما كان يحيط

بهم مـن مصير مجهول ، هو السبب الوحيـد الذي هيأهـم ليتقبلوا أيـة زعامة مهما كانت ؟ أم ان سياسة رسام التي كانت تميل الى الصبر والخضوع هي التي جرفتهم معها مـن يوم الى يوم ؟ ولكننا لم نسمـع شيئا من كميرون . ومـن الطريف ان نلاحظ أن رساما لم يشر في كتابه الذي وضعه فيما بعد ، لم يشر بكلمة واحدة تحمل شيئا من المـدح او العطف على القنصل ، بل كانت النغمة التي يرددها دائما هي : « أنـا والامبراطور » .

ويجب ألا نعطي وزنا أكثر من اللازم لانطباعات استانلي ، لأنـه كان أرعنا في حكمه على اخلاق الناس وطباعهم ، فكل مرونـة كانت في نظره جبنـا ، ولكنه هو ايضا قد وضع كتابا عن هذه الحملة ، وعلينا ان نعطي آراءه شيئا من الاعتبار . فرأيه في الأسرى انهم كانوا طغمـة حقيرة ذليلة ، طغى عليها الطمع ، وأنهم جميعا مرتشون ، وفي شجـار ونـزاع مستمر . ثم انه لم يترك فرصة ، الا وهاجم رساما بنوع خاص. وكان يعتقـد انهم لو وهبوا ذرة مـن الشجاعة لتمكنوا من الهـرب قبل زمـن طويـل .

وهناك ناحيـة اخرى واحدة ، ظلت لغـزا مبهمـا . وهـي أن المهندسين الألمان كانوا على وفاق تام مع ثيودور ، لدرجة أنهم لم يرسلوا الى المعتقل بمجدلا ابدا ، بل ظلوا طول الوقت مع ثيودور في معسكره ، دون ان يتضح انه كان يتشكك فيهم ، كمـا تشكـك في المبعوثـين البريطانيـين وفي المبشرين . ولربما كان السبب في عدم تعرضهم للمعاملة السيـئة ، أن الامبراطور كان محتاجا لمقدرتهم الفنية ، أو ربما كان في شراستهم وتبلدهم ، سلاح امضى ـ بالنسبة لأعصاب ثيودور المتوترة ، وعقليته المضطربة ـ من دبلوماسيـة رسام المهادنة . ومن الانصاف ان نضيف أن رساما كان دائما يعتقـد أنه يسلك أمثل الطرق وأنه يتصرف مع ثيودور بما تمليه عليـه غريزته وطبيعته ، لا لأنه كانت تنقصـه

الشجـاعــة .

وعلى أي حال فقد ارتدى ملابسه الرسمية الزرقاء ، بمجـــرد أن قرأ خطاب ثيودور ، وفي الحال استدعاه جماعة من الحرس ، وعند خروجه من المعتقل واجهه منظر غريب، فقد فرش السجاد العجمي على رقعة مـــن الأرض تبلغ مساحتها حوالي الألفي متر مربـــع ، ونصب فسطاط الامبراطور الخاص بالتشريفات على أحد اطرافها ، بينما تجمع حولها عدد كبير من القواد . وكان ثيودور داخل الفسطاط ، مع صناعه الألمان ، فما ان رأى رساما ، الا وتقدم في شغف ليصافحه قائلا : « علينا اليوم ان نكون جميعا بريطانيين » . لقد مضت سنتان الآن منذ أن تقابلا لآخر مرة ، فدهش رسام لمظهر الامبراطور الذي شاب رأسه ، وأصبح يبدو أكبر من عمره بعشرة سنوات .وعندما لاحظ ثيودور ما بدا على رسام من دهشة ، خاطبه قائلا : « انظر كيف شاب رأســـي منذ أن افترقنــا » .

وذكر رسام عن هذه المناسبة : « ولكي أضفي على الموقف صبغة الفكاهة اجبته قائلا : « ليس من المستغرب ان يشيب رأسكم يا جلالة الامبراطور ، اذا أخذنا في الاعتبار انكم كنتم تنعمون بحياة زوجيـــة سعيدة ، بينما لا أزال انا بعيدا عن متاعب الحياة الزوجية وهمومها » . فابتسم الملك لما تضمنته هذه العبارة من نكتة ، ثم وضع يده على وجهه وقال « لقد افحمتني يا صديقي رسام .... قد تجدني يوما من الايـــام جثة هامدة ، وقد تصب على جثتي اللعنة وأنت تقـــف بالقـــرب منها ، وتقول ، يجب الا يوارى هذا الرجل الشرير بالتراب ، بل يجب ان تترك جثته لتتعفن على ظهر الارض ، ولكنني أثق في شهامتك يا صديقي » . فرجاه رسام الا يردد مثل هذه العبارات المؤلمة .

أما عن باقي المقابلة فيقول رسام ان ثيودور « كان في منتهـــى الكياسة ، وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه الا عندما يشير الى القنصل

كميرون ... » ثم شرب كأسا من التج على نخب رسام ، وكان من وقت لآخر ينفجر ضاحكا لنكاته . ثم وافق في الحال على اقتـراح رسام بأن بريدو وبلانك ، على الأقل ، يجب ان تزال قيودهم . أما عـن الجيش البريطاني الذي كان في طريقه نحو مجدلا ، فقد كـان ثيودور بادي السرور والغبطة لمقدمه « لانهم يعلمون انه مـن سلالة سليمان ، وأنه ملك الملوك ، ولذلك فسيتم كل شيء على أحسن وجه » . ثـم اضاف قائلا « وأتمنى يا رسام الا ينظر اليّ قومك بعين الاحتقار ، عندمـا يصلون ، لأنني أسود ، فقد وهبنا جميعا نفس العقل ونفس القلب » . وبهذا انتهت المقابلة الاولى ، ثم قفل ثيودور هابطـا الى معسكـره بسلامجي .

وبعد أربعة ايام تمت مقابلة ثانية ، دعي فيها كل من رسام وبلانك وبريدو ، لمشاهدة وصول مدفع الهاون الكبير . وفي طريقهم هابطـين الجبل ، وجدوا ثيودور جالسا على حافة صخرة يراقب رجاله وهـم يعالجون المدفع عبر عقبة كأداء ، بلغ الانحدار فيها نحو ٤٥ درجة . وفي لحظة من اللحظات ، خُيّل اليهم ان المدفع سيفلت من حباله ويهـوى مجلجلا الى قاع الوادي . وأخيرا ، عندما بلغ المدفع جزءا مستويا من الارض التفت ثيودور الى رسام ، وسأله عن الجيش البريطاني ، وعن قوة مدافعه ، ومن أي مدى يمكنها اصابة اهدافها؟ وما هي تكتيكات الجنود الحربية ؟ وأجاب رسام بأنه لا يعرف شيئا عن المسائل الحربية . فاستمر ثيودور قائلا : « وكيف يمكنني ان استعرض جنودي ، وهم في هذه الاسمال ، امام جنودكم الانيقة الهندام ؟.... لـو كنت قويا الآن كما كنت في الماضي ، لما ترددت في لقائهم عند الساحل ، او على الأقل ، لأرسلت لهم من يسألهم عما يريدونه في بـلادي . ولكنني ـ كما هو واضح ، قد فقدت كل الحبشة ،ما عدا هذه الصخرة » .ثم اضاف ان هذا المدفع لم يُصنع لاستعماله ضد البريطانيين ، بل لاستعماله ضـد

« مواطني الاحباش » ، وعاد مرة أخرى الى شكواه من كميرون ومن باقي الاسرى ، ولم يستطع رسام ان يهدىء من روعه ، الا بعد زمن طويل . وأخيرا وافق على ان يطلق سراح كميرون وغـيره من الاسرى الذين كانوا لا يزالون يرسفون في اغلالهم . وعندما عاد رسام الـــى المعتقل في ذلك اليوم ، وجد ان اوامر ثيودور قد نُفّذت فعلا .

وأثناء هذه المقابلة ، كان ثيودور قليل الكلام ، شارد الذهن ، الى درجة ما . وفي تلك الليلة تجددت آمال الاسرى ، عندما استلموا رسالة من ميروذر يقول فيها ان الجيش يتقدم الآن وراء نهر « تكازي » .

وخلال الستة ايام التالية ، لم يسمع الأسرى عن ثيودور الا القليل جدا ، فقد قيل انه خرج في إحدى غزواته التخريبية في وادي الباشيلو ، وأنه كلما عاد الى معسكره، لا يكون له مـــن عمل الا ان يصعد الى مرتفعات جبل « سيلاسي » ليتفرس الافق بمنظاره ، علّه يجد أثــــرا للقوات البريطانية .

وكان نابير في هذا الوقت ، يتقدم بجنوده في سرعـــة محسوسة ، الا انهم في الثاني من ابريل توقفوا قليلا عندما اطلقت قوات الطليعة النار خطأ، على بعض المحاربين الأثيوبيين، ظنا منهم انهم من الاعداء، مما اضطرهم لأن يعتذروا لزعمائهم ، ويرسلوا لهم بعـــض الهدايا قبـــل ان يتابع الجيش سيره مرة اخرى . وفي الخامس من ابريل وصلوا بدايـــة الطريق الذي اقامه ثيودور حديثا على نهر «شيتة» وفي الحـــال اخذوا يهبطون الى وادي الباشيلو الذي ينخفض عن مستوى باقي القطر بما يقرب من الثلاثة آلاف وتسعمائة قدم . وهنا ظهرت مجدلا واضحـــــة للعيان ، فقد اصبحت على بعد عشرة اميال فقط . وسبق نابير الجيش للاستطلاع ، ولكنه لم يتأكد من تفاصيل الموقف . وقد جاء في بلاغاته الحربية فيما بعد . « واذا لم نأخذ مجدلا كلية في الاعتبار ، فان المناعة

الطبيعية للمنطقة ، تفوق كل ما قدّرناه لها ... » فقد كانت أمامهم ثلاثة جبال شاهقة ذات قمم منبسطة ، يبلغ ارتفاع كل منها نحو التسعة آلاف قدم. فجبل «فحلا» يقف عن يمينهم، و «سلاسي» (حيث كان ثيودور يراقبهم من اعلا قمته) يقف عن يسارهم، وأخيرا مجدلا نفسها . وخيّل الى نابير ان جبل «فحلا» ومن تحته هضبة «اروجيه» هما مفتاح الموقف، وانه لو استطاع الاستيلاء على هذين الموقعين ، فسوف يمكنه ذلك من التقدم على الهضبة التي تقع بينهما ، الى حيث يعسكر ثيودور ، في سهل «سلامجي» . وسواء كانت خطة ثيودور تقتضي ان يقاتل عند هضبة أروجيه ، قبل فحلا ، او في سهل سلامجي ، فلا بد من الاستيلاء على مجدلا بالقوة ، وذلك باقتحام بوابتها بهجوم امامي مباشر . وفي نفس الوقت يجب ان تبذل محاولة لتسلق شثورها ، التي يبلغ ارتفاعها نحو ألف قدم ، باستعمال سلالم التسلق الخاصة ـ الشيء الذي يعتبر من أخطر العمليات الحربية التي يمكن تصورها . وفي تلك الليلة ، كان نابير قد أكمل وضع خططه .

وهي تتلخص في أن يشترك في الهجوم ، حوالي الفين من الرجال ، يحمل كل منهم ـ بالاضافة الى سلاحه وذخيرته ـ اربعة ارطال من المؤن ، ومطرة (أي زمزمية) لتملأ من نهر الباشيلو عند عبورهم له . وكان على فرقتي المهندسين والمشاة ان تسيرا في المقدمة ، ويحتفظ بالخيالة في الاحتياطي . وفي نفس الوقت يطلب من قبائل « القالا » ، ان يحيطوا بالحصن اثناء سير المعركة ، ليمنعوا ثيودور من التقهقر في اللحظة الاخيرة . وكانت قبائل «القالا» على أتم استعداد للقيام بهذه المهمة ، لأن ثيودور كان قد دمَّر المنطقة المحيطة بهم تدميرا كاملا ، فبلغت كراهيتهم له درجة الجنون .

ورغم اتصاله المستمر مع رسام ، فلم يستطع نابير ان يقدر قوة العدو تقديرا دقيقا ، ولكنه خمن أنها في حدود السبعة آلاف محارب ،

معظمهم مسلحون بالبنادق ، يعززهم مدفع الهاون وعدد من بطاريات المدفعية . واذا ما قررت هذه القوة أن تصمد في مجدلا باصرار ، فسوف تكبد القوات البريطانية خسائر جسيمة ، الا انهم سيتعرضون لحصار قد يستمر لعدة اسابيع ، بل عدة شهور . وعلى أي حال ، فقد كان من الواضح ان ثيودور مشغول في الوقت الحاضر بتوزيع قواته على سهل سلامجي ، فمنذ الخامس من ابريل كانت خيامه ، والدخان المنبعث من معسكره ، على مرأى من البريطانيين . وهنا أرسل نابير بانذاره الاخير ، على يد احد الوطنيين ، وقد جاء فيه : « بأمر جلالة ملكة بريطانيا ، هأنذا اقترب بجيشي نحو مجدلا ، لأستعيد المندوب رسام ، والدكتور بلانك ، والملازم بريدو ، وغيرهم من الاوروبيين ، الذين تحت قبضة جلالتكم . واني اطلب من جلالتكم أن ترسلوهم لمعسكري ، بمجرد أن أصبح على مسافة تسمح بوصولهم سالمين » . وكانت آخر مراحل الزحف السريع منهكة بنوع خاص ، فالأمطار ، وعواصف البرد كانت تجتاح الجند ليلا ، بينما كانت حرارة الشمس المتوهّجة بين الجبال ترهقهم نهارا . وذاقت الأفيال الامرّين ، فكثيرا ما زلت اقدامها وهوت على الارض المبتلة ، وتمنعت عن السير لمدة من الزمن . وأخذت المسافة بين قافلة التموين ومقدمة الجيش ، تزداد شيئا فشيئا ، نتيجة لضيق الدروب ووعورتها ، فنتج عن ذلك ان استمر كثير من الجند لمدة ست وثلاثين ساعة ، دون طعام ــ وجاء ذلك بعد زحف مرهق لمسافة اربعمائة ميل من الساحل ــ الا ان ظهور العدو بعد ثلاثة اشهر كاملة قضوها في اثيوبيا ، كان له اعظم الاثر في تجديد حيويتهم ، ورفع روحهم المعنوية . وقد لا يكون في البيانات الرسمية شيء من المبالغة عندما ذكرت ، ان الجنود ــ من بريطانيين وهنود ــ كانوا يتقدمون في حماس ظاهر . وفي التاسع من ابريل ، تجمعت كل القوة المهاجمة عند نهر الباشيلو ، وفي صبيحة اليوم التالي ــ يوم الجمعة الحزينة ــ عبروا مجرى النهر حفاة

الأقدام بعد ان توقفوا قليلا لملء مطراتهم (زمزمياتهم) . وفي صمت تام أخذوا يتسلقون المرتفع على الضفة الأخرى للنهر ، وكانت امامهم خمسة أميال قبل ان يصلوا هدفهم الاول ــ وهو هضبة « اروجيه » .

وفي هذا الوقت كان ثيودور قد ثبّت مدفع الهاون ، وسبعة مدافع اخرى ، على مرتفعات فحلا ، بينما بقي هو والجزء الأكبر من رجاله على بعد ميل ونصف ، في سهل سلامجي . وفي فجر الثامن ابريل ، استلم رسام رسالة من ثيودور ، يطلب فيها من جميع الأسرى ــ أوروبيين وغيرهم ــ ان ينزلوا فورا لمعسكره . وعند نزولهم وجدوا ثيودور في سراويل ضيقة ، وعباءة من الحرير المطرز بالذهب . ويقول رسام « انه كان في تلك الحلّة اشبه بالمهرّج ، منه بالملك » ، الا ان روحه كانت أبعد ما تكون عن المرح . وأخذ يتحدث للأسرى البريطانيين لمدة ساعة كاملة ، مشبها نفسه بديموقليس [١] ، ثم قال : اما انتم على الأقل ، فستكونون في امان [٢] ، وانه احضرهم من مجدلا ليكونوا تحت رعايته الخاصة . ووجدوا انه قد أُعد لهم سرادق خاص من الحرير ، بالقرب من سرادق ثيودور ، ليقيموا فيه حتى وصول خيامهم وأمتعتهم من مجدلا . ثم امر ثيودور بجمع الجنود في ذلك السهل ، واعتلى صخرة وأخذ يخطب فيهم ، بينما وقف رسام ورفاقه يراقبون المشهد . ومما قاله لهم : انهم سيلتقون في ظرف يوم أو يومين ، بجيش يفوقهم بمراحل من جميع النواحي ــ جيش لقوم قد بلغوا من الغنى انهم

---

١ ــ Damocles كان رجلا متملقا من بطانة « ديونيسيوس » الاكبر طاغية « سرقسطة » . وفي يوم من الايام ، بعد ان بالغ في اطراء الملوك وسعادتهم ، دعاه ديونيسيوس لوليمة واثناءها ، رفع راسه الى اعلا فرأى سيفا معلقا بشعرة واحدة فوق رأسه ، فكان درسا له جعله يغير رأيه عن سعادة الملوك . وذهبت عبارة «سيف ديموقليس» مثلا يعني ان المخاطر تحف دائما من يتولى المناصب والجاه .
(المترجم)

٢ ــ أي ان عبارة « سيف ديموقليس » لا تنطبق عليهم .
(المترجم)

يحملون خزائنهم على ظهور الأفيال ــ . ثم مضى يقول « فهل انتم مستعدون للقتال لتغتنوا من اسلاب هؤلاء الرقيق البيض ، ام ستلحقون بي الفضيحة والعار بأن تولوا الادبار » .

فتصدّى رجل مسن للاجابة المتوقعة ، قائلا انهم سيمزقون البريطانيين اربا . وفي لمح البصر اتجه ثيودور نحوه قائلا : ماذا تقول ايها الأبله ؟ هل رأيت جنديا بريطانيا ابدا ؟.... انهم سيمزقون احشاءك قبل ان تعرف موضع قدميك . وبعد عدة دعابات اخرى من هذا النوع ، امر ثيودور جنده بالانصراف . ووجد رسام فرصته ليسأل ثيودور : لماذا لا يدخل في مفاوضات مع نابير ؟. فأجابه ثيودور « وما الفائدة من ذلك ؟. فقد سبق السيف العزل ، ويجب ان تجري الامور مجراها » . ثم انطلق الى سلاس بمنظاره المقرّب ، وعندما عاد في العصر ، أخبر الأسرى البريطانيين انه رأى قافلة من الأفيال ، محملة بالامتعة قادمة من وادي الباشيلو . وكان يبدو عليه التعاظم وعدم المبالاة . هذا ــ وكان قد أحضر مع الاوروبيين ، نحو ستمائة من الأسرى الأحباش ، وخلال ذلك اليوم اطلق سراح معظم النساء والاطفال ــ وكانوا ١٨٦ في حملتهم ــ كما اطلق سبع وثلاثون من الزعماء .

وقضى الأوروبيون تلك الليلة في سرادقهم ، وفي الصباح الباكر ، علموا ان ثيودور قد أعلن العفو العام . وكانت عملية ازالة القيود شاقة وبطيئة ، فحتى الرابعة مساء لم يتعد الذين اطلق سراحهم ، الخمسة وتسعين شخصا . فأخذ بعض الاسرى ومعظمهم من القالا ــ اخذوا يشكون البطء . وكأنما كان ثيودور ينتظر شيئا من هذا القبيل ، فما ان سمع بهذه الشكوى ، الا وثار ثائره واندفع من سرادقه ، يحف به حرسه الخاص ، وسيفه مشهر في يده ، واتجه نحو اكواخ السجناء الوطنيين التي كانت بالقرب من الهاوية . وكانت قد صدرت الأوامر للأوروبيين بأن لا يبرحوا أماكنهم ، ولذلك لم يشهدوا المجزرة التي

حدثت ، ولكنهم كانوا يسمعون طلقات الرصاص وصياح الضحايا وعويلهم . ومضت ساعتان ، والأسرى يجرون امام ثيودور ، الواحد تلو الآخر . وقلما كان فيهم من ارتكب جريمة ، اكثر من أن يكون قد ضحك في حضرة ثيودور وهو في حالة غضب ، او ان يكون قد أبطأ ، او لم يفطن لأن يناوله بندقية او سيفا في الوقت المناسب . فلمثل هذه الهفوات ظلوا مكبّلين بالأغلال لعدة شهور او عدة سنين. ولهذا السبب ايضا ، هم اليوم يقتلون . وكل ما أُحضر أمامه أحد من هؤلاء البؤساء ، كان يستمع للتهم وهو يتميز غيظا ، ثم ينطق بالحكم ، الذي كان هو نفس الشيء ، ولا يتعدّى عبارة خذوه ، ومعنى ذلك ان يلقى بالرجل من الهاوية . ومن لم يمت عند ارتطامه بقاع الهاوية ، كان يجهز عليه بطلق ناري من رجال مسلحين بالبنادق ، وضعوا خصيصا لهذا الغرض . وعندما كان في ذروة غضبه ، أجهز ثيودور بنفسه على احد الضحايا بضربة قاضية من سيفه ، بينما أجهز على اثنين آخرين رمياً بالرصاص . وكان أحد المساجين متهما بالتعدّي على خليلات ثيودور ، فقضى زمنا طويلا، هو واثنين من ابنائه مكبّلين بالاصفاد . وفي هذه الحركة احضر الابنان وأُعدما مع الآخرين ، ولكن عندما جيء بالرجل نفسه ، صاح ثيودور في نزوة جنونية : « فكوا وثاق هذا الرجل وأخلوا سبيله » . واستمر القتل حتى مغيب الشمس ، قبل ان يشفي غليله . وبلغ عدد الجثث التي تراكمت فوق الصخور ، نحوا من مائة وسبعة وسبعين جثة .

وظل المعسكر طيلة تلك الليلة ساكنا قلقا ، ولم يذق ثيودور طعم النوم الا قليلا . وقال خدمه فيما بعد ، انه أمر باحضار العرق ، وقضى معظم الليل يحتسي الخمر ويتعبد ،وانه كثيرا ما خر جاثيا طلبا للمغفرة عن المجزرة التي ارتكبها قبل قليل . وفي صبيحة العاشر من ابريل ، أُخبر الأسرى الاوروبيون أن ثيودور قد غيَّر رأيه بخصوصهم ، وأن عليهم

ان يعودوا لمجدلا ، ونصحوا بان يتحركوا فورا ، دون تأخير لأنه كان لا يزال في ثورة غضبه . الا ان رساما قام بمحاولة اخرى ليحمله على الدخول في مفاوضات مع نابير . فرد ثيودور على خطابه قائلا : « أتريد ان أكتب الى ذلك الرجل ؟... لا ... لن افعل شيئا من هذا القبيل، لأنه مرسل من قبل امرأة » .

وبينما كان الأوروبيون على وشك ان يغادروا المعسكر ، وصل رسول نابير وسلم الانذار لرسام ، فأرسل هذا في الحال مذكرة لثيودور ، يطلب فيها ان يسمح للرسول بالمثول بين يديه . فرد ثيودور كتابه ، بأنه يرفض رؤية الأنذار ورؤية الرسول ، على السواء . ثم اضاف قائلا : « واذا حصل ان كتبت انت للبريطانيين ، فان ذلك سيكون نهاية صداقتي معك ، وستقع مسؤولية دم رسولك على عنقك ، فاياك ثم اياك » .

وعندما عاد الأوروبيون الى معتقلهم ، وجدوا المكان خاليا . فقد هجره معظم المدنيين في جنح الليل ، ولم يبق غير خمسين رجلا للدفاع عن الحصن . وأقبل الصبح قاتما ، حارا ورطبا ـ وتجمعت السحب ، وهدر الرعد من فوق قمم الجبال .

* * *

الفصل السابع عشر

موت في عيد الفصح

« لقد رفعنا راية القديس جورج فوق
جبل رسيلاس »
(بنيامين دزرائيلي)

لقد تميزت وقعة مجدلا بما اكتنفها من طرافة عجيبة ، لم تقتصر على الدور الذي قام به الامبراطور فقط . صحيح ان جميع الحروب لا تخلو من كثير من الطرافة ، لأنها اصلا مجافية للعقل والمنطق ، ولأنها لا تتعدى ان تكون نوعا من المغالاة في السعي وراء القتل . ولكن في هذه الحالة بالذات ، انعدمت جميع الدوافع المعروفة لنشوب حرب ، فالأسلوب كان خاطئا ، والمجهود الذي بذل كان كبيرا ، والغرض الذي بذل من اجله هذا المجهود كان تافها جدا . وكانت هذه الحملة ، تختلف في مغزاها كل الاختلاف عن حملة بونابارت على مصر، او غزو محمد علي للسودان . فبونابارت ومحمد علي ، كانا وراء السلطة والسيطرة ، كما ان المماليك بمصر ورجال القبائل بالسودان كانوا يحاربون دفاعا عن اوطانهم وأرواحهم .

اما في اثيوبيا ، فلم يكن البريطانيون وراء اي كسب من اي نوع ، ولم يكن بينهم وبين الأثيوبيين اي نزاع ، بل كانوا عازمين على العودة بمجرد انقاذ الأسرى ، تاركين القطر تحت رحمة اساليبه المظلمة . وبعبارة

اخرى ، فان كل هذه العمليات الحربية الواسعة النطاق ، والبالغة التكاليف ، لم تكن الا ضربا من الغطرسة العنصرية ، لا أكثر ولا أقل . فقد اساء ثيودور الى دولة عظيمة ، ويجب ان ينال جزاءه على هذه الاساءة .

ولا يمكن لأحد ان ينحي باللائمة على البريطانيين ، وهو جاد في ذلك . فقد كانوا في منتهى الصبر والاتزان ، ومع ذلك فقد أخرج ثيودور ـ شيخ المجرمين بعينه ـ أخرج هذه المشكلة ، بطريقة شاذة ، من نطاق العمليات الحربية الاستعمارية المعروفة . بل انه كان يثير من المشاكل ، وهو في غمرة ثوراته اليائسة ، ما هو أكبر من محاولة فجة للتشبث بالحياة . وهو بتخبطه ووحشيته ، كان عاملا جوهريا في تحدّي القدر ، عاملا يمثل نوعا من الصراع الدائم بين الشعور بالخطيئة ، والتبرّم بالحياة ، اللذين يتنازعان بعض النفوس . ومثل هؤلاء الاشخاص هم عادة في حاجة الى الدين ليهبهم الطمأنينة واليقين . ولو تغاضينا عن وحشية ثيودور لحظة واحدة ، لوجدنا أنه شخص تبوأ مكانا غير مكانه في هذه الحياة ، او انه «كاليبان» [1] آخر ، وُهب القوة ، ولكنه لم يجد التوجيه الصحيح ، فلم يعد له مكان أو لقوته معنى . أما نابير فقد كان يعرف مكانه بالضبط ، ويعرف اين يقف . لقد كانت من ورائه زوجة صغيرة ، وله خبرة طويلة ، وأمامه مستقبل زاهر يشير بأنه سينال «اللوردية» عما قريب . وكان مركزه يحتم عليه ان لا يحيد عن مواطن الشرف ودواعي العقل ـ لقد تحدد موقفه في الحياة وقبل بواقعه فيها . أما ثيودور فلم يقبل بشيء ، لأنه كان متورطا في مشكلة الأفارقة الرئيسية ـ الا وهي تطلع اذكيائهم لايجاد مخرج مما هم فيه من جهل وخمول ـ الا ان المشكلة كانت اكبر منه بكثير . ولم

---

١ ــ Caliban شخصية من شخصيات شيكسبير في مسرحيته «العاصفة» تمثل عبدا في منتهى الوحشية والشراسة .

يكن لاحتجاجه وتساؤله من اثر ، غير ما أحدث في عقله من تشويش ، حتى انه كان يرى الاشباح في كل مكان ، ويتوهم المؤامرات في كـل لحظة ، ولا يجد غير البغض بديلا لما كان يتوق اليه من محبة . لقد بلغ نهايته وكان يعلم ذلك جيدا ـ الا انها كانت لا تطاق ، فلم يبق له غير كبريائه ، وغير التشبث الأخير بكرامته .

ولكي تسوّى مشكلة الكرامة هذه ـ وهي كرامة رجل واحد ، مقابل كرامة امة بأسرها ـ نجد انفسنا امام موقف عجيب . جيشـان يتقدمان في مواجهة بعضهما البعض ، في ذلك العلو الشاهق مـن جبال اثيوبيا القصية ، وقد بلغ بهما الجهل فوق ما يتصوره العقل ـ لا يعرف أي فريق منهما لغة الفريق الآخر ، ولا يعرف سياسته او نظم حياته ، كما انه لا توجد بينهما كراهية حقة ، وليست لهما مصلحـة في النزاع القائم ـ وكل ما هنالك ان شخصا ما ، امرهم بالقتال ، فانطلقوا لخوض غماره ، على اختلاف عقائدهم وأجناسهم ، من مسيحيين ومسلمين ، من سود وبيض ، سيخ وهندوس ، وقبائل اثيوبية متعددة ـ ، انطلقـوا ليقتتلوا مؤمنين ايمانا راسخا ، ان ما يقومون به أمر لا مفر منه ، وانه هو الحق الذي لا مراء فيه .

وبمجرد ان غادر الأسرى الاوروبيون معسكر ثيودور ، في صبيحة يوم الجمعة اليتيمة (للمسيحيين) ، علم ثيودور بأن البريطانيين قـد اقتربوا من هضبة «اروجيه» في طابورين ، سلك احدهما الطريق الذي انشأه ثيودور حديثا ، بينما اخذ الآخر يتعثر في طريق غير معبّد ، يأتي مباشرة من وادي الباشيلو . فانطلق ثيودور مع المهندسين الألمان الـى مرتفعات فحلا لمباشرة قيادة المدفعية ، بينما اخذت باقي قواته ، البالغ عددها نحو سبعة آلاف رجل ، اخذت أماكنها على الجزء الأسفل مـن منحدرات الجبل استعدادا للقاء الأعداء . وعقـد لواء الجيش للزعيم «جبري» وهو من مواليد مسقط رأس ثيودور ، وقد اشترك معه بتفاني واخلاص في جميع غزواته .

طابور نابير بين الجبال

والظاهر انه لم تكن لديهم خطة حربية واضحة ، بل كان هناك مفهوم عام ، يتلخص في انه بمجرد ظهور البريطانيين ، على المدفعية ان تفتح نيرانها ، وعلى رجال القبائل ان يشنوا هجوما مباشرا ـ وسيكون جزاء كل منهم ما يجمعه من اسلاب .

وكان الطريق الصاعد من وادي الباشيلو ، أشد وعورة مما قدّر البريطانيون ، كما كان الحر شديدا رغم السحب المتراكمة ، ولم يستطع كثير من الجند مواصلة السير لما اصابهم من اعياء ، وهم يجاهدون فوق المرتفعات الوعرة لساعات عديدة . ولذلك لم يتمكن الطابور من الدخول الى هضبة « أروجيه » قبل الرابعة مساء . وفي اللحظة التي وصلوا فيها الهضبة ، ارتفعت نفثة من دخان أبيض متعرّج ، فوق قمة جبل فحلا ، وتبع ذلك دوي هائل ، اخذت تتجاوب اصداؤه بين قمم الجبال ، واذا بقذيفة تطن فوق رأس نابير وأركان حربه ، ثم تغوص في الأرض من خلفهم . وفي الحال امتلأت المنحدرات بالرجال ، وهم يتسابقون نحو الهضبة ، يقودهم نحو خمسمائة زعيم على صهوات الجياد ، في حلل قرمزية زاهية ، بينما تدفق الرماحون من بينهم في جلبة وضوضاء ، وهم يرددون اناشيد الحرب ـ وقد قدر عدد المهاجمين ، فيما بعد ، بنحو الخمسة آلاف رجل. وعندما وصلوا السهل ـ حسب تعبير استانلي ـ «كانوا قد كسوه تماما باجسامهم الداكنة» .

ولم يجد نابير من الوقت الا ما مكنه من تنظيم صفوفه ، فأمر المشاة بأن يلقوا بأمتعتهم ارضا ، وان يتقدموا في خط واحد ، ثم فتحت البطاريات نيرانها ، فوق رؤوسهم على العدو المقترب. وكان هناك ارتداد ظاهر في الهجوم عندما تفجرت القذائف الصاروخية ، الا ان الاثيوبيين واصلوا تقدمهم . ثم هبت عاصفة هوجاء ، فاختلط هدير الرعد بقصف المدافع وبالصياح والتهليل في الجانبين ، وهم مسرعون للتلاحم . غير ان نيران البنادق قد اوقفت الاثيوبيين ، في معظم الاماكن ، وهم على

بعد مائة ياردة أو أكثر مـن صفوف البريطانيين . ولكنهم في بعض الاماكن ، تمكنوا من اختراق الصفوف ، فاعملوا سهامهم لفترة مـن الزمن في سيّافي البريطانيين . وعلى العموم ، فقد كان القتل في هـذه المرحلة ، طائشا ودون تمييز . اما مدفع الهاون الذي كان على رأس جبل فحلا ، فقد انفجر وتهشم منذ أن أطلق قذيفته الاولى . وبعد انفجاره توقفت جميع المدافع الاثيوبية عن العمل ، توقفا تاما ، وعلى أي حال فان تصويبهم الطائش ، لم يخدم لهم غرضا . ثم دخلت اعداد متزايدة من البريطانيين لتشترك في المعركة ، واخذوا يثبتون مدافعهم في اماكنها، ثم بدأت مجزرة شاملة ، تحت وابل مـن المطر . ورأى البريطانيون الرأس «جبري» بزيه الفاخر الذي كان يميزه عن بقية الفرسان ، فظنوا انه ثيودور ، وسرعان ما اردوه قتيلا . ومنذ هذه اللحظة ، كان السؤال الوحيد الذي يدور بخلد البريطانيين هو «كم سيقتلون من الاثيوبيين قبل ان يرخي الليل سدوله ؟» . أما الاثيوبيون ، فلم يستسلموا للهزيمة، رعم ما كان واضحا من انه لم يعد امامهم أي أمل في النصر ، بل كانوا يجمعون صفوفهم ، المرة تلو الاخرى ، ويعيدون الكرة تحت نـيران البنادق ، الا ان كل كرة كانت اضعف بقليل من سابقتها . ولم يتوقف القتال الا بعد ان أُجلي آخر اثيوبي عن الهضبة ، وكان ذلك في حوالي السابعة مساء ، أي بعد ان استمر القتال لمدة ثلاث ساعات دون توقف . وهنا اوقف نابير المطاردة ، لئلا يضل جنده في الظلام ، وأمر بأن يبيت كل جندي في مكانه ، وفي نفس الوقت كانت التعزيزات لا تزال تتقاطر من وادي الباشيلو . وعند احصاء القتلى في ذلك الظلام ، اتضح ان الاثيوبيين قد فقدوا نحو السبعمائة رجل ، بينما قدر جرحاهم بنحـو الالف ومائتين . اما البريطانيون فقد جرح منهم عشرون رجلا ، مات منهم اثنان فيما بعد .

وظلت الاضواء تتراقص لعدة ساعات على منحدرات فحلا ، غير

ان ثيودور لم يحاول تجديد الهجوم . واستمر صياح الجرجى وانينهم ينبعث مـن ميدان القتال طيلة الليل ، فنقـل بعضهم الى المستشفى البريطاني . اما الباقون ، فمنهم من حمله رفاقه تحت جنـح الظلام ، ومنهم من حبا هاربا من تلقاء نفسه . وعند انبثاق نور الصباح ، اخذت النسور ، التي اجتذبها منظر الدماء ــ اخذت تحلق في دوائر حلزونية ، وهي هابطة على الجثث المتكدسة في ميـدان المعركة . اما الضبـاع والثعالب ، فقد قامت بمهمتها اثناء الليل .

ولدينا معلومات ، تكاد تكون متكاملة ، عـن جميع تحركات ثيودور خلال هذه الساعات . فالظاهر انه قد حاول في اول الامر ان يكبح جماح رجاله ، دون ان يبادروا بالهجوم . ولكنه عندمـا رأى تصميمهم ، اذعن لهم ، وأخذ موقعه على قمة فحلا ، قائلا انه سيحمي هجومهم بمدافعه ، ثم أمر صناعه الالمان بأن يعبئوا مـدفع الهاون والمدافع الاخرى بالبارود . اما عملية اطلاق المدافع نفسها فقد قام بها رجاله . وفي بداية المعركة ، قدرت المدفعية البريطانية المسافة الى فحلا تقديرا دقيقا ، وكادت اولى قذائفها ان تصيب ثيودور . ومنـذ تلك اللحظة حمى نفسه خلف درعه ، وظل يراقب المعركة في صمت تام . وكان يرسل رسله باستمرار ليقتصوا الاخبار من«جبري» وغيره من القواد، غير انهم لم يجدوا ما يقولونه له غير ان جميع القواد قد قتلوا . وبمجرد ان ارخى الليل سدوله عاد الى معسكره بسلامجي .

اما الاسرى ، فقد قضوا يوما مزعجا وهم محجوزون بعيدا في مجدلا . لقد سمعوا دوي الرصاص منبعثا من هضبة اروجيه ، ولكنهم كانوا أبعد من ان يستطيعوا تبين ما كان يدور هناك ، كما انه لم تصلهم أية أخبار من أي نوع. وبعد المغيب مباشرة ، ذهب رسام لفراشه الا ان فلاد وأحد الالمان ، قد ايقظاه في العاشرة مساء ، وهم يحملون رسالة من ثيودور ، كان نصها كالآتي : «كيف حالكم في هذا اليوم ؟ اما انا

فبخير والحمد لله ــ وبعد ، فاني كملك ، لم أستطع ان أرى ، قومـــا يغزونني في عقر داري ، دون أن ابادرهم بالهجوم . وهذا ما فعلته ، الا أن قواتي قد منيت بالهزيمة . لقد كنت اعتقد ان قومكم اشبه بالنساء ، ولكنني وجدتهم رجالا ــ فقد قاتلوا بشجاعة . ولما وجدت ان لا طاقة لي بمقاومتهم ، رأيت من واجبي ان اطلب منك ان تعقد صلحا بيني وبينهم» .

فبادر رسام بتحرير رسالة ، اشار فيها على ثيودور بأن يرسل وفدا الى نابير في فجر اليوم التالي ، واقترح ان يكون فلاد وبريدو من ضمن اعضاء هذا الوفد . وعندما عاد فلاد الى سلامجي وجد ثيودور مستيقظا ، يحتسي الخمر بشراهة ، فخرج له من فسطاطه مهتاجا وصاح فيه «ماذا تريد ؟» وعندما سلمه رسالة رسام ، انتهره قائلا «ليس هذا من شأنك ، اذهب الى مكانك» . وفي الرابعة صباحا ارسل يستدعي فلاد ، وعندما حضر ، اخبره في نغمة اهدأ من ذي قبل بأن يذهب هو وبريدو الى خطوط القوات البريطانية ، وانـــه سيرسل معهم صهره «دجاج المـــاي» .

وفي فجر الحادي عشر من ابريل ، رأت نقط المراقبة البريطانية ، عن بعد مجموعة صغيرة من الرجال ، تحمل علمـــا ابيض ، فارتفعت صيحات التهليل الى عنان السماء ، وخصوصا عندما رأوا بينهم ضابطا بريطانيا (بريدو) . وسمح لهم بالمضي الى حيث فسطاط نابير ، فساروا وسط حشود غفيرة من الجند ، تجمعت لتحيتهم . وعندما وصلوا مقر نابير ، بالجانب الآخر من هضبة اروجيه، ابلغوه رسالة ثيودور الشفهية، والتي تتلخص في طلب الصلح . وفي الحال حرر نابير الرد التالي :

«لقد قاتلتم جلالتكم كرجل شجاع ، وقد هزمتكم قوات بريطانية تتفوق على قواتكم ، ورغبتي ان لا تسفك دماء أكثر . فاذا ما اظهرتم جلالتكم الخضوع لملكة بريطانية ، وأرسلتم جميع الأوروبيين الذيـــن

في قبضة جلالتكم ، وأوصلتموهم في هذا اليوم للمعسكر البريطاني بأمان ، فاني أضمن المعاملة الكريمة لكم ولجميع افراد اسرتكم» .

وعزز هذا الخطاب بنوع من التهديد ، فقد أخذ صهر ثيودور ـدجاج الماي ـليرى الافيال والمدافع الثقيلة التي وصلت حديثا الى الميدان ، ، وأخبر بأن السلاح الذي استعمله الجيش البريطاني فياليوم الماضي ، ما هو الا لعبة أطفال «بالنسبة لما سيستعمل الآن» ، ما لم يستسلم ثيودور . ثم أخبر بأنه اذا ما حاول ثيودور الهرب ،فسيطارد حتى آخر ركن في اثيوبيا . وانه ستتخذ ضده هو (الماي) وبقية القواد الاثيوبيين ، اجراءات انتقامية ، اذا ما فشلوا في كبح جماحه من القيام بأي فظائع اخرى .

فاضطرب الماي ، بعض الشيء ، لما رأى ولما قيل له ، وطلب مهلة لمدة ٢٤ ساعة . فأجيب طلبه وعاد الى معسكر الامبراطور ، كما عاد معه فلاد وبريدو وفي نفسيهما ما فيهما من هواجس...وهناك استجوبهما ثيودور استجوابا دقيقا عما يقصده نابير بالضبط في خطابه . فماذا كان يعني بالمعاملة الكريمة ؟. هل يعني أن يعامله كأسير ؟ أم سيساعده على استرجاع مملكته من أيدي المتمردين ؟ ثم هل ينوي البريطانيون فعلا أن يهتموا بأمر اسرته ؟ وكان تساؤله كثيرا جدا فالظاهر انه كان في حالة نفسية سيئة ، حاول ان يخفيها . وفي نفس الوقت لاحظ فلاد ان هناك استعدادات في المعسكر الاثيوبي لتجديد القتال . ومما شجعهم على ذلك انهم وجدوا ، عند طلوع النهار ، ان عدد القتلى منهم كان اقل بكثير مما قدروه ، فقد ظنوا باديء الامر ، ان نصف جيشهم قد أبيد . ولاحظ فلاد ايضا، ان بعض القادة الذين نجوا من القتل كانوا يتحدثون عن تجديد الهجوم على البريطانيين ، وفي تلك الليلة بالذات .

زد على ذلك فان الرد الذي ارسله ثيودور الى نابير ، لم يكن يدعو الى التفاؤل . فهو لم يذكر شيئا عن الاسرى ، ولم يذكر شيئا عن

استسلامه ، وبدلا من ذلك ، انحى باللائمة على رجاله ورماهم بالجبن وكراهيتهم له وبالزندقة . ثم أخذ يتوسل الى نايبر ، في لغة الانجيل ــ كما لو اختفى هو من مسرح الاحداث كلية ــ اخذ يتوسل اليه بأن يتلطف بهم قائلا :

«هناك عدد كبير ، في هذه المدينة ، ممــن كنت اطعمهم ، منهم العذارى ، ومنهم نساء غير محصنات ، وزوجات قد ترملن بالامس ، وامهات وآباء ثكلوا في ابنائهم . وقد منحك الله القوة فلا تتخلى عن هؤلاء القوم ، فهذه ارض ضل اهلها سبيل الرشاد .

«واني أسأل الله ان يجزي قومي خيرا عما ارتكبته فيهم مــــن آثام ــ حقت كلمته ــ لقد كان عزمي ، اذا ما شاء الله ، ان افتح جميع العالم ، أو أن اموت دون ذلك ، فمنذ ان ولدت ، لم يتجرأ رجــل لأن يضعني تحت قبضته . وكنت ، كلما تراخى رجالي في القتال ، أهب لاذكاء حماسهم وجمع صفوفهم ، وشد أزرهم ، أما البارحة فقد حال الظلام دون ذلك .

«لقد قضى رجالك ليلتهم في بهجة وتهليل ، فهل لي ان أسأل الله أن يفعل بهم ما فعل بي . لقد كنت أؤمل ــ بعد أن أخضع جميع اعدائي في اثيوبيا ــ ان أزحف بجيشي على القدس لاطرد منها الاتراك . ان من اذل الرجال حتى أصبحوا بين يديه كالاطفال ، لــن يقبل أن يذله أحد او يتلاعب به أحد .»

وسلم هذا الخطاب ، مع الخطاب الذي وصل قبل قليل من نايبر سلما فلاد وبريدو ، وأمرا بالعودة بمفردهما الى الجانب البريطاني .

وبعد ذهابهما بقليل ، استدعى ثيودور مجلس الحرب للانعقاد . وفي هذا الاجتماع ، طالب نفر من ذوي النفوذ ، من قواده ، باعدام الاسرى الاوروبيين وبتجديد القتال . الا ان ثيودور عارض هذا الرأي

قائلا ، انهم اذا اعدموا الاسرى ، فسيضطر نابير لأن ينتقم لهم . وعليه فيجب ان يطلق سراحهم في الحال . وفي حوالي الرابعة من بعد الظهر ، ارسل بعض القادة الى مجدلا، لاحضار رسام ومن معه لمعسكر ثيودور.

وكان ثيودور هادئا نسبيا اثناء هذا الاجتماع ، الا ان نوبة غضب عنيفة قد انتابته فجأة ، وهو ينتظر وصول الاسرى ، فتناول غدارته المزدوجة الزناد ووضعها في فمه ، ثم ضغط احد الزنادين . والظاهر انه كان زنادا فارغا [1] ، لأنه لم يحدث انفجارا ، فاسرع احد رجاله وانتزع السلاح من يده . واثناء هذه المحاولة ، انطلق العيار الآخر ، فأصاب اذن ثيودور اصابة سطحية ، ثم طاشت الطلقة في الجو دون ان تصيب احدا بسوء . وهنا اسدل ثوبه فوق رأسه وارتمى على الارض .

وحتى هذه اللحظة لم يكن احد يحلم بان ثيودور سيخلي سبيل الاسرى ، بل كان الجميع يعتقدون انه ــ وهو في هذه الحالة من الهذيان ــ لا محالة آمر بقتلهم رميا بالرصاص بمجرد دخولهم المعسكر. وكان نفس الشعور قد انتاب الأسرى فهبطوا المنحدر السحيق من مجدلا في صمت تام وخوف متناهي وعندما اقتربوا من المعسكر علموا ان الامبراطور قد غادر مخيمه ، وأنه الآن ينتظرهم على الطريق المؤدي للخطوط البريطانية ، وانه يريد مقابلة رسام منفردا . فتقدم رسام ، تاركا الباقين على قارعة الطريق ، ووجد ثيودور واقفا بين

---

١ ــ علمت من مصدر اثيوبي ان ثيودور كان قبل محاولته الانتحار بقليل ، قد اطلق عيارا ناريا على ابنه « المايو » محاولا قتله لئلا يقع اسيرا في قبضة الانجليز ، الا ان الابن قد تفاداه او ان الطلقة قد اخطأته . ثم حال الموجودون بينه وبين ابنه فما كان منه الا أن وضع المسدس في فمه ، ولسوء حظه قد ضغط على نفس الزناد الذي اطلقه قبل تليل على ابنه . وهنا وثب احد اتباعه وانتزع منه السلاح في اللحظة التي كان على وشك ان يضغط فيها على الزناد المعبأ .

(المترجم)

عشرين رجلا من حرسه الخاص ، وكان معهم المهندسون الألمان . فأمره بان يقترب منه وسأله : كيف قضى يومه ؟ ثم رفـع بصره نحـــو الشمس قائلا : « ألا تعتقــد ان الوقت قد تأخر ، وانك لــن تتمكــن مــن الذهاب لمعسكركم الآن ؟ هل ترى أن تذهب فورا ، أم تفضل أن تقضي معي هذه الليلة ، على ان ارسلك في الصباح الباكر الى معسكر تــومــك . ؟

فاجاب رسام بانه رهــن اشارته ، وسينفذ ما يأمر به ثيودور .فقال ثيودور « حسنا ، الأفضل أن تذهب الآن ، ولكــن تعال واجلس لحظة لاحدثك قليــلا ، قبل أن تذهب » . فجلسا سويا على الارض ، وتابـع ثيودور حديثه قائلا : « أنت تعلم يا مستر رسام اننا كنا دائما ــ أنـت وأنا على علاقة طيبة . والله وحده هو الذي يعلم ما يكنه قلبك ، أما انا فقد كنت دائما أكــن لك كل اخلاص . حقيقة انني قد أسأت اليــك ، الا أن ذلك كان نتيجة لتدبير سيء قام به الاشرار . وعلى أي حال ، فمــا مضى قد فات ، ولا يمكننا اصلاحه الآن . وكل ما أستطيـــع أن أقوله لك ، هو ان ارادة الله نافذة لا محالة ، واريــد منك ان تفهم جيدا انك إن لم تخلص لي ، لقتلت نفسي أو لترهبنت . والآن وداعا ، فــــان الوقت قد تأخر ، وأرجو أن تحاول الحضور غدا لتراني ، إن امكـــن ذلــك » .

وكتب رسام عن ذلك قائلا : « فشكرتــه على عطفه وقلت لــه سوف أحضر لمقابلة جلالتكم إن أمكــن ذلك . وسألني مرة أخرى هل ستحضر غدا ؟. فأجبته بأن ذلك يتوقف على أوامر القائد العام . وهنــا انتصب قائما ، وصافحني مودعا ، ثم أخذ ينتحب وهو يقول ، « وداعا أسرع فان الوقت قد ضاع » .

ونشأ عــن ذلك أشكال أزعج رسام ، فباقي الأسرى لا زالـــوا



الأسرى لحظة الافراج عنهم

منتظريـــن على قارعة الطريـــق على بعد مـــن رسام ، بما في ذلـــك كميرون الذي كان مكروها مـــن ثيودور . فاذا ذهب رسام ، فليس ثمت ما يضمن الا ان يصدر ثيودور أمرا مفاجئا بقتلهم رميا بالرصاص عندما يمرون امامه ، فحرسه لا يزال واقفا ببنادقه على أهـــبة الاستعـــداد . فخاطبه رسام قائلا « أشكرك يا جلالة الملك ، ولكن زملائي لا يزالون خلفي» . وكان جوابه الوحيـــد كما ذكر رسام : «مـــن الخـــير لك أن تمضي » وكانت هذه هي آخر عبارة اسمعها من فمه ، فزاد ذلك من قلقي على زملائي في الأسر ، فتقدمت لبضع خطوات ثم توقفـــت . وكان الملك واقفا على صخرة ، وفي يده بندقية مزدوجة الزناد ، وكـــان رماته مـــن حوله . وعندما رآني اتوقف وأنظر خلفي ، اومأ الي بيده أن أستمر في طريقي . فتضاعفت مخاوفي ، وقدرت انني اذا تفوهت بكلمة واحدة ، قد يكون مصيرنا جميعا القتل . فتقدمت لعدة خطوات ، ثـــم وقفت ساكنا ، وكم كان فرحي عظيما عندما رأيت زملائي يســـيرون نحوي » .

وفي طريقهم للمعسكـــر البريطاني ، قابلوا فلاد وبريدو ، وهمـــا عائدان برسالة مـــن نابير الى ثيودور ، فحواها أنه لا يستطيع تقديم أية شروط أخرى . ولما كان معظم الأسرى قد اطلق سراحهم في ذلك الوقت ، فلم يكـــن من العقل أن يضع فلاد وبريدو انفسهما تحت قبضة ثيودور في تلك الليلة ، ولذلك فقد عادا مع الآخرين . ودخلوا جميعا المعسكر البريطاني بعد الغروب بقليل ، فاستقبلوا استقبالا بالـــغ التأثير عنـــد مخيـــم نابير .

إلا أن هذا لم يكـــن يعني نهاية مشاكل نابير ، فثيودور لا يـــزال طليقا ، ومجدلا لا تزال تحت قبضته ، واسوأ مـــن هـــذا وذاك ، أن زوجة فلاد كانت قد تركت بمجدلا لمرضها العضال ، ولعجزها عن النزول من أعلا الجبل ، وكان معها اطفالها ، كما ان عددا مـــن الاوروبيـــين

وعوائلهم ــ ومعظمهم مــن الالمان ــ كانوا لا يزالون في معســكر ثيودور .

وفي صبيحة يوم عيــد الفصح ، وصلت رسالة من ثيودور ، ادعى للطمأنينة ، وصف فيها كيف ان «الشيطان» قد ساوره مساء ، وكيف أنه حاول الانتحار ، ولكنه فشل في ذلك . ثم مضى قائلا : « وهكــذا شاء الله أن لا أموت ، وقدر أنه يجب علي أن أعيش ، ولذلك أرسلــت لك رساما في نفس المساء ليطمئــن قلبك . واليــوم هو عيــد الفصح ، ويسرني أن أرسل لك بعض الأبقار لهذه المناسبة . ولقد أعدت لــك خطابك البارحة ، لأني كنت أعتقد في تلك اللحظة باننا يجب أن نلتقي في الدار الآخرة . لا في هذه الدنيــا .

« هذا ــ وقد مضى الليل دون أن أرسل لاحضار جثة صديقــي «جبري» ، لأنني كنت أريد أن ندفن سويا ، بعد أن الحق به . وبما أنني لم أمت بعد ، فأملي أن تسمح لي الآن بدفنه . لقد طلبت مني ارسال جميــع الاوروبيــين .... حسنا ، فسيذهبون ما دامــت هذه هــي رغبتــك ... » .

وبمجــرد أن وصل هذا الخطاب ، انطلق فلاد ومعه مجمــوعة من الرجــال لاحضار زوجته على محفــة . وفي طريقهــم ، الذي كــان يخترق معسكر ثيودور ، سلموا جثة«جبري» . وفي مساء ذلك اليوم ، احضر جميع الاوروبيين الى المعسكر البريطاني ، مــا عدا «بــاردل الفرنسي» لأن حالته كانت لا تسمح بنقله . واثنــاء النهــار ، ارسل ثيودور ألف رأس من البقر ، وخمسمائة رأس مــن الضانــوهو كل ما كان يملك ــ ومضت فترة من الزمن ، اعتقد فيها أن هديته قد قبلت. غير أن نابير علم انه ــ على حسب العادات الأثيوبيــة ــ اذا ما قبــل الهدية ، كان لزاما عليــه أن يعقــد صلحا مع ثيودور ، وعليه فقــد أعيدت القطعان تحت الحراسة .

وعندما علم ثيودور بهذا النبأ ، صاح قائلا : « يا لهؤلاء القوم ! لقد نالوا كل ما طلبوه ثم ها هم يسعون للخلاص مني » . ثم اندفع هائجا نحو مجدلا ، وطلب من قواده وجنوده أن يتبعوه . والظاهر أنه كانت لديه فكرة مضطربة للفرار عن طريق ضيق سحيق ، يخرج من بين الاستحكامات التي كانت تقع بالجانب الشرقي للحصن. وكان ينوي كما قال ، أن يعود الى بحيرة تانا والنيل الأزرق . وتبعه حوالي الفي رجل في بادىء الامر ، الا أنه قد أتضح لهم أنها محاولة يائسة ، فقد كانت قبائل القالا تنتظرهم في كمين حول الجبل ، متمنين ان تحصل محاولة من هذا القبيل . وعندما ادار رجاله ظهورهم له ، عاد ثيودور الى مجدلا . ويبدو انه قد دار جدل مرير طيلة الجزء الأكبر من الليل ، اتهم فيه ثيودور قواده بالجبن ، وأجاب قواده بأن عليه ان يستسلم أو يحارب . ورفضوا أن يتبعوه فارّين ، لأن معنى ذلك ان يتركوا عوائلهم وممتلكاتهم خلفهم. واخيرا اتفق القادة فيما بينهم، أن الحل الوحيد هو التسليم ، وقرروا أنه اذا ما حاول ثيودور أن يقوم بأعدام أي رجل بعد الآن ، فعليهم أن يلقوا عليه القبض ويكبلوه بالحديد . وفي تلك الليلة هاجر آلاف الجنود بعوائلهم الى الخطوط البريطانية .

والآن قد اقتربت النهاية ــ ففي فجر الاثنين الثالث عشر من ابريل، استيقظ ثيودور وهو مصمم على انه هو شخصيا على الاقل ، لن يستسلم . فنزل الى سلامجي مرة أخرى ، ومعه نحو الاربعين أو الخمسين رجلا ، ممن ظلوا على ولائهم له . وحاولوا جميعا أن ينقلوا أحدى البطاريات الثقيلة ، الى الممر الواقع عند مدخل الطابيه وكانت محاولة في منتهى الحماقة ، باغتتهم اثناءها فصيلة من الخيالة البريطانيين . وكان هذا أكثر مما يحتمله عقل ثيودور المرهق ، فوثب على صهوة جواده ، وأخذ يكر ذهابا وايابا على طول السهل

وعرضه ، وهو يصيح متفاخرا بشجاعته وشهامته ، مطلقا اثناء ذلـــك الأعيرة الناريــة مــن غدارته ، متحديا البريطانيين لأن يدخلوا معــه في مبارزة فرديــة . وأخيرا وعندما لم يستجب له أحد ، أقنعه رجاله بأن يعود الى مجدلا . وعندما وصل الى مجدلا أخذ يعمــل في تكديــــس الصخور الضخمة عند مدخل الحصـــن ، وكانت معه حفنة مــن رجالــه يساعدونه على ذلك . وفي الساعة الواحدة بعد الظهــر ، وهم لا يزالون منهمكيــن في عمــلهم أخذت اولـــى القذائف البريطانيــة تتساقط عليـــهم .

وكان نابير قد قرر أن يعطي ثيودور فرصــة اطول ، عسى أن يستسلم ــ أو بعبارة أخرى ، حبلا أطول عسى أن يشنق نفسه ــ ولكنه عندما سمع اثناء الليل باشاعة هرب ثيودور ، رأى أن يقوم باجراء سريع. فأرسل الى قبائل القالا ، عارضا عليهم مكافأة مقدارها خمسون الــف دينار للقبض على الامبراطور ــحيا او ميتا ــ. وفي المعسكر البريطاني، أمر باعداد ثلاثة آلاف رجل للقيام بهجوم سريع مفاجىء . وفي الثانيـــة والنصف مــن صباح يوم ١٣ ابريل ،كانوا قد سدوا جميع الطرق المؤدية الى مجدلا ــ وكان بعد ذلك بقليــل ، ان داهمت ثيودور فصيلة مــن الخيالة في سهل سلامجي ، كما ذكرنا آنفا ــ وأخذ اللاجئون يتقاطرون نحو الخطوط البريطانيــة من كل صوب ، ممــا اضطر المشــاة أن يخترقوا جموعهم ، وهم يتقدمون نحو مجدلا ، في تشكيلاتهم التي كونوها استعدادا للقتال . وصوبت أول دفعة من قذائف المدفعية ، نحو البوابة المقامة على شكل المعابد الهندية . وهي عبارة عن عمَد من الحجر ، يعلوها سقف ، وبينها بابان ضخمان من الخشب ، وفي نفــس الوقت تقدمت فرق الهجوم ومعها سلالم لتسلق الجبال ، فسار بعضهــم عــن طريــق الممر ، بينما أخذ البعض يتسلقون الصخور زاحفين نحــو المتاريس . وكانت عملية التسلق طويلــة ، وخصوصا عندمــا هطلــت

الأمطار مرة ثانية ، واختلط هزيم الرعد بقصف القنابل المتفجرة فوق رؤوسهم . وفي حوالي الرابعة مساء ، وصلت قوات المقدمة الى البوابة ، فاستقبلتهم نيران المدافع وهم يحاولون كسر البوابة بالمعاول وما شابهها . الا أن النيران لم تكن حامية ، لأن المدافعين عن البوابة ، لم يتعدوا حفنة من الرجال الذين اخذوا اماكنهم في احد المرتفعات العالية . وعلى أي حال فقد اصيب تسعة من البريطانيين ، قبل أن يتمكنوا من اقتحام البوابة . وفي نفس هذه اللحظة ، اقبلت الفرقة التي تسلقت المتاريس ــ اقبلت مسرعة نحو البوابة من الجانب الخلفي . وعند ذلك تراجع المدافعون ــ وهم قلة ــ الى بوابة أخرى صغيرة ، تقع على بعد سبعين ياردة ففقدوا معظم رجالهم في الطريق . وكانت هذه البوابة الثانية مفتوحة فاقتحمها البريطانيون الى هضبة مجدلا . وهنا كانت كل المقاومة قد انهارت ، فتوافد الاثيوبيون من كل حدب مستسلمين . وسرعان ما رأى المشاهدون الذين كانوا في السهل الاسفل ــ سرعان ما رأوا العلم البريطاني يرفرف فوق الاستحكامات . ولم تتعد خسائر البريطانيين الخمسة عشر جريحا .

وبين البوابة الثانية والقصر ، وجدت جثة رجل قتيل ، ملقاة بمفردها على قارعة الطريق ، لم يعرها أحد أي اهتمام في البداية ــ ومع ذلك فقد كانت هذه هي جثة الامبراطور ثيودور . لقد قاد المقاومة عند البوابة ، واستمر يطلق الرصاص الى ان تحطمت ، ثم تقهقر متخطيا البوابة التالية . وهنا اشار الى من تبقى معه من اتباعه ، بأن ينجوا بجلدهم ، ثم أخذ غدارته ووضع فوهتها في فمه ــ وهي احدى الغدارتين اللتين قدمهما له « بلاودن » منذ زمن طويل ، كهدية من الملكة فكتوريا ، الا أنه لم يخطىء اطلاق العيار هذه المرة . وطلب من رسام ــ الذي كان قادما في مؤخرة القوات المهاجمة ــ طلب منه أن يتعرف على الجثة ، وكانت ملابسها قد مزقت وتقاسمها طلاب جمع

التحف التذكارية . وهنا تذكر رسام ذلك الصوت الذي قاله له : «قد تراني ميتا في يوم من الايام ، وقد تصب اللعنة على جثتي وأنت تقف أمامها ، وقد تقول ان هذا الرجل الشرير يجب ألا يوارى في التراب ، فلتترك جثته لتتعفن فوق سطح الارض ، ولكنني أثق في كرمك » . فأمر رسام بحمل الجثة الى مقره القديم بمعتقل الاوروبيين ، حيث كفنت وسجيت على سرير .

وفي اليوم التالي ، دفن ثيودور في كنيسة مجدلا ، وقام القسس الاقباط بمراسيم الدفن « وكان منظرا مؤثرا » كما قال رسام « أن أرى ذلك الخشوع الذي بدا على رجال الكنيسة ، وهم يقومون بالطقوس الأخيرة نحو مليكهم الراحل » . وهكذا لم يفقد ثيودور كل العطف ، من بعض رعاياه على الاقل .

وفي نفس الوقت سادت مجدلا الفوضى والاضطراب . وحاول بعص الجنود الأثيوبيين الفرار من الدرب الذي يقع في الجانب الشرقي ، الا أن بعض قبائل القالا اعترضت طريقهم في الحال ، وأخذت تناديهم ــ كما ذكر شاهد عيان ــ قائلة « تعالوا ايها الأحباب تعالوا » ، وهنا استداروا وانضموا الى صفوف المستسلمين .

وفي الرابعة والنصف بدأ النهب ، ففتحت ابواب الخزينة وأبواب القصر الملكي عنوة ، وكانت بها تحف رائعة للنهب ، فقد كدس ثيودور فيها كل مخلفات ملوك اثيوبيا النفيسة. ويحدثنا استانلي عن كؤوس وتيجان من الذهب الخالص ، وعن اقداح وحلى مرصعة بالحجارة الكريمة ، وعن هدايا من الملوك الاجانب ، كأواني الصيني والخزف وصناديق الشمبانيا ومجموعة من الخمور الاخرى ، وكالخيام الحريرية والسجاد والفراء ، ومعاطف من جلد الاسد ، والسروج ، المطعمة ، وكمظلات التشريفات والثياب المزركشة . وكان

الجنود والمدنيون على السواء ، يتجاذبون هذه الأشيـاء ويتشاجـرون عليها . ويؤكد لنا استانلي ، أن مـن اسوأ من اشتركوا في عملية النهب، اولئك الاسرى الاوروبيون الذيـن كانوا قد عادوا الى مجدلا ، بعد أن افتتحتها القوات البريطانيـة . ولم يمض زمن طويـل قبل أن يكتشف الجنود مخازن « التج » والعرق . الا أنه في هذه اللحظة ، تدفقت قبائل القالا لتروي غليلها مـن القتل ، ولتشترك في الصخب والهياج ، وكان لا بد من اجلائهم بنيران البنادق .

ثم وصل نابير ، وكان لوصوله أثر فعال في تهدئة اسوأ ما في هذه الاضطرابات ، فدخل في موكبه تحف به هيئة اركان حربه وحملة الاعلام، وتتقدمه الفرقـة الموسيقيـة بآلاتها النحاسية . وكان دخوله مـن البوابة الرئيسيـة ، على أنغام لحن « البطل القائد قد أقبل » .

وأول ما قام به مـن أعمال أن أمر باطلاق سراح تسعين أثيوبيا ، كانوا مقيدين داخل السجون . ثم اتخذ بعض الاجراءات لحل مشاكل المدنيين من الأثيوبيين ، فقد قتل منهم ستون شخصـا واصيب مائـة وعشرون بجراح ، أثناء المعركة . بينما كان هناك ــ اربعة آلاف شخص داخل الطابيـة ، كان مـن الواضح أنه يستحيل بقاؤهم فيها لشح الماء بالهضبة . ومـن المشاكل التي قابلت نابير تلك الفظائع الانتقامية ، التي ارتكبت ــ تحت ستار السكر والفوضى ــ لتسوية حزازات شخصيـة قديمـة .

فصدر امر عام باخلاء الطابية مـن جميع المدنيين ، وأرسلـت العوائل الأثيوبية في مجمـوعات صغيرة مخفورة للمعسكر البريطاني ، ليكونوا في مأمن مـن القالا . وكانت عائلة ثيودور مـن اوائل الأسر التي رحلت ، وكانت تتكون مـن زوجته الصغيرة الحسناء « طـرو ــ وارك» وابنه «المايو» ومحظيته «ايتا ماينو» وعدد آخر من النساء . وكانت « ايتا ماينو » في حالة نفسيـة لا بأس بها ، وطلبت أن ترسل الى

وطنها تحت الحراسة . اما « طرو ــ وارك » فقد ذكرت أن ثيودور كان يرغب في ارسال ابنه لانجلترا ، وانها على استعداد للذهاب معه . وقد كانت صامتة وحزينة عندما نزل بها رسام مــن الجبل ــ الشيء الــذي أدهش رساما ، لأن ثيودور لم يكــن يحبها اطلاقا ، رغم ما قيل مــن أن المياه بينهما عادت الى مجاريها قبيل وفاته ببضعة أيام .

وبقيت الآن المشكلة السياسية الخاصة بولايــة عرش أثيوبيا ، لأن امبراطوريــة ثيودور كانت قد انهارت تماما ، وتقسمت أثيوبيـــا الشمالية والوسطى الى معسكرات قبلية متنازعة ، كل منها عــلى اتم استعداد للدخول في حرب أهليـــة بمجرد أن يغادرها البريطانيــون . بل أن «واجشوم قوبازيه» قد خرج فعلا غازيا لولاية ثيودور السابقة ، حول بحيرة تانا .

ولم يحاول نابير أن يزعج نفسه كثيرا بهذه المشكلات فالاوامـــر التي صدرت اليه ، كانت تتلخص في انقاذ الأسرى ، ثم مغادرة البلاد في أسرع وقت ممكــن . ولم تكــن لديه أيــة نية لأن يهتم برجاء ثيودور الذي قال فيه : « وتأكد مــن أن لا تتخلى عن هؤلاء القوم » . ومع ذلك فقــد كانت هناك أسباب قوية تدعو الى ترك حاميـــة بريطانيـــة باثيوبيا ، لمساعدة البلاد على اجتياز فترة عدم الاستقرار السيــاسي الذي ستتعرض اليه في السنوات القليلة القادمة ، الا أن نابير لم يعرض هذا الامر على رؤسائه بلندن ، ولذلك فقد حكم تلقائيــا على أثيوبيــا بأن تسودها الفوضى .

وأخيرا ، راوغ الموضوع ببساطة ، بأن نصب ملكة القالا كحاكمة على مجدلا والمنطقة المحيطة بها . أما موضوع خلف لثيودور فقد تــرك معلقا . والجدير بالذكر أن الطريقة التي غادر بها البريطانيون أثيوبيا ، لم تكن مشرفة كالطريقة التي دخلوها بها .

والفصل الأخير من مسرحية مجدلا لم تكن الا صيحة ديك ، في ازدهائه بالنصر وزهوه بالانتقام . ففي السادس عشر من ابريل ، تم اجلاء المدنيين من الطابية ، ونقلت جميع الغنائم من الجبل الى السهل الذي بأسفله ـ واستخدم في هذه المهمة خمسة عشر فيلا ـ وفي اليوم التالي قام المهندسون بنسف جميع خزانات المدافع التي خلفها ثيودور ، ثم وضعوا الالغام في جميع المباني الكبيرة ، ما عدا الكنيسة . وفي الرابعة مساء تم التفجير الهائل لجميع الالغام ، فاندلعت النيران بسرعة من كوخ الى كوخ ، وتفجرت القذائف والطلقات المتناثرة وسط اللهب . وعلى مدى عدة أميال حول مسرح الأحداث ، وقف الجند ورجال القبائل ، يراقبون المشهد في ذعر ورهبة ، بينما انتشرت طبقة كثيفة من الدخان كأنها بساط الرحمة ، لتظلل مجدلا ، ثم ارتفع الدخان الى عنان السماء . واستمرت النيران متأججة حتى المغيب ، وعندما اشرقت شمس اليوم التالي ، لم يبق في مجدلا غير الرماد .

وفي هذا الوقت كان الزحف نحو العودة قد بدأ فعلا ، الا أن الجيش قد توقف قليلا ، عند الجانب الأقصى من وادي الباشيلو ، وذلك في يوم ١٨ ابريل عندما القى نابير كلمة شكر فيها قواته ، تلاه مزاد علني بيعت فيه الغنائم . وكان هولمز ـ مندوب المتحف البريطاني ـ من أكبر المزاحمين . هذا وقد جمع في هذه الحملة نحو تسعمائة مجلد من المخطوطات اليدوية ، وبلغت جملة حصيلة المزاد خمسة آلاف جنيه وزعت جميعها على الجنود ، حسب رتبهم .

وكل انسحاب عسكري ، سواء كان بعد النصر او اثر الهزيمة ، يشوبه شيء من رد الفعل ، ولم يشذ هذا الانسحاب الذي نحن بصدده الآن عن هذه القاعدة . الا ان رد الفعل هنا ، كان أوضح مما يحدث في معظم حالات الانسحاب . فقد ظهر الاعياء على الجند وعلى الدواب ،

سواء بسواء ، واستلقت بعض الأفيال على الارض في حالة يرثى لها ، ورفضت ان تقف او تتحرك خطوة واحدة ، مما اضطرهم الى قتلها رميا بالرصاص ومع كل ذلك فقد ظل الموكب محتفظـا بهيبته ، فالفرقـة الموسيقية كانت تصدح باستمرار والاعلام ترتفع خفّاقـة في المقدمة . ولكن ، سرعان ما ادرك الجند ان حملتهم لم تقابل بأي اعتراف بالجميل من قبل الأثيوبيين ، بل عوملوا كأي قبيلة من القبائل التي احترفت شن الغارات ، لا اكثر ولا أقل . وبما انهم كانوا في طريقهم لأوطانهم ، كأي جيش هزيل منهزم ، فقد أصبحوا هدفا للمناوشات دون هوادة .

وانتشر رجال القبائل على رؤوس الجبال التي تسيطر على الممرات الضيقة ، وأخذوا يطلقون الرصاص على الأطراف الضعيفة من الطابور ، وكل املهم السلب والنهب ، مما اضطر الجيش لارسال السرايا من وقت لآخر لمطاردتهم . ثم ان المواد الغذائية والعلف التي كانت تعرض للبيع سابقا ، أصبح من المستحيل الحصول عليها الا بالقوة . كما ان الأمطار الغزيرة كانت تلاحقهم على طول الطريق ، وأخذت دواب الحمل تنفق بالجملة فأصبح من الضروري التخلي عن كميات كبيرة من المؤن ، اما بتركها ، او نسفهـا .

وفي أواسط مايو ، وصل نابير وهيئة اركان حربه الى « عنتالو » ، عند منتصف الطريق للساحل . وهنا انهارت الملكة «طرو ــ وراك» ، فقد كانت صحتها في تدهور مستمر منذ ان غادرت مجدلا . ومـع ان رساما وطبيب نابير ، كانا يلحان عليها في تعاطي النبيذ ومسحوق جذور « حشيشة السهام » ، الا ان ذلك لم يجد شيئا ، وسرعان مـا رفضت الطعـام .

وفي عنفوان عاصفة ليلية هوجاء ، جاء خدمها يهرولون نحو رسام وأخبروه بأن الملكة قد فاضت روحها . فطلب رسام من القسس الأقباط

الذين بالقرية ، ان يتولوا أمر دفنها ، اما الطفل الصغير فقد استمر مع البريطانيين تحت رعاية مربيّته [1] .

وعند سينافة ، توقف السير مرة اخرى ، وقدّمت لكساي كميات كبيرة من المدافع والذخيرة والمؤن كمكافأة على خدماته . ولا يُعرف بالضبط ان كان هناك غرض سيـاسي وراء هذا الاجراء ام لا ، الا ان تأثير هذه الاسلحة على موقفه كان حاسما . فقد أصبح الآن أقـوى زعماء اثيوبيا سلاحا . ولم يُعرف ان رجلا مسلحا في هذه البلاد الجبلية ، عجز عن الاستفادة من سلاحه . ومن الصعب ان يصدق الانسان ان هذا الاحتمال لم يدر ـ على أقل تقدير ـ بخلد ميروذر . وهناك مذكرة في السجلات الرسمية لهذه الحملة وُضعت بكل حذر ، يمكن ان تلقـي ضوءا على هذا الموضوع . فقد جاء فيها : ـ

« ان خير ما يرتجى للحبشة في أن يسودها سلم دائم ، ينحصر في تقسيم اقاليمها بين حاكمين مستقلين . ففي الوقت الذي لا يبدو فيه انه من المحتمل ان يحاول كساي القيام بشن هجـوم على « واجشـوم قوبازيه » ، فان كل الدلائل تشير الى ان طموح هذا الأخير قد يمتد الى منطقة « التقرة » . ومن هنا كانت هدية السلاح ليدافع بها كساي عن نفسه ، وعلى اي حال فقد كان صديقا مفيدا للحملة وقد يصبح حليفا له قيمته لانجلترا ، فيما بعد » .

وأخذ الطابور يتقلص ، كأنه بساط قد طُوي . ورغم ان مئات السفن قد بدأت في الابحار من زولا حاملة الوحدات الأمامية ، الا ان الحاجة كانت ملحّة للاستعجال . فالأمطار كانت تتزايد يوما بعد يوم ،

---

١ ـ رحل الطفل الى انجلترا على سفينة نابير وادخل فيما بعد مدرسة رجبي الا انه مات في سن التاسعة عشر ، ودفـن في كنيسة سنـت جورج بوندسور .

حاشية المؤلف

حتى ان المياه الهادرة قد غمرت مجرى نهر «الكميلي» ، الذي كان جافا قبل قليل . وجرف التيار سبعة رجال ، وعددا من الدواب بالقرب من ممر سورو ، حيث كان المطر ينهمر كأفواه القرب ، فحجز مؤخرة الجيش لعدة ايام .

غير انه بحلول الثاني من يونيو ، كانت جميع القوات قد واصلت سيرها . وما ان وصل نابير وهيئة اركان حربه الى الشاطىء ، الا وازيل كل ما امكن ازالته ، من خطوط للتلغراف وقضبان للسكة الحديدية وأجهزة للتقطير ، وشحنت جميعها في السفن ، كما شحن التسعة وثلاثون فيلا المتبقية . ولم يترك ما يدل على ان البريطانيين كانوا بالحبشة ، غير المرافىء وبعض القاطرات . وفي العاشر من يونيو ، ركب نابير على ظهر المدرّعة « فيروز » (Feroze) وأبحر مباشرة للسويس ، فانجلترا . ولم يكن من غير الطبيعي ان يستقبل استقبالا شعبيا حافلا ، وتلا ذلك صوت شكر من البرلمان ، ثم استقبال كريم من الملكة ، فالترقي الى رتبة اعلى في الجيش مع لقب اللوردية .

وهكذا اصبح « اللورد نابير اف مجدلا » بطل الساعة . ولم ينس رجاله من التكريم ، فقد شملت الانعامات رساما ومنح هبة قدرها خمسة آلاف جنيه ، كما شملت كلا من بلانك وبريدو ، فنال كل منهما الفي جنيه .

لقد كان شيئا عظيما ان يشترك الانسان في حملة مجدلا ، اما وقد انتهى كل شيء فلتذهب الى عالم النسيان . وهكذا تسللت اثيوبيا من مدار الاحداث ، في هدوء تام ، بعد ان دكّت حصونها ولقنت درسها ، وتركت ليتخبط شعبها في دياجير الفوضى الأبدية .

خاتمة

حملات ثلاثة فاشلة ، شنها فرسان بواسل امام الاسلحة النارية الحديثة هي التي أتت على تلك العزلة التي كانت تخيّم على وادي النيل ، من بحيرة تانا حتى البحر الابيض المتوسط . ولم تدم أية معركة منها ــ سواء تلك التي شنها المماليك على الفرنسيين عند الاهرامات ، او ذلك الهجوم الذي قام به رجال الشايقية على الاتراك قرب كورتي ، او هذا الهجوم الذي قام به الأثيوبيون على البريطانيين عند مشارف مجدلا ــ لم يدم اي منها لأكثر من ساعة او ساعتين ، ولم يشترك في اي منها اكثر من بضعة آلاف من الرجال . ومع ذلك فقد كانت هذه المواقع ، كوارث بمعنى الكلمة بالنسبة لهذه الاقطار الثلاثة ، لأنه بعد ان انهار دفاعها لم يستعد اي منها سيرته الاولى، فما حدث في اثيوبيا الآن، هو ما حدث قبل ذلك في مصر والسودان . لقد اصبحت ثلاثتها جزءا من العالم المعاصر ، وقفزت من غياهب العصور الوسطى الى العصر الحاضر ، وسرعان ما أتى غزاة آخرون على اثر البريطانيين . وانه لمن السخرية ان تأتي مثل هذه التطورات الهامة في اعقاب ثلاث معارك هزيلة كهذه . والحقيقة اننا نسميها معارك من باب التجاوز ، لأنها في الواقع لم تكن اكثر من اندفاع سريع متهوّر قام به بعض الرماحين في وجه المدافع الحديثة . لقد عاد بنا الزمن القهقرى الى عهد «جَرش» [1] وأبواقها

---

١ ــ مدينة فلسطينية قديمة تدور نحوها اسطورة تتلخص في ان اسوارها وحصونها انهارت على ابواق الرهبان بعد ان طافوا بها لمدة سبعة ايام . (المترجم)

التي انهارت على اصواتها الأسوار ، واختفى عهد كامل في لحظة واحدة. والظاهر ان التاريخ لا يعلن عن نفسه الا عن طريق احداث تبدو صغيرة في ظاهرها ، فمن المؤكد ان المآسي البشعة ـ كالمجازر الجماعية التي وقعت في السوم وباشنديل إبان الحرب العالمية الثانية ـ من المؤكد ان هذه المآسي لم تحسم شيئا ابدا .

وهناك أوجه اخرى لهذه الهزة العنيفة ، التي هبت على اثرها هذه الشعوب من سباتها العميق . فالدور الذي لعبته العقائد الدينية كان عظيما جدا ، رغم انه لم يكن واضح المعالم ـ ففي مصر اقباط مسيحيون كما ان بأثيوبيا كثيرا من المسلمين . الا ان الاقباط بوجه عام كانوا متحصنين بالجبال المحيطة بالجزء الاعلى من النيل الازرق ، بينما استقر المسلمون في الصحراء المنخفضة من حولهم . وكل من الفريقين كان مصمما على رد اي عدوان يأتي من الغرب ، وفي نفس الوقت كانوا يكرهون بعضهم البعض ، وكان العداء بينهم مستحكما بحكم الغريزة وحكم العقيدة الدينية . ولا يسعنا الا ان نعترف بان المسلمين في الصحراء ، كانوا ارقى حضارة من مسيحيي اثيوبيا ، فبينما نجد ان الأثيوبيين لم يكن لهم أي فن معماري غير الاكواخ التي يقيمونها من القش ، نرى ان المسلمين قد اشادوا منذ زمن طويل ، روائع من الفن المعماري ، كجامع ابن طولون في القاهرة مثلا . كما ان القرآن ـ سواء صدقت بذلك ام لم تصدق ـ به من التعاليم ما يهدي الى الرشد وطهارة النفس ، وهو يسمو عما يهمهم به القساوسة الاثيوبيون من خرافات . والأثيوبيون كانوا أكلة للحوم النيئة ، مسرفين في شرب الخمر ، اجلافا في عاداتهم ، مستسلمين للعواطف الساذجة والشهوات البهيمية . أما المسلمون فعلى نقيضهم ، قوم متقشفون ، يسبقونهم بمراحل في جميع فنونهم وحرفهم ، ويفوقونهم بكثير في تذوقهم لمسرّات الحياة . فهم يحبون شرب الماء البارد والاغتسال بالماء الطاهر ، بينما نجد ان الأثيوبيين

في جبالهم العالية التي يكسوها الجليد ، يحتشدون مع ماشيتهم ليلا في مكان واحد ، وقلّما يغتسلون . ومع ذلك فقد كان المذهب القبطي متمكنا في اثيوبيا . وكان ثيودور واتباعه يؤمنون بالقدر ايمانا اعمى ، ويحبون استقلالهم اكثر مما يحبون الترف . والعربي كان يميل الى التفاهم ، ويجيد وضع الخطط والمساومة ، اما الأثيوبي فكان يأتي بأعمال جنونية طائشة ارضاء لكبريائه ، وكلا الفريقين كان لا يعرف الرحمة اذا ما استفز . *

وربما ظن البعض ان نفوذ الغرب المسيحي ، كان له اثره البعيد في هذه المواقف المزعزعة ، بما يملكون من قوة الاسلحة النارية الحديثة ، الا ان الأمر لم يكن كذلك في الواقع . فما من احد من الغزاة الغربيين ، منذ عهد بونابارت وحتى هذه اللحظة ، استطاع ان يثبّت عقيدته على شواطىء النيل . فأئمة المسلمين ، وقساوسة الاقباط ، لا يزالون في نفس مراكزهم المنيعة ، كما كانوا من قبل . وفي استطاعتنا ان نقول ان شعب وادي النيل لم يقهر في عقائده اطلاقا .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الفرنسيين ، وهم الذين اثاروا كل هذا الطوفان الجائش الذي شهده القرن التاسع عشر في ربوع وادي النيل ، وهم الذين قاموا بكل ما رأينا من استكشافات ـ من الجدير بالملاحظة انهم رغم هذا وذاك ، لم يكن لهم الا نصيب تافه في حكمه

---

* الاشارة هنا للاقباط الاثيوبيين . ويعتقد براون ان الاقباط المصريين لم يكونوا احسن منهم حالا . وكتب عنهم يقول : « كانوا منساقين وراء المكاسب والملذات ، منزوين في قاع من الجهل المطبق، لا يعرفون معنى للتحري الدقيق . كما كانوا على جانب من الجبن والتحفظ ، يخافون ان يكشفوا حتى عما يعلمون » . ومن الانصاف ان نضيف أن « الليدي دف جوردون » بعد نصف قرن من الزمان ، لم توافق على ما ذكره براون اطلاقا .

(حاشية المؤلف)

وتقدمه ، نصيب لا يتناسب ابدا مع ما قاموا به من جهد . ان كلا من ابطاليا وبلجيكا والمانيا ، قد قدر لهـا ان تنشىء مستعمرات على هـذا الجزء من افريقيا ، اما الفرنسيون فلم يقدّر لهم شيء من ذلك . ومع هذا فان بونابارت هو الشخص الوحيد من بين جميع الشعوب التـي ذكرت على هذه الصفحات ، الذي كانت عنده فكرة واضحة عن معنى غزو وادي النيل . فكل المشاريع التي نفذت فيما بعد لازدهار هـذا النهر ــ كالخزّانات والقنوات وإصلاح الارض ، والحث على دراسة الماضي القديم ــ كانت جميعها من بنات افكاره اصـلا . وقد ادرك بونابارت ، اكثر من اي شخص آخر ، اهمية النيـل الاستراتيجية . وعندما وصل الاهرامات ، لم يشعر فقط بان الماضي يراقبه ، بل كانت لديه ايضا صورة واضحة عما ستتمخض عنه القرون المقبلة .

والقاهرة الحديثة ، رغم كثافة سكانها البالغ عددهم ثلاثة ملايين من الأنفس ، ورغم ما فيها من ناطحات السحاب العديدة ، وازدحامها الزاخر بالحركة ــ رغم ذلك فهي تعرض تاريخها ظاهرا واضحا للعيان ، اكثر من معظم المدن الكبيرة . فمقابر المماليك يمكـن لأي شخص ان يزورها ، وجزء من الأسوار والبوابات التي اقامها صلاح الديـن ، لا تزال ــ على الاقل ــ محافظة على كيانها. ولكن لان يعثر الانسان على مخلّفات الاحتلال الفرنسي ، فعليه ان ينقب بشدة بين جميع هـذه الآثار . فالحسام الذي كان يتحلى به بونابارت ، يتدلى الآن في المتحف القومي ، والبقعة التي نشبت فيها وقعة الاهرامات ، لا تزال في مكانها طبعا ، ثم هناك المجموعات الأثرية التي عمل الفرنسيون المستحيل ليبرزوا بها شخصية مصر القديمة للعالم الحديث. وما عدا ذلك لم يبق للفرنسيين الا القليل جدا . واذا استثنينا بعض الاشياء الغربية التافهة ، مثل ما قام به جنود ديسيه من حفر اسمائهم على معبد «دندرا» فاننا نجد ان الزمن والصحراء قد تضافرا على طمس جميع معالم حملتهم على النيل . ليس

ذلك فقط ، بل ان طبيعة الارض نفسها لم تعد كما كانت سابقا . فغابات الكافور التي زرعت حديثا ـ والتي جلبت اشجارها من استراليا ـ قد غيّرت كثيرا من معالم مناطق النيل السفلى ، كما ان الأتربة والاوساخ التي أعاقت دينو من دخول بعض المعابد وتكملة ابحاثه ، قد ازيلت الآن تماما .

اما مناطق ما وراء أسوان ، فلم تتغير الا قليلا ، ولا يزال بيركهاردت هو المرجع الذي يستدل به على الآثار والقرى الواقعة في منطقة النوبة . وفي الواقع فاننا بعد زمن وجيز ، سوف لا نجد ما يدلنا على تلك الآثار الا ما تركه لنا أمثال بيركهاردت من الرجال ، اذ ان جميع المنطقة سوف تغمرها مياه السد العالي . اما عن المنحنى العظيم للنيل ، حيث تقع بلاد الشايقية وكل من دنقلا وكورتي ، فان جميع ارجاء هذه المنطقة ، ظلت كما كانت في القرن التاسع عشر ، عندما كان اسماعيل يجر مراكبه عبر الشلالات . اما بربر فلم تعد وكرا لعربدة التجار ، ومنذ سنوات عديدة ، اخترقت السكة الحديدية تلك الصحراء المنيعة الجرداء ومع ان الجمال لا تزال موجودة ، الا ان طرق القوافل قد انتقلت الى طبقات الجو العليا .

وعندما نصل الى شندي ، نجد انها لا تزال زاخرة بالحركة ، ونشعر بشيء من الحماس في جوها ، فالسوق لا يزال موجودا ، وهو اكثر نشاطا من اي وقت مضى . وعندما يصل القطار من مصر ، يتقاطر سكانها على الرصيف ، فيجد الزائر من السلع المعروضة نفس التحف التي وصفها بيركهاردت في سنة ١٨١٤ ، كالسلال المنتفخة [١] المصنوعة في شكل الاواني الفخارية ، والاعلام الصغيرة المزركشة باللون الاحمر

---

١ ـ المقصود هنا تلك الاواني المصنوعة من السعف التي نسميها بالسودان « بالكبوته » .

(المترجم)

والذهبي ـــ رمز جمهورية السودان الحديث[1] .

وقد اصبحت شندي الآن ، قاعدة حربية ، وبدلا من أوباش حرس الملك نمر ، نجد الآن جنودا من الشباب الوسيم المحيا ، وهم يتبخطرون في زيهم الأبيض . وفي الصحراء ، على بعد من شندي ، لا تزال آثار مروى قائمة تحت لفحة الحر المحرق ـــ ساكنة صامتة . وقل ان يراها احد ما عدا بعض علماء الآثار الذين يأتون اليها في نهاية كل عام . اما الخرطوم ، فقد تغيرت تغيرا شاملا كاملا ، ولا يستطيع انسان ان يصفها الآن بانها حقيرة او قذرة او دنسة . لقد اصبحت مدينة نهرية رائعة ، بها طرقات رحبة ، تحفها اشجار الجميز عند ضفاف النيل ، وبها جامعة من احسن جامعات افريقيا . ثم ان القطن كسلعة تجارية ، قد حقق ما لم تحققه جميع السلع القديمة ، من ذهب ورقيق وعاج . لقد اتى بالخير والرفاهية للسكان فاصبحت المشاريع الزراعية ، تمتد وتتسع في كل عام ، والصحراء تتقهقر عن ضفاف النيل اكثر فأكثر ، بعد ان حلت المضخات الآلية مكان السواقي والشواديف . والخرطوم اليوم تتلألأ فيها الانوار الكهربائية طيلة الليل ، فتنعكس متألقة على صفحة النيل الازرق ، عند ملتقاه بالنيل الابيض .

ولا يوجد ، حتى الآن ، طريق معبد ما بين الخرطوم وسنار ، وعلى المسافر بالسيارة ان يسلك طريقا عبر الفيافي ، يسير جنوبا في محازاة النيل . وفي الصيف تبدو هذه الاصقاع سريالية المنظر ـــ سهول خاوية منبسطة ، تتخللها خطوط القوى الكهربائية واعمدة التلغراف ، التي اصبحت محطا لنفس الببغاوات الزاهية الخضرة ، التي وصفها كايو عندما سلك هذا الطريق مع اسماعيل في سنة ١٨٢١ . وتتحسن المناظر

---

١ ـــ واضح ان الاشارة هنا للمراوح اليدوية التي نسميها « بالهبابات » في السودان ، فليس اللونين الاحمر والذهبي من الوان علم السودان. (المترجم)

كلما توغلنا جنوبا ، الى ان نجد انفسنا فجأة، بين شبكة من القنوات التي اقيمت لري مزارع القطن ، وبين غابة من الشجيرات الخفيضة التي تمتد على طول ضفة النيل . وقد يصادفنا من وقت لآخر تمساح مسترح على احد الشواطىء الرملية ، يتلاصف كأنه سلحفاة مبتلة . او قد يصادفنا طائر « مالك الحزين » بمنظره الذي يدل فعلا على الحزن ـ قد يصادفنا وهو يقف ساكنا في احدى المخاضات الضحلة . اما سنار الحديثة ، فهي مدينة كثيرة الأتربة ، واسعة الطرقات بها سوق حقير متداعي . وهنا يعترض مجرى النيل الازرق خزّان ضخم ، يعبره خط حديدي . وفي السنين الاخيرة ، كان المهندسون يعملون ليل نهار في مشروع جديد لكهربة هذا الخزان . اما سنار القديمة فلم يبق منها الا القليل جدا ، او بالأحرى ، لم يبق منها شيء اطلاقا غير الحرارة التي ترتفع احيانا لنفس الدرجة المرهقة التي لا تحتمل ، كما وصفها بروس تماما ، وغير قبائل الدينكا * الذين يعيشون مع ماشيتهم ، في السهول الشاسعة التي تمتد وراء سنار ، وهم لا يزالون كما كانوا منذ الأزل ، عراة الاجسام ، بدائيين في حياتهم ، لا يستجيبون الى دواعي المدنية الحديثة ، ونظمها الصحية المملة . فعالمهم هو عالم البعوض والدخان وروث البقر ، والتفاني في عبادة الماشية ، لدرجة ان الفرد منهم قد يقضي اليوم بأكمله مع بقرة عزيزة لديه ، يلاطفها ويترنم لها ، بل ويتقمص ذاتيتها في كيانه . وكثيرا ما يسمع الانسان بشبان يمعنون النظر في خيالهم المنعكس من مياه الطمل [1] ، علّهم يجدون طريقة يزيّنون بها

---

* من الغريب أن يقرن المؤلف بين سنار وقبائل الدينكا . والظاهر انه لم يفعل ذلك الا ليذكر شيئا من عاداتهم ، ولذلك زج بهم زجا في منطقة لا ينتمون اليها . (المترجم)

١ ـ الطمل (بفتحتين) ومفرده طملة وهي المستنقع من الماء الكدر . والسودانيون يستعملون هذا اللفظ للبرك التي تسببها مياه الامطار. (المترجم)

وجوههم لتكون شبيهة بذلك الحيوان الذي يهوونه ــ انهم قوم عازفون عن اي تغيير في طباعهم وعاداتهم .

واذا تركنا سنار وسرنا جنوبا مرة اخرى سنجد انفسنا في منطقة الغابات المطرية ، حيث اشجار « الحمى »[1] بجذوعها المحمرةوأوراقها التي في لون القصعين[2]، واشجار االتبلدي هي كتل من الجذوع ، انتفخت وتضخمت حتى بلغت احجاما بالغة العظم ، وحيث تكثر الشجيرات الخفيضة التي تقف كأنها الأشباح في بياضها ومواتها ، والتي تستمر على هذه الصورة الى ان يحل فصل الخريف فتعود لها الحياة . ثم يصادفنا النمس ، وهو يمرق كالسهم عبر الطريق او ابو قرن (اسم طائر) في اسراب كبيرة قد تصل الى بضعة آلاف . هذا ، وآثار العمران هنا قليلة على ضفاف النيل ، فالقرى صغيرةومتباعدة، والزوارق نادرة، الا أن الماء اكثر عذوبة وصفاء من ماء النيل الابيض . والنيل الازرق ، في هذا الجزء من الوادي ، لا يزال كما رأيناه سابقا عند الخرطوم وسنار ــ عظيما ضخما ، يبلغ اتساعه نحو ربع الميل ــ ويتدفق في لألاء صافٍ جميل .... وبعد مسيرة يوم كامل بالسيارة (من سنار) نصل الى مدينة الروصيرص ، التي تخلب اللب بمناظرها الساحرة . ومما يزيدها سحرا على سحر تلك الاشجار الكثيفة الباسقة التي تلقي بظلالها الخضراء على صفحة النيل فتزيد من روعته وجلاله . وتقوم مدينة الروصيرص على تلال متفرقة . وهي مثل ناطق لما تركه الانجليز اثناء احتلالهم الطويل للسودان ، بهذه القرى التي تقوم على ضفاف النيل ــ انها مثل ناطق لما تركوه بها من أثر لا يزول ، وما طبعوه بها من

---

١ ــ اي نوع من الاشجار يعتقد ان ثمرها ملطف للحمى والنوع المتواجد منها في السودان هو الصفصاف .

٢ ــ اما القصعين او المريمية فهي شجيرات لنوع خاص من التوابل ينبت في شمال افريقيا . (المترجم)

طابع لا يمحى . طابع لا يمكن لمن رأى الهند ان يخطىء في التعرف اليه من اول وهلة . فمنزل المفتش المشيد من الطـــوب الاحمر الوردي ، بفرندته الانيقة المحاطة بالنملية ، والخدم في عماماتهم وجلابيبهم البيضاء، والبستاني وهو يصرف المياه بين الشجيرات المزهرة . ثم السوق بمتاجره ذات الطلاء الابيض ، والسمكرية والبقالون ، الذين يزاولون مهنهم وهم جلوس على الارض ، ــ وعبيق الزهور الاستوائية ، وأنغام المزامـــير الرقيقة ، وجموع من البشر تروح وتغدو وسط الحرارة المجسدة ، ثم الأغنام ومزيد من الاغنام . كل هذا قد قام كالمعجــزة في عالم كـــان بالأمس قفرا موحشا ، عندما دخله الاتراك سنة ١٨٢١ .

ولا توجد اية قنطرة على النيل ما بين سنار وطريق « دبرا مرقص » بأثيوبيا ــ اي لمسافة خمسمائــة ميل ــ الا ان المسافر يمكنه ان يعبر النيل على سيارته عند الروصيرص ، بمساعدة المساجين . فهم يدفعون السيارة داخل صندل عند شاطىء النيل ثم يجرونه ــ كما يفعل مراكبية نهر الفلجا ــ لمسافة قصيرة ، عكس التيار ، مستعينين على ذلك بترديد بعض الألحان الشجية ، ثم يدفعون الصندل الى مجرى التيار ، وبتجذيف منتظم يصل الصندل الى الضفة الاخرى . والآن وقد وصلنا الضفـــة اليسرى ، يمكننا ان نتجول في المنطقة التي قام فيها اسماعيل باصطياد الرقيق ، والتي كان ينقب فيها كايو عن الذهب ولا يمكن ان يكون قد طرأ تغيير كبير في هذه المنطقة ، فصخور الصوان الضخمة تنتشر علـــى طول السهل وعرضه ، وقرى الأهالي تقوم متباعدة بالقرب من آبـــار المياه المنتشرة عند قواعد هذه التلال . وسكان هذه القرى ، قوم وسيمو الطلعة ، دائمو الابتسامة ، يحلي رجالهم رؤوسهم بمجموعة من الرياش ، ويحلي نساؤهم صدورهن بشبكة معقدة من الخرز الملون . وعنـــد الحدود الأثيوبية ، جنوب نهر يابوس ، يزداد القوم بدائية ، فهنا نجد نفس النساء اللائي وجدهن كايو من قبل ، وهن لا زلن يطلين اجسادهن

بالمغر الاحمر الذي يلتمع على اجسادهن كأنه اللستر الصيني . وهنا ايضا نرى الرجال برماحهم القوية ، وقذائفهم الخشبية [1] ، يجوبون غابات الشجيرات الخفيضة بحثا عن الصيد . وهؤلاء القوم يكرهون تعاليم المبشرين المسيحيين ويقاومونها أشد مقاومة ، غير ان الاسلام متمكن في المدن ، كالكرمك مثلا . ومن المناظر المألوفة ، ان ترى جمعا من الرجال ، معظمهم من التجار العرب والموظفين وأتباعهم ، وقوفا في صفوف منتظمة وسط أحد الميادين العامة ، بعمائمهم وجلابيبهم البيضاء ، استعدادا لصلاة المغرب . والليل هنا يرخي سدوله في سرعة [2] فائقة ، فبعد الرابعة بقليل يهب نسيم عليل ، وقبل السادسة يسود الظلام .

وما بين الروصيرص والحدود الاثيوبية ، وبالقرب من فازوغلي ، لا تزال ضفاف النيل الازرق خالية من السكان الا القليل ، بينما ينساب الماء هادئا رقراقا فوق جلاميد الصوان الاسود . وبعد سفر متواصل لخمس ساعات بالسيارة ، على طريق وعر المسالك ، يرى الانسان في شيء من البهجة ، أول تلال من الجبال الاثيوبية . ورغم ما في هذه الأماكن من عزلة ، ورغم انها لا تزال على الفطرة ، الا انها تشكل نقطة يلتقي فيها الماضي بالحاضر . فثمت ادلة واضحة تشير الى الماضي ، الا انها قليلة .فالذهب لا يزال موجودا ،وقد يعرضه عليك الأهالي في قطع دقيقة جمعوها من مجاري المياه ـ ولا تزال لفظة فازوغلي بمناجمها العتيقة ، مرادفة للذهب ـ وهنا ايضا ، في هذا المكان المنعزل ، ستجد ما لم تكن تتوقعه ، ستجد ان قافلة من سكان غرب افريقيا ، قد حطت

---

١ ـ المقصود هنا العصي التي تستعمل لرمي الطير او الصيد ، ونسميها في السودان « المجداع » .

٢ ـ سرعة نسبية بالمقارنة بالمناطق الشمالية (او الجنوبية) من الكرة الارضية ، حيث يمتد الاصيل لساعات طويلة ، قبل ان تختفي الشمس وراء الافق . فليس من غير المألوف في انجلترا مثلا ان يمتد الاصيل من الخامسة مساء الى قبيل منتصف الليل .
(المترجم)

رحالها منذ زمن بعيد غابر ، وهي في طريقها الى مكة . ثم لم يتقدموا شبرا الى الامام ، فقد استقر بهم المقـــام وأخذوا يحرثــون الارض ويتزاوجون مع السكان الأصليين ، ثم استسلموا للزمن يمر بهم ـ مثلهم كمثل أكلة اللوتس ـ لينتهي الى لا شيء ، اكثر من العمل اليومي الذي يقيم أودهم تحت الشمس المحرقة. ففي كل مساء يحمل النساء جرارهن على رؤوسهن متجهات نحو النهـــر . والأرض تعزق بمجارف مـــن الحطب ، والطبول تدق لمناسبة كل عيد وكل فرح ، ومكة لا تزال على بعد الف ميل . والنيل هنا يتجلى روعة وهو يودع السهول نهائيا ، فقد جمع بين الخضرة والماء ـ الخضرة التي تكسو الجبال ، والماء الـــذي يتدفق رقراقا صافيـا بين الصخور . وهو هنا يتعرج ويتلوى في زمـن التحاريـــق بين عديد مـــن الجزر الموحشة ، والطير يتنقـــل في اسراب متواترة بين هذه الجزر والشاطىء . وقد يرى الرائي مـن بينها « صقر الليل » الفريد في نوعه ، وهو يرفرف باجنحته الاربعة، مع آخر شعاع من ضوء الشفق (اثنان من هذه الاجنحــة عبارة عـن خصلتـــين سوداويـــن ، كل منهمـا عنــد نهاية ريشــة طويـلة في كـــل مــن الجناحين) ـ يرفرف على ارتفاع ثلاثين قدما مــن سطح الارض بحثا عــن صيده مــن الحشرات . انه طائر رقيق أنيــق كأنه وشم صيني .

ومــن هنـــا لا يمكـــن للزائر ان يتقدم خطوة للامام ، فاخاديـــد النيـــل الازرق التي تبتدىء بعد بضعة اميال ، لا زالت صعبة المنـــال ، وقبائل الشفتة التي تقطن هـــذه التخوم المنخفضة من الحبشة ، قـــد عرفت بميلها للتعدي على كل غريب أعزل . واذا أراد الشخص ان يتجول في مناطق النيـــل العليا ، فلا بـــد له مـــن الوصول اليها عـــن طريق الجـــو مـــن الخرطوم ، أو بالسفـــر برا بواسطة الحافلات (عربـــات النقل) أو البغال . وفي هذه الحالة الأخيرة ، لا بد له مـــن أن يسلـــك الطريـــق الوعر المؤدي الى المتمـــة فبحيرة تانا ـ وهو نفس الطريق

الذي سلكه رسام مــن قبل ــ وأي الطريقين سلك ، فستكشف له هذه الرحلة ، لماذا بقي ذلك الجزء مــن النيل الأزرق الذي يمــر بأثيوبيا ، مجهولا طيلــة هذه المدة . فحافة الهضبــة الأثيوبية ترتفع فوق شترا الى علو ثمانية آلاف قدم ، أو أكثر ، كما ان جزءا كبيرا من الهضبة نفسها لا يزال غير آهل بالسكان .

وطيــلة هذه السنيــن التي كنا نتحدث عنهــا لم تتـــوقف الاستكشافات على النيــل ، ففي سنة ١٨٦٢ ، وصل سبيك (Speke) الانجليزي الجنسيــة الى منبع النيل الأبيض بيوغندة . وكان عــلى سبيك ان ينتظــر ــ كمــا انتظــر بروس من قبل ــ عشريــن سنــة قبل أن يعترف أحد باكتشافه هذا . ومع ذلك فقد كان ما قام به عمــلا عظيما ، اعتقــد الناس على أثره أن تكويــن النهــر قد وضح مــن جميع أوجهه ، الا أن هذا لم يكــن صحيحا ، لأن النيل الأزرق لم يتم استكشافه بعد. ومنذ عهد بروس ظل مجراه يرسم على جميع الخرائط، دون ان يتمكن أحــد قط ، من اختراق ذلك الوادي السحيق ، الذي يمتد لأكثر مــن ثلاثمائة ميل ، مــن بحيرة تانا الى حدود السودان ، وعندما ذهب رسام لثيودور ، كان قد رأى جزءا مــن المنبع وبعضا من اجزاء النيل القصوى. ثمأن البريطانيين عندما وصلوا مجدلا، لميمكثوا لأكثر مــن يوم أو يومين عند أحد روافده الرئيسيــة ــ الا وهو نهر الباشيللو ــ ولم يتقدموا لأكثر مــن ذلك . ومضت اربع وثلاثون سنة ، لم يحاول فيــها أحد القيام باستكشاف هذا الجزء الحيوي من النهر ، الذي يــمد السودان ومصر بمعظم ما يصلهمــا مــن مياه .

وأول من قام بهذه المحاولة ، هو المستر و.ت ماكميلان الاميركي مــن هواة صيد الوحوش الضخمة ــ ففي سنة ١٩٠٢ ، استأجــر مستكشف نرويجي ، يقال له المستــر ب.هـ. جسّن (B.H. Jessen) ، وصرف مبالغ طائلة في بناء عدة قوارب ، نقلها فيما بعد الى النيل . واتفقا

على محاولة اختراق الوادي من جهتين في وقت واحد ، فيتجه جسّن من الخرطوم في لنش نحو الحبشة ، بينما تقلع بقية القوارب من نقطة قرب بحيرة تانا . ولكن هذه الخطة لم تنجح ابدا ، فقد اعترضت الشلالات طريق جسّن بالقرب من « فاماكا » بالسودان ولم يصل حدود الحبشة مطلقا ، بينما تحطمت جميع قوارب ماكميلان بمجرد انزالها الى التيار الهادر . وفي سنة ١٩٠٥ ، أغرى ماكميلان عميله جسّن ليقوم بمحاولة أخرى ، فانطلق هذه المرة على حملة من البغال ، ولكنه فشل وهو لا يزال على بعد ثلاثمائة ميل من بحيرة تانا . ثم ساد الصمت ربوع وادي النيل ، الى أن أتى « الكولونيل تشيزمان » كقنصل لبريطانيا في شمال غرب أثيوبيا ، فكتب قائلا :« ان أحدث الخرائط الجغرافية توضح مجرى النيل الأزرق كخط متقطع ... والعقل لا يمكنه أن يصدق ، أن نهرا في مثل هذه الشهرة ، ظلت تعتمد عليه مصر في رخائها منذ الازل ، يمكن تجاهله لهذه الدرجة ...» ثم أضاف قائلا : « ومجرى النيل الأزرق ، هو المجال الوحيد المتبقي في افريقيا للرواد المستكشفين » .

وكرس تشيزمان كل أوقات فراغه لهذه المهمة ، طيلة ثماني سنوات متتالية ، وسرعان ما تحقق له أنه من المستحيل متابعة مجرى النهر ــ لا عن طريق الزوارق ولا سيرا على الأقدام ــ وأنه لا يمكن تخطيطه الا جوا . ولكنه مضى في عمله ، فكان يشق طريقه الى القاع كل ما أمكنه ذلك ، ليتأكد من موقعه الجغرافي ، فقطع خمسة آلاف ميلا على ظهور البغال ، في منطقة لم تقع عليها عين أوروبي من قبل . وبالاضافة الى ذلك فقد كان أول شخص يطوف حول بحيرة تانا . لقد كان عملا عملاقا هذا الذي قام به تشيزمان ، وعليه فيجب أن يعتبر أول جغرافيّ النيل الأزرق .

ووضع تشيزمان كتابا عن مغامراته في الحبشة ، وعندما عاد الى

انجلترا ، سرق مخطوطـه من سيارته ، فتألـم كثيرا ، ونشر بيانـا بالصحف يرجو فيه مـن السارق أن يرده له ، ولكنه لم يجد استجابة لرجائه . وفي أي حال فقد أعاد كتابته ، وأصدره تحت عنوان « بحيرة تانا والنيل الأزرق » ، فجاء من أمتع الوثائق التي ظهرت عن النيل . وعند طوافه بالبحيرة زار «كوراطة وزقيه» وكل الأماكن التي كان رسام وبقية الأسرى يعرفونهـا حق المعرفة . كما وقف في نفس المكان الذي وقف فيه بروس ، عند منبع أبّاي الصغير ، ثم تتبع أثره الى مساقـط « تيسيسات » . ولأول مرة في التاريخ ، عرف العالم شيـئا عن الحياة في أعمـاق هذا الوادي السحيق ، فلم يجد تشيزمان الا القليل جدا من السكان فالحرارة لا تحتمل والمكان موبوء بالملاريا ــ الا أن الحيوانـات البريـة كانت ترتاده بكثرة كأنما أتت الى هذه الأغوار السحيقة فرارا مـن الهضبة ، ومـن عليها مـن البشر . فالظباء الضخمة والريم وفرس البحر والتمساح ، كلها تكثر باعداد كبيرة ، اما الاسد في هيبته ، فـلا تقع عليه العين الا نادرا . ورأى بين آجام الدفل [1] الأبيض والطرفة ، التي تكسو الضفتين اعدادا لا حصر لها من الطيور الأثيوبية الرائعة ، كالوز البري والغرنوق والبط وابي قردان ومالك الحزين والبجـع . وعندما تندلع النيران في أعلا الغور ، علـى مستوى سطـح الارض ، ينهافت طير الخضاري نحـو الدخان ، بحثا عـن الحشرات ، فيبـدو كأنه قطع مـن الجمـر المتوهج ، سابحة في الفضاء . ثم أخذ تشيزمان في الهبوط ، مرحلة فمرحلة ، مـن منطقة الأقبـاط المسيحيين ، الى بلاد القالا ، فمنطقة الزنج الوثنيين والعرب المسلمين ، فاكتشف أن النهر يزداد جيشانه كلما تقدم في مسيره ، وأنه يندفع في هذه الأرجاء بسرعة ١٢ ميـلا في الساعة ، وانه عندما ينفذ أخيرا الى سهول السودان يكون

---

١ ــ الدفل هو ما نسميه في السودان «ورد الحمير» .
(المترجـم)

قد هبط أربعة آلاف وخمسمائة قدم ، عـن مستوى بحيرة تانا . وبعد أن يتدفق عبر شلالاته الأخيرة ، يتسع مجراه الى نحـو ثلاثمائة ياردة او اكثر . وهنا يرتاد مياهه الأهالي ليلا، في زوارق تحمل مصابيح مضاءة ليصطادوا السمك بسهامهم . وكان هناك طريق في محاذاة النيل ، يؤدي الى مدينة الروصيرص ، ظهـرت عليـه فجأة حافلتان فأجفلت بغـال تشيزمان ولاذت بالفرار نحـو الغابة : فهي ، كمعظم سكان أثيوبيا ، لم تر عربة آلية مـن قبل .

وعندما غزا الطليان أثيوبيا في سنة ١٩٣٥ ، كانت لديهم فكـرة خيالية ، في أن يقيموا سدا عند مخرج النيل الأزرق مـن بحيرة تانا ، ثم يحولوا الميـاه الى السهول الخصبة الواقعة غرب البحيرة ، وذلك عن طريق نفق يبلغ طوله ثلاثين كيلومترا . الا أن الطليان لم يبقوا بالحبشة لأكثر مـن ست سنوات ، ولم يتمخض مشروعهم عـن شيء .

وفي سنـة ١٩٤١ ، استيقظ النهـر مرة أخرى ، عندمـا ظهر هيلاسيلاسي ، ومعه جيش بريطاني ، قادما مـن السودان . واشترك في هذه الحملة كل من كانت له خبرة سابقة بأثيوبيا . فاستقر دانيال آرثر ساندفور ــ وهو زميـل للمستر تشيزمان ــ استقر متخفيـا بمنطقة بحيرة تانا ، وأقام له اتصالات بالثوار ، بينمـا كان تشيزمـان يدير جهـاز المخابرات الأثيوبية مـن الخرطـوم . وفي نفس الوقت كان ، هيلاسيـلاسي وقائد الحمـلة ــ ونجت ــ قد أخذا يزحفان مع القوة الرئيسية مـن الروصيرص ، متجهين نحـو الحبشة . وقـد استعمـلت الجمـال في هذه المرة بدلا مـن الأفيال ، فجلب لهذاالغرض نحـو عشريـن ألف جمل ، نفق معظمهـا مـن البرد علـى رؤوس الجبال . وسلكت الحملة طريقا يطل على الغور ، فلأسباب لـم توضح تماما ، أصر ونجت على تجنب المسالك المطروقة ، وأكره رجاله على شق طريقهم وسط الغابات الكثيفة . ولا يفوتنـا أن نذكـر أن ونجت كـان

رجلا غريبا في اطواره ، فقد وصفه وليم ألن «Wiliam Allen» في كتيبه الرائع الذي وضعه عن هذه الحملة ، بأنه : « بعينيه الدقيقتين الزرقاوين المتقاربتين ، اللتين تتأججان وهجا لا ينطفىء ، وبقوامه النحيل الهزيل وخطاه المتسعة ، يوحي بمنظر الوحش الذي أنهكه الصيد ، ومع ذلك فهو يتضور جوعا لفريسة الليلة المقبلة ، فكأنما هناك شيطان يطارده على مرتفعات قوجام » . ولا يسع المرء الا أن يبدي شيئا من التعجب لمفارقات التاريخ ، وخصوصا في هذا الوقت بالذات . فالبريطانيون ، وأبصارهم لا تزال متعلقة بطريق البحر الأحمر المؤدي الى الهند ، يعودون بعد سبعين سنة ، لا ليبيدوا امبراطورا ، بل ليعيدوا خليفة ثيودور الى عرشه . ولنا أن نتساءل : كيف كانت تسير الامور ، لو لم يرسل رسام في ذلك الوقت بل أرسل شخص غيره كونجت الرجل المتطرف ـ لو كان هناك رجل متطرف في ذلك الوقت ـ وعلى أي حال ، فها هم البريطانيون يشقون طريقهم عبر ميادين القتال الغابرة ، وعبر الجسور والأنهار مبددين شمل الايطاليين كلما تقدموا في زحفهم . وفي سنة ١٩٤١ ، أعيد هيلاسيلاسي الى عرشه ، امبراطور على أثيوبيا ، في عاصمته الحديثة ـ أديس أبابا ـ التي لم تكن في الوجود في عهد ثيودور . أما مجدلا فقد خيم عليها الصمت وكاد يغمرها النسيان .

وتصرمت الأربعينيات من هذا القرن ، وأقبلت الخمسينيات ، ولم يعرف شيء عن غور النيل الأزرق ، الا ما تركه تشيزمان من معلومات . فجميع المخططين ومعبدي الطرق ، كانوا يتجنبونه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . والأثيوبيون انفسهم رغم الوسائل الحديثة لمكافحة الملاريا ، كانوا يتحاشون النزول الى أعماقه ، التي ارتبطت دائما بالخرافة والشؤم . ومن وقت لآخر كانت تتردد أشاعة ، بأن الأثيوبيين قد يقدمون ، على القضاءعلى مصر والسودان ، باقامة سلسلة

مـن الخزانات على الغور ، أو حتى بتسميم ميـاه النيـل الأزرق . وقد أثير هذا الموضوع مرة أخرى ابان الغزو البريطاني لمصر في سنة ١٩٥٦ . ومـن البديهي أن هذا قول هراء ، ففيضـان النيـل الأزرق يجلب مـن الميـاه ، ما يمكنها ان تجتاح أي سد صناعي مهمـا كانـت منعتـه . وبحلول الستينيات ، كانت أثيوبيـا قد أخذت من أسباب المدنيـة الغربيـة قدرا ، أصبح مـن الضروري معه القيام بأبحـاث علمية ، لتقصي امكانيات النهر المادية . فاستجلبت لذلك فرقة من خبراء المساحة الامريكيين ، ولأول مرة أمكـن دراسة هذا الغور بشيء من التفصيـل ، وتمكـن المهندسون مـن الهبوط الى اقاصي أركانـه الخفيفة ، مستخدميـن في ذلك طائرات الهليكوبتـر .

وكان مـن حسـن حظ الكاتب أن يقضي يوما في هذه الرحلات ، فمـرت به تجربة كانت أقرب الى الرؤيا ، وأشبه بتلك اللحظة التي يضع فيها الشخص كمامة الغوص لأول مرة ، ويهبط الى قاع البحر ليستجلي خفاياه . وانطلقت بنا الطائرة من أديس ابابا في الصباح الباكر ، واتجهت نحـو النهر مباشرة ، وهو على بعد مائة ميـل منها . وكانت تحلق على ارتفاع عشرة.ياردات فقط مـن سطح الأرض ، وهو عمـل جنوني في هذه المناطق ، يدعو الى العجب . وكل ما مررنا بقرية ، كان الاهالـي يستقبلونـا حاسري الرؤوس مطأطئي الهامات ، تحية لنا ،وتمتد الهضبة المتعرجة الى مسافات شاسعة ، تتخللها أشجار الكافور ومئات المساقـط الهادرة والمجاري المتدفقة ، وهي تنهمر نحـو الوادي المتعرج الذي يبلغ عمقه نحـو الميـل أو أكثر . وبمجـرد أن وصلنا حافة الـوادي ، غاصت بنـا الطائرة ، شيئـا ، فشيئـا الى قاع الغور ، كما لـو كنا هابطين على مصعـد آلي . وكل ما هبطنا ، تكشف لنا الجانبان عـن غابات مبعثرة ، وشثور مـن الصخور السوداء المتلاصقة .

وكلما هبطت بنا الطائرة ، كلما تقارب الجانبان ، وكلما ضاقت رقعة

السمـاء مـن فوقنـا ، حتى أصبحت أخيرا أشبه بقوس رقيـق مـن الضوء . وأخيرا رفرفت بنا الطائرة فوق النهـر نفسه ، وهـو يمـوج ويهدر ، ويتثنى ويتعرج ، يتسع أحيانا ويضيق أحيانا أخرى الى ما لا يزيـد عـن المائة قدم . كل هذا ومياهه الصافيـة الداكنـة الخضرة ، تفور وتغلي ، عند كل منحنى ، فتتحول الى دوامات عنيفـة يستحيـل التفاهم معها بالقوارب . كان ذلك في شهـر ينايـر والنهر منحسر ، أما في نهاية فصل الخريف ، وعندما يحل شهـر يوليـو فسوف يعلو النهر ثلاثين قدما أخرى ، وسوف تزيد سرعته الى الضعف . هذا ، وفيما عدا مصاب الروافـد التي تتدفق في ميـاه النهـر الصافيـة ، فتصبغهـا بلون رمادي داكـن ـ فيما عدا هذه الأماكـن ، فان ضفتي الوادي عبارة عـن سلسلة مـن الشثور المتصلة ، الا أنها ليست سحيقة للدرجة التي لا يستطيع أن يتسلقها الانسان ، ولكـن من المستحيـل أن تستطيع ذلك الدواب ، كالبغال مثلا . واندفعت بنا الطائرة لبرهة مـن الزمـن في الاتجاه المضاد للتيـار ، فكان شيـئا يدعو الى البهجـة المفرطة ، أن نجد أننا ، ونحن جلوس في تلك الغرفة الصغيرة الشفافة ، نرى كل شيء امامنا كما يـراه العقاب ، فأخذنا بما رأينا حتى لم يجد الخوف طريقه الى نفوسنا . ولم نر في البداية أحدا مـن البشر في أي ركـن مـن أركان ذلك الوادي ، أما الصيد فقد كان متوفرا باعـداد لا بأس بها ـ عند الشواطيء الرملية والأماكن المنبسطة : فاللقلق وغيره مـن الطيور المائية كان يقف متحفزا بيـن الأعشاب ، والخنزيـر المائي جاثم يستقي في المستنقعات ، وهو أشد سوادا مـن تلك التربة السوداء التي يجثم عليـها . كما رأينا فحلا أو فحلين مـن فرس البحر ، أمـا التمسـاح فقد كان في كل مكان . الا ان طائرتنا الصاخبة كانت مصدر ازعاج لا حدّ له لهذه المخلوقات ، فكلما اقتربت منها الطائرة ، نفرت واختفت عـن الأنظار . غير أن نفورها هذا لم يكـن خوفا تلقائـيـا ،

كالذي ينتاب قطعان الصيد الذي تعوّد على مباغتة الصياد له ،بل كان ذعرا مريعا كالذي يصيب البشر في الكوارث الطبيعية المدلهمة ، كالزلازل ، والأعاصير العاتية ، التي قد تجتاحهم فجأة في يوم صفت سماؤه . وسرعان ما كانت تتغلب هذه القطعان على ذعرها ، بمجرد أن يختفي ذلك الأزيز الجهنمي، فتعود لرعيها مرة أخرى، كأن لم يحدث شيء اطلاقا .

وبعد برهة من الزمن وصلنا موضعا أقيم فيه جهاز الكتروني لتسجيل سرعة التيار ، ومنسوب الماء . وهنا حطت بنا الطائرة في رقعة صغيرة مستوية بالقرب من النهر ، وتوقف محرك الطائرة في اللحظة التي كنا نهم فيها بمغادرتها ، ففوجئنا بالصمت الرهيب المخيم على المكان ، وشدهنا به وبعظم الغور وعظمته . فالهواء حار كثيف ، والأدغال التي تكسو جانبي الوادي ساكنة لا حراك فيها ، كأن لم تطأ المكان قدم لبشر من قبل . ومن المعروف ، أننا في مناطق النيل السفلى ـ في السودان ومصر ـ تتجنب النيل خوفا من الأمراض المستوطنة في مياهه الهادئة ـ كالبلهارسيا والفرنديت والرمد الحاد ـ أما هنا ، في هذه المياه المتدافعة والتي لم يمسّسها بشر من قبل ، استطعنا ، أن نغتسل ونرتوي ، دون أن نخشى الامراض أو التماسيح، فالأخيرة لا توجد الا في البرك (في هذا الجزء من النيل) . وهكذا قضينا يوما كاملا مع أزيز طائرتنا ، وأخذنا ـ ابتداء من ملتقى نهر القودر ـ ننتقل من مكان لمكان كالذبابة الطنانة . الا أن ذبابتنا لا تهبط الا على شاطىء رملي ، به ما يسترعي الاهتمام ويستحق المشاهدة، ثم تستمر مرة أخرى متجهة نحو أحد المنعرجات الخفية ، حيث يتسع الوادي وتظهر قرية من القرى القليلة ، والمنعزلة عن العالم انعزالا تاما ، وكلها قرى بائسة ، يعيش أهلها كفافا على محصول هزيل من الذرة .

لقد شعرنا بشيء من الخوف ، ولكنه ليس من نوع ذلك الداء العصبي الذي يصيب الانسان في الاماكن المغلقة ، ففي كثير من الاماكن ينفرج الوادي في أعلاه ، لنحو العشر أو الخمسة عشر ميلا ، الا أنه مع ذلك ، يبعث شيئا من التبلد والقلق الذهني ، يشعر المرء بأنه في موضع غير طبيعي ، أو أنه قد تورط فعلا في إحدى المتاهات التي ذكرها «كوناندويل» (Conandoyle) ، عن العوالم المفقودة ـ حيث المستنقعات ، والوديان المجهولة ، التي كانت موئلا للحيوانات الضخمة المنقرضة كالعظايا المجنحة (Pterodactyl) والدينوسور (Dinosaur) ـ بل هناك شعور ينتاب الانسان ، بأنه قد فقد عامل الزمن فعلا ، فلا يستعيد طمأنينته الا اذا رفع بصره ، ورأى السماء صافية من فوقه .

وأخيرا عندما ظهر الكبري المعلق على طريق « دبرا مرقص » وهو الأثر الوحيد الذي يدل على وجود الانسان في تلك الفيافي الموحشة التي تمتد الى مئات الأميال ـ عندما ظهر هذا الكبري ووقعت عليه أعيننا ، شعرنا بشيء من القشعريرة ، كتلك التي تنتاب الانسان عندما ينفذ فجأة وعلى غير انتظار من غرفة حالكة الظلام الى وضح النهار . ثم اتجهنا متتبعين احد الروافد ، الى أن التقينا بمسقط تنهمر منه المياه عمودية تقريبا ، فارتفعت بنا الطائرة امام الرذاذ الأبيض المتطاير الى أن بلغنا أعلا الهضبة ، ثم عدنا الى أديس أبابا بسلام . لقد كانت هذه نظرة سطحية ، بالطبع ، الا أن ما رأيناه في هذا اليوم الواحد ، لم يره تشيزمان الا في ثماني سنوات من السفر المتواصل .

إن كثيرا من العجائب تتكشف الآن في وادي النيل ، كلما تقدم الأميركان في تنقيبهم . ففي ذات مرة ، أتيحت لهم رؤية غار بالقرب من مجدلا ، كانت به ما بين العشرين والثلاثين مومياء ملفوفة في مشمع

داكـــن ، ولكنها مبعثرة في غيـــر انتظام . ويبدو انه غار لا نهاية له ، الا أن هنـــاك فتحة أخرى في مكان ما ، ساعدت على تجديد هوائه وحفظه نقياً جافا ، كمـــا ساعدت على احتفاظ المومياء بكيانها دون أن تتعفن . أما كم مـــن الزمـــن بقيت ؟ ولمـــن كانت ؟ فلا أحد يدري . وهناك آثار للعصور الغابرة ، أخذت تتكشف مـــع تقدم التصوير الجوي . فقـــد اكتشف مثلا ، أخدود لا نهاية له ، أعرض مما يستطيع الحصان أن يقفز عبره ، يتعرج لمئات الأميال بين الوديان وفوق الجبال . فهل هو يمثل فاصلا قديما بين قبيلتيـــن ، حفره ثيودور غابر قد طواه النسيـــــان ؟ . وشيء آخر من الأهمية بمكان ، فقـــد أخذ أحد أعضاء البعثة الأمريكية للابحاث ، بضع عينات من غرين النيل الأزرق ، ــ ذلك الغرين المشهور ، الذي كنا نعتقد أن خصوبة مصر متوقفة عليه ــ فلم يستطع أن ينبت فيها أي نبات ، فبرهـــن على أنه تربة جدبة لا تنبت شيئا اطلاقا ، سواء كانت جافة أو ندية . فهل النيل الأزرق لا يتعدى أن يكون مصدر ري فقط ؟ وهل الدلتا التي يرتفع سطحها عدة بوصات في كل قرن ، تعتمد أصلا في تسميـــد محاصيلها على ما يحمـــله النيل الأبيض مـــن مدر ؟ أنها نظـــرية جديدة كل الجدة . وعلى أي حال ، لا بد ان ينزل شخص ما ، في قارب على النيل الأزرق ، ويعيش عيشة فعلية في قاع الغور ، قبل أن يتمكـــن مـــن الأجابة على هذه الاسئلة .

اما سكان أثيوبيـــا فقد تغيروا تغييرا كاملا ، حتى ليصعـــــب أن تتصور الآن ، أنهم نفس القبائل التي كانت تعيـــش في عهـــد ثيودور . والأثيوبيون قوم نحاف الأجساد ، عصبيو المزاج ، وفي طبعهم خليـــط عجيـــب من سرعة الاندفاع مع صرامة المظهـــر . والزائر لبلادهم يشعر بالدفء العاطفي الذي تتميـــز به افريقيا ، فالمصافحة تتم في تؤدة ، وتلك اليد البضة الرطبة السوداء ، وهي تقبض على يدك في رفق واسترخاء ، توحي اليـــك بأنها لا تريـــد أن تتخلى عـــن قبضتك . ومما يلفت النظر

نيهم ، تلك الطريقة التي يتبادلون بها تحيات الوداع والاستقبال . فالرجال يتبادلون القبلات السريعة على الخدين ، وهم يتمايلون ويحنون رؤوسهم أثناء ذلك ، وتتكرر هذه الحركة لخمس أو ست مرات .وقد يحدث ذلك في المطار ، وسط أزيز الطائرات ، وداخل صالة الاستقبال الرحبة ، في الوقت الذي يتوجه فيه الركاب نحو مكاتب الحجز ، في صرامة ، وهم في سراويلهم الضيقة وعباءاتهم المزركشة ، حاملين في أيديهم مظلاتهم الزاهية الألوان ومذباتهم الفخمة . كل هذا والمذياع « يلعلع » بنداءاته المختلفة . وبمجرد أن ترتقي الطائرة طيات الأثير ، تسبح في سماء هذا القطر ، الذي لا يماثله شيء في عزلته ، غير غياهب المحيط .

أنها صورة غريبة من جميع الأوجه ، ومما يزيد في غرابتها ذلك القلق الذي يرين على البلاد . أنه قلق يكاد يكون ملموسا ، يشعر المرء بأن كل هذه العواطف قد تنقلب فجأة الى بغض فعنف . ولذلك فان الأوروبيين يفضلون أن يقضوا عطلاتهم في السهول الحارة ، لأنهم ، كما يقولون ، يجدون فيها شيئا من هدوء الاعصاب .

ويستطيع المرء أن يقوم بزيارة لبحيرة تانا والنيل الأزرق ، دون عناء كبير ، فهناك طائرات محلية صغيرة ، تسير بانتظام ما بين أديس أبابا وقرية باهاردار ، على الضفة الجنوبية من بحيرة تانا . ومن ثم يمكنه أن يستأجر رمثا يحمله الى منفذ النيل من البحيرة . ثم يستأجر بغالا ودليلا ، ويقتفي طريق بروس الى منبع أباي الصغير ، حيث لا يزال الماء يتسرب من المستنقع كما رآه بروس من قبل . وبشيء من الصبر والاصرار ــ فالبغل والسرج الخشبي ليسا بالمطية المحببة لمن لم يتعودهما ــ يستطيع الانسان ، من باهاردار ان يصل الى مساقط تيسيسات بعد سير متواصل ليوم كامل . فالرحلة مجزية وتستحق هذا العناء ــ فسيرى عن بعد ، قبيل الغروب ، لألاء من الرذاذ المتصاعد كالسحب فوق الشلالات . ثم اذا

عبر النهـر سباحة على ظهور البغال ، يمكنه أن يتوجه رأسا الى الغابة الندية ، التي تقع خلف المسقط مباشرة . وهناك موقع واحد ممتـاز يستطيع أن يرى منـه الماء الهادر بأسره ، ومـن الممتع أن يقـف هناك ـ متأملا أن كان الأب لوبو قد استطاع فعلا أن يجد له مقعدا تحـت ذلك الجيشان . وأنت تعرف جيدا أنه لم يحدث أي تغيير منذ عهده ، او منذ عهد بروس ، فالرشاش المتساقط كالمطر الرذاذ الذي يبلل ملابسك حتى الجلد ، سيظل يتساقط الى الأبد ـ فقد مضى قرنان أو أكثر منذ أن تساقط على لوبو وبروس ، وها هـو ذا يتساقط عليـك الآن ، وسيتساقط أيضا على أي زائر يأتي الى هذا الموقع الرائع في وقتنـا الحاضر . هذا وقد تنعثر كتلة مـن الحطب لحظة مـن الزمن على شفتي تلك الهاوية السحيقة ، ثم تنحدر غائصة في رحلتها الطويـلة الى مصر ثم الى البحـر الأبيض المتوسط .

* * *

فهرس الاعلام

ــ ب ــ

— ت —

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ــ ح ــ

ــ خ ــ

ــ د ــ

ــ ط ــ

ــ ع ــ

ــ غ ــ

ــ ف ــ

ــ ق ــ

ــ ل ــ

ــ م ــ

ــ ن ــ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

قائمة اللوحات

فهرس

الباب الثالث

الباب الرابع

مطبعة الغريّب
شارع هوفلان ـ بيروت
هاتف ٢٤٦١٨٥